التفسير الموضوعى للقرآن

بين د . البهى والشيخ الغزالى

التفسير الموضوعى للقرآن
بين د . البهى والشيخ الغزالى

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
منشية الصدر – القاهرة
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

تقديم

يضم هذا الكتاب عدة فصول فى المقارنة بين ما وضعه د. محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق من تفسير عشرين ونيف من السور المكية، كل سورة فى كتاب مستقل، إلى جانب جزء"عمَّ" كله فى كتاب واحد، فضلا عن سورة "النساء" المدنية، وبين الكتاب الذى وضعه الشيخ محمد الغزالى فى تفسير القرآن كله تفسيرا "سُوَرِيًّا"، وإن كان كل من العالمين قد سمى تفسيره: "تفسيرا موضوعيا". وقد شملت تلك المقارنة سيرتى حياتيهما وأسلوبيهما فى الكتابة ومنهجيهما فى التفسير، إلى جانب بعض الموضوعات التى تنشغل بها الذهنية المسلمة فى العصر الحديث انشغالا خاصا، وهى موضوعات الجن والسحر والحسد والمرأة، علاوة على مقارنة تطبيقية اتخذت من تفسيرى العالمين الكبيرين لسورة "الأنعام".ميدانا لها.

ومن مفارقات القدر أنه كان هناك شيء من الجفوة بين د. البهى والشيخ الغزالى أيام تولى الأول وزارة الأوقاف حيث كان الشيخ يعمل. كما غبر علىَّ زمن كنت قريبا جدا من الشيخ أيام طلبى العلم فى المرحلة الجامعية وبعد تخرجى وعملى معيدا بآداب عين شمس، ثم باعدت الأيام والأحداث بيننا، فيشاء الله سبحانه أن يجمعنا نحن الثلاثة رغم هذا وذاك فى هذا الكتاب على يدى. والفضل كله أولا وآخرا لله سبحانه وتعالى. وأرجو أن يسد هذا الكتاب ثغرة ولو ضئيلة فى عالم التفسير والمقارنة بين المفسرين ومناهجهم.

هذا، ولم أكتف دائما بمناقشة ما كتبه العالمان الكبيران، بل كان لى، فى كل قضية من القضايا التى تناولتها وقارنت فيها بين ما كتبه ذانك العالمان، موقفى ورأيى بعد تقليبى كل قضية على جميع وجوهها مستعينا بما كتبه كبار المفسرين من كل الفرق والاتجاهات قديما وحديثا. وأرجو من مولاى الكريم ﷻ أن يتقبل عملى هذا قبولا حسنا وأن يثيبنى عنه مهما كان فيه من أخطاء وعيوب. ومن منا يخلو من الأخطاء والمعايب؟

وفى نهاية هذا التقديم لا بد من إزجاء الشكر إلى الزميل الكريم د. يسرى خضر الأستاذ بكلية أصول الدين بطنطا وتلميذه الأستاذ مضر بن حاج لإمدادهما لى ببضع عشرة سورة من السور التى فسرها د. البهى، وكذلك إلى أ. صلاح عمارة الموظف بمكتب شيخ الأزهر بالقاهرة، الذى وافانى بنسخة مصورة من تفسير د. البهى لسورة "الجن"، والأستاذ صالح صالح أحد الباحثين الذين يدرسون معى للحصول على درجة الدكتوراه، وهو فلسطينى مثقف ثقافة جيدة ورزين عاقل، وقد أرسل لى نسخة مصورة من تفسير د. البهى لسورة "الأعراف" من القدس الشريف. فلولا هذا الكرم الذى أكرمنى به هؤلاء الأصدقاء المخلصون ما كان هذا الكتاب. كتب الله لهم أجرا مضاعفا على معاونتهم لى فى ميدان العلم الكريم.

د. محمد البهى والشيخ محمد الغزالى

١– الدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد البهى: (ولد فى ٣ أغسطس ١٩٠٥م بقرية أسمانية التابعة لشبراخيت– بحيرة، وتوفى فى ١٠ سبتمبر١٩٨٢م): وزير الأوقاف المصرى الأسبق، وأحد مفكرى الإسلام فى العصر الحديث. وقد دعا إلى الإصلاح الدينى بالعودة للأصول، وتتبع نشأة الفكر الإسلامى منذ بدايته حتى الوقت المعاصر مقارنا بينه وبين غيره من المذاهب الفكرية، متصديا للأفكار الهدامة وفاضحا الاستعمار ودوره فى المجتمعات الإسلامية. وترك البهى طائفة من المؤلفات التى أغنت المكتبة الإسلامية، وأهمها كتابه "الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى"، الذى كان له الفضل فى التعريف به كمفكر إسلامى فى الأوساط العربية والإسلامية .

وكان قد أتم حفظ القرآن الكريم وهو فى العاشرة وجَوَّدَه فى دسوق فى الحادية عشرة، ثم التحق بمعهد دسوق الدينى عام ١٩١٧م حيث استمر ثلاث سنوات انتقل بعدها لمعهد طنطا الدينى، ثم إلى معهد الإسكندرية الدينى، الذى حصل منه على الشهادة الثانوية الأزهرية، وكان ترتيبه الأول على طلابه. ثم تابع دراسته فى الأزهر الشريف بالقاهرة إلى أن حصل على شهادة العالمية النظامية بعد أن تقدم إلى الامتحان من الخارج مختصرا بذلك المدة الدراسية. وكان عدد المتقدمين للامتحان ٤٠٠ طالب لم ينجح سوى أربعة منهم، وجاء ترتيبه الأول عليهم، ثم التحق بقسم التخصص فى البلاغة والأدب وحصل على درجة التخصص فى أغسطس ١٩٣١م بعد أن تقدم بأطروحته للحصول على هذه الدرجة بعنوان "أثر الفكر الإغريقى فى الأدب العربى نثرا ونظما".

وفى سبتمبر ١٩٣١م سافر إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة مبعوثا من مجلس مديرية البحيرة إحياء لذكرى الشيخ مُحَمَّد عبده، فحصل على دبلوم عال فى اللغة الألمانية عام ١٩٣٤م، وعلى الدكتورية فى الفلسفة والدراسات الإسلامية بتقدير "امتياز" من جامعة هامبورغ عام ١٩٣٦م، وكان عنوان أطروحته "الشيخ مُحَمَّد عبده والتربية القومية فى مصر". وبعد عودته لمصر عام ١٩٣٨م اشتغل بتدريس الفلسفة الإسلامية والإغريقية فى كلية أصول الدين، ثم نقل عام ١٩٥٠م إلى كلية اللغة العربية أستاذا ورئيسا لقسم الفلسفة إلى جانب اشتغاله أستاذا زائرا بجامعة ماكجل بكندا وبجامعة الرباط الحديثة وجامعة قسنطينة الجزائرية وجامعة قطر وجامعة العين بالإمارات العربية. وإلى جانب التدريس عمل د. البهى مديرا عاما للثقافة الإسلامية بالأزهر، فاهتم بنشر تراث الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، ثم عين أول مدير لجامعة الأزهر بعد صدور قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١م .

وكان قد أعرب عام ١٩٣٦م عن رأيه فى أنه لا ينبغى اقتصار الدراسة فى الأزهر على العلوم الدينية وحدها، فتحقق ما أراده عام ١٩٦٢م، إذ اشتملت الدراسة على دراسة العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها فى سبتمبر ١٩٦٢م. كما عُيّن وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر. وكان يتطلع لإنشاء شعبة خاصة فى كلية البنات باسم شعبة "الثقافة العامة" مهمتها التنوير العام فى تدبير المنزل ورعاية الأسرة، وذلك من خلال تنظيم محاضرات مفتوحة لكل ربة بيت، ولكنه لم يتمكن من تجسيد فكرته على أرض الواقع. وفى مارس ١٩٦٤م عين مرة أخرى مديرا لجامعة الأزهر فاستقال وعين أستاذا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة.

كذلك شارك البهى فى أعمال المجلس الأعلى للفنون والآداب والمؤتمر الثقافى الأول لجامعة الدول العربية بالإسكندرية عام ١٩٥٠م وفى الندوة الإسلامية العالمية بجامعة برنستون ومكتبة الكونغرس عام ١٩٥٣م والندوة الإسلامية العالمية بلاهور عام ١٩٥٨م، واختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية ومستشارا فى المؤتمر الإسلامى بالقاهرة، كما زار الملايو وإندونسيا والفلبين فى صحبة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر. وحين بلغ الستين من عمره ترك التدريس ورفض قرار مجلس الوزراء بمد خدمته خمس سنوات أخرى وآثر التفرغ للكتابة والتأليف إلى أن وافته المنية في ١٠ سبتمبر ١٩٨٢م عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما. وبعد وفاته منح اسمه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى بمناسبة الاحتفال بالعيد الألف للأزهر. كما تبرعت أسرته بمكتبته لمسجد النور بالعباسية.

وقد وقف البهى ضد تيار الفكر المادى التاريخى وأوضح مدى تخلف الفكر الماركسى اللينينى وفشله فى تحقيق العدالة الاجتماعية، وتصدى للرد على رشدى صالح حين كتب عن ابن خلدون محاولا استلهام شخصيته وتطويع أفكاره من أجل الدعوة للماركسية. وفى الوقت نفسه وجه سهام النقد للفكر الغربى الاستعمارى لرغبته فى إبقاء المسلمين فى موقع التخلف. وكان يركز على الحلول الإسلامية وليست المستوردة من الشرق أو الغرب مع الانفتاح الفكرى فى نفس الوقت والقراءة النقدية للفكر الوافد. وكان رافضا لمفهوم التجديد الذى ساد فى كتابات بعض المفكرين فى القرن العشرين من أمثال على عبد الرازق وطه حسين وغيرهم ممن تأثروا بالفكر الغربى، واعتبر هذا التجديد تقليدا للفكر الأوروبى، وتبنى فى مقابل ذلك مفهوم الإصلاح الدينى الذى قصد به رد الاعتبار للقيم الدينية، وإدحاض ما أثير حولها من افتراءات وشبهات.

وهذه قائمة بأهم أعماله:

- الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم
- الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر
- طبقية المجتمع الأوروبى وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى المعاصر

– منهج القرآن فى تطوير المجتمع
– تهافت الفكر المادى التاريخي
– من مفاهيم القرآن فى العقيدة والشريعة
– المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم
– الإسلام فى حياة المسلم
– حياتى فى رحاب الأزهر: طالبا وأستاذا ووزيرا.
– الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
– الإخاء الدينى ومجمع الأديان وموقف الإسلام
– التفسير الموضوعى للقرآن الكريم (وهو الكتاب الذى نقارن هنا بينه وبين كتاب الشيخ الغزالى المناظر)

* * *

٢– الشيخ مُحَمَّد الغزالى أحمد السقا (ولد فى قرية نكلا العنب التابعة لمركز إيتاى البارود بالبحيرة بمصر فى٢٢ سبتمبر ١٩١٧، وتوفى فى ٩ مارس ١٩٩٦): أحد أعلام الفكر الإسلامى فى النصف الثانى من القرن العشرين. وقد عرف عنه تجديده فى الفكر الدينى، وكان من المناهضين للتشدد والغلو، وجريئا فى قول ما يعتقد أنه الحق. وقد سمى الغزالى بهذا الاسم بعدما رأى والدُه فى منامه الإمام أبا حامد الغزالي يبشره بأنه سوف ينجب ولدا، واقترح عليه أن يسميه على اسمه: الغزالى.

ونشأ الغزالى فى أسرة متدينة، وله خمسة من الإخوة والأخوات، وأتم حفظ القرآن بكتّاب القرية فى العاشرة من عمره، ثم التحق بعد ذلك بمعهد الإسكندرية الدينى الابتدائى، وبقى فيه حتى حصل منه على الشهادة الثانوية الأزهرية، فانتقل إلى القاهرة سنة ١٩٣٧، والتحق بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وبدأت كتاباته فى المجلات أثناء دراسته بالسنة الثالثة فى الكلية بعد تعرفه على حسن البنّا، الذى كان يشجعه على الكتابة حتى تخرّج بعد أربع سنوات فى سنة ١٩٤١، وتخصص بعدها فى الدعوة والإرشاد حتى حصل على درجة العالمية سنة ١٩٤٣م، وعمره ست وعشرون سنة، ليبدأ بعدها رحلته فى الدعوة عبر مساجد القاهرة. وكان من أساتذته الشيخ عبد العظيم الزرقانى والشيخ محمود شلتوت والشيخ مُحَمَّد أبو زهرة والدكتور مُحَمَّد يوسف موسى وغيرهم من علماء الأزهر الشريف .

وقد سافر الشيخ الغزالى إلى الجزائر فى بداية ستينات القرن الفائت للتدريس فى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة حتى تسعينات القرن العشرين، وحصل على جائزة الملك فيصل للعلوم الإسلامية عام ١٩٨٩م. وللشيخ عشرات الكتب، التى تمتاز بسعة الأفق والعمق والأسلوب الأدبى الجذاب. وها هى ذى قائمة بما أمكن جمعه منها:

- الإسلام والأوضاع الاقتصادية
- الإسلام والمناهج الاشتراكية
- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة
- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين
- من هنا نعلم
- تأملات فى الدين والحياة
- عقيدة المسلم
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام
- فقه السيرة
- فى مركب الدعوة
- ظلام من الغرب
- جدد حياتك
- ليس من الإسلام
- من معالم الحق
- كيف نفهم الإسلام؟
- الاستعمار أحقاد وأطماع
- نظرات فى القرآن
- كيف نتعامل مع القرآن؟
- مع الله: دراسات فى الدعوة والدعاة
- معركة المصحف فى العالم الإسلامى
- كفاح دين
- الإسلام والطاقات المعطلة
- الإسلام والاستبداد السياسى
- هذا ديننا
- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين
- الجانب العاطفى فى الإسلام
- ركائز الإيمان بين القلب والعقل
- حصاد الغرور
- الإسلام فى وجه الزحف الأحمر

- قذائف الحق
- الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الرابع عشر
- فن الذكر والدعاء عن خاتم الأنبياء
- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين
- هموم داعية
- سر تأخر العرب والمسلمين
- خلق المسلم
- مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية
- الحق المر
- صيحة التحذير من دعاة التنصير
- تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع
- الدعوة الإسلامية
- المحاور الخمسة للقرآن الكريم
- الفساد السياسى
- الطريق من هنا
- جهاد الدعوة
- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث
- مستقبل الإسلام خارج أرضه
- نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم (وهو الكتاب الذى نقارن هنا بينه وبين الكتاب المناظر عند الدكتور مُحَمَّد البهى)

وتوفى رحمه الله فى التاسع من مارس عام ١٩٩٦م فى السعودية أثناء مشاركته فى مؤتمر "الاسلام وتحديات العصر"، ودفن بالبقيع بالمدينة المنورة.

مناهج التفسير وموقع التفسير الموضوعى منها

أول ما يلاحظه المطلع على المكتبة القرآنية أن كتب التفسير كثيرة كثرة هائلة، وأن هذه التفاسير تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا: فبعضها تام، أى يتناول تفسير القرآن كله لا يترك منه شيئا. وبعضها لا يتناول بالتفسير إلا بعض القرآن فقط مع تفاوت هذا البعض: فمن المفسرين من قام بتفسير سورة أو بضع سور أو آيات من هنا وهناك، مثل الشيخ مُحَمَّد عبده، الذى فسر من أول القرآن حتى الآية ١٢٥ من سورة "النساء"، إلى جانب جزء "عمَّ" وسورة "العصر"، والآيتين ٧٨– ٧٩ من سورة "النساء"، وما فيهما من تعارض ظاهرى بين المشيئة الإلهية ومشيئة البشر، والآيات ٥٢– ٥٥ من سورة "الحج"، ومؤداها أنه ما من رسول ولا نبى أرسله الله قبل رسولنا عليه السلام إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، والآية ٣٧ من سورة "الأحزاب"، التى تتحدث عن زواج نبينا الكريم من السيدة زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن ثابت، ومثل الشيخ مُحَمَّد مصطفى المراغى، الذى لم يفسر إلا سورة "لقمان" وسورة "الحجرات" وسورة "الحديد" وسورة "العصر"، والآيات الأخيرة من سورة "الفرقان" الخاصة بصفات عباد الرحمن، ومثل الشيخ عبد القادر المغربى، الذى قام بتفسير جزء "تبارك"، والدكتور شوقى ضيف، الذى له تفسير سورة "الرحمن" وبعض قصار السور (قبل أن يؤلف تفسيرا كاملا للقرآن الكريم باسم "الوجيز فى تفسير القرآن الكريم")، والدكتورة بنت الشاطئ، التى خلّفت جزأين من "التفسير البيانى للقرآن الكريم" تعرضت فيهما لتفسير عدد من السور الصغيرة مثل "البلد" و"الضحى" و"العَلَق" "والقَدْر"... إلخ، وحنفى أحمد، صاحب كتاب "التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن"، الذى يقتصر على تفسير ما له من الآيات علاقة بالعلوم الطبيعية فحسب، ومثله عبد المنعم السيد عشرى صاحب "تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم"، والمفسرين الذين اقتصروا فى تفسيرهم على آيات الأحكام دون بقية الموضوعات. ومن الذين لم يفسروا من القرآن المجيد سوى بعض سوره صاحب هذا الكتاب، الذى قام بتفسير سور "المائدة" و"التوبة" و"يوسف" و"الرعد" و"طه" و"النجم" و"الرحمن" ليس إلا، كل منها فى كتاب مستقل. وهناك من العلماء من تركوا وراءهم تفسير قسمٍ كبيرٍ من القرآن الكريم، مثل القاضى عبد الجبار، إذ له فى التفسير كتاب "تنزيه القرآن عن المطاعن"، إلا أنه لم يعرض لكل آية من كل سورة، بل كان يقف أمام الآيات التى تثير قضايا تتصل بعنوان كتابه، ويترك ما عداها، ومثل الشريف الرضى، إذ له كتاب بعنوان "حقائق التأويل فى متشابه التنزيل" تعرَّض فيه بالتحليل لكثير من آيات القرآن وما فيها من مجاز، وكأخيه المرتضَى، الذى كتب عدة بحوث مستفيضة فى بعض الآيات القرآنية ليس غير، تُعْرَف بـ"أمالى الشريف المرتضى"، وابن العربى المالكى، الذى وضع كتابا فى التفسير لم يهتم فيه إلا بالآيات التى تشتمل

على أحكام فقهية لا غير. ومثله فى هذا يوسف الثلاثى الزيدى فى كتابه: "الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة". ومن العلماء الذين لم يتركوا خلفهم تفسيرا كاملا للقرآن أيضا العلامة ابن القيم، الذى له كتاب فى التفسير اسمه: "التفسير القيم لابن القيم"، إذ قام أحد علماء الهند، وهو الشيخ مُحَمَّد أُوَيْس الندوى، بمراجعة كل تراث ذلك العالم الجليل واستخلص منه ما كان قد كتبه فى التفسير، فحصل من ذلك كتاب كبير من ٦٥٠ صفحة، وكذلك مُحَمَّد بن الحسين السلمى الصوفى الذى له كتاب اسمه: "حقائق التفسير" لم يتناول فيه كل الآيات القرآنية بل وقف أمام بعضها وترك البعض الآخر، ونجم الدين داية، وهو صوفى أيضا، وله تفسير بعنوان "التأويلات النجمية" مات قبل أن يتمه، فأتمه علاء الدين السمنانى، وهو نفسه ما وقع لجلال الدين المحلاوى، الذى عاجلته منيّته قبل أن يُتِمّ تفسيره للقرآن، وكان قد وصل به إلى منتصف الكتاب الكريم تقريبا، فجاء جلال الدين السيوطى وأكمل المسيرة حتى بلغ بها نهاية كتاب الله، وهو التفسير المسمى: "تفسير الجلالين"، وشيخ الإسلام ابن تيمية، الذى جمع إياد القيسى ورفاقه ما كان قد خطه من تفسير للقرآن فى كتبه ومخطوطاته، بالإضافة إلى كتب تلاميذه كابن القيم وابن كثير، ومثل الشيخ رشيد رضا، الذى تابع تفسير القرآن من حيث انتهى مُحَمَّد عبده إلى أن بلغ به منتصف سورة "يوسف" فى مجلدات عشرة كبيرة تفيض بالعلم فيضا وتضم من المعارف المتنوعة ما لا يقدره قدره إلا العلماء الأفذاذ، وكالشيخ عبد الحميد بن باديس صاحب "مجالس التذكير فى كلام الحكيم الخبير"، وكالشيخ محمود شلتوت، الذى له تفسير الثلث الأول من القرآن العظيم، وكالأستاذ مُحَمَّد لطفى جمعة، الذى ألف كتابا فى التفسير لم يتعرض فيه لكل آية من كل سورة، بل الآيات التى رأى أن بمستطاعه الإدلاء بآراء عصرية فى تفسيرها، سواء من الناحية العقيدية أو الاجتماعية أو القانونية أو العلمية. وهذا الكتاب لم يصدر فى حياة صاحبه، بل أصدره ابنه المستشار رابح لطفى جمعة رحمه الله عام ١٩٩١م، أى بعد وفاة والده بنحو أربعين عاما، وأعطاه عنوان "نظرات عصرية فى القرآن الكريم". وهو يقع فى أكثر من خمسمائة وخمسين صفحة. ولكاتب هذه السطور دراسة مفصلة فى عشرات الصفحات لهذا التفسير تشغل فصلا كاملا من كتابى: "مُحَمَّد لطفى جمعة: كاتب من جيل العمالقة".

وأيضا لصاحب الكتاب الذى بيد القارئ الآن، كما سلف القول، تفسير لعدد من سور القرآن هى "المائدة" و"التوبة" و"يوسف" و"الرعد" و"طه" و"النجم" و"الرحمن"، وكل منها قد صدر فى كتاب مستقل. ويلاحظ القارئ أن منهجى فى معالجة التفسير فى تلك الكتب، ما عدا دراستى لسورة "التوبة" التى كنت فيها أقرب ما أكون إلى الطريقة التقليدية، مختلف عما أعرفه من تفاسير. ذلك أنى لم أتناول الآيات فى تلك السور واحدة بعد الأخرى، ولا طائفة منها بعد طائفة إلى أن أفرغ من السورة كلها، بل قسمت كل كتاب إلى عدة فصول متناولا فى كل

فصل موضوعا من الموضوعات المتعلقة بالسورة: فهذا فصل خاص بالسمات الأسلوبية فى السورة: سواء منها ما يميزها عن غيرها من السور أو ما ينبئ عن مكيتها أو مدنيتها. وهذا فصل خاص بقضية من القضايا التشريعية أو العقيدية التى تثيرها السورة يليه فصل آخر خاص بقضية أخرى من تلك القضايا، وهكذا دواليك. وهذا فصل خاص بالمقارنة بين بعض موضوعات السورة ونظيرتها فى العهد القديم...إلخ. كما أننى لم أقتصر على المصادر والمراجع العربية الإسلامية فقط، بل أضفت إليها ما أتيح لى من كتب التفسير الإسلامية غير العربية، وترجمات القرآن التى عملها المستشرقون. وكذلك لم أكن أورد شيئا من الروايات أو الآراء إلا وناقشته وقلبته على كل وجوهه وأبنت رأيى فيه بوضوح مهما يكن قائله، معتمدا على الروح العام للقرآن والإسلام، والنصوص القرآنية، والأحاديث الصحيحة، ومنطق العقل، وحقائق العلم...

فمثلا تجرى الفصول فى كتابى: "سورة المائدة: دراسة أسلوبية فقهية مقارنة" هكذا: "دراسة السورة أسلوبيا"، "مقارنة بين سورة المائدة وأسفار الكتاب المقدس"، "القضايا التى تعرضت لها السورة: ١- أهل الكتاب. ٢-الأحكام التشريعية فى السورة. ٣- الردة"، "ملاحظات فى تفسير السورة". أما كتابى: "سورة طه: دراسة لغوية أسلوبية مقارنة" فعناوين فصوله كالتالى: "مكية السورة"، "موضوعات السورة وبناؤها"، "مقارنة بين قصة موسى فى القرآن والعهد القديم"، "ملاحظات فى تفسير السورة"، "مسائل لغوية وأسلوبية فى السورة"، "بين سورة طه وسورة الأعلى".

كذلك تختلف الكتب التى تتعرض لشرح القرآن باعتبار آخر: فمنها الموجز، ومنها المبسوط، ومنها الوسط بين هذا وذاك. ونبدأ بالموجز، وهو نوعان: الأول، وهو التفاسير التى لم تتناول القرآن كله آية آية، بل اكتفت بما رأى مؤلفوها أنه هو وحده الذى يحتاج إلى شرح. وهى كتب غريب القرآن، التى أخذ مؤلفوها على عاتقهم تقديم شرح لما رأوا أنه بحاجة إلى الشرح والتوضيح من ألفاظ القرآن المجيد، مركزين عادة على التفسير اللغوى، فلا نحو ولا صرف ولا بلاغة ولا أسباب نزول ولا ناسخ ومنسوخ ولا تعرُّض لما تحتويه السورة أو الآية من قضايا فقهية أو عقيدية إلا فى الندرة... ويقوم ترتيب الكلمات القرآنية فى هذه الكتب إما على ترتيبها فى السور سورة وراء سورة، وإما على نظام الألفباء.

ومن الذين ألفوا فى هذا الباب أبان بن تغلب البكرى، والكسائى، ومؤرّج السدوسى، ويحيى بن المبارك، والنضر بن شميل، وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى، والأخفش الأوسط، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن سلام الجُمَحِىّ، ومُحَمَّد بن عبد الله بن قادم، وابن اليزيدى، وابن قُتَيْبة (غريب القرآن)، وثعلب، ومُحَمَّد بن الحسن بن دينار، وأحمد بن مُحَمَّد بن يزداد الطبرى، ومُحَمَّد بن عُزَيْز السجستانى (غريب القرآن)، والراغب الأصفهانى (المفردات فى غريب القرآن)، ومكى بن

أبى طالب (تفسير المشكل من غريب القرآن)، ومُحَمَّد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، وابن السمين الحلبى (مفردات القرآن)، والماردينى (بهجة الأريب فى بيان ما فى كتاب الله من الغريب)، وابن الجوزى (تذكرة الأريب)، وأبو حيان (تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب)، وعبد الباقى اليمانى (الترجمان)، والصنعانى (غريب القرآن)، وزين الدين العراقى (وله منظومة فى ذلك من ألف بيت)، ومصطفى بن حنفى الذهبى المصرى (تفسير غريب القرآن العظيم)، وابن الهائم المصرى، ومُحَمَّد فؤاد عبد الباقى، ومجمع اللغة العربية بمصر (معجم ألفاظ القرآن الكريم)، وحسنين مُحَمَّد مخلوف (كلمات القرآن: تفسير وبيان)، والميرزا محسن آل عصفور (القاموس الوجيز لمعانى كلمات القرآن الكريم)، ونديم الجسر (غريب القرآن ومتشابهه)، ومحمود شيت خطاب (المصطلحات العسكرية فى القرآن الكريم)، ومُحَمَّد الصادق عرجون (قاموس غريب القرآن)، وإبراهيم أحمد عبد الفتاح (القاموس القويم للقرآن الكريم).

وثَمَّ لون آخر من تفسير القرآن ينتمى إلى هذا النوع أيضا، وتمثله طائفة من الكتب تسمى: "كتب معانى القرآن". وهى كتب تُعْنَىَ بتفسير ما يراه مؤلفوها محتاجا إلى التفسير من آيات كل سورة على نحو موجز. أما ما لا يرونه محتاجا إلى ذلك فإنهم يتجاوزونه ولا يلتفتون له. وهذا الشرح لا يقف عند المفردات كما هو الحال فى كتب "غريب القرآن"، بل يشمل الجمل والعبارات والتراكيب والصور البلاغية. وفى العادة لا تلفتت تلك الكتب إلى أسباب النزول ولا إلى الناسخ والمنسوخ ولا القضايا الكبيرة التى تتضمنها السورة. ونستطيع أن نعدّ منها ما تركه الفَرّاء، والأخفش الأوسط، والمبرّد، وثعلب، وإسماعيل بن إسحاق، وسَلَمة بن عاصم، والكسائى، وعلى بن عيسى بن داود بن الجرّاح، وعمر بن بكير، والمفضل بن سلمة، وأبو عُبَيْد القاسم بن سلام، وابن كَيْسَان، وأبو بكر بن الخياط، ومُحَمَّد بن الحسن الرُّؤَاسى، وأبو بكر الجَعْد، وأبو جعفر الرؤاسى، وقُطْرُب، ومؤرج السَّدُوسى، وواصل بن عطاء، ويونس بن حبيب، وخَلَف النحوى، وأبو معاذ بن خلف النحوى، وابن الأنبارى، وأبو عيينة بن المنهال، وأبان بن تغلب...

هذا عن النوع الأول من كتب التفسير الموجزة، أما النوع الثانى الذى يتناول فيه صاحبه السور كلها وآياتها كاملة، ولكن بإيجاز، فنستطيع أن نمثل له بتفسير الواحدى، و"مختصر تفسير الطبرى" لابن صمادح التُّجِيبى (من أهل القرنين الرابع والخامس الهجريين)، وتفسير الجلالين، وتفسير الأعقم (تُوُفِّىَ فى القرن التاسع الهجرى)، وتفسير مُحَمَّد فريد وجدى: "صفوة العرفان فى تفسير القرآن" (أو "المصحف المفسَّر")، وتفسير الدكتور مُحَمَّد البهى، و"المنتخب فى تفسير القرآن الكريم"، وهو من عمل مجمع البحوث الإسلامية، و"تيسير التفسير" للقطان، و"أيسر التفاسير" لأسعد حومد، و"أيسر التفاسير" أيضا للجزائرى.

وهناك تفاسير متوسطة كثيرة: منها تفسير الطوسى والقشيرى والنسفى والبغوى والخازن والزمخشرى والبيضاوى والسعدى، وتفسير المراغى (أحمد مصطفى المراغى)، و"التفسير الواضح" للدكتور محمد أحمد حجازى، و"التفسير الوسيط" للدكتور محمد سيد طنطاوى، وتفسير الشيخ محمد الغزالى: "التفسير الموضوعى للقرآن"، وتفسير الدكتور شوقى ضيف: "الوجيز فى تفسير القرآن الكريم". وبطبيعة الحال فإن هناك تفاوتا بين هذه التفاسير فى درجة الوسطية. أما مبسوطات التفسير فلدينا على سبيل المثال تفسير الطبرى، وتفسير الطبرسى، وتفسير الرازى، وتفسير القرطبى، وتفسير ابن عطية، وتفسير أبى حيان، وتفسير ابن كثير، وتفسير الشوكانى، وتفسير الآلوسى، وتفسير المنار، و"الجواهر فى تفسير القرآن الكريم" لطنطاوى جوهرى، وتفسير الطاهر ابن عاشور، و"تفسير الميزان" للطباطبائى، وتفسير الشنقيطى، وتفسير سيد قطب، و"التفسير القرآنى بالقرآن" لعبد الكريم الخطيب، و"التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" لسميح عاطف الزين. وما قلناه عن وجود تفاوت بين التفاسير المتوسطة فى درجة الوسطية نقوله هنا أيضا عن التفاسير المطولة، فليست كلها سواء فى الطول، وهذا شىء بديهى.

والغالب على تفاسير القرآن الكاملة أن يتناول المفسر الكتاب الكريم سورة بعد سورة، والسورة آية بعد آية، أو عبارة بعد عبارة، وربما كذلك كلمة بعد كلمة، كل ذلك فى خط مستقيم حتى ينتهى من السورة فالتى بعدها فالتى بعدها... وهكذا دواليك حتى يفرغ من تفسير القرآن كله. ويسمى هذا التفسير بـ"التفسير التجزيئى". وهذا هو الأسلوب الذى يجرى عليه الطبرى والزمخشرى والطبرسى والنسفى والخازن والبغوى وابن كثير والجلالان ورشيد رضا والطاهر بن عاشور... وهكذا، وإن كانت هناك بطبيعة الحال تنويعات داخل هذا الإطار الكلى.

وفى تفسير السيوطى (ت ٩١١ هـ) المسمَّى بـ"الدر المنثور فى التفسير بالمأثور" يقابلنا منهج آخر، إذ يكتفى ذلك العالم الكبير فى تفسيره بإيراد الأحاديث والآثار التى جاءتنا عن النبى الكريم ﷺ وصحابته وتابعيهم لا يخرج عن ذلك، سائقا تلك الروايات واحدة بعد الأخرى دون أن يصنع شيئا آخر. بل إنه، كما ذكر د. محمد حسين الذهبى، لم يهتم بتحرى الصحة فيما جمع من روايات، فخلط الصحيح والمعلول. وفى مقدمة هذا التفسير نجد السيوطى يتحدث عن الظروف التى ألفه فيها والباعث الذى حدا به إلى ذلك. قال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله: "وبعد، فلما ألفت كتاب "ترجمان القران"، وهو التفسير المسند عن رسول الله وأصحابه رضى الله عنهم، وتم بحمد الله فى مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم فى الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فخلّصت منه هذا المختصر مقتصرا فيه على متن الأثر، مصدَّرا بالعَزْو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور". ومنهج

الكتاب بهذه الطريقة منهج متفرد حتى إن الدكتور الذهبى، على سعة معرفته بكتب التفسير فى عصورها المختلفة، ليؤكد أنه، على الأقل من بين عشرات الكتب التى تناولها بالدراسة فى موسوعته المعروفة بـ"التفسير والمفسرون"، هو الكتاب الوحيد الذى اقتصر على التفسير بالمأثور خالصا لا شائبة فيه.

أما الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ) فيمزج فى طريقته بين منهج السيوطى فى إيراد الآثار والروايات وبين منهج المفسرين الآخرين الذين يتناولون ما فى النص الذى يفسرونه من لغة وفقه وقراءات وجدال كلامى وتاريخ وما إلى هذا، مستشهدا بالشعر على ما يقول كلما دعت الحاجة. وهو يورد تلك الروايات فى موضعين: الأول فى مطلع السورة، إذ يأتى بما جاء عنها من روايات تتعلق بمكيتها أو مدنيتها وسبب نزولها وما يمكن أن يكون فيها من ناسخ ومنسوخ والفضائل التى تُعْزَى لها وأسمائها. والموضع الثانى عندما ينتهى من تفسير مجموعة الآيات التى يتعرض لها، إذ هو لا يقف بكل آية بالضرورة على حدة كما يصنع معظم المفسرين، بل يفعل ما يفعله الطبرسى حسبما وضحنا قبلا. وفى هذه الحالة نراه يذكر أيضا الروايات والآثار التى وردت فى آيات القسم الذى فرغ لتوه منه.

وقد ذكر، رضى الله عنه، فى مقدمة تفسيره: "فتح القدير الجامع بين فَنَّىِ الرواية والدراية من علم التفسير" الأسباب التى حملته على انتهاج هذا الأسلوب فى تفسيره للقرآن، ذلك الأسلوب الذى يجمع بين "الرواية والدراية" حسب عبارته فقال: "إن أشرف العلوم على الإطلاق وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق وأرفعها قدرا بالاتفاق هو علم التفسير لكلام القوى القدير، إذا كان على الوجه المعتبر فى الورود والصَّدَر، غير مَشُوب بشيء من التفسير بالرأى الذى هو من أعظم الخطر. وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان قريبة إلى الأفهام والأذهان، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق، ويدرى بها من يميز بين كلام البشر وكلام خالق القُوَى والقُدَر. فمن فهم هذا استغنى عن التطويل، ومن لم يفهمه فليس بمتأهِّل للتحصيل. ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه عنه الترمذى وحسَّنه من حديث أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: "فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه". ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان العالية البنيان المرتفعة المكان، رغبت إلى الدخول من أبوابه ونشطت إلى القعود فى محرابه والكون من أحزابه، ووطَّنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة.

وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها، فأقول إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلكوا طريقين: الفريق الأول اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية. والفريق الآخر جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية راسا، وإن جاءوا بها لم يصححوا لها أساسا. وكلا الفريقين قد

أصاب، وأطال وأطاب، وإنْ رَفَعَ عمادَ بيتِ تصنيفِه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب. فإن ما كان من التفسير ثابتا عن رسول الله ﷺ، وإن كان المصير إليه متعيّنا، وتقديمه متحتّما، غير أن الذى صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف فى مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان. وأما ما كان منها ثابتا عن الصحابة رضى الله عنهم، فإن كان من الألفاظ التى قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوى بوجه من الوجوه فهو مقدَّم على غيره، وإن كان من الألفاظ التى لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم. فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذى قاله على مقتضى لغة العرب. فالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأمة. وأيضا كثيرا ما يقتصر الصحابى ومَنْ بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النَّظْم القرآنى باعتبار المعنى اللغوى، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعانى التى تفيدها اللغة العربية ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التى تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعانى والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة لا تفسير بمحض الرأى المنهى عنه. وقد أخرج سعيد بن منصور فى "سننه" وابن المنذر والبيهقى فى كتاب "الرؤية" عن سفيان، قال: ليس فى تفسير القرآن اختلاف. إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا. وأخرج ابن سعد فى "الطبقات" وأبو نعيم فى "الحِلْيَة" عن أبى قلابة، قال: قال أبو الدرداء: لا تَفْقُهُ كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها. وأخرج ابن سعد أن عليا قال لابن عباس: اذهب إليهم (يعنى الخوارج) ولا تخاصمهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسُّنّة. فقال له: أنا أعلم بكتاب الله منهم. فقال: صدقت، ولكن القرآن حمّالٌ ذو وجوه. وأيضا لا يتيسر فى كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن. ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم، وإن صح إسناده إليه. وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسك أحد الفريقين. وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو الأئمة المعتبرين. وقد أذكر ما فى إسناده ضعف إما لأن فى المقام ما يقويه أو لموافقته للمعنى العربى. وقد أذكر الحديث مَعْزُوًّا إلى راويه من غير بيان حال الإسناد لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك، كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى وغيرهم. ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفا ولا يبينونه. ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت

عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة أو الحسن. فمن وجد الأصول التى يروون عنها ويَعْزُون ما فى تفاسيرهم إليها فلينظر فى أسانيدها موفقا إن شاء الله.

واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بـ"الدر المنثور" قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ وتفاسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر. وقد اشتمل هذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يليق بالتفسير، مع اختصار لما تكرر لفظًا واتحد معنًى بقولى: "ومثله" أو "نحوه". وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية أو من الفوائد التى لاحت لى من تصحيح أو تحسين أو تضعيف أو تعقب أو جمع أو ترجيح. فهذا التفسير، وإن كبر حجمه، فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، واشتمل على ما فى كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد، وقواعد شوارد. فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة: انظر تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر فى هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب اللباب، وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب. وقد سميته: "فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير"، مستمدا من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجيا منه ﷻ أن يديم به الانتفاع، ويجعله من الذخائر التى ليس لها انقطاع".

ومما سبق يتبين لنا أن الطريقة التى يتبعها عموم المفسرين من أقدم العصور حتى الآن، هى الطريقة التى تتناول القرآن سورة سورة، وآية آية أو مجموعة بعد مجموعة من الآيات فى خط مستقيم إلى أن ينتهى المفسر من السورة فيشرع فى غيرها. ولم يحاول أحد منهم، فيما نعلم، أن يدرس بناء السورة كلها فى وحدة واحدة، إلى أن جاء سيد قطب فاجتهد فى أن يعثر فى كل سورة على البناء الذى ترتبط فيه أقسام السورة بعضها ببعض وتصبح وحدة واحدة. ذلك أنه، رحمه الله، لدن تفسيره لأية سورة، يبدأ بمقدمة طويلة يجول فيها مع موضوعاتها المختلفة محاولا الربط بينها ومبرزا الجو الذى يسودها، والمحور الذى تدور عليه من أولها إلى آخرها. فإذا فرغ من هذه المقدمة شرع فى تفسير السورة عندئذ، إلا أنه لا يتناولها آية آية كأنها حبات المسبحة كما تفعل الغالبية الساحقة من المفسرين، بل يتناولها مجموعة مجموعة من الآيات بحيث تشكّل كل واحدة من هذه المجموعات موضوعا كاملا. أى أنه إذا كان المفسرون الآخرون يتناولون القرآن آية آية، فإذا زادوا على ذلك فإنما ليتناولوا تفسير عدة آيات معا، فإن سيد قطب لا يكتفى بهذا، بل يمد يده فى أعماق السورة محاولا أن يستخرج سرها المكنون الذى يؤلف بين آياتها رغم ما قد يبدو للنظرة العجلى من تفككها. وبعد أن يستعرض موضوعات السورة المختلفة مبرزا بعض ما فيها من الجمال إبرازا سريعا يقسمها عدة أجزاء، مسميا كل جزء منها:

"حلقة أو شوطا أو جولة أو درسا"، وواقفا عند كل حلقة يطيل التأمل فيها، ويستبطن معانيها، ويتذوق حلاوتها آية آية، وكلمة كلمة كلما عن له ما يوجب ذلك، رابطا بين الكلمات فى الآيات، والآيات فى الحلقات، حتى لتبدو السورة عنده فى النهاية بناءً فكريا وفنيا متماسكا. وكثيرا ما يهتم بإبراز التناسق الفنى بين أجزاء السورة كلها، والجو النفسى الذى يهيمن عليها جميعا.

ولنأخذ مثالا يوضح ما نقول حتى لا يظل هذا الذى نقوله مجرد كلام نظرى، وليكن النموذج الذى نختاره من تفسيره لسورة "الكهف"، الذى يبدأ تناوله لها على النحو التالى: "القَصَص هو العنصر الغالب فى هذه السورة: ففى أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس. وفى وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفى نهايتها قصة ذى القرنين. ويستغرق هذا القَصَص معظم آيات السورة، فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عَشْرٍ ومائةِ آية. ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها. وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة، وبعض مشاهد الحياة التى تصور فكرة أو معنى على طريقة القرآن فى التعبير بالتصوير.

أما المحور الموضوعى للسورة والذى ترتبط به موضوعاتها ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة. فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها: فى البدء: "الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجًا * قَيِّمًا لينذر بأسا شديدا من لَدُنْه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا * ماكثين فيه أبدا * وينذر الذين قالوا: اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علمٍ ولا لآبائهم. كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم! إنْ يقولون إلا كذبا". وفى الختام: "قل: إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحَى إلى أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاءَ ربه فلْيعملْ عملا صالحا ولا يُشْرِكْ بعبادة ربه أحدا". وهكذا يتساوق البدء والختام فى إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحى، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة فى صور شتى: فى قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم: "ربُّنا ربُّ السماوات والأرض. لن نَدْعُوَ من دونه إلها. لقد قلنا إذًا شططا". وفى التعقيب عليها: "ما لهم من دونه من ولى، ولا يشرك فى حكمه أحدا". وفى قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: "أكفرتَ بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سَوَّاك رجلا؟* لكنَّ هو الله ربى، ولا أشرك بربى أحدا". وفى التعقيب عليها: "ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله، وما كان منتصرا * هنالك الوَلاية لله الحق، هو خيرٌ ثوابًا وخيرٌ عُقْبًا". وفى مشهد من مشاهد القيامة: "ويوم يقول: نادُوا شركائى الذين زعمتم.

فدَعَوْهم، فلم يستجيبوا لهم، وجعلنا بينهم مَوْبِقًا". وفى التعقيب على مشهد آخر: "أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء؟ إنا أَعْتَدْنا جهنم للكافرين نُزُلا".

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى فى استنكار دعاوَى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان، وفى توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فلْيَدَعْ أمره إلى الله: ففى مطلع السورة: "وينذرَ الذين قالوا: اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم". والفتية أصحاب الكهف يقولون: "هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة. لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بَيّنٍ!". وعندما يتساءلون عن فترة لُبْثهم فى الكهف يَكِلُون علمها لله: "قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم". وفى ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجمًا بالغيب: "سيقولون: ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسةٌ سادسهم كلبهم رجمًا بالغيب، ويقولون: سبعة، وثامنهم كلبهم. قل: ربى أعلم بعِدّتهم. ما يعلمهم إلا قليل. فلا تُمَارِ فيهم إلا مِرَاءً ظاهرا، ولا تستفتِ فيهم منهم أحدا". وفى قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التى أنكرها عليه موسى يقول: "رحمةً من ربك، وما فعلتُه عن أمرى"، فيَكِلُ الأمر فيها لله.

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة فيَرِدُ فى مواضع متفرقة حيث يردّ القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويصغّر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التى تبهر الأنظار: فكل ما على الأرض من زينة إنما جُعِل للابتلاء والاختبار، ونهايته إلى فناء وزوال: "إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لِنَبْلُوَهم أيُّهم أحسنُ عملا * وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جُرُزًا". وحِمَى الله أوسع وأرحب، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق. والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم: "وإذِ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا اللهَ فأْوُوا إلى الكهف ينشرْ لكم ربكم من رحمته، ويُهَيِّئْ لكم من أمركم مِرْفَقا". والخطاب يوجه إلى الرسول (ص) ليَصْبِر نفسه مع أهل الإيمان غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله: "واصْبِرْ نفسك مع الذين يَدْعُون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلْنا قلبَه عن ذكرنا واتَّبَع هواه، وكان أمره فُرُطًا * وقل: الحق من ربكم. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر". وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه فى وجه المال والجاه والزينة، وكيف يَجْبَه صاحبها المنتفش المنتفخ بالحق ويؤنبه على نسيان الله: "قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرتَ بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟ * لكنَّ هو الله ربى ولا أُشْرِك بربى أحدا * ولولا إذ دخلتَ جنتك قلت: ما شاء الله! لا قوة إلا بالله. إن تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالا وولدا * فعسى ربى أن يُؤْتِيَنِ خيرا من جنتك، ويرسل عليها حُسْبانا من السماء فتصبح صعيدا زَلَقًا * أو يصبح ماؤها غَوْرًا فلن تستطيع له طلبا".

وعقب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها: "واضرب لهم مَثَلَ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هَشِيمًا تَذْرُوه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا". ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابا وخيرٌ أملا". وذو القرنين لا يُذْكَر لأنه ملك، ولكن يُذْكَر لأعماله الصالحة. وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السَّدَّيْن أن يبنى لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج فى مقابل أن يعطوه مالا فإنه يردّ عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم. "قال: ما مَكَّنِّى فيه ربى خير". وحين يتم السد يردّ الأمر لله لا لقوته البشرية: "قال: هذا رحمة من ربى، فإذا جاء وعد ربى جعله دَكّاءَ، وكان وعد ربى حقا". وفى نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالا هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة، وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا: "قل: هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟ * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحَبِطَتْ أعمالهم، فلا نُقِيم لهم يوم القيامة وزنا". وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج الفكر والنظر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة.

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية فى أشواط متتابعة: تبدأ السورة بالحمد لله الذى أنزل على عباده الكتاب للإنذار والتبشير: تبشير المؤمنين، وإنذار الذين قالوا: "اتخذ الله ولدا"، وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء. ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف، وهى نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله فى الكهف هربا بالعقيدة أن تُمَسّ. ويبدأ الشوط الثانى بتوجيه الرسول (ص) أن يَصْبِر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، وأن يُغْفِل الغافلين عن ذكر الله. ثم تجيء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله، واستصغاره لقيم الأرض. وينتهى هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية. والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس، وينتهى ببيان سُنّة الله فى إهلاك الظالمين، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم. وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع، وقصة ذى القرنين الشوط الخامس. ثم تختم السورة بمثل ما بدأت: تبشيرا للمؤمنين وإنذارا للكافرين، وإثباتا للوحى وتنزيها لله عن الشريك". ثم يأخذ سيد قطب رحمه الله بعد ذلك فى الحديث عن تلك الأشواط شوطا شوطا...إلخ.

وقد نوافق بعد ذلك مفسرنا الكبير أو نختلف معه فى هذا أو ذاك، بيد أنه لا يمكننى المماراة فى أنه، فى حدود علمى، هو المفسر الوحيد الذى يعتمد هذا المنهج فى تفسيره للقرآن الكريم. صحيح أن بعضا من المفسرين القدماء كانوا يضعون نصب أعينهم، وهم يفسرون كل سورة، أن يربطوا كل آية فيها بالآية التى تليها... إلى آخر السورة، وقد يشيرون إلى الموضوع

الرئيسى الذى تدور عليه، مع حرصهم على أن يظهروا تناسُبها مع السورة السابقة عليها، ثم تناسُب السورة اللاحقة بها معها أيضا، لكن أيا منهم لم يصنع ما صنعه سيد قطب من نظرته العامة إلى السورة كلها على أنها بنية واحدة من ناحية مضمونها الفكرى وجوها النفسى جميعا، وأنها تدور حول محور واحد ينتظمها من أولها إلى آخرها، وأنها إذا قُسِّمَتْ فإلى أشواط متتابعة يتصل أحدها بالآخر كما رأينا فى النص السابق، ولا كان يشير، إذا أشار، إلى موضوع السورة كلها بهذا التفصيل الذى نجده هنا. وهو أمر طبيعى، فقد تطور الفكر والذوق والنقد الأدبى على مدى تلك القرون تطورا كبيرا.

وأشهر هؤلاء المفسرين الذين كانوا يعملون على ربط آيات السورة بعضها ببعض هو الإمام البقاعى (ت ٨٨٥ هـ) صاحب التفسير المسمى: "نَظْم الدُّرَر فى تناسب الآيات والسور". والبقاعى فى هذا التفسير حريص على ربط كل آية، بل كل جزء من آية بالذى قبلها، وعلى ربط السورة بالسورة التى قبلها والسورة التى بعدها. إلا أنه ربط جزئى لا ينظر نظرة فوقية شاملة إلى السورة كلها بحيث نبصر خطوطها العامة وترابط تلك الخطوط بعضها ببعض، كل ذلك فى ظل جو نفسى يسود السورة كلها من مبدئها إلى ختامها، فضلا عن الأسلوب الأدبى المترقرق الذى يصوغ به سيد قطب تفسيره، وفضلا عن التذوق القائم على التحليل والانطباع معا الذى يلجأ إليه سيد قطب فى التعبير عن أحاسيسه ومواجده تجاه النص القرآنى، مما لا وجود له عند البقاعى ولا عند أى مفسر قديم ممن اطلعنا على تفسيرهم، وهم ليسوا بالقليل.

إلا أن للإمام الشوكانى رأيا فى قضية تناسب الآيات ذَكَره عند تفسيره لقوله تعالى من سورة "البقرة": "والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"، إذ كتب يقول: "اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلمٍ متكلَّف، وخاضوا فى بحر لم يكلَّفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم فى فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه. وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف فجاءوا بتكلُّفات وتعسُّفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء، فضلا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعى فى تفسيره ومن تقدَّمه حسبما ذكر فى خطبته. وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقًا على حسب الحوادث المقتضِية لنزوله منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه. وكل عاقل، فضلا عن عالم، لا يشك أن هذه الحوادث المقتضِية نزولَ القرآن متخالفةٌ باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا، وتحليل أمر كان حرامًا، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع

المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحينًا فى عبادة، وحينًا فى معاملة، ووقتًا فى ترغيب، ووقتًا فى ترهيب، وآونة فى بشارة، وآونة فى نذارة، وطورًا فى أمر دنيا، وطورًا فى أمر آخرة، ومرة فى تكاليفَ آتيةٍ، ومرة فى أقاصيصَ ماضية. وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضَّبّ والنُّون، والماء والنار، والملاح والحادى؟ وهل هذا إلا مِنْ فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من فى قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور؟ فإنه إذا وَجَد أهلَ العلم يتكلمون فى التناسب بين جميع آى القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغًا معجزًا إلا إذا ظهر الوجهُ المقتضِى للمناسبة، وتبيَّن الأمرُ الموجِب للارتباط. فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون فى ذلك فوجده تكلفًا محضًا، وتعسفًا بينًا انقدح فى قلبه ما كان عنه فى عافية وسلامة. هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتبًا على هذا الترتيب الكائن فى المصحف، فكيف، وكلّ من له أدنى علم بالكتاب، وأيسر حظ من معرفته، يعلم علمًا يقينًا أنه لم يكن كذلك. ومن شك فى هذا، وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم، رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادث النبوة، فإنه ينثلج صدره، ويزول عنه الريب بالنظر فى سورة من السور المتوسطة، فضلا عن المطولة، لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت فى حوادث مختلفة، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها فى الترتيب. بل يكفى المقصِّر أن يعلم أن أول ما نزل "اقرأ باسم ربك الذى خلق" وبعده "يا أيها المدثر"، "يا أيها المزمل"، وينظر أين موضع هذه الآيات والسور فى ترتيب المصحف؟

وإذا كان الأمر هكذا، فأى معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعًا أنه قد تقدم فى ترتيب المصحف ما أنزل الله متأخرًا، وتأخر ما أنزله الله متقدمًا؟ فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة. وما أقل نفع مثل هذا، وأنزر ثمرته، وأحقر فائدته! بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات وإنفاق الساعات فى أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس. وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاءاته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التى تكون تارة مدحًا وأخرى هجاءً، وحينًا نسيبًا وحينًا رثاءً، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدى إلى ذلك المجموع فناسب بين فِقَره ومقاطعه، ثم تكلف تكلفًا آخر فناسب بين الخطبة التى خطبها فى الجهاد والخطبة التى خطبها فى الحج والخطبة التى خطبها فى النكاح ونحو ذلك، وناسب بين الإنشاء الكائن فى العزاء والإنشاء الكائن فى الهناء وما يشابه ذلك، لعُدَّ هذا

المتصدى لمثل هذا مصابًا فى عقله متلاعبًا بأوقاته عابثًا بعمره الذى هو رأس ماله، وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، وهو ركوب الأحموقة فى كلام البشر، فكيف تراه يكون فى كلام الله سبحانه، الذى أعجزت بلاغته بلغاء العرب، وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان؟ وقد علم كل مقصِّر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربى، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم فى الكلام، وجرى به مجاريهم فى الخطاب. وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتى بفنون متخالفة، وطرائق متباينة، فضلا عن المقامين، فضلا عن المقامات، فضلا عن جميع ما قاله ما دام حيًّا، وكذلك شاعرهم. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التى تعثَّر فى ساحاتها كثير من المحققين. وإنما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام. فإذا قال متكلف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف!

فَدَعْ عنك نَهْبًا صِيحَ فى حجراته وهات حديثًا ما حديث الرواحلِ"

والواقع أن هذا تشدد من الشوكانى لا مسوغ له البتة، فهو للأسف يضيّق الأمر دونما داع، إذ المسألة إنما هى مسألة ذوق لكلام الله العزيز. وإذا كان بعض المفسرين يَرَوْن أن آيات سورة ما ليست مترابطة، فقد يرى غيرهم أنها يمكن أن تكون. والعبرة حينئذ بمدى قدرتهم على إثبات ما يقولون دون اعتساف أو شطط. وأقصى ما يمكن أن يصنعه من يرى فى الأمر شططا أو اعتسافا أن يرفض ذلك. وإنه لمن الصعب علىّ أن أجد وجها لهذا الهجوم الشديد الذى يقوم على التشكيك فى عقل من يحاول ذلك وعقيدته، إذ القضية إنما هى قضية تذوق أسلوبى لا قضية اعتقاد إيمانى، مع احترامى الشديد للعالم الجليل رحمه الله، علاوة على أن كثيرا مما قاله العلماء فى ذلك هو، على أقل تقدير، كلام لا يخلو من وجاهة. ترى ماذا يمكن أن يؤخذ من ناحية العقيدة على البقاعى فى ربطه مثلا بين الحروف المقطعة: "حم عسق" التى فى أول سورة "الشورى" وبين الآية التى تليها؟ إنه يفوض الأمر فيما يقول إلى الله سبحانه، إذ يتحرز قبل أن يخط شيئا فى ذلك الربط بقوله: "والله أعلم". وأنا هنا لا أدافع عن صحة ما توصل إليه البقاعى فى مسألة الربط تلك، فقد أنتهى من مطالعة كلامه فيها إلى مخالفته. بل كل ما أنبه له هو أن ما قاله الرجل فى ذلك الموضوع يخلو تماما مما يمس الدين.

وعلى أية حال فقد تكرر من الإمام الشوكانى ذاته محاولة الربط بين آية أو بضع آيات فى سورة من السور وتلك التى تليها: ومن ذلك أنه، قبل أن يتناول بالتفسير الآيات ١٥- ١٨ من سورة "النساء"، التى تبدأ بتقرير عقوبة اللاتى يأتين الفاحشة من بنات حواء، نجده يقول: "لما ذكر سبحانه فى هذه السورة الإحسان إلى النساء وإيصال صَدُقاتهن إليهن وميراثهن مع الرجال، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف". فمن الواضح أنه هنا حريص على ربط هذه الآيات المتعلقة بتقرير حقوقهن بتلك

التى تنص على عقوبتهن إذا ما ارتكبن جرما، وهو ذاته ما رأيناه ينكره ويستنكره قبل قليل. ومنه أيضا قوله لدن انتقاله من تفسير الآيات **١٩- ٢٥** من سورة "الرعد"، وهى خاصة بالمقابلة بين المؤمنين ومصيرهم والكافرين ومآلهم فى الآخرة، إلى الآيتين اللتين تليانها: "لما ذكر الله سبحانه عاقبة المشركين بقوله: "ولهم سوء الدار" كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرًا منهم قد وفَّر الله له الرزق وبَسَط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: "الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر". فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا، ويقتِّره على من كان مؤمنًا ابتلاءً وامتحانًا، ولا يدل البسط على الكرامة، ولا القبض على الإهانة". وواضح هنا أيضا أنه يرى بين آيات السورة ترابطا، أيا كان هذا الترابط. إذن فالبحث عن الوحدة بين آيات سورةٍ ما ليس فيه ما يطعن فى دين محاوِله، وليس الأمر إلا اجتهادا مشروعا، بل مأجورا إن شاء الله قد يصيب فيه صاحبه، وقد يخطئ، وليس عليه فى كل حال من ضير. وإلى القارئ هذا المثال الثالث، وهو قول عالمنا الكبير، عند تناوله لتفسير الآية الثانية من سورة "النحل"، إن "وجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه ﷺ لما أخبرهم عن الله أنه قد قَرُبَ أمره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا فى الطريق التى علم بها رسول الله ﷺ بذلك، فأخبر أنه علم بها بالوحى على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته".

قد يقال إن الشوكانى إنما يربط بين الآيات المتجاورة. لكن هل ثم فرق بين مثل هذا الربط وبين غيره؟ وهل هناك نص شرعى يمنع هذا، ويجيز ذاك؟ فأين هو؟ كنت أرجو من ذلك المفسر الكبير أن يكون واسع الصدر كما هو حاله فيما هو أخطر من هذه القضايا. وعلى أية حال فهو مثلا فى تفسيره لسورة "النحل" كان حريصا على أن يربط كل مجموعة آيات يتناول تفسيرها معا بمجموعة الآيات السابقة عليها واللاحقة بها. أى أنه لا يحصر نفسه فى نطاق مجموعتين فقط من تلك المجموعات، بل يتسع فى كلامه ليشمل جميع آيات السورة أو معظمها. وله عبارات تتكرر فى هذا السياق، مثل: "لما فعل الله كذا فى الآيات السابقة ذَكَر كذا بعده فقال:..."، أو "ثُمّ عقب ذِكْر كذا بالحديث عن كذا" أو "لما فرغ من تعديد كذا قال:..."...إلخ.

وإلى جانب أشكال التفسير ومناهجه التى مر الحديث عنها، هناك لون آخر منها لا يقف لدى كل كلمة أو لدى كل عبارة أو لدى كل آية أو حتى لدى كل مجموعة آيات داخل السورة كالذى رأيناه فى التفسير التجزيئى، بل يتناول القرآن حسب موضوعاته المختلفة، كموضوع الألوهية مثلا أو موضوع يوم القيامة أو موضوع القضاء والقدر أو موضوع الحساب الأخروى أو موضوع العلم أو موضوع الرِّدّة أو موضوع الجنس والحب أو موضوع الحدود...إلخ. ويسمَّى هذا: "التفسير الموضوعى". وتكمن أهمية هذا الفرع من فروع التفسير فى أنه يخرج بنا من نطاق الجزئية التى قد يكون من شأنها تغيير نظرتنا إلى القرآن الكريم فلا نتنبه

إلى رؤيته العامة فى القضايا المختلفة، إلى نطاق الكلية التى تعين على الرؤية الشاملة المحيطة بكل جوانب الموضوع، وهى بكل يقينٍ رؤية أفضل وأوضح وأعمق. ومثالا على ذلك أشير إلى انقسام المتكلمين بشأن قضية الجبر والاختيار: فمنهم من جَبَّر، ومنهم من خَيَّر. والسبب هو اقتصار كل فريق على طائفة من الآيات القرآنية التى توافق نظرته. ولو أن كلا من الفريقين حشد الآيات جميعها التى تتعرض لتلك القضية ووضعها تحت عينيه وأمعن فيها النظر لكان أحجى أن يصيب وجه الحق. وليس معنى هذا أن التفسير الجزئى قليل الشأن، إذ الواقع أن التفسير الموضوعى لا يستطيع أن ينهض إلا إذا سبقه تفسير الآيات تفسيرا جزئيا، فهما إذن متكاملان لا متعارضان.

وهناك من يظن أن التفسير الموضوعى للقرآن المجيد يلغى التفسير التقليدى الذى يقف إزاء كل آية، بل كل جملة فيها وكل كلمة، وهو رأىٌ نَيِّئٌ متشنج، إذ لا يقول عاقل إن النظرة الكلية تَجُبّ النظرات الجزئية. كيف، ونحن لا نستطيع أن نكوّن حكما عاما فى أى شىء ما لم نطلع على جزئياته ونحسن معرفتها ونقترب منها ونُجِدّ النظر إليها؟ ترى كيف يمكن شراء سيارة مثلا بمجرد إلقاء نظرة عليها من بعيد تلم بشكلها العام دون الاطلاع على محركها والتأكد من قوته وصلاحيته، وجسمها والعلم بمتانته وصلابته، وكراسيها والاطمئنان إلى وثارتها وجمالها...إلخ؟ فكذلك الأمر فى تفسير القرآن، إذ كلا المنهجين يكمل الآخر ويعينه على تأدية مهمته، وبذلك يتعاضدان فى تعمق فهم الكتاب الكريم.

وقد يظن بعض الظانّين أن هذا اللون التفسيرى لم يكن له وجود لدى القدماء، إلا أن مثل هذا الظن لا أساس له فى واقع الأمر، إذ هناك كتب ودراسات كثيرة تتناول هذا الموضوع أو ذاك من القرآن الكريم، وبعض هذه الموضوعات يتعلق بالأسلوب، وبعضها يتعلق بالمضمون: فمن ذلك مثلا كتاب "التبيان فى أقسام القرآن" لابن قيم الجوزية، وكذلك ما كتبه السيوطى فى نفس هذا الموضوع فى كتابه: "الإتقان فى علوم القرآن". وممن ألفوا فيه من عصرنا جعفر السبحانى، الذى له كتاب "الأقسام فى القرآن"، وعبد الحميد الفراهى الهندى صاحب "الإمعان فى أقسام القرآن". ومن هذا اللون من الدراسات التفسيرية الموضوعية أيضا "الجُمَان فى تشبيهات القرآن" لابن ناقيا البغدادى، و"مُفْحِمات الأقران فى مُبْهَمات القرآن"، وكذلك "تناسق الدُّرَر فى تناسب السُّوَر" للسيوطى. وفى العصر الحديث وضع عبد الله مُحَمَّد الصديق الغمارى أيضا كتابا فى موضوع تناسب السور القرآنية اسمه: "جواهر البيان فى تناسب سور القرآن". وتحت عنوان "أمثال القرآن" ألف كل من القواريرى ونفْطوَيْه وابن الجُنَيْد الإسكافى والنيسابورى والماوردى وابن القَيِّم كتابا، إلى جانب من ألفوا فى ذلك الموضوع من المحدثين كالدكتور محمود بن الشريف وعبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ود. مُحَمَّد جابر الفياضى ود. مُحَمَّد حسين الصغير. وعندنا أيضا الكتب والرسائل الخاصة بموضوع "إعجاز القرآن" كالذى ألفه

الرُّمّانى والجُرْجَانى والخطّابى والباقلانى. ولابن قتيبة كتاب فى موضوع بعينه يتصل بالقرآن الكريم هو كتاب "تأويل مشكل القرآن". ومثله "كتاب المُشْكِلَيْن"، أى مُشْكِل القرآن ومُشْكِل السُّنّة، لابن العربى، وكتاب "وضح البرهان فى مُشْكِل القرآن " للغزنوى. ومن الكتب التى ظهرت فى عصرنا فى نفس الموضوع كتابا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" لمحمد الأمين بن مُحَمَّد المختار الشنقيطى، و"مُشْكِل القرآن الكريم" لعبد الله بن حمد المنصور. وثَمَّ أيضا كتب الوجوه والنظائر فى القرآن، وهى تُعْنَى بالألفاظ التى تأتى فى مواضع متعددة من القرآن الكريم لكن بمعان مختلفة. ومن تلك الكتب "إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم" للدامغانى، و"نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر" لابن الجوزى، و"الأشباه والنظائر فى الألفاظ القرآنية" للثعالبى. وينبغى ألا ننسى أن أبحاث القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والثواب والعقاب وغير ذلك مما تعج به كتب الفِرَق والملل والنحل، وهى الأبحاث التى تتكئ على آيات الكتاب المجيد، إنما تنتمى فى الواقع إلى هذا الحقل من التفسير، أى التفسير الموضوعى. ومثلها فى ذلك كتب "علوم القرآن".

وثَمَّ كتابان يلفتان الانتباه هنا بقوة، ألا وهما كتاب السيورى (ت ٨٢٦هـ) فى تفسير آيات الأحكام، وكتاب "أحكام القرآن" للشافعى من جمع البيهقى. فكل ما تقدم ذكره من الكتب إنما يتعرض لموضوع محدود واحد أو موضوعين مثلا من كتاب الله، لكنها لا تتعرض لموضوع كبير شامل كموضوع الفقه حسبما يعرضه القرآن الكريم بكل أبوابه وفى كل آياته. صحيح أن كتب تفسير الأحكام (ومنها "أحكام القرآن" لعلى بن موسى بن يزداد القمى الحنفى/ ت ٣٠٥هـ، و"أحكام القرآن" لأحمد بن مُحَمَّد الطحاوى الحنفى/ ت ٣٢١هـ، و"مختصر أحكام القرآن لإسماعيل القاضى" لبكر بن مُحَمَّد بن العلاء القشيرى المالكى/ ت ٣٤٤ هـ، و"أحكام القرآن" للجَصّاص/ ت ٣٧٠هـ، و"أحكام القرآن" لألكيا الهراسى/ ت ٥٠٤هـ، و"أحكام القرآن" لابن العربى/ ت ٥٤٣هـ، و"أحكام الراى فى أحكام الآى" لابن الصائغ الحنبلى/ ت ٧٧٦ هـ، و"الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة الناطقة" ليوسف بن أحمد الثلاثى الرازى اليمنى/ ت ٨٣٢ هـ) إنما تفعل ذات الشيء، بَيْدَ أن هذه الكتب إنما تتبع آيات الأحكام بنفس الترتيب الذى وردت به فى المصحف، بخلاف كتاب السيورى وكتاب الشافعى من عمل البيهقى، فقد رتبت فيهما تلك الآيات موضوعيا، أى حسب موضوعات كتب الفقه لا حسب موضعها من المصحف، فتحقق لهما بذلك مكانهما فى ميدان التفسير الموضوعى بجدارة. وهذه بعض أبواب كتاب السيورى نسوقها لتوضيح ما نقول: "الطهارة، أحكام الصلاة، أحكام الصوم، أحكام الزكاة، أحكام الخُمْس والأنفال، أحكام الحج، أحكام الجهاد، أحكام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، المكاسب، البيع، الدين، الرهن، الضمان، الصلح والإجارة، الشركة، المضاربة، الإيداع، العاريّة، السبق والرماية، الشُّفْعة، اللُّقْطة، الغصب،

الإقرار، الوصية، العتق، النكاح، الطلاق، النذر، العهد، اليمين، المطاعم والمشارب، المواريث، الحدود، القضاء والشهادات، القِصَاص".

وعن كتاب السيورى يقول مُحَّد واعظ زاده الخراسانى الأمين العام للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية فى مقدمة الطبعة الصادرة عن مركز الدراسات العلمية التابع لـ"المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية" من كتاب السيورى، بتحقيق السيد مُحَّد القاضى: "والذى تميّز به هذا الكتاب... أنّه مرتّب بحسب أبواب الفقه بدءًا بكتاب الطهارة، وختامًا بكتاب الجنايات والقصاص، كما أنه خاص بالآيات التى تُسْتَخْرَج منها الأحكام دون ما تعلّق بها حكم من الآيات. كما امتاز، إضافة إلى ما تقدّم، بحسن التنظيم لآيات كل باب حيث يقسّمها على أنواع، ويذكر تحت كل نوعٍ ما فيه من الآيات... ومن مميزات هذا الكتاب أيضا هو ذكر آراء المذاهب الفقهية الأُخرى، الأمر الذى يجب الالتفات إليه لمن أراد استفراغ الوسع فى استنباط الأحكام". ومثل كتاب السيورى فى ذلك كتاب "أحكام القرآن" الذى جمعه البيهقى من كتب الشافعى فى الأصول والأحكام ورتبه على أبواب الفقه كما سبق التنويه.

أما فى العصر الحديث فقد وضع مثلا سيد قطب كتابيه: "التصوير الفنى فى القرآن" و"مشاهد القيامة فى القرآن". وللدكتور شكرى مُحَّد عياد دراسةٌ جِدُّ قريبةٍ من الكتاب الأخير عن "يوم الدين والحساب فى القرآن". كما كتب د. مُحَّد عبد الله دراز "الأخلاق فى القرآن"، وهى الرسالة التى حصل بها على الدكتوريّة من فرنسا، ثم نقلها بعد ذلك إلى العربية. وثم كتاب لمحمد عزة دَرْوَزَة فى سيرة الرسول كانت نقطة انطلاقه فيه آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الرسول أو تتصل به وبحياته وشخصيته. ومن الآثار العلمية للشيخ محمود شلتوت كتاب بعنوان "منهج القرآن فى بناء المجتمع". ولعبد الوهاب حمودة كتاب عنوانه: "القرآن وعلم النفس". ومن مؤلفات العقاد: "الإنسان فى القرآن الكريم" و"المرأة فى القرآن" و"الفلسفة القرآنية" و"التفكير فريضة إسلامية". ولمحمد عبد السلام أبو النيل "بنو إسرائيل فى القرآن الكريم". وبالمثل للدكتور سيد رزق الطويل "بنو إسرائيل فى القرآن". ولراشد البراوى كتابا "القرآن والنظم الاجتماعية" و"التفسير القرآنى للتاريخ". ولإبراهيم هاشم الفلالى كتاب "لا رِقّ فى القرآن". وللدكتور أحمد أحمد بدوى كتاب "من بلاغة القرآن". وللدكتور عبد العظيم المطعنى كتاب ضخم فى "التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم". وللدكتور عفت مُحَّد الشرقاوى كتاب "بلاغة العطف فى القرآن الكريم". وللدكتور بكرى شيخ أمين "التعبير الفنى فى القرآن". ولكاتب هذه السطور كتاب بعنوان "القرآن والحديث– مقارنة أسلوبية".

وهناك عدد من البحوث والدراسات تدور حول القصة القرآنية أشهرها كتاب الدكتور مُحَّد أحمد خلف الله عن "الفن القصصى فى القرآن الكريم"، وهو الكتاب الذى كان فى الأصل رسالة علمية أعدها صاحبها للحصول على الدكتورية من جامعة القاهرة، لكنها أثارت عند

فراغه منها عام ١٩٤٧م ضجة شديدة انتهت بإلغاء تسجيل الرسالة. ومن الكتب التى تتمحور حول ذات الموضوع "قصص القرآن" لمحمد جاد المولى وزملائه، و"قصص الأنبياء" لعبد الوهاب النجار، و"القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه" لعبد الكريم الخطيب، و"القصة فى القرآن الكريم" للدكتورة مريم السباعى، و"البيان القصصى فى القرآن الكريم" لإبراهيم عوضين، و"التربية الإنسانية فى القصص القرآنى" لعبد المحسن قاسم البزاز. وهناك دراسات متعددة خاصة بالنحو القرآنى بالذات دون النحو بوجه عام. ولعبد الرزاق نوفل: "دنيا الزراعة والنبات وما فيها من آيات"، و"الإعجاز العددى للقرآن الكريم". ومثل هذين الكتابين الأخيرين كثير من الكتب والأبحاث المختصة بتفسير الآيات القرآنية التى لها اتصال بالعلوم الحديثة. ولصاحب هذه الدراسة التى فى يد القارئ كتاب بعنوان "مصدر القرآن" خصصتُ الباب الثانى منه لدراسة ثلاثة موضوعات قرآنية محددة هى ما تدل عليه الآيات القرآنية من علم إلهى شامل، وما يترقرق فيها من روح إلهى مفارق يعلو فوق الضعف البشرى ولا تنعكس فيه أفراح الرسول وأحزانه، وكذلك ما تظهره الدراسة المقارنة مع الديانات السابقة من أنه لم يتأثر بأى منها، بل كانت له شخصيته الطاغية المهيمنة الدالّة على أنه من لَدُنْ حكيم خبير. وهناك دراسات مستقلة أخرى عن الحيوان مثلا أو الرحمة أو التقوى أو الحرب أو المال أو المسؤولية الفردية أو العدل أو الجهاد أو البعث أو الآخرة أو الملائكة أو الرسل السابقين أو الكتب السماوية الأخرى فى القرآن الكريم.

وفى النهاية لا ينبغى أن يغيب عن بالنا لون من المؤلفات له أقوى الاتصال بالتفسير الذى نحن بصدده، ألا وهو المعاجم الموضوعية الخاصة بالقرآن الكريم، ومنها على التمثيل معجم المستشرق جون لابوم: "تفصيل آيات القرآن الكريم"، و"الترتيب والبيان عن تفصيل آى القرآن" لمحمد زكى صالح (الذى لم يكتف بهذا، بل أضاف إلى كثير من النصوص القرآنية التى يوردها فى أى موضوع من الموضوعات معانى المفردات التى يرى أنها بحاجة إلى شرح، جامعا بين الحسنيين، ومازجا الطريقتين: طريقة الكتب الخاصة بغريب القرآن، وطريقة الكتب التى تصنف الآيات حسب موضوعات القرآن)، و"تبويب آى القرآن من الناحية الموضوعية" للدكتور أحمد إبراهيم مهنا، و"الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم" لمحمد فارس بركات، و"دليل الباحثين فى الموضوعات القرآنية" لمحمد محمود، و"المعجم الموضوعى لآيات القرآن الكريم" لصبحى عبد الرءوف عصر، و"الفهرس الموضوعى لآيات القرآن الكريم" لمحمد مصطفى مُحَمَّد، و"المعجم المفهرس لمعانى القرآن العزيز" لمحمد بسام ورشدى الزين. وهذه المعاجم من شأنها تسهيل عملية التفسير الموضوعى للقرآن المجيد لأنها توفر للمفسر آيات كل موضوع فى مكان واحد، فتغنيه عن البحث عن تلك الآيات. وأخيرا ننهى هذه الفقرة بإيراد بعض رؤوس الموضوعات التى ذكرها مُحَمَّد زكى صالح فى كتابه: "الترتيب والبيان"، وهى "التوحيد،

أسماء الله الحسنى، مفاتيح الغيب، القضاء والقدر، غرائز النفس، مُحَمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الهجرة من مكة إلى المدينة فى أول الإسلام، الوحى، الدين السماوى واحد، باب التوبة، باب الخمر والميسر، باب المعاينة والمراهنة، باب الحدود والقصاص، باب الأيمان وكفارتها..." إلى عشرات أخرى مماثلة من تلك العناوين.

لكن ينبغى، بعد هذا كله، أن نتنبه إلى أمرين: الأول أن وجود دراسات تنتمى أو يمكن أن تنتمى، على نحو أو على آخر، إلى التفسير الموضوعى شىء، ووجود هذا المصطلح شىء آخر. فالمصطلح هو ابن العقود الأخيرة، لم يُعْرَف قبل ذلك. كما أن مفهوم هذا التفسير لم يكن واضحا فى أذهان العلماء، بل كانت أبحاثهم ودراساتهم القيمة فى هذا الميدان أشبه بمن يتنفس، لكنه لا يلقى بالا إلى عملية التنفس ذاتها ولا يضع فى ذهنه كيف تتم ولا يفكر فى الوقوف أمامها ودراستها علميا. إنما هو يمارسها بالسليقة. والبشر يتنفسون منذ أن خلقهم الله، لكنهم لم يفكروا فى أن يجعلوا هذه العملية موضوعا من موضوعات الدراسة إلا بعد ظهورهم على وجه البسيطة بدهور ودهور ودهور ودهور، أما قبل ذلك فكانوا يمارسون التنفس وحَسْب. وفرق كبير بين ممارسة الشىء ووضوح مفهومه فى الذهن وإخضاعه للدراسة واستعمال مصطلح علمى له...إلخ. ومن المعروف أن كثيرا من العلوم التى تبدو وكأنها بنت العصر الحديث قد سبق أن كتب فيها القدماء ولو على هيئة بذور وخمائر، إلا أنهم لم يكونوا على وعى بأنهم يكتبون شيئا له استقلاليته وحدوده ومفهومه ومصطلحاته. نخلص إذن إلى أن هذا اللون من الدراسات، وإن لم يكن جديدا تماما من حيث التأليف فيه، لم يكن له مع ذلك مصطلح خاص يُعْرَف به. كما لم يكن هناك تفسير كامل للقرآن يتناول كل الموضوعات التى يشتمل عليها كتاب الله أو معظمها أو عددا كبيرا منها أو يطمح إلى هذا.

هذا، وللدكتور عبد الستار فتح الله سعيد دراسة عن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم عنوانها: "المدخل إلى التفسير الموضوعى" صدرت عام ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م عن دار الطباعة والنشر الإسلامية، وهى تبدأ بمبحث نظرى يستغرق نحو مائة صفحة، أما الصفحات الباقية التى تشارف المائتين فتطبيق لما قاله فى الجزء النظرى. وقد درس فى الجزء التطبيقى خمسة موضوعات هى: "الوحدانية والتوحيد" و"المعيّة فى القرآن الكريم" و"التبعيّة فى القرآن الكريم" و"العلم والعلماء فى القرآن" و"الآخرة ومشاهدها فى القرآن". ورغم إرجاعه التفسير الموضوعى إلى العهد النبوى ذاته على اعتبار أن القرآن يحيل فى كثير من آياته إلى ما قاله فى آيات أخرى سابقة، مثلما أن الرسول عليه السلام كان أحيانا ما يحيل فى تفسير ما يتناوله من آيات إلى آيات قرآنية أخرى (ص٢٨– ٢٩)، فإنه يعود بعد بضع صفحات فيسميه بـ"هذا الفن التفسيرى الجديد"، ساردا العوامل التى يراها مسؤولة عن ظهوره فى عصرنا هذا (ص ٢٤ وما بعدها). ولو أنه نوه إلى أن ذلك النوع من التفسير، وإن لم يكن مجهولا من قبل، فإن التأصيل

له ووضع مصطلحات خاصة به شيء جديد تماما، كما أنه لم يصلنا عن علمائنا القدامى تفسير موضوعى كامل أو شبه كامل للقرآن المجيد، لكان أحجى به وأسلم، وأقمن أن يمنعه من الوقوع فى هذا التناقض. أما ما أشار إليه من تفسير موضوعى منذ عصر النبى فهو أشبه بأن يكون بذورا لما نسميه الآن بـ"التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" ليس إلا. والمثل فإن هذا الاصطلاح لم يكن معروفا من قبل على الإطلاق. ومع ذلك فإن كتاب الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد هو من الكتب المبكرة فى هذا الميدان، وإن كان قد سبقته كتب أخرى من هذا اللون ذكر هو بعضها بين مراجعه، مثل كتاب "محاضرات فى التفسير الموضوعى" لفوزى السيد عثمان (مكتبة الشعب/ ١٩٦٠م)، و"الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم" للدكتور مُحَمَّد محمود حجازى، و"البداية فى التفسير الموضوعى" للدكتور عبد الحى الفرماوى، و"التفسير الموضوعى للقرآن" للدكتور مُحَمَّد السيد الكومى.

وقد عرّف الأستاذ الدكتور التفسير الموضوعى بقوله: "هو عِلْمٌ يبحث فى قضايا القرآن الكريم المتحدة معنًى أو غايةً عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع" (السابق/ ٢٠). كما بين أهميته فى تأكيد إعجاز القرآن الكريم بطريقة تناسب العصرالحديث من خلال إبراز التوافق والتناسق بين موضوعاته الكثيرة التى كانت تنزل مُنَجَّمَةً على مدار بضع وعشرين سنة مع وجازة لفظه، وكذلك فى الوفاء بحاجة هذا العصر إلى الدين لأن ذلك الضرب من التفسير يقدّم للبشرية حلولا لمشكلاتها النفسية والاجتماعية ومعضلاتها الأخلاقية والاقتصادية مما لا يمكن أن يتحقق إلا بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن. ثم هناك أيضا تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية لأن تصنيف الآيات القرآنية الكريمة حسب موضوعاتها وتفسيرها على هذا النمط، مع إحصاء الألفاظ واستقصاء المعانى وتتبع تعدد الدلالات القرآنية فى مواضعها وموضوعاتها، من شأنه المساعدة فى بلورة علوم قرآنية جديدة وتأصيلها ودفعها نحو الاكتمال. كذلك ينبغى ألا ننسى دور هذا التفسير فى تصحيح مسار الدراسات الدينية والعربية القائمة الآن وضبطها على معايير قرآنية جامعة (المرجع السابق/ ٤٠ وما بعدها).

أما ناصر مكارم الشيرازى فله كتابان: الأول من عشرين مجلدا، واسمه "الأمثل فى تفسير كتاب الله المُنْزَل"، والثانى من عشرة مجلدات، وعنوانه: "نفحات القرآن"، وكلاهما فى التفسير الموضوعى للقرآن العزيز. وسنقف قليلا أمام الأخير، فنلاحظ أنه قد أصَّل فى مقدمته لهذا اللون من التفسير، ثم قَفَّى على ذلك بتناول عدد غير قليل من موضوعات القرآن. والكتاب متاح فى "مكتبة القرآن الكريم وعلومه" بموقع "الإمام الكاظم" على المشباك. وننظر فى المجلد السادس مثلا، وهو خاص بـ"المعاد"، فنُلْفِى فهرسه يجرى على النحو االتالى: "المقدمة. منازل الآخرة. أشراط الساعة. ظهور علامات القيامة. اقتربت الساعة. يوم تأتى السماء

بدخان مبين. العلامات التى تنذر بنهاية هذا العالم. تلاشى الجبال. انفجار البحار. الزلزال العظيم المدمر. ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب. انشقاق الاجرام السماوية. علامات بد القيامة. نفخة الصور. نفخة الموت ونفخة الحياة. ما المراد بـ "نفخة الصور" أو صرخة الموت والحياة؟ تأثير الأمواج الصوتية على الإنسان وسائر الموجودات. إجابات حول نفخة الصور. ما الفاصلة بين النفختين؟ فلسفة نفخة الصور. كتاب الأعمال. الكتاب الذى يتكلم. كتب فى عِلّيّين وأخرى فى سِجّين. الملائكة المراقِبون. كتاب صحيفة الأعمال. كتاب الأعمال فى اليمين أو فى الشِّمال. كتاب أعمالنا أمام أنظار الجمع. ماهية كتاب الأعمال. فلسفة كتاب الأعمال. أقسام كتب الأعمال. خصائص كتاب الأعمال. تجسيد الأعمال. يومئذ يرى كلٌّ عملَه. استيفاء الأعمال يوم القيامة. جزاؤكم هو أعمالكم. ذكر تجسم الأعمال فى الروايات الإسلامية. تجسم الأعمال فى منطق العقل. تجسد أخلاق وسجايا الانسان. محكمة الشهود والميزان والحساب..." إلخ.

وأود أن أنبه إلى أن ما ذكرناه هنا من العناوين الصغيرة أقل كثيرا جدا من ذلك الذى لم نذكره. والكاتب، فى كل نقطة من تلك النقاط، يشقق الكلام ويثير القضايا ويدلى بالآراء ويستشهد بالآيات القرآنية وبأحاديث الرسول وأهل البيت المتعلقة بالموضوع... وهكذا مما ينفق فيه المؤلف الصفحات تلو الصفحات كأنه سيل ينصبّ انصبابا. وإضافةً إلى هذا فإن المؤلف يشرح من مفردات النص الذى يتعرض له ما يراه محتاجا إلى الشرح.

ويذكر مُحَمَّد بن عبد العزيز الخضيرى فى بحث له منشور بموقع "المختار الإسلامى" (www.islamselect.com) تحت عنوان "مقدمة فى التفسير الموضوعى" أن هذا المصطلح "لم يظهر عَلَمًا على عِلْمٍ معين إلا فى القرن الرابع عشر الهجرى عندما قُرِّرت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر"، إلا أنه سرعان ما يستدرك قائلا إن "لبنات هذا اللون من التفسير كانت موجودة منذ عهد النبوة وما بعده"، وإنه "يمكن إجمال مظاهر وجود هذا التفسير فى الأمور التالية: ١– تفسير القرآن بالقرآن: لا ريب أن تفسير القرآن بالقرآن هو لب التفسير الموضوعى وأعلى ثمراته. وجمع الآيات التى تناولت قضية واحدة والجمع بين دلالاتها والتنسيق بينها كان أبرز ألوان التفسير التى كان النبى ﷺ يربى أصحابه عليها، فقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ فسر مفاتح الغيب فى قوله تعالى: "وعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ" (الأنعام/ ٥٩)، فقال: مفاتح الغيب خمسة: "إنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ومَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ومَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (لقمان/ ٣٤). ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التى يُظَنُّ بينها تعارضٌ. وقد وضع العلماء بعده قاعدة فى أصول التفسير تقتضى بأن أول ما يرجع إليه المفسر القرآن الكريم، إذ

ما أُجْمِل فى مكان قد فُصِّل فى آخر، وما أُطْلِق فى آية قد قُيِّد فى أخرى، وما ورد عامًّا فى سورة جاء ما يخصصه فى سورة أخرى. وهذا اللون من التفسير هو أعلى مراتب التفسير وأصدقها، إذ لا أحد أعلم بكلام الله من الله. ٢- آيات الأحكام: قام الفقهاء بجمع آيات كل باب من أبواب الفقه على حدة، وأخذوا فى دراستها واستنباط الأحكام منها، والجمع بين ما يظهر بينه التعارض، وذكروا ما نُصَّ عليه وما استُنْبِط من القرآن بطريق الإشارة والدلالة الخفية ونحو ذلك، وكله داخل تحت مسمى التفسير الموضوعى. ٣- الأشباه والنظائر: وهو اتجاهٌ نحاه بعض العلماء فى تتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة. مثال ذلك: كلمة "خير" وردت فى القرآن على ثمانية أوجه حسبما ذكره الدامغانى فى كتابه: "إصلاح الوجوه والنظائر"، وهى: المال كقوله: "إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا" (البقرة/ ١٨٠)، والإيمان كقوله: "وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ" (الأنفال/ ٢٣)، والإسلام كقوله: "مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ" (القلم/ ٢)، وبمعنى "أفضل" كقوله: "وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ" (المؤمنون/ ١٠٩)، والعافية كقوله: "وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (الأنعام/ ١٧)، والأَجْر كقوله: "لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ" (الحج/ ٣٦)، والطعام كقوله: "فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" (القصص/ ٢٤)، وبمعنى "الظفر والغنيمة والطعن فى القتال" كقوله: "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا" (الأحزاب/ ٢٥). وهذا، كما ترى، لون من التفسير الموضوعى، وهو أول وسيلة يلجأ إليها الباحثون فى البحث عن موضوعات القرآن حيث يجمعون ألفاظ ذلك الموضوع من سور القرآن ثم يتعرفون على دلالة اللفظ فى أماكن وروده. ٤- الدراسات فى علوم القرآن: اهتم العلماء بموضوعات علوم القرآن فأشبعوها، ومن بين هذه الموضوعات والدراسات لون ينصبُّ على دراسة وجمع الآيات التى لها رابطة واحدة، كآيات النسخ والقَسَم والمشكل والجدل والأمثال وغير ذلك، ومؤلفاتهم فى ذلك يعز على الباحث حصرها، وهى أشهر من أن تُذْكَر.

كل هذه الأمور والحقائق تدلنا على أن التفسير الموضوعى ليس بِدْعًا من العلوم أفرزته عقول المتأخرين، وغفلت عن الاهتمام به أفهام الأولين. لكن بروزه لونًا من التفسير له كيانه وطريقته لم يوجد إلا فى العُصُر الأخيرة تلبيةً لحاجات أهلها التى وُجِد فيها من المذاهب والأفكار كما وُجِد فيها من الآراء والموضوعات ما اضطر علماء الشريعة إلى بحثها من وجهة النظر القرآنية ليقينهم بأنه الكتاب الذى يحوى دراسةَ وعلاجَ كُلِّ موضوع يطرأ فى حياة الناس: عَلِمَه مَنْ عَلِمَه، وجَهِلَه مَنْ جَهِلَه. "أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟" (المُلْك/ ١٤)". والباحث بكلامه هذا إنما يؤكد ما قلناه آنفا من أن هذا التفسير كان معروفا منذ القديم، وإن لم يُسْتَعْمَل له الاسم الذى يُعْرَف به الآن.

وهناك تفسير للقرآن المجيد جمع فيه صاحبه بين التفسير الموضعى والتفسير الموضوعى، وهو تفسير "فتح الرحمن فى تفسير القرآن" (فى سبعة مجلدات) للشيخ عبد المنعم تعيلب. وفيه يقول حسام تمام من مقال له فى موقع "إسلام أون لاين.نت: www.islamonline.net" بعنوان "الشيخ تعيلب صاحب فتح الرحمن فى تفسير القرآن": "إذا تحدثنا عن هذا التفسير فيجب التوقف كثيرًا أمام منهجه الذى يجعله إضافة لغيره من التفاسير القديمة والحديثة، وليس مجرد استعادة أو تكرار لما سبقه. فمن حيث المنهج يمكن القول إنه تميز بالجمع بين التفسير التحليلى (بحسب ترتيب الآيات) وبين التفسير الموضوعى (بحسب مطالب القرآن)، حيث يقوم بتفسير السورة الواحدة وفق ترتيب آياتها، ثم يلحق بها ملحقًا لموضوعاتها ومطالبها. كما تميز باعتماد لغة تفسير وسيطة تسمو على لغة الكتابة اليومية (الصحافية) ودون أن تتحول إلى لغة تراثية صعبة على القارئ الحديث، وهو ما يحول بين القارئ وبين معظم كتب التفاسير القديمة".

ليس ذلك فحسب، بل إنه، طبقا لما ذكر لنا حسام تمام فى نفس المقال، قد بدأ أولا بـ"سلسلة "تفسير القرآن حسب مطالبه"، وهى سلسلةُ كتبٍ التزم فيها الشيخ تعيلب منهج التفسير الموضوعى للقرآن الكريم بحسب مطالبه، وليس بترتيب سوره. وقد قدم فيها سبعة كتب هى بالترتيب: آيات الإيمان بالله، وآيات الإيمان بالملائكة، وآيات الإيمان بالكتب، وآيات الإيمان بالرسل، وآيات الإيمان بالآخرة، وآيات الحجة على المشركين بالله، وآيات الحجة على الكافرين بالملائكة. وهى سلسلة مبسطة واضحة التزم فيها منهج الوحدة الموضوعية فى التفسير، وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية نظرًا لبساطتها والتزامها بقواعد التفسير". فالشيخ إذن يدخل ميدان التفسير الموضوعى الصافى من أوسع الأبواب.

وثَمَّ كتب أخرى فى هذا المجال نذكر منها "التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" لسميح عاطف الزين، و"التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" للدكتور مُحَمَّد سعدى فرهود، و"التفسير الموضوعى لآيات الملائكة فى القرآن الكريم" و"التفسير الموضوعى للآيات القرآنية المتعلقة بوجوب الإيمان بالأنبياء والرسل" لعبد العزيز الدردير موسى، و"دراسات فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم" للدكتور زاهر عواض الألمعى، و"نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب "الأساس فى التفسير" للشيخ سعيد حوى" من إعداد أحمد بن مُحَمَّد الشرقاوى. وهناك كذلك كتاب "مباحث فى التفسير الموضوعى" لمصطفى مسلم، وهو يتكون من مقدمة وخاتمة وخمسة فصول هى التفسير الموضوعى، ومناهج البحث فى التفسير الموضوعى: تعريفه، نشأته، تطوره، ألوانه، أهميته، علم المناسبات والتفسير، مثال تطبيقى على موضوع من خلال القرآن الكريم: الألوهية من خلال آيات القرآن الكريم، مثال تطبيقى فى تفسير سورة تفسيرًا موضوعيًّا: القيم فى ضوء سورة الكهف".

وهناك بعض كتب فى التفسير أحب أن أتريث قبالتها فى هذا السياق، ومنها التفسير الذى وضعته بنت الشاطئ لطائفة من السور القرآنية الصغيرة فى جزئين وسَمَّتْه: "التفسير البيانى للقرآن الكريم". وسبب رغبتى فى التريث عنده قولها، فى تحديد المنهج الذى اتبعته فيه، إن الأصل فى ذلك المنهج، حسبما ضبطه زوجها وأستاذها أمين الخولى فى كتابه: "مناهج تجديد"، هو "التناول الموضوعى لما يراد فهمه من كتاب الإسلام، ويبدأ بجمع كل ما فى الكتاب المحكم من سور وآيات فى الموضوع المدروس". كذلك يقتضى المنهج عندها أن "تُرَتَّب الآيات فيه على حسب نزولها لمعرفة ظروف المكان والزمان، كما يستأنس بالمرويات فى أسباب النزول من حيث هى قرائن لابست نزول الآية". وبالمثل "تُلْتَمَس الدلالة اللغوية الأصيلة التى تعطينا حس العربية للمادة فى مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية، ثم نخلص للَمْح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما فى القرآن من صيغ اللفظ وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة وسياقها العام فى القرآن كله"، وكذلك "نحتكم إلى سياق النص فى الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصا وروحا، ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص، ونتحاشى ما أُقْحِم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية وبِدَع التأويل. كما نحتكم إلى الكتاب العربى المبين المحكم فى التوجيه الإعرابى والأسرار البيانية، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين ولا نعرضه عليها، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه لتسوية قواعد الصنعة النحوية وضوابط علوم البلاغة، إذ القرآن هو الذروة العليا فى نقاء أصالته وإعجاز بيانه، وهو النص المُوَثَّق الذى لم تشبه شائبة مما تعرضت له رواية نصوص الفصحى من تحريف أو وضع. ثم إنه ليس بموضع ضرورة كالشواهد الشعرية ليجوز عليه ما يجوز عليها من تأويل" (د. عائشة عبد الرحمن/ التفسير البيانى للقرآن الكريم/ ط٦/ دار المعارف/ ١٩٨٢م/ ١٠– ١١).

ذلك أن أول ضابط من الضوابط التى ذكرتْها هنا لا يعنى سوى أن تفسيرها هو أيضا تفسير موضوعى، على حين أن ما التزمت به من الضوابط التى قالت إنها سوف تلتزم بها فى تفسيرها البيانى يخلو من هذا الضابط تماما، إذ اتبعت الأسلوب التقليدى فى السير مع آيات كل سورة آية بعد آية، بل كلمة بعد كلمة وجملة بعد جملة، مع الرجوع إلى عدد من أمهات التفسير تسترشد بها حينا، وتناقشها حينا، وتخالفها حينا، وتستدرك عليها حينا، وتضيف إليها حينا، وكذلك كتب أسباب النزول، وإن كان هناك مع ذلك ملمح مهم يميز عملها من معظم ما نعرف من تفاسير، ألا وهو الرجوع تقريبا فى كل "كلمة" تختلف فيها مع المفسرين السابقين ("كلمة" لا عبارة ولا صورة ولا تركيب) إلى المواضع القرآنية التى ورد فيها الاستعمال محل الاختلاف متخذة منها حَكَمًا نهائيا، مع استصحاب المعاجم أيضا. إلا أن هذا الملمح لا يخرجها عن التفسير التقليدى الذى يتناول القرآن سورة سورة، وآية آية، وجملة جملة، وكلمة

كلمة، إلى التفسير الموضوعى الذى يجعل وُكْده إلى تتبع موضوعات القرآن موضوعا موضوعا عبر صفحات الكتاب الكريم مهما تباعدت مواضع النصوص فى المصحف، والأوقات التى نزلت فيها من عمر النبى الكريم ﷺ.

وواضح مما تقدم أن تفسير بنت الشاطئ البيانى هو شىء آخر غير التفسير الموضوعى للقرآن. وقد رجعت بعد أن كتبت ما كتبته هنا إلى بحث "التفسير القرآنى" للدكتور مُحَمَّد رجب البيومى أتصفحه، فإذا بى أقرأ عنده أن بنت الشاطئ قد أوردت كلام الشيخ أمين الخولى فى الضوابط التى ينبغى أن يضعها المفسر نصب عينيه، لكنها "اختارت فى مجال التطبيق صغار السور من جزء "عَمَّ". أى عمدت إلى السور المستقلة، ولم تعمد للموضوع تجمعه من شتى السور كما دعا الأستاذ لذلك. كما أنها فى تفسير الكلمات نقلت أقوال المفسرين لتوازن وترجح وتختار ما يناسب. وقد تأتى بالمعنى الجديد أو المقارب لما قيل. وبذلك وقفت عند الدراسة اللغوية والبيانية وحدهما" (د. مُحَمَّد رجب البيومى/ التفسير القرآنى/ المؤسسة العربية للطبع والنشر والتوزيع/ ١٩٨٨م/ ١٤١)، فسعدتُ لهذا التوافق، وبخاصة أن بعض من رجعت إليهم قبل ذلك يتواطأون على إيراد الضوابط الخُولِيّة بوصفها الضوابط التى اتبعتها الدكتورة فى تفسيرها بالفعل، مع أن النظر فى عملها موصِّلٌ، لا بُدّ، إلى النتيجة التى توصَّلْتُ إليها وتوصَّل إليها الدكتور البيومى من قبل. ومع ذلك فإن هذا كله لا ينبغى أن يحجزنى عن الشهادة بأن جميع ما تكتبه بنت الشاطئ له مذاقه المتميز النابع من أسلوبها المحكم الجميل وطريقتها البحثية التى تعكس شخصيتها المستقلة، مع بعض الحذلقة الرجولية المحببة فى التعبير، وهو ما تنفرد به كاتبتنا بين جميع أديبات العربية، وتتربع على رؤوسهن جمعاوات بكل جدارة واستحقاق.

وللشيخ مُحَمَّد الغزالى تفسير للقرآن الكريم سماه: "نحو تفسير موضوعى لسُوَر لقرآن"، إلا أنه، رغم هذا، لا ينحو نحو التفسير الذى نحن بصدده هنا، إذ ذكر فى مقدمته أنه إنما يقصد تفسير كل سورة (لاحظ: "تفسير كل سورة"، وليس تفسير القرآن كله) تفسيرا موضوعيا. وقد يوحى كلامه فى تلك المقدمة أنه ينظر إلى طريقته هذه بوصفها شيئا جديدا يختلف عن الطريقة الشائعة فى تفسير القرآن، والتى يسميها بـ"التفسير الموضعى"، وهو التفسير الذى "يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام"، أما التفسير الموضوعى الذى يقدمه فى كتابه "فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها"، وإن عاد بعد قليل فقال إن كتاب "النبأ العظيم" للدكتور مُحَمَّد عبد الله دراز هو أول كتاب فى هذا المجال على قدر علمه، أو بنص كلامه: "أول تفسير موضوعى لسورة كاملة فيما أعتقد". ثم ذكر رحمه الله أن الباعث له على انتهاج تلك الطريقة فى التفسير هو ما أحسه من نفسه من أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير، إذ ظل يشعر رغم قراءاته الكثيرة

للقرآن أنه لم يلمس إلا المعانى القريبة منه، وأنه لا بد له من الغوص فى أعماق الآيات لإدراك ارتباطها بما قبلها وما بعدها والتعرف على السورة كلها متماسكة متساوقة، وإن أكد فى ذات الوقت أن هذا اللون من التفسير لا يغنى عن التفسير الموضعى، بل يكمل كل منهما الآخر.

مما سبق يتبين أن مصطلح "التفسير الموضوعى" عند الشيخ الغزالى يختلف عما نقصده هنا. كما أنه هو نفسه قد أقر بأن هناك من سبقه إلى التأليف فى هذا الضرب الخاص من التفسير الموضوعى، وهو د. مُحَّد عبد الله دراز. لكن لا بد من أن نضيف إلى ذلك أن سيد قطب قد أحرز فى هذا الميدان مكانة سامقة بما كتبه فى تفسيره: "فى ظلال القرآن". ولا أدرى كيف غاب هذا عن الشيخ رحمه الله، أو كيف سكت فلم يذكره مع أن سيد قطب وكتابه لا يقبلان النسيان ولا الصمت، وبخاصة فى هذا السياق وفى تلك المقدمة التى، كما قلت، قد يوحى كلام الشيخ فيها بأن عمله شىء جديد، على الأقل: من ناحية أنه قد تناول سور القرآن كلها واحدة بعد واحدة، وليس سورة واحدة كما صنع الدكتور دراز، الذى لم يفسر من القرآن إلا سورة "البقرة". كذلك فات الشيخ أن يشير فى مقدمته إلى تفسير الشيخ محمود شلتوت للأجزاء العشرة الأولى من القرآن، فهو أيضا يعتمد تفسير السورة بوصفها وحدة واحدة، ولا يتناولها تناولا تجزيئيا يقف أمام الآية بعد الآية نحوًا وفقهًا وبلاغةً وما إلى ذلك.

وبطبيعة الحال فإن كتب التفسير التى من هذا النوع ليست بالقليلة، وهو ما أردت الإشارة إليه هنا، ومنها كتبى الخمسة التى تعرّضْتُ فى كل منها لسورة من سور القرآن كما سبق القول فى هذا الكتاب. ومع ذلك فلكتاب الشيخ الغزالى طعمه الخاص لما هو معروف عن كتاباته من حلاوة الأسلوب وحرارة التعبير وتهدُّج المشاعر، مما يمتع العقل والإحساس ويستجيش الضمير. بقى أن أشير إلى أن صنيع الشيخ الغزالى فى تفسيره أقرب إلى طريقة الدكتور دراز والشيخ شلتوت منه إلى طريقة سيد قطب، إذ "الظلال" يحتوى، إلى جانب نظراته العامة فى كل سورة، معالجة لكل آية من آياتها ودراسة لما فيها من أحكام فقهية وما واكبها من أسباب استدعت نزولها، وإن لم يقف عند شىء من التفاصيل النحوية واللغوية أو يجعل ديدنه دائما تتبع ما قاله المفسرون السابقون فيها، سواء استدعى الأمر ذلك أو لا، اللهم إلا فى الحين بعد الحين.

ومع ذلك فقد يخرج الشيخ الغزالى، رحمه الله، عن التفسير الموضوعى للسورة إلى شىء من التفسير الموضوعى للقرآن كله، كما صنع مثلا عند كلامه أثناء تفسيره لسورة "البقرة" عن القتال فى الإسلام، إذ أكد أن هناك مبدأ خالدا فى الإسلام هو عدم مقاتلة المسلمين لمن لم يقاتلهم أو يبدأهم بعدوان، اتباعا لقوله تعالى فى سورة "البقرة": "وقاتِلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين"، ثم رأى أنه لا بد له فى هذا السياق من التطرق إلى ما ورد فى ذات الموضوع بسورة "التوبة" من آيات قد تُوهِم من لا يعرف طبيعة

الإسلام أنها تحض على العدوان وتناقض مِنْ ثَمَّ ما أرسته سورة "البقرة" من أحكام الحرب، مؤكدا أن الأمر بالقتال فى السورة المذكورة ليس على إطلاقه، بل للرد على قوم اعتادوا نكث العهود ولم يكونوا يكفّون عن العدوان على المسلمين وإيذائهم ومحاولة استئصال دينهم. فهى إذن لا تتعارض بتاتا مع ذلك المبدإ الخالد الذى أرسته آية سورة "البقرة". وفى هذا شىء من التفسير الموضوعى للقرآن الكريم بالمعنى الذى نقصده هنا، وإن لم يجر عليه الشيخ فى كل تفسيره، بل كان يلجأ إليه الحين بعد الحين، ودون توسع، كما فعل فى هذا الموضع.

وقد قلت إن فيما فعله الغزالى عند تفسيره لسورة "البقرة" من إشارة إلى سورة "التوبة" "شيئا" ("شيئا" فقط) من التفسير الموضوعى للقرآن، لأنه اقتصر على ما جاء فى "التوبة" ولم يتعدها إلى غيرها من السور التى عالجت موضوع القتال من جوانبه المختلفة: "آل عمران" و"النساء" و"المائدة" و"الأنفال" و"الحج" و"النور" و"الأحزاب" و"الفتح" و"مُحَمَّد" و"الحشر" و"الممتحنة" و"المنافقون" و"التحريم"، ومن ثم لم يعرض الموضوع برُمَّته من كل زواياه بغية إعطاء القارئ صورة كاملة للقضية، بل كان كل همه تقريبا إزالة التناقض الموهوم الذى يتخيله بعض المتسرعين من السطحيين القائلين بأن آية "التوبة" تُعَدّ نسخًا لمبدإ الكف عمن لا يعتدون علينا وأمرًا بمبادرة جميع الأمم الأخرى بالقتال لا لشىء إلا لأن الإسلام لا بد أن يسود الدنيا رَضِىَ الآخرون أم أبَوْا، وكذلك من ذوى النيات السيئة ممن يحبون أن يلطخوا صورة الإسلام النبيلة ويشوشوا على مبادئه الكريمة العظيمة. أما فى حديث الشيخ عن أحكام الأسرة فى سورتنا الحالية فقد كان حظ "التفسير الموضوعى للقرآن" أوفر، إذ أورد عددا من الآيات المتعلقة بتلك المسألة فى السور المختلفة رغم أنه لم يفصّل القول فيها، بل لمسها لمسا، وإن كان لمسا مهما مفيدا مع ذلك.

وإذا كان الشيخ الغزالى قد حدد تفسيره الموضوعى بأنه تفسير للسور، وليس تفسيرا للقرآن كله، فإن د. مُحَمَّد البهى لم يحدد عمله هذا التحديد رغم أنه لا يختلف عن عمل الغزالى، إذ سماه: "التفسير الموضوعى للقرآن الكريم"، مخصصا كل جزء من أجزائه لسورة من السور. وهناك فرق كبير بينه وبين الغزالى، فالأخير آنق أسلوبا، وأكثر تدقيقا فيما يكتبه من التفسير. وهناك فرق آخر بين تفسير د. البهى وتفسير الشيخ الغزالى، ألا وهو أن د. البهى لم يفسر القرآن كله، بل فسر اثنتين وعشرين سورة مكية فقط إلى جانب جزء "عَمَّ"، مع سورة واحدة من السور المدنية هى سورة "النساء"، وأخرج تفسير كل سورة فى كتاب مستقل، بينما الشيخ الغزالى قد أتم تفسير القرآن كله وأخرج تفسيره فى إحدى الطبعات على الأقل فى مجلد واحد. وهو أخصر من تفسير البهى كثيرا.

ولا يقف الالتباس عند هذا الحد، فلقد أذكر أننى قرأت للدكتور البهى فى صدر شبابى تفسيره لسورة "الجن" فألفيته، رحمه الله، يفسر معنى الجن بما يخالف المفهوم السائد لدينا نحن

المسلمين. وهأنذا بعد كل هذا العمر الطويل أعثر على مقال بعنوان "إنكار الجن من شطحات التفسير الموضوعى للقرآن" لمصطفى الوراق إبراهيم يهاجم فيه التفسير الموضوعى الذى يبدو أنه يحمّله وزر إنكار الدكتور البهى لوجود الجن بالمفهوم الشائع، لا لشيء إلا لأن د. البهى قد كتب على تفسيره أنه "تفسير موضوعى للقرآن الكريم"، وكأن أحدا من أصحاب التفسير التقليدى لم ينكر الجن، مع أن إنكار أى شيء أو إثباته يمكن أن يوجد فى أى من التفسيرين. وواضح أن كلام الدكتور البهى عن الجن والنمل وعرش ملكة سبإ فى سورة "الجن" و"النمل" يشبه مقولات القاديانيين، وهذه المقولات موجودة فى تفاسيرهم للقرآن كتفسير مولاى مُحَمَّد على والتفسير الذى أشرف على تحريره ملك غلام فريد (بالإنجليزية) وتفسير مولانا صدر الدين (بالألمانية)، وهذه التفسيرات هى تفسيرات موضعية لا موضوعية. فما قول الكاتب فى هذا؟ ثم ماذا يكون جوابه لو قلنا له إن تفسير الدكتور البهى، فوق ذلك، لا علاقة له بـ"التفسير الموضوعى للقرآن الكريم"، بل هو، كتفسير الشيخ الغزالى، يتناول كل سورة من القرآن على حدة؟ بل إن الأمر ليزيد على ذلك أن تفسيره لا يشبه تفسير الشيخ الغزالى، إذ هو بعد المقدمة التى يتناول فيها السورة إجمالا ويقف عند رؤوس الموضوعات التى تحويها يشرع فى تفسير الآيات مجموعة مجموعة، وآية آية داخل كل من تلك المجموعات متقدما من الخلف للأمام دائما. أى أنه يجمع بين التفسير المسمى خطأ بـ"الموضوعى" وبين التفسير الموضعى. فكان ينبغى أن يُقْصِيَ الكاتبُ التفسيرَ الموضوعيَّ للقرآن الكريم عن بحثه بحيث يكون انتقاده موجها للدكتور البهى لا لذلك التفسير.

وبالمناسبة فإنى أقترح أن يسمى تفسير الشيخ الغزالى وأشباهه من كتب التفسير بـ"التفسير السُّوَرِيّ"، أى التفسير الذى يتناول السورة كلها فى خطوطها العامة دون العكوف على آياتها وجملها وكلماتها آية آية، وجملة جملة، وكلمة كلمة. وقد نسبتُ إلى الجمع فى تلك التسمية حتى لا يختلط الأمر بين النسبة إلى سوريا والنسبة إلى السورة. وعندنا من نفس الوادى "نزعات شعوبية" و"مؤتمرات عُمَّالية" و"انتخابات طلابية" و"انتفاضات جماهيرية" و"أخلاق ملوكية" و"مقاس أولادى" و"قميص رجالى" و"عنب بناتى"، ولدينا فى مجال الحِرَف والصناعات "الفطائرى" و"الجواليقى" و"الجنائنى" و"الحصرى" و"القباقيبى" و"الطرابيشى" و"اللبابيدى" و"المخلَّلاتى" و"القواريرى" و"السنانيرى" و"السكاكينى" و"المواجيرى" و"الشوادفى" و"الكوالينى" و"الدواليبى" و"البراذعى" و"القواديسى" و"القراطيسى" و"الساعاتى" و"المراكبى" و"المناديلى" و"القلانسى" و"الفرائضى" و"القُلَلِيّ" و"الآلاتى" و"العجلاتى" و"الكتبى". ومن مجال الصفات لدينا "الغرائبى" و"العجائبى" و"الفضائحى" و"الأصولى" و"السطوحى" و"النجومى" و"القبورى" و"الكواكبى" و"السواحلى". ومن

الصرفيين من يجيز بكلِّ أريحيةٍ النسبةَ إلى الجمع على الإطلاق. وعلى كل حال فإن العبرة فى بعض الأحيان بالذوق اللغوى.

أما التفسير الموضوعى فهو التفسير الذى يجمع آيات كل موضوع واحد فى القرآن الكريم على اختلاف سوره ثم يربط بعضها ببعض ويفسرها معا: فالآيات التى تتناول المرأة تُجْمَع معا وتُفَسَّر معا، والآيات التى تعالج موضوع الحرب والقتال تجمع معا وتفسر معا، والآيات التى تتصل بالصلاة مثلا تجمع معا وتفسر معا... وهكذا. أما أن نتناول كل سورة من القرآن على حدة ظانين أن هذا من التفسير الموضوعى للقرآن فلا لأن السورة القرآنية قلما تدور حول موضوع واحد كسورة "يوسف" مثلا وسورة "الطلاق" وسورة "النبأ" وسورة "الانفطار" وسورة "الضحى" وسورة "القارعة".

وَعلى هذا فأنا مع د. رجب البيومى فى قوله عن تفسير د. مُحَّد البهى (فى مقال له بمجلة "الأزهر" بعنوان "الدكتور مُحَّد البهى رحمه الله تعالى مفكرا ومصلحا –٢"/ عدد شوال ١٤١٥هـ): "ومن بين ما أنتج الدكتور البهى، رحمه الله تعالى، سلسلتُه القرآنيَّة التى سمَّاها: "من التفسير الموضوعى" حيث شملت ثنتين وعشرين سورة من كتاب الله تعالى غير جزء "عَمَّ" المتمِّم لها. وقد كُنتُ أفهم أن يكون التقسيم الموضوعى عاما لا يختص بسورة واحدة، أما أن يكون التفسير الموضوعى خاصا بسورة مُعيَّنة فهذا ما لم تتضح لى وجهته السديدة إلى الآن. وأذكر أنى بسطتُ هذا الرأى فى كتابى: "التفسير القرآنى" حيث قلت (التفسير القرآني/ ص ٧٧ وما بعدها للدكتور رجب البيومى): "لقد أصدر الدكتور مُحَّد البهى، رحمه الله تعالى، أكثر من عشرين جزءا لطيفا يضمُّ كلَّ جزء تفسير سورة خاصَّة من كتاب الله، وكلها تحت عنوان" التفسير الموضوعى للقرآن الكريم". ومن هذه الأجزاء ما يشمل سورة "الأنعام ويونس ويوسف والرعد والنحل والكهف وطه والمؤمنون والشعراء والقصص والصافات والأعراف وهود وإبراهيم والحجر والإسراء ومريم والأنبياء والفرقان والنمل والعنكبوت والجن" حيث مضى فى التفسير آية آية وفق السرد المعهود فى المصحف الشريف، وزاد عليه أن بدأ كلَّ سورة بملخص لعناصرها العامَّة التى تدور حولها الجزئيَّات، إذ إنَّ أصحاب هذا الاتجاه يرون أن كل سورة قرآنية ذات وحدة موضوعية يتلمَّسون لها الأسباب بذكر العناصر التى يهتدون إليها، لتكون بمثابة دوائر تجتمع فيها جزئيات تنتهى إليها.

وأرى أن معنى التفسير الموضوعى فى هذا الاتجاه يَسْقُط سقوطا تامًّا عند الوقوف لدى عناصر السورة الواحدة لأنَّ كل سورة من سُوَر الكتاب لا تستقلُّ بموضوع خاص لا تشمله السور الأخرى. فإذا أردنا مثلا أن نُفسِّر سورة "النور" وجعلناها من أمثلة التفسير الموضوعى فإننا نترك ما يدور حول أغراضها مما جاء فى سُوَر "النساء والطلاق والأحزاب" لأنَّ جميع هذه السور تتحدث عن المرأة فى القرآن، فكيف تكون السورة الواحدة من هذه السور المشار إليها

مما يندرج تحت التفسير الموضوعي، وهي لا تشمل الموضوع بأكمله؟ نحن لا نمنع أن تُفْرَد السورة الواحدة بتفسير خاص، ولكننا نمنع أن يكون هذا الإفراد من قبيل التفسير الموضوعي، وهو منه بعيد".

أسلوبا البهى والغزالى فى تفسيريهما

أبدأ بأسلوب د. البهى بوصفه أسبق من الشيخ الغزالى فى وضع تفسيره. وأول ما ألاحظه فى هذا المجال أن أسلوبه رحمه الله يعانى من بعض الالتواءات والركاكات التركيبية بما ينتج عن ذلك أحيانا من شيء من عدم الدقة والغموض، وهو ما يمكن أن يكون دليلا على أنه لا يراجع جيدا ما يكتب، فتبقى بعض العيوب التى كان من الممكن تلافيها بشيء من الاهتمام، أو ربما لم يكن الدكتور البهى أصلا من الذين يعيرون مسألة الأسلوب اهتماما كبيرا، فأسلوبه حتى حين يعرى عن هذا العيب، وكثيرا ما يعرى، لا يشد القارئ ولا يترك انطباعا جميلا فى نفسه. إنما هو أسلوب يؤدى الغرض والسلام، وبهدوء ودون حرارة. إن القارئ ليحس أنه أمام عقل دون عاطفة تقريبا. وذلك على العكس من أسلوب الغزالى، فهو أسلوب قوى محكم جميل يشد القارئ شدا، ويحس وهو يقرأ أنه أمام أديب ذى أسلوب متميز، يسطع دفئا بل يشع حرارة فى كثير من المواضع، وتكثر فيه الصور البلاغية وتتراوح فيه الجمل بين الخبرية والإنشائية بكل أنواعهما، ويشيع فيه التعجب والتهكم والدعابة والفرح والحزن والسكينة والغضب، ويظهر فيه الغزالى حاملا هموم المسلمين مبكِّتا على الإهمال ومذكِّرا بالتقصير ومستفزًّا للهمم ومسترجعا الأمجاد الغابرة. بل إن القارئ ليشعر أحيانا وكأن الشيخ يهم بالبكاء على أحوال المسلمين التى تدمى القلوب. وبوجه عام فإن ما يكتبه الشيخ هو نتاج العقل ممزوجا برشحات قوية من العاطفة. ولا يزال يرن فى أذنى ورأسى قول الشيخ فى مقدمة كتابه: "عقيدة المسلم"، الذى قرأته له وأنا شاب صغير بعد، عن الطريقة التى اتبعها فى تأليف ذلك الكتاب: "وقد حاولت فى أثناء الكتابة عن عقيدة المسلم أن أرطِّب جفاف التفكير العقلى برشحات من المشاعر الحية". والواقع أن هذا هو أسلوبه فى كل ما كتب رحمه الله.

ولنأخذ من كتاب د. البهى على سبيل المثال هذا النص، وهو من مقدمة تفسيره لسورة "النساء": "فكانت النساء بعد موت أزواجهن يستولى الأقارب عليهن وعلى أموالهن كأنهن مما يورَث عن المتوفَّى. وكان يُستَخْدَم طريق العَضْل بالنسبة لبعض الزوجات الأخريات فلا يطلقوهن أزواجهن ولا يمسكوهن بالمعروف حملا لهن على التنازل عن بعض مهورهن أو بعض ما لديهن من الأموال. كما كانت تسترد مهور الزوجات اللاتى يرغبون عنهن وهن فى عصمتهن عند التزوج بأخريات". والصواب: "فلا يطلقهن أزواجهن ولا يمسكونهن... وهن فى عصمتهم".

ولننظر أيضا فى تفسيره للآية الأولى من سورة "النساء": "ونداء السورة الآن إلى "الناس" يدفع إلى الاستجابة إليه أنه من الله باعتباره الخالق والموجه معا للإنسان فى حياته".

فكلمة "معا" قد سبقت موضعها الذى كان ينبغى أن تكون فيه، إذ التركيب السليم هو "باعتباره الخالق والموجه للإنسان فى حياته معا". ومن ذلك أيضا قوله تعليقا على تكرار قوله تعالى فى سورة "النساء" بعد آيات المواريث: "تلك حدود الله": "ويلاحظ أن التعبير بالحدود فى القرآن يأتى عقب ما يتصل بالنساء خاصة: ما يجوز وما لا يجوز، وما يحل وما يحرم". وربما كان الأفضل والأدق أن يقول: "ويلاحظ أن عبارة "تلك حدود الله" تأتى عقب أى حكم يتعلق بأمور النساء" مثلا. وفى تعرضه لقوله تعالى فى نفس السورة: "واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم" يقول: "على أن أسلوب الآية فى ذكر الفاحشة هنا وأنها بين النساء... يرجح أنها "السحاق" وليست الزنا، فالذى يكون بين النساء خاصة كأطرافٍ بعضها مع بعض هو هذا السحاق". ولعله لو قال: "فالذى يكون من الفاحشة الجنسية بين المرأة والمرأة هو السحاق"، أما "بين النساء خاصة كأطرافٍ بعضها مع بعض" فيشبه أن يكون كلام أعاجم. ومنه قوله تفسيرا لقوله سبحانه على لسان اليهود فى الآية السادسة والأربعين من "النساء" أيضا موجهين الكلام لرسوله عليه السلام سخرية وتهكما: "واسمع غير مُسْمَع": "أى لا سمعتَ أصلا بصمم أو موت". والمقصود "أصابك الله بالصمم أو بالموت فلم تسمع" أو شىء من هذا النحو الذى به يتبين مرمى الكلام. أما عبارة د. البهى فمعناها المتبادر إلى الأذهان ألا يكون سماعه بصمم أو موت بل بشىء آخر. وطبعا ليس هذا هو المراد. وفى تناوله لقوله ﷻ: "إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" من السورة ذاتها: "والعلاقات بين الأفراد المشركين هى علاقات الانقسام والتوزيع على معبودات عديدة". وكان يمكن أن يقول على نحو أبسط من هذا كثيرا وأوضح وأنجع فى الدلالة على ما يريد: "ويقدس المشركون آلهة متعددة، لكل قبيلة إلهها خاص بها، فلا يعبد الجميع إلها واحدا" أو شيئا من هذا القبيل.

وفى أول تفسيره لسورة "الأنعام" يقول: "لكن عمى الشرك والوثنية هو الذى ينقل بعض المضللين بنعمة الله من الإيمان به وحده إلى الآخرين من الشركاء". والجملة بوجه عام كزة غامضة، فضلا عن أنه كان ينبغى أن يكتب الجزء الأخير منها هكذا: "من الإيمان بالله وحده إلى إشراك غيره به"، ويا دار، ما دخلك شر! كذلك ففى تعليقه على اتهام المشركين للقرآن الكريم فى الآية الخامسة والعشرين من هذه السورة بقولهم: "إنْ هذا إلا أساطير الأولين" يقول د. البهى: "جاؤوا إليه (أى إلى القرآن) للمغالطة فيه وإعلان الصوت النابى فى شأنه". وهو كلام متميع رجراج، إذ ما معنى "إعلان الصوت النابى فى شأنه"؟

وقبلها بأسطر يقول: "كما يفعل الماديون فى حاضرهم"، والمقصود "كما يفعل الماديون فى الوقت الحاضر". أما "فى حاضرهم" فلا تعنى وقتا محددا، إذ كل إنسان إنما يفعل ما يفعل فى حاضره بطبيعة الحال، ولكن ما موقعه من التاريخ؟ موقعه غير معروف لأن "الماديين" هنا هم الماديون بإطلاق. أما "فى الوقت الحاضر" فتحدد التاريخ تحديدا، أى فى الحاضر الذى

يكتب د. البهى هذا الكلام، وهو وقت معروف، والماديون المقصودون هم ماديو عصره. ولدن تفسيره للآية الثانية والثلاثين من "الأنعام" كذلك يقابلنا قوله: "أحقاد النفوس فى علاقة بعضها على بعض" مستبدلا حرف الجر "عَلَى" بـ"الباء" أو "مع": "فى علاقة بعضها ببعض/ بعضها مع بعض". ولدن تناوله الآية الثالثة والثلاثين من السورة ذاتها نراه يقول: "ونظرا لما يتهم به المشركون الماديون كتاب الله بالأساطير...". والعبارة المستقيمة تكون على النحو التالى مثلا: "ونظرا لاتهام المشركين الماديين كتاب الله بأنه أساطير..."، إذ ما معنى أنهم يتهمونه بالأساطير؟ هذا التواء تعبيرى ردىء.

وعند تفسير الآية الثانية والخمسين من نفس السورة: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعَشِيّ يريدون وجهه" يكتب قائلا: "لا تستنكف أيها الرسول صلوات الله عليك من هؤلاء المؤمنين الضعفاء الذين أسلموا من المشركين"، وهو كلام غير مفهوم، ولا ندرى هل المقصود أنهم كانوا مشركين فأسلموا، أم هل المقصود نهيه عن أن يستنكف منهم مراعاة للمشركين الذين يتكبرون عليهم. واضح أن العبارة ركيكة وغامضة. ثم هل الله حين يخاطب الرسول يقول له: "صلوات الله عليك" كما تكرر فى تفسير د. البهى؟ الواقع أن هذا لم يحدث البتة لا فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث القدسية. إنما هذه عبارة مدحية يقولها المسلم حين يذكر الرسول أو يذكره أحد على مسمع منه.

وتعليقا على الآيات من الرابعة والسبعين فى السورة نفسها فصاعدا نجده يقول: "وفى تذكير القرآن فى هذه السورة رسوله مُحَمَّدا عليه السلام بقصة إبراهيم ليريه نمط المحاورة التى جرت بينه وبين أعداء الله من الماديين. وفى هذه المحاورة يتجلى منطق الإنسان فى جانب إبراهيم...". وواضح أن الجملة الأولى على هذا النحو ناقصة، إذ أين مبتدأ "وفى تذكير القرآن..." أو الفعل الذى يتعلق به الجار والمجرور. واضح أن هذا من أثر العجلة فى الكتابة وعدم المراجعة المدققة. وربما كان يريد أن يقول: "وقد ذكر القرآن لرسوله كذا وكذا ليريه نمط المحاورة...". كذلك فإن الرسول عليه السلام ليس هو رسول القرآن كما يفهم من كلام الأستاذ الدكتور، فالقرآن لا يرسل أحدا بل الله هو المرسل.

وفى تفسيره للآيات ٨٤– ٩٠ من تلك السورة: "ووهبنا له إسحاق ويعقول كُلًّا هدينا، ونوحا هدينا من قبل، ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ..." يقول د. البهى: "ثم تستطرد قصة إبراهيم فتذكر أنه لم ينتصر بإيمانه بالله وحده على قومه من عبدة الكواكب فقط، وإنما كانت له وراثة فى دعوته ورسالته من ذريته من بعده...". وأتصور أن المقصود هو أنه لم ينتصر وحده ولا كان الانتصار على عبدة الكواكب فقط، بل انتصر أيضا الأنبياء من ذريته، وكان انتصارهم على مشركين آخرين غير عبدة الكواكب"، لكن تركيب عبارته لا يؤدى هذا المعنى بسهولة بل يحتاج إلى تركيز مزعج بسبب هذا الارتباك فى

بنـاء الكـلام. وفى كلامـه عـن الآيـة ١١٢ مـن ذات الـسورة يقـول: "يتمـسكون بمعارضـتهم وعدائهم إليك وإلى من سبقك" مرتبكا فى استعمال حرف الجر، إذ كان ينبغى أن يجرى الكلام على النحو التالى: "بمعارضتهم وعدائهم لك ولمن سبقك" باستعمال "اللام" عوضا عن "إلى".

ثم نراه فى تعقيبه على قوله تعالى فى الآيتين ١٣– ١٤ من سورة "يونس" يقول: ولقد أهلكنا القرونَ من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا. كذلك نجزى القـوم المجـرمين * ثم جعلنـاكم خلائـفَ فى الأرض مـن بعـدهم لننظـرَ كيـف تعملـون": "والله قـد جعلكم أيها المكيون الماديون فى وقتكم الحاضر، على الرسول عليه السلام بسبب رسالته، أسيادا فى مجتمعكم تخلفون المجتمعات السابقة عليكم فى الخلافة على الأرض". وهو كلام غامض، بالإضافة إلى إنطاق رب العزة بعبارة "عليه السلام" مما أومأنا إليه قبل قليل. وبالمثل ففى قوله خلال تفسيره للآيات ٣٧– ٤٣ من السورة التى نحن بصددها إن "المؤمن بالله على سبيل الحقيقة لا ييأس من طغيان الموجة المادية فى مجتمع بشرى يوما ما"، وهو ما يعنى أنه ينبغى أن يكون على أمل دائم بطغيان الموجة المادية..."، ولا أظن أبدا أن ذلك هو المراد، بل المراد أن المؤمن لا يصح أن ييأس بسبب طغيان الموجة المادية، وعليه أن يعرف أنها لا بد أن تنكسح عاجلا أو آجلا. فانظر كيف انقلب المعنى رأسا على عقب بسبب ارتباك التركيب جراء استعمال كلمة بدلا من كلمة. وفى تفسيره للآية الخمسين من هذه السورة وما بعدها يقول: "وكما أن هؤلاء الماديين المكيين يشكّون فى البعث فإنهم يشكّون أيضا فى تحقيق ما وعدهم به الرسول عليه السلام وحيا من الله من عذاب يلحقهم فى دنياهم على الأخص لأن عذاب الآخرة مفروغ من إنكاره منهم تبعا لإنكارهم البعث واليوم الآخر"، وكان يمكن أن يقول مباشرة وببساطة: "لأن إنكارهم عذاب الآخرة أمر مفروغ منه..."، لكنها العَسْلَطَة الأسلوبية.

ومثل هذا بل أشد منه وأسوأ قوله رحمه الله فى تفسير قوله تعالى: "إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور" من الآية الخامسة من سورة "إبراهيم": "إذ فى مثل هذه النعم أدلة واضحة على عبودية الله وحده ممن هو شاكر أنْ هداه للإيمان وصابر على المشقة فى سبيل هذا الإيمان". وكان بمكنته أن يقول مثلا: "وينبغى أن تدفع هذه النعم البشر إلى أن تكون عبوديتهم لله وحده ويشكروه على ما أنعم به عليهم". أما فى كلامه فقد أضاف العبودية إلى الله سبحانه، وكأن الله، أستغفره سبحانه، عبد لغيره. وبطبيعة الحال لم يقصد الأستاذ الدكتور شيئا من هذا. إنما هو الاضطراب التعبيرى الذى يعترى أسلوبه من حين لحين، والذى حاولت ضرب بعض الأمثلة عليه هنا. وعلاوة على ذلك هناك "العبودية لله وحده ممن هو شاكر..."، وهو كلام ركيك كما ترى.

وفى قوله لدن تعرضه للآية الثالثة من سورة "الشعراء": "إنْ نشأْ ننزِّل عليهم من السماء آيةً فظلت أعناقهم لها خاضعين": "ولذا كان تفسير القرآن بما يحوله إلى معان ليست فى غير مقدور الإنسان وفى غير تلاؤم لواقعه وللقوانين التى تحكم مجتمعه... يعتبر إخراجا بالقرآن إلى ما فوق مستوى الإنسان..." نجد حرف الجر المستعمل مع "التلاؤم" هو "اللام"، والصواب هو استعمال "مع"، فنحن نقول عن الشىء إنه يتلاءم مع الشخص الفلانى لا للشخص الفلانى. أما إن أراد الاحتفاظ باللام فليقل: "وفى غير ملاءمة لواقعه". كما أن عدم مراجعة الأستاذ الدكتور لما يخطه يراعه جعله لا يتنبه إلى أن صحة العبارة هى "إلى معان ليست فى مقدور الإنسان" بحذف كلمة "غير"، التى تقلب المعنى على أم يافوخه.

ومن عبارات الأستاذ الدكتور المعسلطة قوله فى تفسير "طسم" بأول سورة "النمل": "وطسم فى وضوح كون الطاء والسين والميم من أحرف الهجاء العربى وعدم الشك فيها أن هذه الآيات هى آيات الكتاب المبين". والعبارة، كما ترى، لا معنى لها مفهوم. وفى تفسير قوله تعالى: "ويوم تقوم الساعة يُبْلِس المجرمون" من الآية الرابعة عشرة من سورة "الروم" يقول: "وهذه الإعادة للإنسان بعد موته فى الدنيا أو التقاؤه بمولاه يتم فيما يسمى بـ"قيام الساعة"...". ولا تصح الإشارة إلى قيام الساعة بقولنا: "فيما يسمى بقيام الساعة"، وكأن تلك التسمية أمر مشكوك فيه لا اتفاق عليه بل هو مجرد قول مرسل لا يستند إلى أساس. ولا أظن الدكتور البهى كان يقصد هذا، لكنه التسرع فى الكتابة دون مراجعة مدققة لما يكتب. وفى تعليقه على قوله تعالى من الآية ٢٣ من "الروم" يقول: "ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجا، أى ثنائية من الذكر والأنثى"، والركاكة واضحة بل ساطعة الوضوح. وكان يستطيع أن يصوغ العبارة على النحو التالى: "أى ذكرانا وإناثا" مثلا.

ولدى تفسيره لقوله عز شأنه من الآية الحادية والخمسين من ذات السورة: "ولَإِنْ أرسلنا ريحا فرأَوْه مصفرًّا لظلوا من بعده يكفرون" يقول رحمه الله: "فكذلك الريح الباردة أو الحارة التى تضر بثروتهم الزراعية لا تحرك فيهم، عندما يرون لون الزرع قد تحول من خضرة إلى صفرة، أن يدركوا أن كفرهم بالله سبب للانتقام منهم". ويمكن أن تصاغ العبارة على نحو آخر تهش له النفس فيقال على سبيل المثال: "فكذلك الريح... لا تجعلهم يدركون أن..." بدلا من قوله: "لا تحرك فيهم أن يدركوا...".

وعند تفسيره لقوله جل شأنه فى الآية العشرين من سورة "الصافات": "وقالوا: يا ويلنا! هذا يوم الدين" نراه يكتب قائلا: "أى عندئذ لا يتمالكون من أن يعبروا عن حزنهم وعن العذاب المرتقب لهم ولغيرهم هو وضع الجزاء والحساب فى يومه المعلوم". وهذا كلام ملتو ويعانى من قدر من الغموض. كما أن كلامهم ليس تعبيرا عن العذاب المرتقب بل تعبيرا عن ندمهم الشديد على عدم أخذهم ما قاله القرآن عن هذا العذاب مأخذ الجد والتصديق.

وبالمثل نراه فى تفسيره لقوله سبحانه فى الآية ١٤١ من ذات السورة عن يونس عليه السلام: "فساهم فكان من المُدْحَضين": "فاشترك فى الاقتراع على من ينزل من السفينة تخفيفًا لحمولتها وأمنًا فى سلامة وصولها...". ولست أستطيع أن أبتلع قوله: "وأمنا فى سلامة وصولها" أبدا حتى لو عصرت عليها طن ليمون.

كذلك خانه التعبير فى قوله فى مفتتح التمهيد الخاص بتفسيره سورة "الجن": "عالما الجن والإنس تحدث الله عنهما فيما يقول: "خَلَق الإنسانَ من صلصالٍ كالفخار * وخلق الجانَّ من مارج من نار". لقد كان اللائق أن يقول بدلا من ذلك: "تحدث الله عنهما بقوله عز وجل:..."، أما "فيما يقول" فإساءة إلى القرآن لا يقصدها الأستاذ الدكتور بطبيعة الحال، لكن هذا لا ينفى عن كلامه ذلك العيب. وفى هذا التمهيد أيضا تضطرب العبارة فى يده فيقول: "لم يمنع الذين عارضوا دعوة القرآن من الإيمان بها إلا أن الرسول فى نظرهم من البشر". وهو كلام عجيب، فالرسول هو فعلا بشر من البشر، ولا يصح أن يقال إنه كان فى نظرهم من البشر، وإلا كان المعنى أنه لم يكن من البشر بل كان كذلك فى نظرهم فقط. ومن كزازة العبارة، وشحوب المعنى من ثم، فى تفسيره للقرآن المجيد قوله عن الجن، الذين لا يؤمن رحمه الله بهم بوصفهم جنسا من الكائنات كالناس والملائكة بل بوصفهم بشرا غرباء لا يختلطون بغيرهم أو يكتمون عن الآخرين ما فى عقولهم وقلوبهم من عقيدة أو فكر: "فى عالم الجن، أى فى العالم غير المرئى، مكلفون برسالة الرسول ﷺ كما كان فى هذا العالم من قبلُ مكلفون برسالة الرسل السابقين، وسيظل فيه مكلفون برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، ولكن جميعا من الناس الذين يخفون مباشرتهم للإيمان أو للشر".

ومثله فى التمهيد كذلك قوله إن "الإيمان بالقرآن لا يقص فى طريق من جانب المكيين سوى التبعية للحزبية والهوى وسوى الخوف من ضياع منافع مادية بسبب زعامة أو وضع اجتماع خاص". ومثله أيضا هذه العبارة الركيكة: "وإن استقرار الإيمان به (أى بالله) فى نفوسنا سيحول دوما دون العودة إلى الشرك فيما يوحى من شركاء لله...". ومثله كذلك العبارة التالية المرتبكة المرهقة للذهن التى وردت فى أثناء تفسيره لقوله تعالى من الآية الثالثة عشرة من السورة التى نحن بإزائها الآن: "والخطوة الرابعة والنهائية فى التحول من الخرافة إلى الهداية والإيمان بالله بعد النظرة المتأرجحة بين الخير والشر إلى القرآن، وبعد إعلان تنوع الاستعداد الفطرى لديهم (أى لدى الجن حسب تعريفه للجن كما سبق بيانه) إلى الخير وحده أو إلى الخير ممزوجا بالشر بينهم، وبعد اعترافهم بقدرة الله وعجزهم عن مساوقتها فى شؤون الإنسان على الأرض وكذلك عن عجزهم عن الهرب من المصير الذى يقدّره جلت قدرته، بعد هذه الخطوات الثلاث فى التحول من الخرافة إلى الإيمان بالله كان الإيمان بالفعل بهداية ما أنزل الله على رسوله ﷺ بعد سماعه، فأعلنوا إيمانهم بالله فيما يقولونه: "وأنا لما سمعنا الهدى آمنا

به"...". وهناك كذلك العبارة التالية تفسيرا لقول الحق سبحانه فى السورة ذاتها: "حتى إذا رَأَوْا ما يُوعَدون فسيعلمون مَنْ أضعفُ ناصرا وأقلُّ عددا": "أى فى وقوع العذاب عليهم سيجدون أنفسهم الضعفاء وحدهم، وليس الجانب الآخر، وهو جانب الله عز وجل، سيجدون أنفسهم ضعفاء فى القوة المادية لإبعاد العقاب عنهم إذا قيست القوة بالناصرين وبالكثرة العددية، فليس لهم ساعتذاك من ناصر ينصرهم، وما لهم يومئذ من أعداد لا تمثل إلا التفكك والهزال"... إلخ.

وفى الكتاب أشياء كثيرة جدا من هذا الباب، وليس ما أوردته هنا من شواهد إلا عينة جد ضئيلة منه. وقد يكون بعض ما سقته من هذه الشواهد خطأ مطبعيا، وإن كنت لا أظن ذلك. فهذا هو أسلوب الأستاذ الدكتور بين الحين والحين، وسببه هو العجلة فى الكتابة وإهمال المراجعة المدققة لما يكتب حتى لقد وجدته مرة قد نصب خبر "إن" أو إحدى أخواتها. كما قرأت فى مقدمته لتفسير سورة "الجن" قوله: "وإعلان الإيمان بالله وحده لا يكن من يهودى يؤمن بالتوحيد أصلا" بجزم الفعل المضارع: "يكن" دون أن يكون هناك ما يدعو إلى جزم، والصواب "يكون". وفى تفسيره للآية الثالثة من السورة المذكورة يقول: "وكونه عليم بكل شىء فى الوجود" برفع "عليم"، وصحتها أن تكون منصوبة لأنها خبر مصدر "كان".

ويقول لدن تناوله للآية الحادية والثلاثين من سورة الأعراف": "يبين القرآن أن روحية الإنسان التى يطلبها فى مواجهة مادية الشيطان ليست هى العزلة فى الحياة على هذه الأرض من متعها". وهو تركيب يذكرنا بذنب الضب. ترى ماذا عليه لو أنه قال مثلا إن "روحية الإنسان التى يطلبها ليست هى اعتزال متع الحياة الموجودة على الأرض"؟ ويضاف إلى ذلك أنه قبل قليل فى تفسيره للآية السابعة والعشرين من هذه السورة قال إن "الشيطان ليس موجودا محسوسا يُرَى ويُشاهَد أمامكم حتى يسهل عليكم تجنب فتنته وخداعه، بل هو وجماعته قوى معنوية لا تدرك بالحس"، إذ كيف يكون الشيطان قوة معنوية، وهو فى نفس الوقت يمثل المادية فى مواجهة روحية الإنسان؟ على الأقل لقد كان الأمر بحاجة إلى توضيح لإزالة هذا التناقض. ثم هل الإنسان ذو طبيعة روحية فعلا؟ إنه مادة وروح: مادة تتمثل فى جسده، وروح تتمثل فى عقله ومشاعره وأخلاقه. وكثيرا ما غلبته ماديته على نفسه.

وهو يمضى فى تفسيره لهذه الآية قائلا: "كما ينطوى على الدعوة إلى الأكل والشرب والاستمتاع بطيبات ما يؤكل وما يشرب، ولكن فقط ليس فى الحدود التى يستمتع فيها المادى. واستمتاع المادى هو استمتاع الأنانى الذى ينطلق فلا يعرف حرمة ولا وجودا لغيره معه... هو مسرف اتبع الشيطان فى إغرائه وخداعه". والسؤال: كيف يكون استمتاع المادى محصورا فى حدود لا يصح أن يلتزم بها الرجل المؤمن، وفى نفس الوقت يوصف المادى بأنه مسرف فى استمتاعه بالحياة وانطلاقه مع إغواءات الشيطان؟ الحق أن الكلام مضطرب تركيبا

ومعنى. وفى تفسير الآية الرابعة والخمسين يقول عن الله سبحانه: "وهو مستوٍ من أجل ذلك على عرشه" بدلا من "مستوٍ" بدون ياء لأنه اسم ناقص نكرة غير مضاف فى حالة رفع. والعبارة كلها التى وقع فيها هذا الخطأ الصرفى مضطربة. قال رحمه الله: "والله لم يخلق هذا العالم كله: أرضه وسماواته فى مراحل خلقه فحسب، وإنما له القدرة والسلطة فيه، وهو مستوى من أجل ذلك على عرشه ومتمكن منه". وهو كلام غامض مظلم. وبعد قليل يقول فى تفسير الآية الثامنة والخمسين: "والآن بعد مرور آدم فى تجربته وهو بالجنة وظهور حاجة الإنسان فى شخصه رغم تميزه بالعقل والإدراك إلى رسالة الله..."، فماذا تصنع عبارة "فى شخصه" هنا؟ ولماذا قدم "رغم تميزه بالعقل والإدراك" على موضعها الطبيعى دون أى داع؟ ولن أتكلم عن استعاضته بـ"فى" عن "الباء" فى "مرور آدم فى تجربته"، إذ رغم أن لها وجها فهى مع ذلك غريبة. وفى كلامه عن الآية الثانية والثمانين من السورة تقابلنا "الثانية عشر"، وصوابها "الثانية عشرة".

ويقول فى تفسيره للآية السابعة والأربعين من نفس السورة عن الحجاب الذى يفصل بين أهل الجنة وأهل النار: "المعنى أن هناك تميز واضح بين ما للجنة من نعيم وما لجهنم من جحيم من نار" حيث رفع اسم "أن" المتأخر ونعته، إلى جانب الركاكة فى قوله: ما للجنة من نعيم، وما لجهنم من جحيم"، ولو قال "ما فى الجنة من نعيم، وما فى جهنم من جحيم" لذهبت الركاكة، علاوة على أنه لا معنى لأن نقول: "ما لجهنم من جحيم من نار"، إذ هو تركيب لا يمكن أن يخطر على قلب عربى. ثم إن "الجحيم" هو اسم علم للنار مثل "جهنم"، ومن ثم لا أستطيع أن أتذوق التركيب الغريب. ومثلها فى غرابة التركيب قوله عن أصحاب الأعراف ومكانتهم التى لا تدانيها مكانة عند الله سبحانه: "وهم هؤلاء أصحاب الأعراف وأصحاب المستوى الرفيع فى القبول عند الله"، وكان يمكن أن يقال بدلا من ذلك: "وهؤلاء هم أصحاب الأعراف ذوو المكانة العالية عند ربهم" مثلا. وفى تفسير الآية ١٤١ يقول: "فما أن كاد يعبر بهم البحر ويسيروا قليلا فى أرض شبه الجزيرة خلفه... لم يكادوا يسيرون قليلا فى أرض شبه الجزيرة حتى التقوا بمجموعة من سكانها يعكفون على عبادة أصنام لهم...". وصواب الكلام أن يقال: "فما إن عبر بهم البحر وساروا قليلا فى أرض شبه الجزيرة حتى..."، إذ إن التقاءهم بعبدة الأصنام لم يقع وهم لا يزالون يعبرون البحر كما تقول عبارته بل فور عبورهم البحر. كما أن استعمال "مجموعة" هنا هو استعمال غير موفق. ذلك أن الأنسب فى هذا السياق أن نقول: "جماعة" أو "قبيلة" لا مجموعة، وكأنهم مجموعة أشخاص كانوا يسيرون فى الطريق ثم عرَّجوا ليستريحوا قليلا فى ذلك المكان ثم يغادرونه لِطِيَّتهم مثلا. كذلك نراه قد حذف نون الرفع من الفعل المضارع: "يسيروا" دون أن يكون هناك ناصب أو جازم؟

ويقول فى تفسيره للآية السابعة والسبعين من سورة "يونس": "سوف لا ينجح"، وهذا تركيب غير عربى، ففى لغتنا أداةٌ اسمها "لن" تستخدم فى هذا السياق بدلا من "سوف لا". كذلك تكرر عنده إثبات ألف الجماعة فى غير موضعها مثلما نجدها مع الفعل: "ينجو" المسند إلى المفرد، فى تفسيره للآية السابعة والثلاثين من سورة "هود" لدن قوله عن سفينة نوح: "وهى التى سينجوا فيها هو والذين آمنوا معه". وفى سورة "القصص" تقابلنا هذه الواو مع جمع المذكر السالم المرفوع المضاف: "وفى مقدمتهم مشركوا مكة". وفى مقدمة تفسيره لسورة "الروم" تقابلنا "بضعة سنوات" بدلا من "بضع سنوات" كما ينبغى أن يكون الأمر. وفى تفسيره للآية الخامسة عشرة من سورة "الصافات" يستخدم كلمة "الدعوة" عوضا عن "الدعوى" التى ادعاها المشركون على القرآن بقولهم: "إن هذا إلا سحر مبين". ولست أقول هذا على سبيل النيل من الأستاذ الدكتور والزراية عليه والتشنيع به، فلا أظن مثل تلك الهنات إلا سهوا لا أكثر، فمثله لا يمكن أن يخطئ مثل تلك الأخطاء. إنما هى العجلة فى الكتابة وعدم الاهتمام الكافى فى المراجعة.

والآن إلى مثال من كتابة كل من العالمين الجليلين فى تفسيره. وهذا نص من كلام د. مُحَمَّد البهى أولا، وهو مقدمته لسورة "النحل": "سورة النحل تكاد تكون وقفا على الدعوة إلى وحدة الله سبحانه وتعالى. فهى تبتدئ بإنذار المعارضين من الماديين الوثنيين لوحدة الألوهية بالعقاب الذى لا يتخلف إطلاقا: "أتى أمر الله، فلا تستعجلوه"، ثم تقيم من الوجود المُشَاهَد الذى يحيط بالإنسان، ومن الإنسان ذاته فى تطوره، الدلائل والأمارات على أن الله وحده هو المعبود، ولا إله غيره، وعلى أن الشرك بالله لا يباشره إلا منكِر أعمته المادية وأغرقته فى ظلامها. وهنا تعرض سورة "النحل" للماديين أو المشركين فيما لهم من اعتقادات وتصورات وأباطيل ومبررات. وفى مواجهة اعتقادات المشركين أو الماديين وتصوراتهم وأباطيلهم ومبرراتهم تذكر هذه السورة مبادئ الرسالة الإلهية التى جاءت لتكشف عن الحق وحده، والتى اختير لها مُحَمَّد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. ولأنها رسالة حق فى مواجهة باطل، ورسالة إيمان فى مقابل كفر وعناد فى المعارضة دعت هذه السورة إلى أن يكون موقف الرسول عليه السلام من دعوة الماديين وأباطيلهم هو عدم الإفراط فى الأمل فى هدايتهم، والصبر والتحمل لمعارضتهم، وعدم الحزن والضيق لمكايدهم، ورد الاعتداء بمثله، والثقة فى نصر الله لدعوته: "واصبر، وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مما يمكرون * إن الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون".

وإذن سورة "النحل" تتضمن بصورة رئيسية: ١- دلائل الوجود الطبيعى المشاهَد الذى يعيش فيه الإنسان على وحدة الله. ٢- وصفات الماديين الذين يعارضون هذه الوحدة، ويشركون فى الألوهية آلهة أخرى تصوروا نفعها أو ضرها، وهى تقصِّر عن أن تعطى أسباب

الوجود لنفسها. ٣- والمبادئ العامة التى تقصها رسالة الله وحده لصالح الإنسانية على رسول الله ﷺ فى مواجهة ادعاء الماديين المشركين لصالح بقائهم على العبث والفساد والظلم والاعتداء. ٤- وموقف الرسول وما يجب عليه أن يباشره إزاء دعوته إلى الحق، وإزاء هؤلاء المروِّجين للباطل من أصحاب الوثنية المادية.

وابتداء السورة بالإنذار المؤكد بعقاب المعارضين، وانتهاؤها بضمان نصر الله للمؤمنين الذى أحسنوا إلى أنفسهم بالإيمان، وإلى غيرهم بالعدل وفضل الإنسانية فى المعاملة، يدل على أن أمر "الوحدة فى الألوهية" أمر خطير بالنسبة للبشرية: إما إلى صلاح واستقامة إن تحقق الإيمان بها فى المجتمع، وإما إلى فساد واعتداء وظلم إن راج شرك المادية وطغت وثنيتها على قيادات المجتمعات البشرية".

أما الشيخ مُحَمَّد الغزالى فإلى القارئ الكريم هذا النص من كتابه، وهو عبارة عن مقدمته لنفس السورة: "ظاهر أن سورة النحل نزلت فى أخريات العهد المكى بعدما احتدم العراك بين المشركين والمؤمنين، وطال الأمد ولم يظفر الإيمان بنصر يشد أزره، ولم ينزل بالشرك حدث يقصم ظهره! وكأن المشركين يقولون للمؤمنين: أين ما توعدوننا به وتنتظرون وقوعه؟ فكان الجواب: كل آت قريب. إن غدا لنظاره قريب: "أتى أمر الله فلا تستعجلوه...". وما يتحقق وقوعه يمكن الجزم به. وقد انتهى الصراع بين الحق والباطل بهزيمة أخرست الوثنيين وأخضعت أعناقهم! واحتاج ذلك إلى أجل يعده المجرمون طويلا، ويعده القدر قصيرا. وفى هذا الأجل يجب على المسلمين أن يصبروا دون ارتياب. ولذلك يقول الله فى آخر السورة لنبيه: "واصبر، وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مما يمكرون * إن الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون". وقد صابر المسلمون الأيام، وعندما حزت فى جلودهم الآلام نزلت آيتان فى هذه السورة تعزيان المسلمين وتصبرانهم على ما نزل بهم: الأولى قوله تعالى: "والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهم فى الدنيا حسنةً. ولَأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون"، والثانية قوله تعالى: "ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم". والهجرة المقصودة هنا هى الهجرة إلى الحبشة، وقد أُذِن فيها للمستضعَفين ومن لا طاقة لهم على التعذيب. وقد روى البخارى حديثا فى هذا الموضوع نسوقه هنا، قال: إن أسماء بنت عميس، وهى ممن قدم من أرض الحبشة إلى المدينة، دخلت على حفصة، فدخل عمر عليهما، فقال لأسماء: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت أسماء فقالت: كلا والله. كنتم مع النبى يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة، كنا نؤذَى ونخاف، وذلك فى الله ورسوله! وَايْمِ الله لا أَطْعَم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله! فلما جاء النبى بيت حفصة قالت أسماء: يا رسول الله، إن عمر قال كذا وكذا. قال: فما قلتِ له؟ قالت: قلت له كذا وكذا.

قال رسول الله: ليس بأحقَّ بى منكم. وله ولأصحابه هجرة واحدة. ولكم، أنتم أهل السفينة، هجرتان".

والناظر فى كلام د. البهى يلاحظ فورا ودون إبطاء تكرر استعماله لمصطلحات "المادية الجاهلية" و"المادية الوثنية" و"الماديين المشركين" وما إليها للدلالة على الشرك والمشركين. وكثيرا ما يضع "المادية الجاهلية" فى مقابل "الروحية الإنسانية"، التى يقصد بها دعوة الإسلام. كذلك سوف يلاحظ الناظر فى كلام الأستاذ الدكتور أنه لا يهتم بموسيقية الجملة ولا بإحكام تركيبها بل يكتب بعفوية كبيرة فيأتى الكلام بوجه عام كيفما اتفق، إذ لا يهمه إلا إيصال الفكرة بأى طريق والسلام، وإن تسبب هذا فى هلهلة الكلام أحيانا ووعورة الأسلوب بما يشبه شوارعنا فى مصر، تلك التى ينقصها التمهيد الجيد والاستواء المطلوب، فترى المشاة ينقلون خطواتهم فى تعب وإرهاق وقد وضعوا أعينهم وسط رؤوسهم حتى لا يقعوا فى حفرة أو يصطدموا بزر حديد ناتئ لا تلحظه العين ويمكن أن يتسبب فى سقوطهم وانكسار ساقهم مثلا أو ينزلقوا على قشرة موز مما يلقيه المارة دون أدنى اهتمام فيكون علة لسقوطهم على يافوخهم وموتهم. وبطبيعة الحال فإن فى كلامى هنا قدرا من المبالغة الفنية أردت بها التنبيه إلى خطر الأسلوب ووجوب الاعتناء به حتى تكون القراءة سلسة وممتعة ويفهم القارئ عن المؤلف فى يسر.

وبالمثل سوف يلاحظ القارئ أن د. البهى لم يستشهد بأى حديث. وهو بوجه عام قلما يلجأ فى تفسيره إلى الأحاديث النبوية بل يكتفى فى العادة بالآيات القرآنية على ما يريد أن يقول أو يربط أو يقارن بينه وبين غيره من تلك النصوص وموضوعاتها وأحكامها على العكس من الشيخ الغزالى، الذى يكثر نسبيا من الاستشهاد بالأحاديث إلى جانب إكثاره من الاستشهادات القرآنية. ولسوف يشعر على الفور بما يسود حديث د. البهى من هدوء أعصاب، على عكس الشيخ الغزالى، صاحب الأسلوب الحار، الذى لا يستطيع أن يكتب دون انفعال قوى وعاطفة جياشة، ويعبر عما يريد من خلال الصور البيانية فى كثير من الأحيان، ويعتمد أسلوبا جدليا حيويا كله تألم وأسى لحال المسلمين المخزى فى العصر الحديث واستفزاز لهم كى يهبوا وينهضوا ويؤدوا واجبهم وينشدوا المعالى، أو تهكم وهجوم على أعداء الإسلام بل وعلى المسلمين أيضا لتقاعسهم عن الدفاع عن دينهم وحقوقهم وإهمالهم القيام بواجبهم نحو أنفسهم وأوطانهم وأمتهم، فضلا عن الألفاظ القارصة والتساؤلات التى يراد بها التقريع والاستنكار وإظهار السخط وما إلى ذلك بسبيل.

وعودا إلى د. البهى نقول إنه بعد المقدمة التى يكتبها لأية سورة ينطلق فيقسمها إلى مجموعات من الآيات كل مجموعة تشكل موضوعا واحدا على نحو أو على آخر، واقفا عند كل مجموعة منها مفسرا لها آية أية، وجملة جملة، وكلمة كلمة على النحو الذى يتبعه سيد

قطب فى "الظلال"... إلى أن ينتهى من السورة كلها. أما الشيخ الغزالى فلا يقسم السورة إلى آيات أو مجموعات من الآيات، بل يمضى فيجول جولته خلالها بما يشبه نظرة الطائر التى لا تتلبث عند التفاصيل بل تحوم عالية فوق الهضاب والجبال والوديان فلا ترى التفاصيل أو لا تريد أن تنشغل بالتفاصيل، وتركز على الخطوط العامة فى الغالب، بل تقفز أحيانا فوق بعض الموضوعات الأساسية التى كنت أنتظر تفسير الشيخ لها ورأيه فيها، ولكنى أفاجأ بأنه لم يقترب منها أو أنه اكتفى بالإشارة إليها إشارة عارضة لا تقدم شيئا.

وهناك فرق آخر بين تفسير د. البهى وتفسير الشيخ الغزالى، ألا وهو أن د. البهى لم يفسر القرآن كله، بل فسر اثنتين وعشرين سورة مكية فقط إلى جانب جزء "عم"، مع سورة واحدة من السور المدنية هى سورة "النساء"، وأخرج تفسير كل سورة فى كتاب مستقل، بينما الشيخ الغزالى قد أتم تفسير القرآن كله وأخرج تفسيره بآخرة فى مجلد واحد. وهو أخصر من تفسير البهى كثيرا رغم أن تفسير الغزالى كامل، وتفسير البهى، كما ذكرنا، ناقص لا يضم القرآن كله بل لا يضم من السور المكية إلا عددا منها ليس إلا، إلى جانب سورة "النساء" وحدها من بين السور المدنية جميعا، التى تشكل جانبا كبيرا من القرآن المجيد، وبعضها من أطول سوره، وإحداها أطولها بإطلاق، وهى "البقرة".

والآن مع هذه الباقة من نصوص الشيخ الغزالى التى اخترتها من هنا وها هنا من تفسيره، وهى تدل على ما قلته عن أسلوبه وروحه واهتماماته. ويشعر القارئ، وهو يطالعها، بحرارة لا يجدها فى كتاب د. البهى، ويجد جمالا تعبيريا وصورا وجدلا وتألما لحال المسلمين ورغبة حارقة فى حفزهم إلى الحركة والنهوض والقيام من حالة الركود والبلادة بل من حالة الموات التى هم فيها ليعيشوا على النحو الذى يريده منهم دينهم حتى يكونوا أمة قوية مهيبة غنية عزيزة الجانب تحب العلم وتحرص على الجمال والنظافة والنظام فى كل أمورها. كذلك نلاحظ أن الشيخ لا يهتم كثيرا بالتدين الشكلى الذى لا يضع صفاء القلب ويقظة العقل وعشق العمل وإتقانه فى اعتباره. كما نراه رحمه الله ينكر على المسلمين إهمال العلوم الطبيعية والرياضية، التى سوَّدت الغربيين على الدنيا وجعلت من حياتهم شيئا بهيجا وعزيزا كريما. ولسوف يلحظ القارئ خلو هذه الباقة من الملاحظات التى أخذتها على أسلوب د. مُحَّد البهى مع خالص احترامى له. إلا أننى وجدت الشيخ رغم هذا يستخدم "إلا أن" بعد "ومع أن" مما لا أعرف له وجها يجعلنى أتقبلها ولو بشىء من الكراهة، مثل قوله: "ومع أن "براءة" ألحقت بالوثنية ضربة خطيرة إلا أن الوثنيين اختفوا وفى طواياهم نية الغدر"، "ومع أن الحياة الدنيا دار ابتلاء، والابتلاء يقتحم النفوس بالمزعجات، إلا أن الله يطمئن عباده بأنه سوف يريحهم ويصلح بالهم إذا آمنوا به وأسلموا له وجوههم"، "ومع أن قصة موسى تكررت بضع عشرة مرة فى الكتاب الكريم إلا أن سياقها يختلف اختلافا كبيرا فى شتى مواضعه".

وها هى ذى الباقة التى اقتطفتها من كتاب الشيخ رحمه الله:

* الأديان كلها نقلة من الجهل إلى العلم، ومن العوج إلى الاستقامة، والكتاب الذى اختص به مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ملءٌ بحُزَمٍ من الأشعة التى تمحو العمى، وتهدى الطريق، وتقود إلى الله سبحانه، وتعصم من الوقوع فى ضروب الجاهليات كلها. ولكن البشر، على امتداد العصور، يخاصمون الوحى، ويكابرون المرسلين، ويحاولون البطش بهم، ويستغلون ما أوتوا من قوة لفتنة المؤمنين عن الحق، لكن المؤمنين يصمدون ويتحملون.

* جاء صدر سورة "الجاثية" لافتا الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض وما حوى من عجائب تقود إلى الله سبحانه. "حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار"... إلخ. وقد مضت نظائر لهذه الآيات فى سورة "البقرة" و"آل عمران" وغيرهما. والمراد دعم البناء العقلى للإيمان، وإقامته على الفكر السوى والبصر الذكى! فهل تكفى هذه الدراسة النظرية لإسعاد الإنسان؟ لا. إنها جانب واحد. والجانب الآخر استغلال الكون نفسه لمصلحة الإنسان، فلهذا خُلِق. "الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون". والهيمنة على قوانين الكون كما تنفع الإنسان فى الحياة الدنيا ماديا، فهى تقدره على إعزاز عقائده والدفاع عنها. وما تأخر المسلمون وذلوا أمام أعدائهم إلا لتخلفهم فى هذا الميدان. "تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟". القرآن يقود النفوس بهداياته، والكون يدل على الله بآياته، فلماذا يزيغ امرؤ بعد ذلك أو تضل شعوب؟ "ويلٌ لكل أَفَّاكٍ أثيم". ومع هذا التوجيه المزدوج، فإن الله رحمة منه بعباده أبى تعجيل العقوبة للتائهين، ووسَّع لهم الفرصة كى يهتدوا فنصح المسلمين أن يتريثوا فى عرض الدعوة وأن تخص وطأتهم على الكافرين: "قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون * من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون".

* إلى جانب العلوم العقلية والكونية توجد علوم نقلية شرعية. والمهم فى هذين الصنفين من العلوم أن تقود البشر إلى سبيل الرشاد. ولكن الذى حدث أن جماهير من دارسى العلوم الكونية لم يحسنوا الإفادة منها، فغَزَوُا الفضاء وبَقُوا كافرين بالله، ورَأَوُا الأجنَّة تتخلَّق فى البطون، وبدل أن يعترفوا بالخالق قالوا إن الفاعل مجهول! وهذا الإلحاد صبغة عامة فى الحضارة الحديثة تشمل غرب أوروبا وشرقها، ويمتد دخانها إلى بقية القارات. ولهذا العِوَج العلمى نظيرٌ بين حملة العلوم الدينية، فقد تحولت موروثاتهم إلى دراسات شكلية لا تهذب نفسا ولا تَصْقِل فكرا. إنهم معها كالدواب التى تحمل صناديق الكتب ولا صلة لها بما حوت! ونصف فساد

العالم يرجع إلى قصور رجال الدين وتبلُّدهم النفسى! ولعل علماء بنى إسرائيل أول من أبطل نظرية سقراط: أن الفضيلة هى المعرفة، فإنهم لبسوا أردية العلم على أجسامٍ لوثها الهوى: "ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بيناتٍ من الأمر، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم...". إن العلم الدينى إذا لم يورِّث الصدق والإنصاف فلا خير فيه ولا قيمة له. ويوجد الآن علماءُ دينيون وعلماءُ كونيون ماتت ضمائرهم، وكان فى مقدورهم أن يُسْدُوا للإنسانية الخير الجزيل: "أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غِشَاوة؟ فمن يَهْدِيه من بعد الله؟". والذكاء فى فهم الدنيا مع الغباء فى فهم الآخرة يحوّل الإنسان إلى عبد لشهواته، ويربطه بهذه الحياة وحدها، ويصرفه عن الاستعداد لما بعدها، بل يجعله من المنكرين الجاحدين: "وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا. نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر. وما لهم بذلك من علم. إنْ هم إلا يظنون". ولذلك جاء ختام هذه السورة تهديدا بالبعث والحساب ووصفا لمواقف الناس أمام ربهم وهو يسائلهم عما قدموا: "ولله ملك السماوات والأرض. ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المُبْطِلُون * وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً. كلُّ أمةٍ تُدْعَى إلى كتابها: اليوم تُجْزَوْن ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق. إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون".

* المتأمل فى حضارة هذا الزمان يرى التقدم العلمى رقَّه حياة البشر، ويسَّر لهم الملذات وعلَّقهم بالفترة القليلة التى يقضونها هنا، وأذهلهم عن الخلود الطويل الذى ينتظرهم هناك. ثم إن أهل الكتاب عجزوا عن العودة بالناس إلى الله، وانضموا إلى أعدائه فى ضرب الإسلام ومنع تقدمه، فكانت النتيجة إطباق الفوضى على آفاق الأرض كلها، وزوال شرائع الله فى سياسة عباده.

* إن العصر الذى نعيش فيه يوسَم بأنه عصر العلم. ولا عجب، فقد استطاع الإنسان غزو الفضاء ووَضَعَ قدمه على القمر، وهو الآن يدرس كواكب أخرى من أسرة الشمس يحاول الوصول إليها. وقد جَزَم بأن الشمس وأفراد أسرتها حبات رمال فى فضاء زاخر بالنجوم والشموس. إن العالم ضخم كبير الحجم ذاهب فى الطول والعرض مضبوط بنظام محكم يسيطر على الزفير والشهيق فى أجسامنا، وعلى المد والجزر فى البحار والمحيطات، وعلى الكسوف والخسوف بين الكواكب، وعلى مساحات تنحسر دونها الأبصار والآلات فى ملكوت فخم مهيب يهيمن عليه رب كل شىء ومليكه. "سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته". ألا يسأل المرء نفسه: هل الدجاجة خلقت البيضة التى تضعها؟ هل البقرة صنعت اللبن الذى يخرج منها؟ هل الأم أنشأت الولد الذى يتخلَّق فى أحشائها؟ هل الفلاح هو الذى سوى الحبوب والفواكه التى يزرعها؟ إن هذه كلها أسباب شفافة عن القدرة

العليا والحكمة العليا اللتين تبدعان كل شيء: "هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش. يعلم ما يَلِجُ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم. والله بما تعملون بصير".

* وظيفة الأمة الإسلامية بين الناس أن تعرف الله وأن تعرِّف به، وأن تعبده وتيسر للآخرين عبادته. فهى تجاهد لتحمى حق العبادة، وتمنع الفتَّانين من فرض ضلالهم على غيرهم! فإذا وجد من يقول للمستضعفين: "لَنُخْرِجَنَّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ فى ملتنا" قال المسلمون له: والأرض لك ولغيرك، ومن حقه أن يبقى فيها بالعقيدة التى اختارها، ونحن مع المضطهد حتى يطمئن! وتبدأ السورة فى رسم الطريق للأمة الإسلامية حتى تؤدى رسالتها العالمية. فنقرأ قوله تعالى: "آمِنُوا بالله ورسوله وأَنْفِقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه. فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير". الإيمان والإنفاق عنصران رئيسيان كى تنجح الأمة فى بلوغ غايتها، ثم يَعْقُب هذا الإجمالَ تفصيل: لا عذر للمسلمين فى ترك الاستمساك بدينهم والعيش به إلى آخر الدهر، فقد جاءهم نبى أخرجهم من الظلمات إلى النور، وختم بهم الوحى السماوى وجعلهم خير أمة أُخْرِجَت للناس، فهل يجوز أن يستبدلوا بدينهم مذهبا آخر من أهواء الناس؟ إن الحضارة الحديثة "تعرض" عليهم أن يتركوا الإسلام وأن يعتنقوا أى نزعة قومية، أو فكرة البعث العربى، أو أى دين آخر. المهم أن يتركوا كتاب ربهم وسنة نبيهم! وقد استجاب البعض لهذه العروض الحديثة وقدموها على الإسلام، وأخرجوا الألوف المؤلفة من الأجناس التى رضيت الله ربا والإسلام دينا، وأحدثوا فتنا هائلة أساءت إلى الأتراك والأكراد والفرس والبربر والهنود والزنوج. إنها وثنيات جديدة يمنع منها قوله تعالى: "وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم، وقد أخذ ميثاقكم، إن كنتم مؤمنين؟ * هو الذى ينزِّل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور. وإن الله بكم لرءوف رحيم". والغريب أن الأمة العربية التى وعى لسانها القرآن من أغنى أمم الأرض: فأحشاء الدنيا فى يدها، وأرضها الخصبة تفيض سمنا وعسلا، وصحراؤها العفراء ملأى بالكنوز والمعادن، فهل سخرت غناها فى نصرة رسالتها؟ أم غلبتها الشهوات العاجلة فى هذه الدار الفانية؟ إن ثروات المسلمين يستفيد الآخرون منها أكثر مما يستفيد المسلمون أنفسهم.

* عَلَّ المسلمين يفقهون أن القرآن الذى صنع أمتهم قديما قدير على أن يصبهم فى قوالب السيادة والقيادة مرة أخرى، وعلى أن ينتزع من نفوسهم حب الدنيا وكراهية الموت، ويهب لهم قلوبا شجاعة تفتدى الحق وتحرص على لقاء الله. أحيانا يكون الجهل عذرا مخففا، أما التجاهل والاستكبار على الحق وإيثار العمى على الهدى فهو ذريعة غضب هائل. وقديما سلط الله عبدة الأوثان على بنى إسرائيل لأنهم لم يقدروا كتابهم قدره، فليس عجيبا أن يسلط على المسلمين بعد ما أهملوا القرآن من لا يقيم لهم وزنا أو يعرف لهم حقا. وطريق العودة

واضح: لابد من عقيدة وشريعة وأخلاق ومعاملات تتفجر من ينابيع القرآن، ويحيا بها المسلمون من جديد حياة تجعلهم أمة الوحى، وصلة السماء بالأرض. مِنْ تجاوز الحق ومتابعة الوهم أن تزرع فى الصباح وتنتظر الحصاد فى الأصيل! إن لكل شيء أوانا يتم فيه، رضى المرء أم سخط. والإنسان لا يشبّ فى يوم، والحضارة لا تزدهر فى شهر، والنتائج تتحقق وفق قوانين مضبوطة تتم مع كَرِّ الغداة ومَرِّ العشىّ.

* مهما دعا المؤمن فلابد من الصبر على سنن الله الكونية: "ويَدْعُو الإنسان بالشر دعاءه بالخير. وكان الإنسان عجولا". ورعايةً للزمان وخضوعًا له جاء الحديث عنه فى الآية اللاحقة: "وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب. وكل شيء فصلناه تفصيلا". ومع سير الزمن تقوم دول وتنهزم أخرى، ويعلو أمر اليهود ويسفل، كما أبان الوحى أول السورة، وكذلك تتقلب الدنيا بغيرهم من الناس. لكن الإنسان هو المسؤول الأول عن نفسه: إذا عقل فقد اتخذ القرار السليم، وإن شرد هوى: "من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى...". وهذا قانون للأفراد والشعوب، وإن كشف القرآن الكريم هنا أن الترف أول مظاهر الفساد فى الآفة، وأن المترفين هم الجراثيم الحاملة والناقلة للمرض، وأن مطاوعتهم خطوة إلى الهاوية: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرْنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا". والحضارات القائمة على الدين تظل معتصمةً به وحاملةً لواءه ما ظلت بعيدة عن الترف والمراسم الفارغة وقسوة القلب. ويتم لها ذلك إذا حددت موقفها من الآخرة تحديدا واضحا: "من كان يريد العاجلة عجَّلْنا له فيها ما نشاء لمن نريد". "ما نشاء لمن نريد" عبارة صارمة. إن الله لا يُغْلَب على أمره، ولا يُنَال ما عنده إلا بإرادته، وما يملك أحد عليه شيئا. والتدين الكاذب لا يروج عند الله، وليست لأهله وجاهة. ويقول سبحانه هنا: "وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح...". والحديث عن الأمم السابقة حتى بعثة مُحَمَّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أما بعد ذلك فقد تحدثت آية أخرى عن مصاير المجرمين " وإنْ من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا. كان ذلك فى الكتاب مسطورا". والكتاب فيما يبدو هو سجل العلم الإلهى. والتحذير لنا وللناس أجمعين.

* والإرجاء شائع من أمد طويل بين جماهير المسلمين. يرون أن العمل نافلة، ومادام المرء مؤمنا بالله فهو ناج مهما فعل! وقد هد هذا الفكر دولة الإسلام من قرون.

* ولا تعود للمسلمين حضارتهم الأولى إلا بالإيمان والعمل معا... لقد ختمت سورة "القصص" بخطاب لرسول الله ﷺ يزلزل النفوس، ويبين أن صاحب الرسالة أثقل الناس حملا من التكاليف الشاقة: " وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من

المشركين * ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو..." إن العلم النظرى بوحدانية الله لا يكفى، فقد كان إبليس يعلم أن الله واحد، بيد أنه رفض الخضوع له والامتثال لأمره فهوى. وأمتنا لابد أن تجمع بين إيمان واضح وعمل صالح حتى يمكَّن لها، وتستعد لآخرتها.

* قلت فى نفسى إن الأمة التى تنتمى إلى مُحَّد تبلغ خمس سكان الأرض، وتبدو فى ثراها جميع الهزائم العسكرية والثقافية والخلقية! فما حطها فى هذا الدَّرْك؟ الواقع أن أغلب معالم الفطرة البشرية مستخفٍ فيها فلا يقين ولا وحدة ولا حضارة! وتستطيع أن توازن بين جانب مسلم من جوانب الأرض وجانب آخر لا يعرف الله الحق، فتجد النشاط هناك والخمول هنا! وعندما كان المسلمون يبادون فى البوسنة أو يختطفون من أرضهم فى فلسطين كانت هناك جماهير فى وادى النيل والمغرب تضحك ملء الفم وتبحث عن اللهو بغباء! أهناك شعور بأخوة الدين؟ كلا، لأن الدين نفسه غير قائم بالنفوس إلا بقايا مخدرة شائهة. وأمة بهذه المثابة لا يُكْتَب لها نصر. وقد مزق الله شمل المتدينين من بنى إسرائيل قديما وسلط عليهم عُبَّاد الأوثان لأن التدين الفاسد ليس جديرا بالنصر! على أن الأيام دُوَلٌ، وعندما يُصْلِح المسلمون شؤونهم يقترب منهم النصر البعيد. إن أمتنا تمثل فى العالم الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا ينصر الله هذه الخلال.

* وندع مؤقتا الاسترسال مع هذا الحوار لنذكر قصتين تتصلان به: الأولى قصة النبى داود، الذى اشتغل بصناعات الحديد! إن التدين الجاهل يحسب التخلف فى الدنيا أمارة على التقدم فى الآخرة. وهذا فهم منكر، فإن الدخول إلى الإيمان يكون من باب العلم الحاذق لا من باب القصور البليد. وهذا ما شرحتْه الآيات فى قصة داود، وما نلفت إليه أنظار الأمم الغفيرة التى انتمت إلى الإسلام وعاشت تتسول الصناعات من خصومه، فكانت عارا على دينها... "ولقد آتينا داود منا فضلا: يا جبال، أَوِّبِى معه والطير، وألنا له الحديد * أنِ اعملْ سابغاتٍ، وقَدِّرْ فى السرد، واعملوا صالحا. إنى بما تعملون بصير". وداود جمع فى سيرته بين عملين متباعدين: التغنى بآلاء الله وأمجاده بصوت رخيم كانت الطيور ترجِّع صداه وتشارك فى مزاميره، والمهارة فى الصناعات العسكرية والمدنية التى تحوِّل الحديد إلى سيوف ورماح ودروع وإلى أوان شتى من جفان وقدور! إن الفقه فى الدنيا جزء من العقل الذى يفقه الآخرة، ولن يستطيع نصرةَ الإيمان أبلهُ ولا قاعدٌ. وعندما تحول المسلمون إلى عالم ثالث أو رابع نال منهم خصومهم، وأَمْسَوْا معرَّةً لدينهم.

* هناك أديان أرضية وأخرى سماوية غام أفقها وانتشر فيه دخان من الأوهام والأباطيل، فشاع حديث عن الله لا يليق، واصطدم العلم والدين، وهما حقيقة واحدة. وكم من متدين ظلم الوحى بأهوائه: "وما لهم به من علم. إنْ يتَّبعون إلا الظنَّ، وإن الظن لا يغنى من الحق

شيئا". إن الدين علم مقطوع به، والوحى حصانة للعقل وضمانة لأحكامه. وما خالف العقل لا يكون دينا، ولبعض الناس مرويات لا سناد لها يجعلونها دينا، وما هى بدين.

* "إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور". وسياق الآية ظاهر فى أن المقصود بالعلماء هنا علماء النبات والحيوان، وعلماء طبقات الأرض، وعلماء الفيزياء والكيمياء، فضلا عن علماء الطب والهندسة والفلك. لقد تتبعنا أقوال هؤلاء وسمعنا حديثهم عن الله تبارك وتعالى، فإذا هم يذكرون عظيما أهلا للتحميد والتمجيد والإفراد بالعبودية.

وفى كـل شـىءٍ لـه آيـةٌ   تـدل علـى أنـه الواحـدُ

وعلى هذا المحور تدور معانى القرآن. فالإيمان وليد عقل ذكى باحث، والدين ليس إلا عقلا مؤمنا وقلبا استقرت إلى الله وجهته! وقد حملت الأمة الإسلامية حقائق الدين فى إطار هذا المعنى، وطُلِب منها أن تمثِّله بين الناس.

* عندما أنظر إلى الشمس فى كبد السماء أحسبها تزيد قليلا عن شبر فى شبر! ثم أذكر أقوال العلماء: أنها تكبر أرضنا مليونا ونصف مليون مرة، وأن المسافة التى تباعدنا عنها ١٥٠ مليون كيلومتر، وأن الكواكب التى تتبعها تسعة كواكب من بينها أرضنا، التى تحمل ستة مليارات من البشر وحدهم، وأن هذه الشمس وتوابعها تجرى بين شموس أخرى لا تحصَى فى مجرة مديدة الآفاق، وأن هذه المجرات على كثرتها المذهلة تدور فى زاوية محدودة من الكون الفسيح الذى لا تُعْرَف آمادُه ولا تُدْرَك أبعاده! قلت وأنا مبهور: ما أوسع الكون! واستتليت وأنا حائر: وما أوسع خالقه! وقرأت "ولله المشرق والمغرب. فأينما تولوا فثَمَّ وجه الله. إن الله واسع عليم"

* أهل الدين يتعرفون على حاجات الآخرين ويسارعون فى قضائها. فالدين مع الضعيف حتى يقوى، ومع الفقير حتى يستغنى، ومع اليتيم حتى يكبر، ومع الهائم حتى يستقر. وقد فرَّط بعض المنتمين إلى الدين فى هذه الواجبات فتولدت فلسفات تكفر بالله واليوم الآخر كانت الشيوعية آخرها. استطاعت أن تحكم نصف العالم أو تؤثِّر فى النصف الباقى. ولو أن أهل الدين، لا سيما المسلمون، ارتبطوا بدينهم وساروا به سيرة حسنة ما ظهر هذا الإلحاد. إن الإيمان أخو العطاء والعدالة، والشرك أخو الأثرة والقسوة. وتدبَّرْ قوله تعالى: "أرأيت الذى يكذب بالدين؟ * فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم * ولا يحضُّ على طعام المسكين". وسورة "الماعون"، على وجازتها، ترفض العبادة الصورية، وترى أن إعانة محتاجٍ شرط فى الإيمان كإقامة الصلاة وأدائها بخشوع، وتهدِّد بالويل مانعَ الماعون عن محتاجٍ إليه.

* أما الإسلام فأفقٌ آخَرُ زاوج بين الروح والجسد، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة، وأكبر الإنسان وأعلى رسالته، وأقام علاقته بالله وبالناس على دعائم عقلية راسخة... قال الشيخ رشيد رحمه الله بعد بحث طويل: "مَنْ فَقِه ما حققناه عَلِمَ أن حجة الله تعالى فى إكمال

الدين بهذا القرآن الكريم، وخَتْم النبوات بمحمد عليه الصلاة والسلام، وجَعْل شريعته عامة دائمة. هذه الحجة لا تظهر إلا ببناء هذا الدين على أساس العقل، وبناء هذه الشريعة على أساس الاجتهاد، وطاعة أولى الأمر الحقيقيين، وهم جماعة أهل الحل والعقد. فمن منع الاجتهاد فقد منع حجة الله تعالى وأبطل مزية هذه الشريعة على غيرها، وجعلها غير صالحة لكل الناس فى كل زمان... فما أشد جناية هؤلاء الجهال على الإسلام. يقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء...". فمن هم أولئك اليهود والنصارى الذين نُهِينا عن موالاتهم؟ إن السياق وحده هو الذى يحدد أوصاف هؤلاء، والآيات التى تليت من قبل أو التى تُتْلَى من بعد تشرح حقيقتهم.

وعند التأمل تظهر لنا ثلاث فئات: الفئة الأولى تكره شريعة الإسلام، وتجمح بها الكراهية جماحا شديدا. فهى تفضل عليها كل شرائع الجاهلية. وأذكر أن مسيحيا عربيا سئل: إنكم تَدَعُون ما لقيصر لقيصر، وتُذْعِنون لأى حكم يضمن لكم شعائركم الدينية، فلم لا ترضَوْن بشريعة محمد، وهو عربى منكم، وتتركون المسلمين يستعيدون أحكامهم السماوية التى سلبهم إياها الاستعمار الصليبى؟ فكان جوابه: نحن نقبل تشريعا أستراليا أو أمريكيا، ولا نقبل شريعة محمد. إن المسلمين سيتطاولون فى ظل تشريعهم، ولا نحب ذلك! موقف هؤلاء الكتابيين واضح قديما وحديثا. وفيهم نزلت الآيات: "وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتَّبِع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك. فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. وإن كثيرا من الناس لفاسقون * أفَحُكْمَ الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟". هذه فئة من الناس أخرجتها الضغائن عن وعيها، وحرمتها الإنصاف، فلا غضاضة فى النهى عن موالاتهم. إنك قد تعدل مع من تكره، ولكنك لا تستطيع محبته.

الفئة الثانية من هذا الصنف هم المائلون بقلوبهم إلى أعدائنا، وتُخَاف خيانتهم عندما تسنح فرصة! إن المسلمين يشتبكون فى حروب مع أعدائهم، وينبغى أن تكون جبهتهم الداخلية متصلة لا ثغرة فيها، فإذا وُجِد من يتمنى لهم الخبال وينتظر لهم الهزيمة فالأمر صعب. وقع هذا قديما وذكرتْه الآية الكريمة: "فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة. فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرُّوا فى أنفسهم نادمين". إن دولة الإسلام الأولى كان فيها رعايا من أهل الذمة. وعندما اشتبكت فى حرب مع الاستعمار الرومانى لم تفكر فى تجنيدهم حتى لا تحرج ضمائرهم! فقد يؤذيهم أن يخاصموا إخوانهم فى العقيدة فيقتلون ويقتلون. واكتفى الإسلام بإسهامهم المالى فى نفقات الدولة. وأقل ما ينتظره الإسلام وهو يحارب هذا الاستعمار الهاجم من الشمال ألا تكون هناك قلوب تتعاطف معه، وتؤمِّل فى هزيمة المسلمين.

الفئة الثالثة ممن نُهينا عن موالاتهم هم الساخرون من شعائر الإسلام المستهزئون بالصلاة والأَذَان. وقد وصفت الآية أحوالهم: "يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُوًا ولَعِبًا من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلكم والكفارَ أولياءَ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين * وإذا ناديتم إلى الصلاة اتَّخَذوها هزوا ولعبا. ذلك بأنهم قوم لا يعقلون". والواقع أنه من السفه السخرية من العبادات المقررة واتخاذ الأذان مادة للضحك! أى صداقة ينتظرها من يفعل ذلك إلا صداقة خليع لا يعرف ربه، ولا يرقب ما عنده؟ وهناك من يغضبون أشد غضب عند ما يسمعون كلمات الأذان، ويتمنَّوْن لو سكت قائلها. إن الإسلام أبعد دين عن الإكراه، وأتباعه أبعد الناس عن كراهية الآخرين إذا كانت نفوسهم سهلة، وسرائرهم نقية: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟". ويمكن أن تقوم شركة تجارية بين مسلم وغير مسلم أساسها الأمانة والصدق. ويمكن أن تتكون أسرة من مسلم وأخرى غير مسلمة على قاعدة من الود المتبادل والرحمة. ويمكن أن تنشأ علاقات إنسانية حميمة بين أتباع أديان مختلفة بعيدا عن التظالم والغش والبغضاء. لقد حدد الإسلام المواضع التى أَذِن فيها للمؤمنين أن يغضبوا ويقاطعوا، فلتختلف الأديان، فتلك مشيئة الله: "ولذلك خلقهم". ولكننا أمة تحترم نفسها، ومن حقها أن يحترمها الآخرون، وأن يقيموا علائقهم معها على العدل والأدب! فهل ذلك صعب؟

إنه صعب على يهودى يظن البشر دونه بأصل الخلقة! صعب على متعصب يعتنق الأخطاء فى حرية، ويضن على الآخرين أن يعتنقوا الصواب ويمروا بسلام! وذاك ما عنته الآية الشريفة: "قل: يا أهل الكتاب، هل تنقمون منا إلا أن آمنَّا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنْزِل من قبل وأن أكثركم فاسقون". والواقع أن مبدأ "الولاء والبراء" قائم على هذه الحقيقة، ولا أثارة فيه لقطيعة ظالمة أو تعصب ذميم! من حق أصحاب الإيمان ألا يستوحشوا به فى الدنيا، بل ينبغى أن يألفهم ويلتف بهم أمثالهم فى الاعتقاد: "إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ". ومن شعائر الإسلام الحب فى الله والبغض فى الله ولكنه حب لا أثرة فيه وبغض لا ظلم معه. ومن خصائص الدين الحق أنه يتجاوز عن الخطأ العابر ويتشدد مع الشذوذ الفاجر. وقد تدبرت موقف نبينا ﷺ مع ماعز فوجدته يحاول رده عن إقراره، ومسامحته فى ظلمه لنفسه مادام قد تاب. غير أن ماعزا أبى إلا تطهير نفسه بالموت فكان له ما أراد. وكان عيسى عليه السلام يحاول مثل ذلك مع المرأة التى أتى بها اليهود لرجمها! فالقدر ليس بالمرصاد لكل عاثر يريد الإجهاز عليه، والأنبياء مصلحون لا جلادون. غير أن الفرق واسع بين الخطأ العابر والخطيئة الفاجرة، والفرق واسع بين زلة قدم وتقليدٍ يُتَّبَع. وهو أوسع بين هفوة فرد وتشريعٍ قائمٍ. إن الأنبياء جميعا ضد الجريمة إذا تحولت إلى عرف عام ونظام سائد.

والغريب أن أهل الكتاب قديما وحديثا تميزوا ببرود غريب أمام المعاصى... حتى أمست الحضارة الغربية مشحونة بصنوف الدنس مع صمت مطبق من الكهنة المشاهدين! ثم ألا يستحق التأمل الطويل أن ترى من هؤلاء من يكره الإسلام ويهادن الإلحاد؟ ومن يعلن الصلاة من أجل مرضى الإيدز، ولا يكترث أقل اكتراث لضحايا الصهيونية والاستعمار.

* ولا تزال جماهير فى أوربا وأمريكا تبحث عن الحق، وترتاب فيما ورثت. وما يصدها عن الدخول فى الإسلام إلا الحال الزريَّة التى عليها المسلمون. فالمسلمون بلا شك صورة سيئة منفرة عن دينهم.

* إن التفكير خاصة العقل الحى، وسمة الإنسان الراشد. وكل تدين ينبو عن منطق العقل، ويرفض حقيقة الفطرة، فهو لغو من عند الناس، وليس وحيا من عند الله سبحانه. فى الوحى الإلهى من قديم: "وقال الله: لا تتخِذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد. فإياى فارهبون * وله ما فى السماوات والأرض، وله الدين واصبا. أفغير الله تتقون؟". وتعود سورة "النحل" إلى تصنيف النعم التى أفاءها الله على الناس: "والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها. إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون". بين ممات الأرض وحياتها ترتد الأرواث والفضلات التى أفرزتها البطون حبوبا وفواكه وثمرات بهية. من صانع هذه النقائض المتباعدة؟ إنه الله وحده: "وإن لكم فى الأنعام لعبرة نُسْقِيكم مما فى بطونه من بين فَرْثٍ ودمٍ لبنا خالصا سائغا للشاربين". هل صنعت البقرة الحلوب شيئا من هذا؟ إن الكَرِش وما يضم ليس منبعا ينبجس منه هذا الحليب! وهل تدرى الدجاجة وهى تضع بيضتها ما فعلت؟ وكيف مزجت الزلال بالحديد بشتى الأغذية الأخرى؟ إن الله صانع هذا كله، ولكن بعض الناس يأكل ويكفر! "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلُكى سُبُلَ ربك ذُلُلًا يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاء للناس. إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون". إن عسل النحل وضعت فيه كتب تصف آثاره وفوائده. لقد استطاعت هذه الحشرة أن تستخلصه من الحقول والحدائق، والتلال والحشائش، وتجمعت زمرا بين شغَّالات وملكات لتقدمه بعد لَأْى غذاء ودواء للناس، والناس يلتهمون ولا يشكرون!

* والهيمنة على قوانين الكون كما تنفع الإنسان فى الحياة الدنيا ماديا فهى تقدِّره على إعزاز عقائده والدفاع عنها. وما تأخر المسلمون وذلوا أمام أعدائهم إلا لتخلفهم فى هذا الميدان! "تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟".

* إن معركة هائلة سوف تدور بين العرب واليهود، ولن يعدم اليهود نُصَرَاءَ لهم من جماهير الأوروبيين الذين يحقدون على الإسلام ولا يعرفون لا عيسى ولا مُحَمَّدًا. والسؤال الذى لابد من الإجابة عنه: متى يدخل المسلمون فى الإسلام؟ متى يصطبغون بروح الإسلام ويعيشون فى ظل أحكامه؟ متى يمشون تحت عَلَم القرآن؟ إن نبيهم قاد أمته من المسجد، ورفع

مستواها العلمى والخلقى من صفوفه المتراصة وراءه. فلما اتصلوا بالمشارق والمغارب نقلوا الجماهير من الأرض إلى السماء.

* "والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا". إن تلاوة القرآن تتطلب يقظة القلب، وحضور الوعى، وتذوق المعانى، وشهود المتكلم سبحانه! فمن قرأ وهو غائب الفؤاد لم يستفد من حركة اللسان شيئا.

* يصنع الإسلام من أفراد الأمة ربانيين يجعلون الله غايتهم، ورضوانه أملهم، والاستعداد للقائه شغلهم! هل معنى ذلك أنه يصنع أمة دراويش؟ كلا. إنه يصنع أمةَ كَدْحٍ وجهادٍ تخدم الدنيا والآخرة معا. والمهم أنها عندما تباشر شؤون الحياة تدرك أن الله رقيبٌ عليها، وأنها مسؤولة عن إحسان كل ما يخرج من بين أصابعها، ولها على ذلك خير الدنيا والآخرة".

* بَيَّن جل شأنه أن الكون محكوم بسنن ضابطة، وأن الكواكب لا تتجول فى الفضاء كما يحلو لها. إن لها مسارا مرسوما وسرعة محددة، وعليها إشراف دقيق! وكذلك ما ينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة أو له ساق تمتد على الثرى، كلاهما خاضع لنظام محكم: "وأنبتنا فيها من كل شيء موزون". إن جنبات الكون تشبه آلات الساعة التى تحصى الزمن: "الشمس والقمر بحُسْبان * والنجمُ والشجر يسجدان * والسماءَ رفعها ووضَع الميزان * ألَّا تطغَوْا فى الميزان". وقد يظهر الفساد فى البر والبحر بسبب فوضى الناس، وقد يقع ثقب فى طبقة "الأوزون" بسبب الإسراف والطغيان، بيد أن قياد الكون لن يضطرب فى يد خالقه! ولن يختل التوازن العام فى قوانين المادة، إلى أن يأذن الله بفناء العالم وإعادة الخلق بعد بدئه وإفنائه. ونحن مكلفون خلال هذه المدة بإقامة العدل سواء فى تبادل السلع أو فى إعطاء كل ذى حق حقه من الناحية الإدارية والاجتماعية: "وأقيموا الوزن بالقِسْط ولا تُخْسِروا الميزان".

* مُحَمَّد نبى العقل والنور، وصاحب الكتاب الذى بنى الإيمان على الفكر والنظر والاستدلال والاستقراء.

* الإسلام هو الفطرة السليمة والطبيعة الإنسانية المستقيمة. إنه حركة العقل المتحرر من التقاليد، الباحث عن الحق، المتجرد عن الأهواء.

* إن الحكم الآن صنع شبكة من العلاقات المادية والأدبية تمنع أى فرد من أن يعيش فى قوقعة. ومعنى ذلك أنه لابد من الحوار والأخذ والرد وعرض وجهات النظر والاعتماد على الدليل فى الإقناع والاقتناع وإعطاء الرأى المعارض حق الحياة ما دام مصحوبا بالإخلاص والتجرد.

* إن التفكير الواعى العميق أساس هذه الرسالة، سواء فكر المرء وحده أم استعان بأصدقائه. المهم أن يستيقظ العقل النائم فيرى آيات ربه فى آفاق العالم الذى يعيش فيه، ومُحَمَّد عليه الصلاة والسلام مرسل الصيحة التى تنبه الفكر الخامل، وترشد الشعوب التائهة.

* وأنا احترم حرية الرأى إلى أبعد حد، ولكنى أكره الغباء والافتراء ومساندة الدعوى بالعصا واستغلاق العقل بحيث تعجز كل مفاتيح الحقيقة عن فتحه.

* عرفنا صدق مُحَمَّد بعدما عرفنا الله بعقولنا، وبعدما رأينا الوحى المحمدى طابق العقل. انسب لله مَنْ حمَّد ومجَّد، ولم يقصِّر أنملةً فى تقديسه وتوحيده! إن العقل أفضل مواهب البشر، وما جرى على لسان مُحَمَّد صورة طبق الأصل لما ينبغى لله من عظمة وخشوع وفق أدق مقاييس العقل البشرى.

* لقد بنى القرآن الإيمان على حركة العقل الباحث اليقظ، ثم صاغه فى قالب من البيان المعجز.

* والقرآن فى بنائه للإيمان يعتمد على العقل الإنسانى، ورفضه للتُّرَّهات.

* إن العقل أثمن ما وهب الله للناس، والإيمان الذى يقوم على تخدير العقل أو تمويته لا وزن له ولا خير فيه. ولكن جماهير غفيرة تنحى العقل جانبا ثم تتكلم، فكيف نسمع لها؟

* إن العقل البليد الذى لا يدرس الحياة ولا يستعد لما بعدها ليس هو العقل المؤمن. وسورة "المُلْك" تنبه إلى هذا فى كلمات واعية: "الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملا". "الذى خلق سبع سماواتٍ طِبَاقًا. ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت". "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح". والمحزن أن العقل الإسلامى الآن جهول بالكون، تائه عن قوانينه، ضعيف الخبرة بها والقدرة على استغلالها. وهنا شىء آخر انضم إلى هذا العجز: شراهة فى طلب الملذات والعكوف عليها مع السماع إلى أغانٍ تقول له: الدنيا ضحك ولعب. وعش أيامك، عش لياليك. واليوم الفائت لن يعود أبدا، فلماذا تضيعه؟ وهكذا تجمعت على المسلمين كل الهزائم المادية والروحية. فلا عجب إذا هُدِّدوا بمصاير الكفار الذين إذا رُمُوا فى جهنم "سألهم خزنتها: ألم يأتكم نذير؟ * قالوا: بلى قد جاءنا نذير فكذَّبْنا وقلنا: ما نزَّل الله من شيء". "وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير". المفروض أن العقل المؤمن أخبر بالحياة وأذكى فى الكون من العقل الملحد لأن الإيمان بالله يقوم فى الإسلام على تأمل فى الكون ووعى بآيات الله فى آفاقه! إنه لشىء يثير الحزن والقلق أن نجد المسلمين فى مؤخرة القافلة البشرية على النحو الذى يقول فيه الشاعر:

ويُقْضَى الأمر حين تغيب تيمٌ ولا يُستَأْمَرون وهم شهودُ!

* قد يكون القوام الممشوق بعض ما امتاز به بنو آدم، ولكن امتيازهم الأول، ولعله أيضا الأخير، هو ذكاء العقل واستقامة الفطرة. إن نفخة من روح الله الأعلى سرت فى أوصال الإنسان فجعلته كائنا خطير الشأن.

* إن التفكير خاصَّةُ العقل الحى، وسِمَةُ الإنسان الراشد، وكل تدين ينبو عن منطق العقل، ويرفض حقيقة الفطرة، فهو لغو من عند الناس، وليس وحيا من عند الله سبحانه.

* بين القرآن الكريم أن الإنسان امتاز على الدواب بعقله، فإذا فقد هذا العقل نظر ولم ير، وسمع ولم يَعِ، ونطق بالباطل، وفقد أهليته لهداية الله، وعالَنَ بإنكاره لوجوده ولقائه.

* مرة أخرى يعود القرآن إلى بناء الإيمان على البرهان، ويؤكد أن الدين ليس عقلا خرافيا يتبع الترهات! إنه عقل يحترم الدليل ويحتفى به. إن العقل مناط التكليف وسلم الارتقاء، وأقرب الخلق إلى الدواب هم الكافرون بالله البعيدون عن هداه.

* خلال ثلاثين سنة من نزول "اقرأ" تحول رجل واحد إلى أمة رائعة تأخذ لربها ولنفسها ما تريد! كان يستحيل فى الخيال أن تتحول أسرة فقيرة فى مكة إلى دولة تبسط سلطانها على العالمين! ما هى الوسائل؟ "يعبدوننى لا يشركون بى شيئا"، "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم تُرْحَمون"! أهذه وسائل تنهض بها أمة، ويسقط بها جبروت حكم العالم كله عشرة قرون؟ "لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض". وبديهى أن هذه الوسائل لا يفهمها العجزةُ والبُلْهُ، إنما يفهمها ويحشدها رجال فقهوا سياسة الدنيا والآخرة، وخرجوا من سلطان الأوهام والدنايا، وارتفعوا إلى سيرة مُحَّد وصحابته.

* يعتبر عربيا أى امرئ من القارات الخمس استعرب وجاد فى لغة القرآن. فالعروبة ليست دم جنس معين. وقد أسلم قديما من الفرس والروم مَنْ خدم القرآن ولسانه أكثر ممن وُلِد فى بطحاء الجزيرة! والمهم ألا تكون على القلوب أغشية وألا تكون على الحواس عِلَلٌ تمنع من حسن السمع والنظر. وأى امرئٍ سَوِيٍّ يستطيع بعدئذ أن يتبع مُحَّدا وهو يناشد البشر أجمعين: "قل: إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلى أنما إلهكم إله واحد. فاستقيموا إليه واستغفروه. وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون". هل الاستقامة على الصراط والاستغفار من الخطإ تكاليف شاقة؟ وهل توحيد الله والرحمة بالفقراء واجبات صعبة؟ إنها كذلك عند أولى الأثَرة والكِبْر! ومصير هؤلاء كالح. ولذلك هدد القرآن العرب، الأولين والآخرين، بالويل إذا طال إعراضهم عن الحق وجفاؤهم لرسوله. إنه مصير آبائهم الأقدمين من عاد وثمود! "فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود". إن عاقبة الأخلاق القبيحة متشابهة، وإن تباعدت السنون. لماذا هلكت عاد؟ "فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة". ولماذا هلكت ثمود؟ "وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى". إن بطر الحق وغَمْص الناس عند عاد، وإيثار الغى على الرشاد والباطل على

الحق عند ثمود، هو ما أودى بهما. فهل ينجو غيرهما من هذا المصير إذا تخلق بهذه الأخلاق؟ كلا. إن الله لا يصلح عمل المفسدين. إننى أنظر إلى عرب اليوم وموقفهم من الإسلام فيغلبنى التشاؤم. ثم إن عذاب الدنيا لا يغنى عن عذاب الآخرة

ويظهر أن استنارة العقل لا تستلزم استنارة القلب، وأن الله قد يعذر أصحاب فكر محدود ولكنه لا يعذر أصحاب هوى غالب ونية مغشوشة! ومن حراس الشعائر الدينية من يستعبدهم الشح المطاع والأثرة الجامحة. والله أعلم بسرائر الناس: "والله يعلم المفسِد من المصلِح". وهو يقول فى هذه السورة: "إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها. أولئك هم شر البرية". ولست أخاف من الله أن يظلم أحدا، فهذا مستحيل! إنما أخاف من الله ألا يقبل توبة وأن يحبس فضله. وهذا الخوف الأخير مردود لأنه غافر الذنب وقابل التَّوْب، وما يَهْلِك على الله إلا هالك. وقد خُتِمَت السورة بوعدٍ حسنٍ للمؤمنين الصالحين على شرط أن يراقبوا الله ويصطبغوا بخشيته: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريَّة * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا. رضى الله عنهم، ورضوا عنه. ذلك لمن خَشِى ربَّه". إن الجيل الذى غير العالم قديما كان نموذجا حيا للقرآن. كان إذا دخل بلدا أسرعت إليه العدالة والرحمة، ووجد الضعفاء فى كنفه الكرامة والقوة! أما الآن فإن دار الإسلام لها شأن آخر.

* القلب القاسى أبعد شىء عن الله! وقد رأيت فى تجاربى أن الفرق بين تدين الشكل وتدين الموضوع هو قسوة القلب أو رقته. بعض الناس فى طباعهم جلافة وقساوة لا تخفيها صور العبادات التى يستسهلون أداءها. ارتكب أحدهم خطأ معى، ثم عرف الحق فكره الاعتذار وتمنى لو لم يعرف هذا الحق! هذه طباع بعض الخوارج. قد يكرهون أهل الإيمان، ويتساهلون مع أهل الكفر! وما تقول فى امرئ يرى أن صلاح الدين والدنيا لا يتم إلا بقتل على بن أبى طالب فيقتله مستبيحا دمه ومتقربا إلى الله به؟ لقد فهمت لماذا ادعى واصل بن عطاء الشِّرْك هو ومن معه عندما قابلوا ثلة من الخوارج فسألوهم عن دينهم! لو عرفوا من هم لقتلوهم! قالوا: "نحن مشركون مستجيرون" حتى يعاملوا بمقتضى الآية الكريمة: "وإِنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْه حتى يسمعَ كلام الله ثم أَبْلِغْه مأمَنَه". إن قسوة القلب لعنة من الله نستعيذ به منها سبحانه.

* من شعائر الإسلام الحب فى الله والبغض فى الله، ولكنه حب لا أثرة فيه، وبغض لا ظلم معه. ومن خصائص الدين الحق أنه يتجاوز عن الخطإ العابر ويتشدد مع الشذوذ الفاجر. وقد تدبرت موقف نبينا ﷺ مع ماعز فوجدته يحاول رده عن إقراره، ومسامحته فى ظلمه لنفسه ما دام قد تاب. غير أن ماعزا أبى إلا تطهير نفسه بالموت، فكان له ما أراد. وكان عيسى عليه السلام يحاول مثل ذلك مع المرأة التى أتى بها اليهود لرجمها! فالقَدَر ليس بالمرصاد لكل عاثر

يريد الإجهاز عليه، والأنبياء مصلحون لا جلادون. غير أن الفرق واسع بين الخطإ العابر والخطيئة الفاجرة، والفرق واسع بين زلة قدم وتقليدٍ يُتَّبَع، وهو أوسع بين هفوة فرد وتشريعٍ قائمٍ. إن الأنبياء جميعا ضد الجريمة إذا تحولت إلى عرف عام ونظام سائد. والغريب أن أهل الكتاب قديما وحديثا تميزوا ببرود غريب أمام المعاصى حتى أمست الحضارة الغربية مشحونة بصنوف الدنس مع صمت مطبق من الكهنة المشاهدين! ثم ألا يستحق التأمل الطويل أن ترى من هؤلاء من يكره الإسلام ويهادن الإلحاد، ومن يعلن الصلاة من أجل مرضى الإيدز، ولا يكترث أقل اكتراث لضحايا الصهيونية والاستعمار؟

* يقول الله لكفار العرب: "ألم يَرَوْا كم أهلكنا مِنْ قبلِهم من قرنٍ مَكَّنَّاهم فى الأرض ما لم نمكِّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين؟". هذه مصاير الحضارات عندما تتفسخ، ومصاير الأمم عندما تستكبر وتطغى. تبقى على ظهر الأرض حينا ثم تختفى تحتها مخليةً المكان لآخرين! ونسأل: هل هذا شأن الكفر المحض؟ أم القانون عام يشمل مع الكافرين أمما أخرى خلطت الحق بالباطل، والهوى بالهدى؟ أو بعبارة أخرى: هل يستوى الذين أعرضوا عن الإيمان كله، والذين لم يكسبوا فى إيمانهم خيرا؟ الظاهر من الآيات الواردة فى السورة تشرح هذه القضية أن الكل سواء.

* نحن لا نحارب معتدين ولا نُكْرِه أحدا على اعتناق دين! إننا نعرض الإسلام فقط على الآخرين. "فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر". فإذا آثر أحد الكفر قلنا له: لا عليك، ولن يصيبك منا أذى! كل ما نطلبه منك أن تتركنا ندعو غيرك وألا تتعرض لهذا الغير إذا استجاب لنا. إن الإسلام فى نظرنا هو العلاقة الفذة بين الله وعباده، وقد كلفنا الله بالبلاغ وإيقاد الضوء أمام من يجهل. فلا تعترضْ طريقنا ونحن نبلغ الناس.

* لقد رأينا العبث الشديد بالمواثيق الدولية وبحقوق الإنسان، ورأينا ألوفا مؤلفة من المسلمين يغار عليهم، فيَدَعُون بيوتهم لمن يسكنها ويعيشون هم فى العراء عشرات السنين. فهل الرضا بذلك شرف؟ وهل الغضب لذلك تعصب دينى؟ إن الله يحب العدل، فأين العدل فى استضعاف المسلمين على هذا النحو الأثيم؟ الحق أن استنهاض الهمم عالميا لتغيير هذه الأوضاع عبادة لله، وإنصاف للبشر، واحترام للإنسانية. والدول الكبرى لا تهتم إلا بمصالحها الخاصة، ولا تكترث بما يصيب الآخرين! وهذا لا يجوز. ومن هنا كان الحب فى الله والبغض فى الله من عناصر الإيمان، فإذا أحببت جائرا لنفعٍ يعود عليك أو كرهت عادلا لطمعٍ لم يسقه إليك، فاتهم إيمانك! إن المشاعر المعتلة دليل إيمانٍ مزيف.

* إن الأمة الإسلامية لم تُسْتَثْنَ من جملة الأمم الأخرى، ولم تنل شيئا من المحاباة، بل قيل لها: إن الجزاء من جنس العمل. وإذا كانت الأمم البائدة قد جَنَتْ ما غرستْ، وذاقت ما قدَّمت، فإن المسلمين معاملون بالمنطق نفسه.

إننى إنسان أعيش فى هذا العالم، وأعرف قواه ونواميسه وخيراته ودلالاته! ألا يقودنى هذا إلى الله والتسبيح بحمده والإقرار بمجده؟ لأتركْ جانبا الخلاف بين الأديان وأتباعها، ولْأُعَوِّلْ على عقلى الذى سأحاسَب به، ولْأفكِّرْ فى مصيرى بعد هذه الدنيا. لماذا أنسى ربى وأبتعد عن صراطه المستقيم؟ يجب أن أنعطف إليه وألوذ به. وها قد ظهر إنسان يصيح بأهل الأرض أن يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بربهم. لماذا الصد عنه؟ ألا يستحق هذا الداعى المتجرد أن أُصِيخ إليه وأتدبر دعوته؟ "ربَّنا، إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أنْ: "آمِنوا بربكم" فآمنَّا". ربنا، فاغفر لنا ذنوبنا وكَفِّرْ عنا سيئاتنا وتَوَفَّنا مع الأبرار". إن الله يجيب هذا الدعاء بأنه لا يضيع عمل عامل من الإنس أو الجن، من السود أو البيض. لا يهم العنصر أو النسب، المهم العمل الصالح. ماذا يتعاظم الناسَ عن الإيمان بإنسان يدعو إلى الصلاح على ضوء من الخشوع لله والاستعداد للقائه؟ ماذا فى دعوته يؤلب القلوب ضده أو يحرض الأحزاب على قتاله؟ لكن العميان من عَبَدَة الأصنام والمتعصبين من أهل الكتاب تألبوا عليه وقاتلوه، واضطروا أتباعه إلى هجرة وطنهم وتحمل أنواع الأذى فى سبيل معتقدهم. فليكن جزاؤهم كما وصف الله: "فاستجاب لهم ربهم أنى لا أُضِيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى. بعضكم من بعض. فالذين هاجروا وأُخْرِجوا من ديارهم وأُوذُوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم ولأُدْخِلَنَّهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار". إن الكفار قد تعلو رايتهم، وتنتصر جيوشهم. ليكن، فذلك إلى حين.

* المباهاة بالأديان لا تجدى أصحابها فتيلا. المهم هو العمل الصادق والسلوك الراشد.

* فى عصرنا هذا، كما يقول محمد عبده، يوجد من يتحدث عن الإسلام فيثنى عليه أعظم الثناء يقول: "أى دين أصلح إصلاحَه؟ أى دين أرشد إرشادَه؟ أى شرع كشرعه فى اكتماله؟". فإذا سئل الواحد منهم: "ماذا فعل للإسلام؟ وبماذا يمتاز على غيره من أتباع الأديان الأخرى؟" لا يُحِير جوابا.

* ما دام الظلم لا يُرْدَع إلا بالسيف فليحمل المسلمون السيف، وما دام الإنصاف لا يتحقق إلا بالقتل فليخض المسلمون المعارك حتى يرتفع لواء العدالة. إننا حِرَاصٌ على السلام، وفى ظله نبلِّغ رسالتنا وافرين. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. لكن ما العمل إذا كُمِّمَتْ أفواهنا، بل إذا أُوجِع المسلم خَسْفًا حتى يترك دينه؟ ما بُدٌّ إذن من قتال! والمثير أن فوارق العدد لا وزن لها فى هذا القتال، فالقلة تتصدى للكثرة، والواحد يثبت أمام العشرة. والسبب أن الله ظهير للمؤمن إذا قاتل، فهو عندما يضرب تضرب معه قوى الأرض والسماء. إنه عطاء لقدرة الله المنتقم من أعدائه بعدما توقحوا وتبجحوا. وهذا معنى الآيات: "يا أيها النبى، حرِّض المؤمنين على القتال: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون". وأنا مع المحققين فى أن هذا هو الحكم

الأصلى الثابت الدائم، وأن الثبات أمام اثنين هو عند الضعف الطارئ أو الظرف العارض المخفف. فإذا زال رجع الحكم إلى أصله، وهو تصدى الواحد لعشرة! وذلك معنى قوله تعالى: "الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. والله مع الصابرين". وفى الحروب العادية يستطيع بعض الجنود المتحصنين فى معاقلهم أن يقاوموا جيشا جرارا. وفى حرب العبور الأخيرة استطاعت ثلة من الجنود المشاة أن تمزق فرقة من المدرعات اليهودية. وعلمت أن جنديا مصريا أوهم العدو أن معه قنبلة يدوية ورفع ذراعه مستعدا للهجوم فرفع الجنود اليهود أيديهم مسلِّمين وقادهم أمامه أسرى! إن الروح المعنوية للمقاتل الفدائى تجعل الواحد جمعا".

* شكا عُمَرُ قديما من عَجْز الصالح وخيانة القوىِّ. والواقع أن الأعمال الكبار لا تتم إلا بقَوِيٍّ تقيٍّ، أما الطيبون الضعفاء فلا خير فيهم.

* المزية التى ظهرت للخَضْر هنا لا تقدمه على موسى، فإن المزية لاتقتضى الأفضلية، ومكانة الرجل تجىء من مواهب كثيرة تلتقى فى شخصه، لامن موهبة واحدة يكون فيها مبرزا على حين يكون عاديًّا فى بقية صفاته. قد يكون المريض فى فراشه أحدَّ بصرا من عُوَّاده، فهل يفضلهم بهذه الميزة؟ إذا ذُكِر التدين سبق إلى الأذهان الزهد فى الدنيا والبعد عنها. والحق أن المتدين المعزول عن الدنيا أو العاجز فيها لاخير فيه ولاجدوى منه.

* يبين المولى سبحانه أن الناس خُلِقوا لإحسان العمل، وتلك وظائفهم فى الحياة.

* الحرب من قديم ناشبة بين فريقين: فريق ضائق بالدين كله يحتال لإسقاط رايته وإحباط غايته، وفريق يربط الناس بربهم ويشد أرجاء المجتمع بشُعَب الإسلام كلها. وحالة المسلمين فى هذا العصر رديئة، والهزائم المادية والمعنوية تحيط بهم، ولكن الله فتح أمامهم أبواب الآمال عندما قال لهم هنا: "وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضَى لهم". على أن هذا التمكين يحتاج إلى مقدمات طويلة، وجهود موصولة، فإن للقيادة والسيادة مؤهلات لا بد من تحصيلها. ويستحيل أن يتحقق لعاطل أمل. ولننظر ما فعل الرسول وصحبه عندما أرادوا إقامة دولة للإيمان. لقد مكثوا قرابة ربع قرن يصارعون الوثنية العربية حتى هزموها، ثم جمعوا بالتوحيد فلول العرب، ومالوا على الرومان والفرس ميلة واحدة، فما هى إلا جولات يسيرة حتى أصبح المسلمون الدولة الأولى فى العالم.

* وددت لو أن "لجنة" من المحايدين العقلاء نظرتْ فى العلاقة بين الشرق والغرب على امتداد التاريخ الماضى والمعاصر، وكشفتْ عن مثيرى الحروب الدامية بينهما، خصوصا المدة من زحف الرومان على العالم ووقوع غرب آسيا وشمال إفريقية فى أيديهم. أكان الإسلام معتديا حين حرر هذه الأقطار من براثنهم؟ ثم عاود أبناؤهم وأشياعهم الهجوم فى الحروب الصليبية

الأولى، فرُدُّوا على أعقابهم بعد مئات السنين من الكر والفر. ثم عادوا فى العصر الحديث بدءأ من هجوم نابليون على مصر، وموسولينى على ليبيا والحبشة، وتأليفه وزارة للمستعمرات الإسلامية، ثم اجتاح الفرنسيون دول المغرب كلها، واجتاح الإنكليز وادى النيل، وسقطت القارة الإسلامية فى يد أهل الكتاب، فهل نحن المعتدون فى هذه الحروب الآثمة؟ واليوم تسعى جماهير المسلمين إلى العيش بدينها فيُحْرَمون منه، وتُكَال لهم التهم. فأين الإنصاف فى هذا المسلك؟ والمسلمون يؤمنون بكل سطر فى كتابهم، ويودون العمل به، فلماذا يمنعونهم منه، ويتطاولون على صاحبه، ويتهمونه بالكذب؟ "وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطُّه بيمينك. إذن لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أُوتُوا العلم. وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون". إن الفتنة بمظالم أهل الكتاب شديدة. وقد شنوا فى هذه الأيام هجوما عاما ليردوا المسلمين عن دينهم ويُقَلِّصوا العمل به فى أضيق نطاق حتى يتم القضاء عليه شكلا وموضوعا.

* ظهرت أجيال فى الأمة الإسلامية جحدتْ طاقاتها ولاذت بالقعود والكسل، ففقدت حاضرها ومستقبلها جميعا لأنها استحمقت فى فهم القضاء والقدر، واعتنقت خرافة الجَبْر، واعتمدت على الثرثرة فى تسويغ فشلها وعجزها. ومع ضرورة العطاء والصدق والتقوى لا بد من ابتغاء وجه الله وتجريد النية من كل شائبة. وهذا مطلب عسير، فأغلب الناس يعبد المال والجاه، ويدور حول شخصه وأمجاده ومآربه. ويخيل إلىَّ أحيانا أن الرياء محور النشاط البشرى وأن الإخلاص أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون!

* ناقش القرآن فِرْيَةً صغيرة وجهها أعداء الإسلام إلى النبى ﷺ. قالوا: إن شخصا من أهل الكتاب أو من خبراء الوحى القديم هو الذى يلقن الرسول ما يجئ به. من هذا الشخص؟ وما الذى استبقاه فى دائرة الظل فلم يعلم به أحد؟ "ولقد نَعْلَم أنهم يقولون: "إنما يعلمه بشر". لسان الذى يُلْحِدون إليه أعجمى، وهذا لسانٌ عربى مُبِين". الإجماع معقود على أن القرآن معجزة اللسان العربى، فكيف انبجست بلاغته من فم أعجمى له بالوحى القديم علاقة قوية أو ضعيفة؟ ولماذا لم يتحدث هذا الشخص ويميط اللثام عن نفسه وعمله، ويُعِين قريشا فى عداوتها لمحمد؟

* الحق الذى خُلِقَت به السموات والأرض يظهر فى القوانين الدقيقة التى تحكم الذرة والمجرَّة، والنملة والفيل، والسهول والغابات، والبر والبحر! وهناك علوم جادة تبحث فى هذه الأرجاء كلها، وتعود بالعجائب الهاتفة بعظمة الخالق.

مقارنة تطبيقية بين تفسير سورة "الأنعام"

عند البهى وعند الغزالى

يقع تفسير سورة "الأنعام" لدى د. البهى فى كتاب مستقل فى ١٣٠ صفحة، بينما يقع نفس التفسير لدى الشيخ الغزالى فى ١٧ صفحة ليس إلا من كتاب واحد يضم تفسير القرآن كله. ويبدأ تفسير البهى بمقدمة من أربع صفحات يقدم لنا فيها موضوعات السورة فى الوقت الذى تشغل مقدمة الغزالى صفحتين وثلثا لا غير. وبعد المقدمة ينطلق د، البهى فى تفسير السورة مقسما إياها إلى مجموعات من الآيات، واقفا عند جملة من كل آية من كل مجموعة جملة بعد جملة، وآية بعد آية، ومجموعة بعد مجموعة حتى ينتهى من السورة، على حين ينطلق الشيخ الغزالى فى جولته داخل السورة واقفا عند كثير من النقاط الأساسية فيها وقفة معلق أكثر منه مفسرا، وقافزا فوق نقاط أخرى، فى أسلوب قوى محكم حى حار مدمدم غضبا فى حالات كثيرة ومتألم حزنا فى حالات أخرى لا تقل كثرة، ذائبا إعجابا فى مظاهر القدرة الإلهية كما تتجلى فى خلق الطبيعة والإنسان، ونافثا ألسنة النيران فى وجوه الكافرين والمتمردين والمنافقين والمتقاعسين، وراثيا لحال الأمة الإسلامية فى أوضاعها الراهنة، وهى بالفعل وبكل تأكيد تستحق الرثاء والسخط والغضب المدمدم.

يقول د. مُحَّد البهى فى مقدمة تفسير سورة "الأنعام": "تتناول سورة "الأنعام" الحوار مع المشركين المكيين، وهم ماديون، فى جانبى الاعتقاد والسلوك. كما تعقب على ادعاءاتهم فى كل جانب من هذين الجانبين بتوضيح هداية الله فيما يَدَّعُون، وقبل كل شىء بتوضيح وحدانية الله فى الوجود: ففى جانب الاعتقاد يذكر القرآن فى هذه السورة بعض ما عُرِف لهؤلاء المشركين من موقفهم من القرآن، ومن تصورهم له ورسالته إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. يذكر إنكارهم تكليف البشر بالرسالة وادعاءهم بقبولها لو نزلت بها الملائكة (آيات ٨، ٩١)، وطلبهم دليلا محسوسا ماديا، وليس الوحى بالقرآن، على صحة رسالته عليه السلام (آية ٣٧)، وادعاءهم أن القرآن من أساطير الأولين (آية ٢٥)، وإنكارهم للآخرة وإعلانهم الإيمان بالدنيا وحدها (آية ٢٩)، وادعاءهم أن الجن شركاء لله فى علم الغيب (آية ١٠٠)، وادعاءهم أن الله ينسل وأن له أولادا من بنين وبنات (آية ١٠٠).

وفى مجال ما يحلّ ويحرم فى التصرفات يسجل القرآن عليهم ادعاءهم بأن فى أموال الناس فى الزراعة والحيوان، وهى الأموال المتوفرة عادة فى كل مجتمع إنسانى: بدائى أو حضارى، نصيبا يخصص للأصنام، وينفق على خدمة هذه الأصنام (آية ١٣٦)، وادعاءهم أن أصنامهم تحث على قتل الأولاد خشية الفقر (آية ١٣٧)، وادعاءهم تحريم الأكل من بعض

ظهور الأنعام، وهى البحائر والسوائب والحوامى (آية ١٣٨)، وادعاءهم حل أكل بعض الحيوانات عندما تذبح دون أن يذكر اسم الله عليها اكتفاء بذكر أسماء أصنامهم عليها (آية ١٣٨)، وادعاءهم أن الأجنة التى فى بطون البحائر والسوائب والحوامى إن نزلت حية اختص بحِلّ أكلها الرجال وحدهم، وإن نزلت ميتة كانت للرجال والنساء على السواء (آية ١٣٩).

ولتقرير ما يحل وما يحرم فى مجال الحلال والحرام بعد عرض ما ينبغى وما لا ينبغى فى مجال الاعتقاد عقب ذكر كل عقيدة نسبت إليهم تعرضت هذه السورة فى آياتها الأخيرة لتوضيح هداية الله فى مجال السلوك خاصة، فأعلن القرآن خسران الذين يقتلون أولادهم سَفَهًا ويحرّمون ما رزقهم الله افتراءً على الله (آيات ١٤٠– ١٥٠). كما أعلن دستور الحلال والحرام لمجتمع إنسانى حضارى (آيات ٢٥١– ١٥٣). وأخبر بأن نزول الملائكة لا يكون برسالة للبشر ولا يتم إلا فى المرحلة الأخيرة للحياة (آية ١٥٨). وأعلن الهدف من وجود المجتمع الذى أرسل إليه الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الخلافة فى الدنيا ووضعه موضع الاختبار فى الطاعة (آية ١٦٥).

وسورة "الأنعام" بما تسجله عن المشركين المكيين وبما تفنّده من عقائدهم وسلوكهم وبما ترسمه من عقيدة سليمة وسلوك مستوٍ مستقيم لمجتمع إنسانى حضارى تسهم بقدر كبير فى القضاء على الخرافة، وعلى الاستغلال المنحرف فى البشرية عن طريق العقيدة. فإشراك الجن لله فى علم الغيب فى اعتقاد من يعتقد ذلك هو السبب فى خضوع الإنسان للأوهام، وفى تجميد حركته ونشاطه فى الحياة، وفى قبوله للاستغلال السيئ ممن لهم توجيه عقيدى عليه. وادعاء أن للأصنام نصيبا فى الأرزاق من الحيوان والنبات يؤخذ ممن يعبدون هذه الأصنام ليوزَّع على القائمين بخدمتها يمثل الاستغلال الحقير عن طريق استخدام الدين والعقيدة ممن يباشرون التوجيه به.

وليس أقل من أثر الخرافة والاستغلال السيئ للدين على الإنسان فى توجيهه وفى مواقفه وسلوكه فى الحياة تصوير المعبود، وهو الله ﷻ، بأنه على شاكلة الإنسان فى أنه يلد ذكورا وإناثا، إذ من شأن هذا التصوير إسناد النقص إلى الله، وهو العجز عن خلق الذكر والإناث إلا عن طريق الصاحبة والولد كما يفعل الإنسان. وهنا يكون لله شريك فى الوجود، وهو صاحبته. كما أنه من شأنه جواز رفع الإنسان إلى مستوى الله فى المعبودية. وهنا لا تستقر الوثنية فى المجتمع البشرى فحسب، وإنما مع ذلك تهدر قيمة الإنسان العابد لإنسان مثله لو رفع هذا الإنسان المعبود إلى درجة الله فى عبادته إبقاءً على هذه المشابهة.

وسورة "الأنعام" إذن توجه الإنسان ضد الاعتقاد فى الخرافة وتدعو إلى التخلص منها، وضد الاستغلال بالدين وتطلب عدم الوقوع تحت تأثيره، وضد التصور البدائى لله لأنه يَشِين الإنسان ويهدر كرامته. والقرآن عن طريق هذه السورة ينصح الإنسان إذن بمعرفة الواقع كما

هو، وبالتالى ينصحه بسلوك الطريق الموصل إلى معرفته، وهو طريق العلم واليقين، وينصحه أيضا بأن شأن الدين هو للهداية والتوجيه، وليس مصدرا للمهنة والاحتراف، فضلا عن الاستغلال به. وإذ يبعد القرآن التصور البدائى عن ذات الله ﷻ فإنه لا يريد أن يضع هذه الذات فى إطارها الواضح الصحيح فقط، وإنما يريد مع ذلك الحيلولة دون أن يسقط الإنسان فى الوثنية مرة أخرى، ودون أن يهبط عن مستواه الإنسانى المكرم عند الله إلى مستوى الممتهن الوضيع عندما يرفع إنسانا فى احترامه ويخضع له إلى درجة الله فى عبادته.

وهذه الأمراض الاجتماعية الثلاثة من الاعتقاد بالخرافة والاستغلال بالدين والعقيدة والتصوير البدائى لله كلها أو بعضها هى السبب فى تخبط البشرية فى التوجيه فى وقتنا الحاضر كما كانت فى الماضى، وفى تناقضاتها العديدة فى الفكر، وفى صراع مجموعاتها بعضها ضد بعض، وفى تمزيق ما يجب من الأواصر القوية فى ترابطها وتعاونها، وفى انحطاطها فى السلوك رغم تقدمها فى الحضارة المادية وفى العلم والصناعة التطبيقية.

فوَضْع "الحزب" فى بعض الاتجاهات الفلسفية كالماركسية، واستمرار وضع الكنيسة فى بعض الاتجاهات الدينية كالكَثْلَكَة، وَضْع تلك وهذا فى موطن القداسة موضع الله هو خرافة الإنسان فى وقته المعاصر. ووَضْع الإنسان الأول فى الحزب أو الكنيسة موضعَ الله فى العصمة مع وجوب الطاعة له هو استغلال للعقيدة الوثنية. وإنزال الله من عليائه ليحل فى الإنسانية أو فى العالم مرة، وفى الكنيسة أخرى، تصورٌ بدائىٌ لله. إن الله لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير".

وفى المقدمة أيضا آراء وأفكار تحتاج إلى الوقوف إزاءها تحليلا ومناقشة. فمثلا وَصَفَ، رحمه الله، المشركين المكيين بأنهم ماديون. فهل تنطبق تلك الصفة عليهم؟ أتراهم لم يكونوا يؤمنون بالله؟ لقد كانوا يؤمنون بالله. أتراهم لم يكونوا يصدقون بالملائكة؟ بالعكس لقد كانوا يؤمنون بالملائكة، بيد أنهم كانوا ينظرون إليهم على أنهم بنات له سبحانه، لكنهم كانوا يؤمنون بهم على كل حال، والملائكة غيب من الغيب، وليسوا كائنات تُرَى بالعين وتُسْمَع بالأذن وتُشَمّ بالأنف وتُلْمَس باليد. ترى ألم يكونوا يؤمنون بالجن، والجن مخلوقات غيبية أيضا؟ بلى كانوا يؤمنون بالجن، وإن زعموا أن كهَّانهم يتصلون بهم ويعرفون منهم مخبَّآت الغيب. لكنهم رغم ذلك كله لم يكونوا يؤمنون بالآخرة، وكانوا يطالبون النبى بإحياء آبائهم وإرجاعهم إلى الحياة كى يصدقوا أن هناك عالما آخر وراء هذا العالم. إذن فالمشركون لم يكونوا ماديين كما نفهم من معنى هذا الاصطلاح، اللهم إلا فيما يخص وجود الآخرة. وعلى هذا ينبغى أن نضيّق معنى المادية التى يوصف بها مشركو مكة فلا نطلقه إطلاقا بل نقصره على إنكارهم للبعث وما يتبعه من حساب وثواب وعقاب.

وإذا كان لى أن أستبق الأحداث هنا فقد لاحظت أن د. البهى دائما ما يصف، فى كل سانحة تسنح له، وثنيى العرب فى الجاهلية بأنهم أنانيون شديدو الأنانية رغم أنهم كانوا يفتخرون بالكرم فعلا لا كلاما ولا ينسون الفقراء وذوى الحاجة من حولهم بل يعطونهم ويغدقون عليهم. وعندنا حاتم الطائى مثلا وذِكْر النبى عليه السلام له بالخير وإكرامه ابنته لأن أباها كان رجلا كريما. وكان كثير منهم، كما يبين لنا الشعر الجاهلى، يرون فى المال وسيلة لتخليد الذكر من خلال إنفاقه على المحتاجين وعلى الضيوف. وإن أبيات الحطيئة الميمية التى يتحدث فيها عن خوف البدوى المُعْدِم من هول الفضيحة حين يسمع الناس بأن مسافرا عابرا مر به ذات مرة ليلا، ولم يكن فى بيته منذ عدة أيام وليال ما يأكله هو وأولاده، فلم يستطع أن يقدم له طعاما حتى لقد عرض ابنُه عليه أن يذبحه ويقدم لحمه للضيف كيلا تمرَّغ سمعتُه فى الوحل، فأخذ يفكر ويقلب الأمر فى ذهنه ويهم أن يستجيب لاقتراح ابنه ويذبحه فعلا، لولا أَنْ رأى فى ذلك الوقت العصيب عانةً من الحُمُر الوحشية، وكانت العرب تأكل الحمير الوحشية فى ذلك الوقت، فوجه سهما من سهام كنانته إلى أتان سمينة منها، فخرت صريعة فاجترَّها وذبحها وسلخها وشواها طعاما مريئا للضيف، الذى بات تلك الليلة بأهنإ بال، وكأنه ابن آخر للحطيئة ولزوجته، أقول إن أبيات الحطيئة هذه لتكفى تماما فى التدليل على ما أقول. ولدينا كذلك الصعاليك، الذين خلعتهم قبائلهم لجرائرهم الكثيرة، والذين كانوا يتجمعون فى قُنَن الجبال ومضايقها ويهاجمون المارة ويستولون على أموالهم، ثم يوزعونها فيما بينهم غير ناسين المحتاجين بل يشركونهم فيما أفاءت الأقدار عليهم، بغض النظر عن الوسيلة التى اكتسبوا بها تلك الأموال، فهذه نقرة أخرى. ثم ألم يأت الأستاذَ الدكتورَ نبأُ حلف الفضول؟ وما أدراك ما حلف الفضول، ذلك الحلف الذى أنشئ لمساعدة المظلومين ونصرتهم واقتضاء حقوقهم المهدرة التى لا يستطيعون الحصول عليها بقوتهم وحدها؟ إنه إنجاز من إنجازات الوثنيين. كما كان من بين الوثنيين من ينفق ماله فى استنقاذ الفتيات الصغيرات من الوأد. وفى شعر الفرزدق افتخار شديد، وله كل الحق، بمآثر جده فى هذا المجال. وفى الجاهلية أيضا كان هناك من أجداد الرسول الكريم من يوفر للحجاج الطعام والشراب دون مقابل. وكان العربى على استعداد دائم لتقديم روحه فداء قبيلته عند اشتعال الحرب، ويعد ذلك مفخرة من المفاخر العظيمة. كذلك كان الشعراء يتمدحون بأنهم لا ينظرون إلى جاراتهم حين يمررن أمامهم، فضلا عن أن يفكروا فى الاعتداء على أعراض جيرانهم. وهذه بكل يقين منقبة جميلة كريمة لا يصح أن ننساها فى هذا السياق.

إن الجاهليين لم يكونوا خالين من الصفات الكريمة رغم وثنيتهم. وقد قال الرسول الكريم: "خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام" مما يفيد أن الجاهلية كان فيها ناس أخيار، وليست كلها سوادا فى سواد. على أننا لا نعفى الجاهليين من وجود عيوب خطيرة مهلكة فى

شخصياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتصرفاتهم وعقائدهم وأذواقهم، لكن هذا كله وأكثر منه لا يعنى أبدا أنهم كانوا بلا محاسن على الإطلاق كما يفهم من إلحاح الأستاذ الدكتور على اتصافهم بالأنانية،بل كانت فيهم طائفة من الفضائل أو من خمائرها. وينبغى ألا ننسى أن هؤلاء الناس الذى كانوا إلى وقت قريب آنذاك وثنيين جاهليين هم هم أنفسهم الذين نصروا الإسلام وضَحَّوْا فى سبيله بالنفس والنفيس وكانوا على مستوى التحدى. فلو لم يكونوا يتمتعون بأية محاسن، وكانوا أنانيين فحسب لا يمكنهم الخروج من شرنقة ذواتهم ومطالبهم الشخصية الضيقة، أكانوا يستطيعون القيام بهذا الدور الحضارى العظيم الذى غير التاريخ وحَمَّلَهم إياه الإسلامُ العظيم؟

على أن هذا شىء، والزعم بأن الجاهلية أفضل من الإسلام كما فعل المستشرق البريطانى ديفيد صمويل مرجليوث اليهودى الأصل شىء آخر تماما. نعم كان فى الجاهليين فضائل، ولم يكونوا كلهم مذمّات ومعايب، لكن الإسلام بعقائده وتشريعاته وأخلاقه ومبادئه وقيمه وطموحاته وأذواقه أفق سام عظيم السمو لا يُطَال، فضلا عن أن تكون من تريد مطاولته عبثا هى الجاهلية مهما كان فيها من الحسنات. إنهما أفقان مختلفان: الجاهلية أفق أرضى، أما الإسلام ففى السماوات العلا. ولقد أملى على مرجليوث حقده على الإسلام ونبيه أن يقف فى كتابه: "**Mohammed and the rise of Islam**"، فى كل مناسبة يأتى فيها ذكر الصراع بين الوثنية العربية والإسلام، فى صف الوثنية ضد الإسلام بما فى ذلك تعذيب الوثنيين للمسلمين حتى لقد قال عن أبى عامر الراهب رجل بيزنطة وعميلها فى يثرب، ذلك الذى بنى له المنافقون مسجد الضرار فى بعض أطراف المدينة ليحيكوا مؤمراتهم فيه ضد الدين الجديد بعيدا عن عيون المسلمين، إنه كان ذا ميول إصلاحية دينية قبل هجرة النبى وأتباعه إلى يثرب، إلا أن القليل الذى خبره من مُحَمَّد بعد هجرته إلى هناك كان كفيلا بإقناعه بأفضيلة الوثنية على الإسلام. يا لك يا مرجليوث من حاقد فاجر! على أَنْ ليس هذا بالمستغرب منك، فقد فعلها أسلافك من قبل حين ذهب وفد من يهود يثرب إلى مكة يستنفرون المشركين لمحاربة مُحَمَّد عليه السلام ودينه دين التوحيد، الذى يزعمون حتى الآن أنهم هم سدنته الوحيدون، فسألهم المشركون: أى الدينين أقوم سبيلا؟ ديننا أم دين مُحَمَّد؟ فكان الجواب السافل اللئيم: بل دينكم طبعا. أى أن الوثنية خير من توحيد رب العالمين ومن اتباع نبى كريم كنبيهم موسى. فماذا يمكن أن يقال فى حق هؤلاء الأنذال الأوباش وخَلْفِهم الدنىء مثلهم؟ والعجيب من هذا الرجل أنه، بعد كل ما افتراه على الرسول فى كتابه، قد عاد فى نهاية الكتاب فأثنى على الرسول ثناء كبيرا، وإن لم يتغير كلامه فى نبوته وأنها من صنعه هو لا من عند الله!

وبعد فهذه هى المقدمة التى مهد بها د. البهى الطريق إلى تفسيره لسورة "الأنعام". وفيها كلام طيب وجِدٌّ مفيد، والأسلوب كما ترى يكاد يخلو من الانفعال. إنه أسلوب صادر عن العقل، ويجرى على وتيرة واحدة لا تلوين فيها إذ هى تحت السيطرة. أسلوب يؤدى المعنى المراد بهدوء ودون انتفاض أو استفزاز. كما أنه يحتاج إلى شىء من الإحكام واستبدال بعض ما استعمل من ألفاظ إلى غيرها ككلمة "مجموعاتها"، أى مجموعات البشرية، إذ لا نستخدم فى هذا السياق كلمة "مجموعات" بل يمكن أن نقول: "أمم الأرض" أو "شعوب العالم". أما "مجموعات" فأضيق من أن تتسع لما يريد الأستاذ الدكتور أن يقول. كذلك ما المقصود بقوله: "الاستغلال المنحرف فى البشرية"؟ أو ما المراد بأن الأمراض الاجتماعية الثلاثة المذكورة هى السبب فى تخبط البشرية فى التوجيه فى وقتنا الحاضر كما كانت فى الماضى؟ ترى ما معنى "تخبط البشرية فى التوجيه"؟ وهناك "الاستغلال بالدين"، و"تمزيق ما يجب من الأواصر القوية فى ترابطها وتعاونها"، وهما تركيبان غريبان، وفى معناهما اضطراب وشىء من الغموض.

وعلى خلاف الشيخ الغزالى، الذى يجول فى السورة جولة سريعة يقفز فيها فوق كثير من التفاصيل، وكذلك بعض الخطوط العامة مما يجعل من تفسيره تلخيصا ممزوجا بالعاطفة ونصا أدبيا جميلا، نلفى د. البهى حريصا على تفسير كل شىء فى السورة كلمة كلمة وآية آية ومجموعة من الآيات بعد مجموعة حتى ينتهى من السورة كلها. وهذا نص مما كتبه فى تفسير السورة التى فى أيدينا الآن، ومعظمه إعادة كتابة للآيات الكريمة بأسلوبه هو غير مضيف إليها شيئا ذا بال: "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون: ابتدأت هذه السورة بالثناء والحمد له: "الحمد لله"، وهو ما يجب على المؤمن أن يبادر به المولى فى الاتصال به سبحانه اعترافا بنعمه، ووفاء لحقه فى الشكر عليها. والسورة، إذ تبتدئ بالحمد والثناء على الله، لتقرر من أول الأول (؟) أن موقف الكافرين به من المكيين هو موقف ضد خصائص الفطرة البشرية، موقف المنكر للنعم وللآيات الكونية العظيمة الدالة على تفرده فى الوجود وحده، إذ هو "الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور"، فهو الخالق لما ارتفع وسما فى الوجود، ولما استقر ورسب فيه، وكذلك لما قابل بعضه بعضا من النور والظلمة فيما ارتفع واستقر على السواء. وخلْقُ الأمور المتقابلة دليل أكيد على القدرة الفذة التى تُوَصِّل حتما إلى وحدانيته فى الكون كله، ووضوح هذا الدليل على القدرة الفذة لخالق الكون من شأنه ألا يحجب الأبصارَ عن رؤيته حجابٌ من هوًى وغرضٍ فى نفس إنسان ما. "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون"، ولكن عمى الشرك والوثنية هو الذى ينقل بعض المضللين بنعمة الله من الإيمان به وحده إلى الآخرين من الشركاء، هو الذى يجعلهم يعدلون عن وحدانيته ويكفرون بها إلى الإيمان بعديد من أصنامهم".

ويلفت النظر فى هذا النص عدد من الملاحظات التى تشيع فى تفسير الأستاذ الدكتور عليه رحمة الله أو تغلب عليه: منها مثلا أنه لا يستشهد بكلام مفسر آخر ولا بحديث من أحاديث النبى عادة ولا يورد شواهد شعرية يستعين بها فى الشرح وإيصال فكرته إلى القراء. كذلك لا يتطرق فى حديثه إلى أى أمر من أموره الشخصية على العكس مما فى تفسير الشيخ الغزالى، ولا ينفعل مثله وهو يتحدث عن أعداء الإسلام بل يحتفظ بمشاعره تحت السيطرة. ومنها أيضا عبارته التى يشير فيها إلى النعم والآيات الكونية العظيمة الدالة على تفرده فى الوجود وحده، وهو ما يثير سؤالا شديد الأهمية: ترى هل النعم والآيات الكونية تدل على تفرده سبحانه فى الوجود وحده؟ إذن فماذا تكون المخلوقات من جمادات ونباتات وحيوانات وبشر وأفكار ومشاعر وعواطف؟ أكل هذا لا وجود له؟ ترى أمن الممكن إنكار كل ذلك العالم الهائل الذى لا نعرف له حدودا؟ لو كان الأمر كذلك ما كانت هناك أية مشكلة فى موضوع الإيمان بالله أو إنكار وجوده سبحانه لأنه لا وجود لنا أصلا، ومن ثم فلا إنكار. ثم ماذا فى خلق الأمور المتقابلة مما يفترق به هذا الخلق عن خلق الأمور المتشابهة بحيث يكون الخلق الأول أدل من الخلق الأخير على القدرة الفذة لخالق الكون؟ لا أستطيع أن أوافق د. البهى للأسف على هذا. وهناك أيضا قوله: "المضللين بنعمة الله"، ولا أدرى كيف يكون. أما "الانتقال من الإيمان به وحده إلى الآخرين من الشركاء" فركاكة فى التعبير، والمقصود بالأسلوب البسيط المستقيم: "الانتقال من الإيمان به وحده إلى إشراك بعض مخلوقاته معه" أو "الانتقال من التوحيد إلى الشرك": هكذا بكل بساطة وبكل وضوح وبكل استقامة فى صوغ العبارة. كذلك كيف يكون الشرك والوثنية هو الذى ينقل بعض المضللين بنعمة الله من الإيمان به وحده إلى الآخرين من الشركاء؟ إن معنى هذا هو أن الوثنية والشرك ينقلان الناس إلى الوثنية والشرك. وهو كلام لا معنى فيه.

ثم يمضى الأستاذ الدكتور فى تفسير السورة تفصيلا كما قلنا. ويتكرر فى هذا التفسير انتقاده، رحمه الله، للمادية والماديين متهما مشركى مكة بها، ورابطا بين المادية القديمة والمادية الشيوعية فى عصره، غير مضيع فرصة تسنح له دون أن يتخذها لانتقاد الماركسية ودولها وأنظمتها. فهو يقول مثلا فى تعليقه على الآية السابعة وما فيها من اتهام المشركين لأية معجزة يمكن أن تنزل معضدة رسول الله بأنها ليست سوى سحر مبين، يقول فى تعليقه على هذا إن "نسبة الخداع إلى دين الله رغم وضوح صدقه وواقعية مبادئه هو ادعاء أو اتهام يوجهه الماديون كل عصر لتغطية تمسكهم بالمادى وحده وإنكارهم ما عداه من القيم العليا فى حياة الإنسان. فقد رُمِىَ دينُ الله بالأمس بأنه سحر، ويُرْمَى اليوم بأنه أفيون الشعوب. والسحر والأفيون كلاهما لايعرض الواقع، ولكن يموه به فى التصور فحسب، مع أن الإنسان المادى نفسه لا يساير الواقع لأنه انتهازى ومنفعى ودنيوى وأنانى. ومسايرة الواقع تقضى بالصراحة وسلوك

الطريق المكشوف". وقد أشرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب إلى أن الأستاذ الدكتور يثبت على غلاف كل جزء من أجزاء تفسيره تحت اسم السورة المفسرة فى ذلك الجزء شعار "القرآن فى مواجهة المادية". وعبارة "الدين أفيون الشعوب" هى من أقاويل كارل ماركس أبى الفلسفة الماركسية، وهى فلسفة مادية تنكر البعث والإله وترى أن الأديان تخدر البشر وتوهمهم بأنهم سوف يعوضون عن حرمانهم وشقائهم على الأرض فى الدنيا بنعيم مقيم فى الدار الآخرة، التى ليس لها وجود فى تلك الفلسفة كما وضحنا. فالدين إذن أفيون يغيب الناس عن واقعهم ويجعلهم يعيشون فى الخيالات والأوهام التى ليس لها ظل من الحقيقة. وكانت مصر فى عهد عبد الناصر تتبنى الاتجاه الاشتراكى وترتبط بالاتحاد السوفييتى ارتباطا وثيقا، وإن جاء أنور السادات بعد وفاة عبد الناصر فانتقل بارتباطه من السوفييت إلى الأمريكان. ففى ظل هذه الظروف كتب د. البهى تفسيره وظهر فيه عداؤه للاتجاه المادى الإلحادى الذى كان يمثله آنذاك الاتحاد السوفييتى، واجتهاده فى إظهار وجه الإسلام الإنسانى الناصع الراقى إزاء هذه المادية الملحدة.

على أنه لا ينبغى الظن بأن د. البهى، حين كتب ما كتب فضحا للاتجاه الشيوعى فى بلاد الكتلة الشرقية وفى البلاد التابعة لها من دول العالم الثالث، كان يتخذ الجانب المقابل مصطفا مع أعداء الشيوعية من دول الاستعمار الغربى. لا بل كتب ما كتب اعتزازًا بدينه وعقيدة هذا الدين وشريعته وأخلاقه وماضيه العظيم ورغبةً منه أن يتمسك المسلمون بدينهم وقيمه ومبادئه وأن يكونوا أحرارا مستقلين، فلا إلى الشرق ولا إلى الغرب. وقد سبق أن نشر قبل ذلك بسنوات، وتحديدا فى عام ١٩٥٧م، كتابه: "الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى"، الذى بين فيه ألاعيب المستشرقين وتزييفهم للحقائق لدن تناولهم لأى شىء يتعلق بالإسلام، وتشويههم عن عمد وإصرار وكذب وتدليس لديننا الحنيف خدمة لدولهم الاستعمارية ورغبة فى إخضاع المسلمين لها واجتهادا شيطانيا منهم فى إخراجهم من دينهم عن طريق التشكيك فيه بكل وسيلة وكل سبيل. فالرجل إذن خالص النية فى خدمة دينه وأمته وبلاده وبلاد المسلمين جميعا، ولا يهاجم الشرق لحساب الغرب ولا الغرب لحساب الشرق.

وفى هذا المعنى كتب رحمه الله واصفا كتابه هذا فى مقدمة طبعته الثامنة: "الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى: هو مواجهة مباشرة لتيارات فكرية مستترة وراء عناوين خادعة، وهى فى جوهرها محاولات عنيفة لفصل المسلمين عن دينهم، ووضعهم فى مجالات التبعية لغيرهم هم وما تحت أيديهم من ثروات طبيعية وما لهم من طاقات بشرية، ويواجه تيار الماركسية الإلحادية المتخفى وراء اسم "العدالة الاجتماعية". وما فى العالم المادى اليوم من مجتمعات يقع فى حماية هذا الاتجاه أو ذاك، والمجتمعات البشرية على تعددها تنتمى

إذن إلى واحد منهما. وإذ يحسِّن كل تيار منهما اتجاهه الخاص به فى نظر الشباب المسلم يحاول فى الوقت ذاته أن يشوه رسالة الإسلام، ويصفها على الأقل بأن دورها للبشرية قد انتهى، ولم تعد صالحة اليوم لحل مشاكل المجتمعات الإنسانية. والمهمة الأولى لهذا الكتاب أن يكشف عن قيم الإسلام وعن صلاحية هذه القيم وحدها لتلافى مشاكل المادية فى المجتمعات المعاصرة، وهى تلك المشاكل التى واجهها على عهد الرسالة باسم "الجاهلية"، فجاهلية الأمس هى مادية اليوم. وبهذا الكشف دخل الكتاب فى صراع لا يهدأ مع الدافعين لهذا التيار أو ذاك خارج المجتمعات الإسلامية أو داخلها. والمعاونون لهذا التيار أو ذاك هم فى واقع الأمر أصحاب سلطة فى هذه المجتمعات، وأصحاب عضلات قوية فيها.

ولهذا كان هذا الكتاب: "الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى" عرضة لأن يُصَادَر ويُمْنَع تداوله من أصحاب السلطة لأنه يقلّ أن يكون هناك صاحب سلطة فى هذه المجتمعات يود أن تكون مسؤوليته فيها أمام مبادئ الإسلام وقيمه. وقد صُودِر الكتاب ومُنِع، ويصادر ويمنع معه كل كتاب آخر بقلم مؤلفه عندما يَظْهَر التحول إلى الماركسية الإلحادية فى أى مجتمع إسلامى. والمؤلف لا يحزن على المصادرة والمنع لأنه يومَ ألَّفه لم يستهدف بتأليفه سوى وجه الله وحده. لم يستهدف دنيا، ولم يستهدف إرضاء نظام حكم أو حاكم. واليوم يعود هذا الكتاب فيطبع وينشر فى القاهرة بعد عشر سنوات من مصادرته فيها لا لأن رأى المؤلف فى الكتاب قد تغير، ولكن لأن الخداع فى أى تيار من التيارين المشار إليهما قد زال أو كاد، واتضح ما وراءه من استعمار صليبى أو آخر ماركسى إلحادى، وهو ذلك الأمر الذى تحدث عنه الكتاب فى غير مواربة محذرا المسلمين من خداع الصليبية الدولية، والإلحاد العلمى للشيوعية العالمية. ولعل تلك اليقظة التى ظهرت اليوم بين شباب المسلمين بعد أن انكشف الخداع الاستعمارى الفكرى والأيديولوجى تستمر حتى تدفع إلى الكشف عن قيم الإسلام كمنهج سليم للحياة الإنسانية فى مجتمعات المسلمين. وبذلك يقبل الشباب على فكر أصيل فى تاريخهم يساعدهم على بقائهم مستقلين عن هذه الكتلة أو تلك، ويجعلهم أصحاب إرادة حرة فى توجيه طاقاتهم البشرية واستخدام ثرواتهم المتكاملة فى حفظ قوتهم واستقلال إرادتهم أولًا".

ومن هنا نستطيع أن نفهم ما كتبه محرر المادة الخاصة بسيرته الذاتية فى النسخة العربية من موسوعة "ويكبيديا" حين قال: "وقد وقف البهى ضد تيار الفكر المادى التاريخى وأوضح مدى تخلف الفكر الماركسى اللينينى وفشله فى تحقيق العدالة الاجتماعية، وتصدى للرد على رشدى صالح حين كتب عن ابن خلدون محاولا استلهام شخصيته وتطويع أفكاره من أجل الدعوة للماركسية. وفى الوقت نفسه وجه سهام النقد للفكر الغربى الاستعمارى لرغبته فى إبقاء المسلمين فى موقع التخلف. وكان يركز على الحلول الإسلامية وليست المستوردة من

الشرق أو الغرب مع الانفتاح الفكرى فى نفس الوقت والقراءة النقدية للفكر الوافد". وقد قال د. البهى نفسه هذا فى أكثر من موضوع من سيرته الذاتية المسماة: "حياتى فى رحاب الأزهر".

ومع ذلك كله كنت أحب لو أن د. البهى، من باب النصح لأمته الإسلامية، قد نبه فى ذات الوقت إلى أن كثيرا جدا من المسلمين للأسف الشديد فى العصر الحديث يعيشون فى كسلٍ وبلادةٍ مع الأمل فى أن يعوضهم الله فى العالم الآخر عما هم فيه من تخلف حضارى وشقاء مستمر جراء هذا التخلف وما يجره عليهم من احتلال القوى الكبرى لأوطانهم واستحواذها على ثرواتهم وتركهم يقاسون الفقر المدقع والحرمان الممضّ ودَوْسها على كرامتهم وعزتهم وعملها على محو دينهم وإهانتها لرسولهم ولكتابهم ولربهم. وبهذا فعِوَضًا عن أن ينشطوا وينهضوا ويعملوا ويجدّوا ويتقنوا عملهم ويتطلعوا إلى الأعالى والمعالى ويحرزوا لأنفسهم وأولادهم حياة ميسورة كريمة كما يأمرهم دينهم وينتظره ربهم منهم تراهم يخلدون للكسل متمسكين بالقشور التى لا توصل لشىء بل تزيدهم تخلفا وفقرا وتعاسة، ومتصورين أن تلك القشور هى طريقهم إلى الجنة وما تشتمل عليه من نعيم خالد لا يزول ولا ينقص.

ولدن تفسيره للآيات ٢٩- ٣٢ من السورة يقف د. البهى أمام كفر الماديين بالله والدين واليوم الآخر مشبها لهم بالطفل والأعمى، ثم يضيف أن الشخص المادى "يعيش منذ ولادته فى دائرة الأنانية وفى نطاق ما ينميه بدنيا فحسب". وأختلف معه فى هذا، فكثير جدا من الغربيين الآن ينكرون الألوهية والآخرة، ولكن اهتماماتهم لا تقتصر على "ما ينميهم بدنيا فحسب"، بل يهتمون أيضا أشد الاهتمام بالفنون والعلوم والنظام والجمال والتخطيط والعمل والجد والإتقان والتفانى فى خدمة أوطانهم وشعوبهم وإحراز السيادة والتفوق على الآخرين، وهى أمور تتصل بالعقل والقلب والفكر والأخلاق لا بالجسد فى المقام الأول. بل إن كثيرا من أغنيائهم يتبرعون بثرواتهم كلها أو بقسم عظيم منها للصالح العام، وهى ثروات قد تعد بالمليارات. وهذا كله على خلاف ما هو مشاهد الآن فى بلادنا نحن المسلمين، إذ الأغلبية الساحقة منا، على العكس من وضعنا السابق فى ماضينا الناصع العظيم، لا تهتم بتثقيف عقلها أو إرهاف ذوقها بل تنحصر اهتماماتهم فى الطعام والشراب والملبس، وكان الله بالسر عليما، ولا يصل الكرماء منا عادة إلى التبرع بثرواتهم كلها للمجتمع الذى ينتمون إليه.

وقد وقف د. البهى عند قوله تعالى: "والذين كذَّبوا بآياتنا صُمٌّ وبُكْمٌ فى الظلمات. من يشإ اللهُ يُضْلِلْه، ومن يشأْ يجعلْه على صراط مستقيم" وما يجر إليه من الكلام عن القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وكان رأيه أن الله سبحانه يترك كل إنسان وما يختار. وهذا نص كلامه: "والسبب فى أن هؤلاء الماديين المشركين يصرون على المعارضة ويكذّبون القرآن وينعتونه بالأساطير أنهم يغلقون أسماعهم دونه، فهم صُمٌّ عنه، ولا يقولون بألسنتهم كلمة الحق

فيه، فهم بُكْمٌ، وبذلك يعيشون فى الظلمات أرقّاء للتخبط والحيرة. فلهم إرادة ومشيئة فى الانصراف عن القرآن والرسالة... وإرادة الله فى كفر من يكفر هى أن يترك المكذِّب فى تكذيبه يغلق سمعه دون كلمات الحق، ويَكُمّ فمه عن أن ينطق بها، فيعيش عندئذ فى ظلمات حيرته وضلاله، وبذلك يكون كافرا. أما إرادته ﷻ فى هداية من يؤمن فإنه يعينه على أن يكون حريصا على سماع الحق ناقلا إياه لغيره، راغبا فى العمل بما جاء به. وهنا ينتقل إلى الخط المستقيم فى الإيمان والاعتقاد، وفى العمل والسلوك".

وقد عاد إلى تناول تلك القضية عند قوله تعالى من نفس السورة فى الآية ١٠٧: "ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظا، وما أنت عليهم بوكيل"، إذ قال إن "الله لو أراد هدايتهم لهداهم وجنّبهم الشرك ووفقهم إلى الإيمان به، ولكنْ تَرَكَهم وحيرتَهم فى ضلالهم". وعاد إليها مرة أخرى لدن تفسيره للآية ١٢٥: "فمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صدرَه للإسلام، ومن يرد أن يُضِلَّه يجعلْ صدره ضيّقًا حَرَجًا كأنما يَصَّعَد فى السماء. كذلك يجعل اللهُ الرِّجْسَ على الذين لا يؤمنون" فقال: "وإرادة الله فى هداية من يهتدى وفى بقاء الضال فى ضلاله هو أن من يهديه الله يكون عنده الميل النفسى إلى الهداية، وأن من يبقيه فى ضلاله يصرفه عن هذا الميل النفسى ويجعل صدره ضيقا حرجا بحيث يشق عليه قبول تلك الهداية كما يشق على الصاعد فى السماء بعد مرحلة صعوده قبول النَّفَس الذى يساعد على بقائه على قيد الحياة. فإرادة الله فى إيمان المؤمن تتمثل فى معاونته برسالته مع وجود إرادته الخاصة نحو الإيمان، وإرادة الله فى بقاء الكافر على كفره تتمثل فى عدم معاونته بهذه الرسالة، أى بعدم الانتفاع بها، مع وجود إرادته الخاصة نحو الكفر... وهكذا. معاونة الله للمؤمن على إيمانه لا تسلبه إرادته الخاصة نحوه، وعدم معاونته للكافر على الإيمان لا تسلبه الإرادة الخاصة فى البقاء فى الكفر. والمؤمن بذلك مريد ومسؤول، والكافر بكفره مريد ومسؤول. ولو أن الكافر نحَّى عنه جانبًا الاتجاهَ الذى يسيطر عليه فى عدم قبوله للإيمان كاتجاه التقاليد أو الاتجاه المادى لَخَلَق لنفسه جوًّا يقرِّبه من الإيمان، ولأزال من طريق الإيمان عقبة أو عقبات، وبذلك يصبح الطريق مفتوحا. وإذن فى تنحية العقبات جانبًا تكمن الإرادة الإنسانية نحو الإيمان، ومسؤولية الإنسان إذن مرتبطة بتوجيه إرادته. وإرادة الله التى تتمثل فى الهداية التى يرسل بها الرسول هى إذن كذلك مصدر يعين على الإيمان لو خلى الطريق إليه من الإنسان...".

وفى هذا الكلام مَشَابِهُ مما قاله الزمخشرى فى تفسير هذه الآية بعينها حيث نطالع السطور التالية: "فمن يرد الله أن يهديه: أن يلطف به، ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لُطْف. يشرح صدره للإسلام: يلطف به حتى يرغب فى الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه. وَمَن يُرِدِ أَن يضله: أن يخذله ويخليه وشأنه، وهو الذى لا لُطْف له. يجعلْ صدره ضيّقًا حَرَجًا: يمنعه ألطافَه حتى يقسوَ قلبه ويَنْبُوَ عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان...".

والزمخشرى معتزلى كما هو معروف. وقد أشار الشهرستانى إلى أن المعتزلة "اتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثوابًا وعقابًا فى الدار الآخرة". أى أن العبد مسؤول مسؤولية كاملة عن أفعاله الحسنة والسيئة وإيمانه وكفره، والله لا يتدخل فى شىء من ذلك أبدا. بَيْدَ أن الآية تقول إن من يرد الله أن يهديه فإنه يشرح صدره للإسلام، أما من يرد أن يضله فإنه يمنعه من الإيمان بتضييق صدره عن قبوله، فما العمل إذن؟ والملاحظ أن الزمخشرى كلما مر بآية يوهم ظاهرها الجبر فإنه يوجّهها بما يتمشى مع هذه العقيدة. ومع ذلك فلو دققنا فى توجيهه للآية التى بين أيدينا مثلا، وهو ما يصدق على كثير من الآيات المشابهة لها، لوجدنا أن الطريقة التى ينتهجها فى ذلك لا تحل المشكلة، فهو يقول كما سبق أن رأينا: "فمن يرد الله أن يهديه: أن يلطف به، ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف. يشرح صدره للإسلام: يلطف به حتى يرغب فى الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه. وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّه: أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذى لا لطف له. يجعل صدره ضيقًا حَرَجًا: يمنعه ألطافه حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله الإيمان". ونفس الشىء نجده فى تفسير قوله سبحانه: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ" (الأنفال/ ٢٢–٢٣)، إذ قال: "إن شر الدواب، أى إن شر من يدبّ على وجه الأرض، أو إن شر البهائم الذين هم صُمٌّ عن الحق لا يعقلونه. جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شَرَّها. ولو علم الله فى هؤلاء الصم البكم خيرًا، أى انتفاعًا باللطف، لأسمعهم: لَلَطُفَ بهم حتى يسمعوا سماع المصدِّقين. ثم قال: ولو أسمعهم لتولَّوْا عنه. يعنى: ولو لَطُفَ بهم لما نفع فيهم اللطف، فلذلك منعهم ألطافه. أو ولو لَطُفَ بهم فصدَّقوا لارتدُّوا بعد ذلك وكذَّبوا ولم يستقيموا".

والمدقق فى كلام الزمخشرى لا يستطيع أن يرى فرقا بين تفسيره للآية وبين ما قد يُفْهَم من ظاهرها من أن الله سبحانه يجبر قوما على الإيمان، وقوما على الكفر. ذلك أن السؤال الذى يقفز فى الذهن على الفور هو: ولماذا لَطُف الله بأولئك، ولم يلطف بهؤلاء؟ ألا يوحى كلام الزمخشرى بأن هناك محاباة فى الأمر، وهو ما يناقض العدل الإلهى المطلق؟ صحيح أن الزمخشرى جعل اللطف رديفا للإيمان والعمل، أى مترتبا عليهما، بناء على قوله تعالى فى الآية ٦٩ من سورة "العنكبوت": "والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا"، لكنه نسى أن الهداية وشرح الصدر للإسلام بالنسبة لقوم، والإضلال وتحريج الصدر بالنسبة لقوم آخرين، إنما يسبقان فى الآيات الكريمة الإيمان والعمل معا.

والواقع أن فى القرآن آيات يُفْهَم منها أن للبشر مشيئة وإرادة وقدرة على الفعل والترك مثل قوله سبحانه: "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ" (يوسف/ ٥٦)، "فمن شاء فليؤمنْ، ومن شاء فليكفر" (الكهف/ ٢٩)، "لَهُمْ فِيهَا (أى للمؤمنين فى

الجنة) مَا يَشَاءُونَ" (الفرقان/ ١٦)، "قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا" (الفرقان/ ٥٧)، "تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ" (الأحزاب/ ٥١)، "يَعْمَلُونَ لَهُ (أى يعمل الجن لسليمان) مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" (سبأ/ ١٣)، "لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ. ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ" (الزمر/ ٣٤)، "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا" (المزمل/ ١٩)، "إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (المدثر/ ٣٥– ٣٨)، "ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ. فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا" (النبأ/ ٣٩). وفى ذات الوقت ثمة آيات قرآنية أخرى يفهم منها أن البشر مجبورون فيما يفعلون ويتركون، مثل: "وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (البقرة/ ١٠٥)، "قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ. يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (البقرة/ ١٤٢)، "ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" (الأنعام/ ٨٨)، "وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" (الأنعام/ ١١١)، "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ" (إبراهيم/ ٤)، "ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" (الزمر/ ٢٣)، "وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ" (الصافات/ ٩٦).

وفى القرآن نصوص أخرى تذكر مشيئة البشر، إلا أنها تسارع فتجعلها من مشيئة الله: "كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّه" (المدثر/ ٥٤– ٥٥)، "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (الإنسان/ ٢٩– ٣١)، "إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (التكوير/ ٢٧– ٢٩). كما أن هناك آيات تؤكد أن كل شىء من هداية أو إضلال إنما هو بمشيئة الله، ثم تعقّب فى الحال بأن البشر سوف يُسْأَلون رغم ذلك عما كانوا يعملون: "وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ. وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل/ ٩٣)، إذ الأمر راجع إليهم: "قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ" (الرعد/ ٢٧)، "إِنَّكَ (يا رسول الله) لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القصص/ ٥٦).

وفى ضوء هذا كله فمن الممكن النظر إلى المسألة من أفقين: الأول هو الأفق المطلق حيث نرى أن الله هو الذى خلق البشر ووهبهم القدرة على الفعل والترك وإرادة هذا وذاك، ووضعهم داخل شبكة هائلة معقدة من القوانين الكونية التى هى، ومعها الإرادة البشرية المحدودة والخاضعة بدورها لهذه القوانين، مظهر من مظاهر إرادة الله سبحانه وتعالى. فكل شىء، كما نرى، هو مظهر لإرادة المولى عز وجل حتى تلك الحرية النسبية التى نتمتع نحن

البشر بها. فإذا نظرنا إلى المسألة من ناحية الأفق المطلق فسوف نقول إن كل شىء إنما يتم بإرادة الله. لكننا إذا هبطنا إلى دنيا البشر فسوف نرى فى ذات الوقت أن البشر يريدون هذا ويحاولون أن يفعلوه، وينجحون فى كثير من الأحيان، ولا يريدون ذلك فيحاولون أن يتجنبوه ويتركوه، وينجحون أيضا فى كثير من الأحيان. وأرى أن ربنا، حين يقول فى بعض الآيات إنه هو الذى خلق كل شىء، وإنه هو الذى يشاء هداية هذا فيهتدى، وإضلال ذاك فيضلّ، إنما يريد عز شأنه أن يظل البشر على ذكرٍ من أنهم ليسوا إلا مخلوقات له سبحانه، قُدْرَتُهم وإرادتُهم منحةٌ منه جل وعلا، فلا يَطْغَوْا ولا يتجبروا. لكنه، حين يحاول الكفار والظالمون التنصل من مسؤوليتهم، فإنه سبحانه وتعالى ينبههم إلى الحقيقة الأخرى، وهى أنه، وإنْ خَلَق كل شىء، فإن مما خلقه إرادتهم للفعل والترك ومقدرتهم عليهما. وعلى أساس من هذا الفهم فأنا أرى أن البشر مختارون فيما يفعلون وفيما يَدَعُون، ولكن إلى حد معين لا على الإطلاق كما يوحى كلام المعتزلة، وأن قوله تعالى:"فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" هو دليل قاطع على هذا.

وإذا كنت قد قلت إن حرية البشر نسبية فلا مناص من القول بأن نسبة الحرية تتفاوت من شخص إلى آخر، كلٌّ حسب ظروفه وقدراته وقوة إرادته أو ضعفها. وهذا معنى قوله ﷻ: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها". لكن على أن نضع فى اعتبارنا أن الذى يفصل فى ذلك إنما هو الله سبحانه وتعالى، فهو وحده المطلع على العباد وأحوالهم وعلى الفروق بينهم، إذ هو خالقهم وصاحب العلم المطلق بنيّاتهم وظروفهم، وهو وحده الذى يعلم على جهة اليقين أكان فى وسع العبد أن يتجنب هذا الذنب أو ذاك أم لا. وأرى أن هذا هو ما تقصده الآية الكريمة التالية: "يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء" (المائدة/ ١٨). وإذن فتفسير الزمخشرى لـ"يغفر لمن يشاء" بأن المقصود هم أهل الطاعة، ولـ"يعذب من يشاء" بأنهم أهل العصيان هو تحكم وتضييق. إن الزمخشرى هنا يُغْفِل أمرين هامين: أولهما أن الله ليس عادلا فقط، بل هو رحيم أيضا، وهذه الرحمة تقتضى أن يوضَع الضعف البشرى فى الحساب الإلهى. والثانى أن العدل الذى يسوى بين البشر جميعا فى أفعالهم المتشابهة بغض النظر عن ظروف أصحابها الفطرية والمكتسبة، وكذلك الظروف الخاصة ببيئتهم وبالناس من حولهم، إنما هو عدلٌ أعمى. وحاشا أن يكون ذلك هو عدل الله!

وفى تفسير الآية ١٤٨ من "الأنعام" أيضا: "سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمْنا من شىء..." يقول الأستاذ الدكتور ما قاله فى هذه القضية من قبل: "وهذا ادعاء آخر من ادعاءات المشركين الماديين بمكة فى مواجهة الرسول عليه السلام، وهو ادعاؤهم أنهم غير مسؤولين عما هم فيه من شرك ووقوع تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة وعما يحرّمونه ويحلّونه فى طعامهم وأموالهم. فما هم فيه، وكذا ما كان عليه آباؤهم،

بإرادة الله ومشيئته... وسيقوله غيرهم من أمثالهم من الماديين فى كل عصر لا اعتقادا منهم بما يقولون لأنهم ينكرون الإيمان بالله، ولكن سخرية واستهزاء وعنجهية وتكبرا...".

وأنا معه فى تخطئته المشركين بخصوص ادعائهم بأنهم لا حول لهم ولا طول فيما يفعلون وفيما يعتقدون، إذ هم حسب زعمهم مسيرون لا مخيرون، وأنه لو شاء الله ألا يشركوا أو يحرِّموا ما هو حلال من الطعام لما أشركوا ولما حرَّموا. لكنى لست معه فى أنهم قد قالوا هذا عن غير اعتقاد منهم به ولا فى أنهم ينكرون الإيمان بالله. ذلك أن القرآن ذاته قد نص فى مواضع متعددة منه بحيث لا يمكن أن ينساه ناسٍ أنهم يؤمنون بالله وبأنه هو خالق السماوات والأرض. ومن ثم ليس من الصواب اتهامهم بإنكار الله سبحانه وإنكار الإيمان به. وأما الاستهزاء فإن كان المقصود أنهم يستهزئون بربهم فلا وألف لا، فما استهزأ المشركون بربهم يوما، وإنما كان الاستهزاء بالرسول عليه السلام، إذ كانوا يرفضون الإيمان بأنه رسول من عند الله، إذ رسل الله لا يكونون فى نظرهم من البشر، وإن كانوا فليكونوا من أغنيائهم وكبرائهم، ويزعمون أن ما أتى به مُحَمَّد من قرآن إن هو إلا أساطير الأولين، ويدعون أنه مجنون وساحر وشاعر وكاهن وكذاب، ويطالبونه بالإتيان بالملائكة وغير الملائكة للشهادة له بأنه فعلا رسول من عند رب العالمين حسبما ذكر القرآن فى هذه السورة وفى غيرها من السور، وإن كان القرآن قد أضاف أنهم، حتى لو أتاهم بكل تلك الآيات، فلن يؤمنوا، إذ إن مطالبهم تلك هى مجرد تماحيك يراد بها تضييع الوقت ليس غير.

وهناك التفاتة بديعة من د. البهى جاءت فى تعليقه على قوله تعالى موجها الكلام إلى رسوله: "قل: أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولايضرنا ونُرَدّ على أعقابنا بعد إذ هدانا اللهُ...؟"، إذ قال رحمه الله: "وفيما يطلب إلى الرسول عليه السلام من إعلانه هنا أن التمسك بهداية الله انتقال من التخلف اللاإنسانى إلى الطريق الإنسانى الواضح، وأن التمسك بالمادية واتجاهاتها فى العقيدة والسلوك فى أى وقت وفى أى عهد هو رجعية وارتداد ونكسة إلى الوراء، إلى خلف معالم الإنسانية. هو تحديد إلهى لمعنى الرجعية والتقدمية، وعلى العكس تماما مما تزعمه المادية". أى أن الرجعية ليست هى الإيمان بالله والتمسك بالدين على خلاف ما كان يقوله الشيوعيون وأمثالهم من الملاحدة، إذ كانوا يتهمون الإسلام بالرجعية، ويتمدحون بأنهم هم التقدميون، بل كانت تأخذهم الجلالة فيصفون أنفسهم، إى والله، بـ"الشرفاء" رغم ارتباطهم بالاتحاد السوفييتى وعملهم على تمكينه فى بلادهم وأخذهم صف الإسرائيليين فى حرب سنة ١٩٤٨م العدوانية ضد العرب والمسلمين، فقد كانوا يعدّون إسرائيل واحة التقدمية وسط محيط العرب الرجعيين، وكانوا يشتمون الجانب العربى ويعلون من شأن الصهاينة. وقد أبدى رحمه الله استغرابه واستنكاره من صلابة وجه الماركسيين وجرأتهم الوقحة على الإسلام أيام كانت لهم شنة ورنة ورميهم إياه بالرجعية. يقول لدن تفسيره للآيات ١٧٠–

١٧٣ من سورة "الشعراء": "ومن سخرية القدر أن تُرْمَى الرسالة الإلهية فى حاضرنا من المادية، وهى الماركسية الإلحادية، بالرجعية، وكأنها تريد أن تنتقم من الدين بهذا الوصف عندما تشعر بقوة مادية تساندها فى عهد من العهود".

وأذكر بهذه المناسبة أنى، أيام صداقتنا مع السوفييت وتعقبنا لخطاهم تعقب القرود واستعمالنا لرطانتهم الشيوعية، كنت فى الجامعة وبعد تخرجى أستغرب أشد الاستغراب حين أرى العرب والمسلمين يستعملون مصطلحى "اليمين واليسار" فى نفس معناهما عند عملاء الشيوعيين، وأقول إن أصحاب اليمين عندنا هم الناجون يوم القيامة، وأصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، وإن اليمين فى الإسلام رمز البركة والخير والنماء والنجاة، والشِّمال رمز الشؤم واللعنة والفشل والانحراف، ولهذا يجب علينا الكف عن استعمال هذين اللفظين فيما يستعملهما فيه الشيوعيون واليساريون، واستخدامهما عوضا عن ذلك فى معنييهما الإسلاميين اتباعا لما يقوله ربنا فى قرآنه، ورسولنا فى أحاديثه الشريفة. وهذا وأمثاله انعكاس لهزيمتنا الحضارية وتعبير عن شعورنا بالهوان وشعورنا أننا لا نصلح أن نكون متبوعين بل تابعين. وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون فى مقدمته فى الفصل الذى خصصه لولع المغلوبين بتقليد غالبيهم. وقد تنبأ الرسول عليه السلام بأننا سوف يأتى علينا يوم نقلد فيه أعداءنا فى كل شىء حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلناه مثلهم. وها هو ذا قد جاء هذا اليوم منذ قرون وما زلنا نعيشه ونقاسيه ونعانى الخزى والهوان فيه.

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآية رقم ٩٥ من ذات السورة: "يُخْرِج الحى من الميت ومُخْرِج الميت من الحى" يتطرق إلى تفسير للحى والميت هنا طريف وعميق، إذ بعد أن يقول إن النبات الحى يخرج من الحب والنوى الميت، وإن الحيوان يخرج من النُّطَف والبَيْض، يمضى فيقول إن فصل الربيع، فصل البعث الذى يضج بالحياة، يخرج من فصل الشتاء، فصل الموات، ثم يمضى خطوة أخرى قائلا إنه سبحانه "هو الذى يقيم المجتمع المستقيم على أنقاض المجتمع الملحد المتمرد، ويحول مجتمع الإيمان إلى مجتمع كفر وإلحاد". وهى لفتة عجيبة لم تقف عند الحياة والموت فى عالم النبات والحيوان، بل مضت فلمحت انطباق هذا القانون على المجتمعات البشرية أيضا وأنظمتها وأوضاعها. ونحن المسلمين نعانى منذ قرونٍ أهوالا شدادا جراء ما اعترى مجتمعاتنا من سكون وجمود وشلل وموات بعدما كنا نتوثب حيوية ونشاطا وطِمَاحا إلى المعالى، وكنا ننتقل من نصر إلى نصر ونفتح البلاد للقيم الحضارية الكريمة التى أتانا بها وعلمنا إياها رسول الله ﷺ، ثم صرنا إلى حال الهوان التى نعيشها منذ زمن طويل، ويقبض فيها أعداؤنا بأيديهم وأظفارهم وأنيابهم على مقدراتنا ونحن عاجزون حتى عن طرد الذباب عن أفواهنا وأنوفنا وأعيننا، ونستسلم للعجز الفاضح المخزى فى يأس أو شبه يأس مستبعدين أن تقوم لنا قائمة كرة أخرى، وكأننا لم نأت من ظهور أولئك الآباء والأجداد

البواسل الأماجد الذين ننتمى إليهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك المعنى الروحى للحياة فى قوله تعالى فى سورتنا الحالية: "أَوَمَن كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمَنْ مَثَلُه فى الظلمات ليس بخارجٍ منها؟".

وقد لاحظت أن كلا من د. البهى والشيخ الغزالى لم يقف أمام ضِيق صدر المتصعّد فى السماء من حيث دلالته على أن القرآن هو من عند الله لا من عند الرسول، إذ من أين للرسول العلم بأن من يصعد فى السماء يشعر بضيق صدر وحرج؟ إن هذا راجع إلى تخلخل الهواء فى طبقات الجو العليا وازدياد هذا التخلخل كلما ازداد الإنسان تصعيدا فى السماء مما يجعل عملية التنفس تزداد صعوبة وتسبب للمتصعد معاناة تشتد كلما ارتفع حتى ليأتى عليه وقت لا يمكنه فيه التنفس ويموت، وهو ما لم يكن القدماء يعرفون شيئا عنه لأنه من مكتشفات العصر الحديث. ولو كان القرآن من تأليف الرسول ما وردت فيه تلك الصورة البتة. وكل ما قاله د. البهى هنا هو قوله إن "من يهديه الله يكون عنده الميل النفسى ويجعل صدره ضيقا حرجا بحيث يشق عليه قبول تلك الهداية كما يشق على الصاعد فى السماء بعد مرحلة فى صعوده قبول النَّفَس الذى يساعد على بقائه على قيد الحياة". وهو، كما نرى، لا يضيف جديدا إلى ظاهر الآية. أما الشيخ الغزالى فلم يتطرق إلى هذا الموضوع على الإطلاق.

وقد صار التفسير الإعجازى من التفاسير الشائعة الآن بحيث كان من الممكن لكل من العالمين الجليلين الرجوع إلى أحد الكتب أو الدراسات المعروفة فى هذا المجال. وقد وجدت الآن فى هذا الموضوع دراسة واسعة شديدة التفصيل منشورة فى موقع "الهيئة العالمية للكتاب والسنة" بعنوان "ضيق الصدر والتصعد فى السماء" للدكتور عبد الجواد الصاوى سأكتفى ببضع فقرات قليلة منها. ولست أقصد أنه كان ينبغى أن ينقل العالمان الفاضلان بالتفصيل ما كتب حول هذا الموضوع فى أى مرجع من المراجع التى تتناول مثل تلك المسائل، بل كل ما قصدته أنهما كان ينبغى أن يلتفتا ويلفتا القارئ إلى وجه الإعجاز فى الآية ولو فى سطرين أو ثلاثة مثلا.

قال د. الصاوى: "يفهم من عبارة النص الكريم: "ضَيِّقًا حَرَجًا" بأن هذا الضيق ضِيقٌ متدرجٌ ويستمر فى الزيادة حتى يصل إلى الذروة فى الضيق. وهذا ما قرره علماء اللغة والتفسير حيث فسروا "ضَيِّقًا حَرَجًا" على أنه ضِيق بعد ضِيق، والحرجَ على أنه أضيق الضِّيق أو أشده... وهذا ما يتطابق علميًّا مع ما يشعر به الصاعد فى أجواء السماء من ضيق متدرج فى التنفس يزداد كلما زاد الارتفاع إلى أعلى حيث تقل كثافة الهواء فى طبقات الجو المختلفة، فيقل تبعا لها الضغط الجوى للغازات المكونة للهواء، وأهمها الأكسجين، فتزداد سرعة دورات التنفس حتى تصل إلى اللهثان مع ازدياد فى عدد نبضات القلب، فيشعر الإنسان بهذا الضيق بدءًا من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، ثم يتنامى الضيق بالتدريج فى

صدره كلما ازداد الصعود حيث يقل الضغط الجزيئى للأكسجين فى الحويصلات الهوائية، وتقل تبعا له درجة تركيز الأكسجين فى الدم، وبالتالى حرمان جميع أنسجة الجسم من الأكسجين اللازم لها. وبعد ارتفاع ١٢ ألف قدم فوق مستوى سطح البحر تبدأ أعراض نقص الأكسجين متمثلة فى الشعور بفتور ودوار وتعب ذهنى وعضلى إلى أن تصل إلى حد التقلصات والتشنجات فى جميع عضلات الجسم، ومنها العضلات بين الضلوع وعضلة الحجاب الحاجز وعضلات الرقبة والكتفين والبطن المتعلقة باتساع القفص الصدرى أثناء الشهيق حينما تتقلص تقلصًا دوريًّا طبيعيًّا، فيأخذ الضيق فى الازدياد بحدوث التعب العضلى لعضلات التنفس مع الدوار والتعب الذهنى، ويزداد القفص الصدرى ضِيقًا بحدوث التقلصات والتشنجات غير المنتظمة فى عضلات التنفس حيث يضطرب اتساع التجويف الصدرى أثناء الشهيق كما تضطرب عملية الزفير فوق ١٨ ألف قدم، فيشعر الإنسان بضيق شديد ينتهى به فوق ٢٣ ألف قدم إلى غيبوبة إن كان شخصًا غير متأقلم. وقد ثبت أنه يمكن للأشخاص الذين يركبون الطائرات الشراعية غير المجهزة بالضغط الملائم من الداخل أن يطيروا لارتفاع ٢٣ ألف قدم ويكونوا فى حالة وعى إلى أن يهبط تركيز الأوكسجين فى الدم من ٤٠ إلى ٥٠% عن معدله عند مستوى سطح البحر، فيفقدوا الوعى.

كما قد يصاب بعض الأشخاص بوذمة رئوية حادة كنتيجة لتسرب وانتقال السوائل من شعيرات الأوعية الدموية ذات الضغط المرتفع عنها فى أنسجة الرئتين والتى يؤدى تجمعها إلى انكماش أنسجة الرئتين تمامًا، ويدخل الإنسان إلى الضيق الحرج والذى تنغلق فيه مجارى التنفس انغلاقًا لا ينفذ منه شيء على الإطلاق. وأهم التأثيرات لحرمان الجسم من الأكسجين فى الارتفاعات العالية هو نقص الوظائف العقلية متمثلة فى نقص الحكم على الأشياء، فيقل التمييز بين الصواب والخطأ، وتنقص الذاكرة والتى هى مخزن المعلومات لديه، ثم يؤدى النقص الشديد فى الأكسجين إلى اكتئاب عقلى. وتزداد هذه الأعراض بالبقاء فى الأجواء العليا وقتًا أطول، فتأمل هذه التأثيرات التى يعانى منها الصاعد فى السماء والكافر الذى انغلق قلبه عن قبول الإيمان لتدرك دقة الصورة التمثيلية فى هذا التشبيه الرائع...

إن ورود هذه الحقائق العلمية المتمثلة فى إمكانية الصعود فى السماء، والضيق المتدرج الذى يعانى منه الصاعد فيها، والمستوى الحرج الذى يصل فيه الضيق إلى ذروته، والتى ذُكِرَتْ فى هذا المشهد القرآنى البليغ لهى إعجاز علمى واضح، إذ ما كان أحد فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن أن يتخيلها، فضلا عن أن يكتشفها. إن هذه الحقائق لم تكن معلومة على وجه القطع فى زمن الوحى ولا حتى بعده بقرون، ولم تعرف هذه الحقائق وتكتشف إلا خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وكانت البداية حينما اكتشف العالم بليز باسكال عام ١٦٤٨م أن ضغط الهواء يقل كلما ارتفعنا عن مستوى سطح الأرض، وقد تجلت هذه الحقائق فى القرن

العشرين حينما ارتبطت أبحاث وظائف أعضاء الجسم بصعود الإنسان فى طبقات الجو العليا عبر تسلق الجبال الشاهقة وركوب الطائرات الشراعية والعمودية والنفاثة وتقدم وسائل البحث والرصد. وكان بول بيرت هو أول طبيب يقوم بدراسات موسعة عن طب الطيران وتأثير انخفاض الضغط الجوى على وظائف أعضاء الجسم. وقد نشر عام ١٨٨٧م كتابًا أسماه: "الضغط الجوى". فمن أخبر محمدًا ﷺ بهذه الحقائق منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا؟ إنه وحى الله، الذى خلق الكون والإنسان، ويعلم سنن الخلق".

ومما لفت نظرى فى تفسير د. البهى رحمه الله للسورة التى بين أيدينا قوله، تعليقا على الآية ١٣٢: "ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا. وما ربُّكَ بغافلٍ عما يعملون"، إن "منطق العقل يقضى بأن الحسنة جزاؤها حسنة مثلها، وبأن السيئة جزاؤها سيئة مثلها"، ثم قوله بعد هذا تعليقا على الآية ١٦٠ من نفس السورة، ونصها "من جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلَها. وهم لا يُظْلَمون": "وتنهى سورة "الأنعام" آياتها بوضع تقييم للعمل الإنسانى يرتكزعلى خمس نقاط: الأولى أن العمل الحسن يكافَأ عليه الإنسان بعشرة أمثاله من ربه، وأن العمل السيئ يجازَى عليه بمثلٍ له فقط: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهم لا يظلمون". فلا يظلم المحسن فى عمله بالنقص عن عشرة أمثاله، ولا يزاد المسىء عن المثل فى الجزاء على إساءته. وجزاء الحسنة بعشر أمثالها يوضح مدى الترغيب للإنسان فى أن يسلك الطريق السوى. وجزاء السيئة بمثلها يوضح كذلك أن جزاء الله ليس انتقاما، وإنما هو عدل".

وكنت أتوقع أن يجىء الكلام فى الموضعين بل فى كل المواضع التى تعرضت للجزاء الأخروى على ما نجترح من حسنات وسيئات هنا على الأرض واحدا بدلا من القول مرة بأن جزاء الحسنة حسنة واحدة، ومرة بأن جزاء الحسنة بعشر أضعافها، وإلا فما معنى التفسير الموضوعى إذن حتى لو قصرناه على سورة واحدة. إن المقصود بهذا التفسير، حسب المعنى الذى اتبعه د. البهى فى كتابه، هو ربط آيات السورة بعضها ببعض. فكان ينبغى على الأقل، حين يتناول الآية ١٣٢ من "الأنعام"، أن يضع فى ذهنه ما تقوله الآية ١٦٠ فى نفس القضية، وحين يتناول الآية ١٦٠ أن يكون على ذكر مما قالته الآية ١٣٢ بدلا من أن يقول هنا كلاما، وهناك كلاما آخر. بل إن بعض من يكتبون التفسير الموضعى الذى يتناول القرآن آية آية لا يَنْسَوْن هذا الذى أتحدث عنه هنا، فتراهم يربطون الآيات المتباعدة حتى تكون الصورة الكلية للموضوع واضحة فى ذهن القارئ. وفى الحديث الشريف: "عن النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يروى عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: إنَّ ربَّكم تعالَى رحيمٌ: من همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها كُتِبتْ له حسنةً، فإن عمِلها كُتِبتْ له عشرَ أمثالِها إلى سبعِمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ. ومن همَّ بسيِّئةٍ فلم يعملْها كُتِبتْ له حسنةً، فإن عمِلها كُتِبتْ عليه واحدةً أو يمحوها، ولا يهلِكُ على

اللهِ عزَّ وجلَّ إلَّا هالكٌ". أما الشيخ الغزالى فلم يتطرق إلى هذه النقطة لا عند الآية ١٣٢ ولا عند الآية ١٦٠ من سورتنا هذه بكثير أو بقليل. ولربما لم يتطرق إليها فى أى موضع من تفسيره كله رغم تكرر ذكرها فى القرآن الكريم.

وثم كلام قاله د. البهى فى تفسير قوله تعالى من الآية رقم ١٣٧: "وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتْلَ أولادِهم شركاؤهم ليُرْدُوهم وليَلْبِسوا عليهم دينهم" هو "وعلى نحو تدخل الكهان فى أموال الناس فى الزراعة بتحديد نصيب الله ونصيب الأصنام تدخُّلهم فى الأُسَر وتحديدهم من يُضَحَّى به من الأولاد قربانا للأصنام إذلالا لهم وحملا على الطاعة والتردى، وفى الوقت نفسه إمعانا فى إفساد دينهم الذى ورثوه عن إسماعيل قبل الشرك وخَلْطه بما ليس منه بحيث يصبح لا تُرَى معالم روحية فيه، وإنما يُرَى فيه وجه المادية وحدها". وكان قد ذكر من قبل فى مقدمة السورة "ادعاءهم أن أصنامهم ترضى، بل وتحث على قتل الأولاد خشية الفقر (آية ١٣٧)". فهنا نجد الكهان يتدخلون فى تضحية الأولاد للأصنام، وهناك نجد الأصنام تحث على قتل الأولاد خشية الفقر. وكان ينبغى أن يثبت الكلام على معنى واحد. والمعروف أن بعض الجاهليين كانوا يئدون أولادهم خوفا من الفقر، ويئدون بناتهم خوفا من الفقر والعار جميعا. فليس فى وأد الأطفال خلاف، لكن المشكلة فى القول بأن الجاهليين كانوا يقدمون أطفالهم قرابين للأصنام.

وبالرجوع إلى الطبرى فى تفسير تلك الآية قرأت ما يلى: "يقول تعالى ذكره: وكما زيَّن شركاءُ هؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأصنامَ لهم ما زينَّوا لهم من تصييرهم لربهم من أموالهم قسما بزعمهم، وتركهم ما وصل من القسم الذى جعلوه لله إلى قسم شركائهم فى قسمهم، وردّهم ما وصل من القسم الذى جعلوه لشركائهم إلى قسم نصيب الله إلى قسم شركائهم، "كَذَلِكَ زَيَّنَ لكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ" من الشياطين، فحسنوا لهم وأد البنات، "لِيُرْدُوهُمْ". يقول: ليهلكوهم، "وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ": فعلوا ذلك بهم ليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا بفعلهم ما حرّم عليهم الله. ولو شاء الله ألا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه بأن كان يهديهم للحقّ ويوفِّقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد، فقتلوا أولادهم وأطاعوا الشياطين التى أغوتهم. يقول الله لنبيه متوعدا لهم على عظيم فريتهم على ربهم فيما كانوا يقولون فى الأنصباء التى يقسمونها: "هذا لله، وهذا لشركائنا" وفى قتلهم أولادهم: ذرهم يا محمد وما يفترون وما يتقوّلون على من الكذب والزور، فإنى لهم بالمرصاد، ومن وراء العذاب والعقاب".

أما الزمخشرى فيقول: "وَكَذٰلِكَ: ومثل ذلك التزيين، وهو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذى هو علم من الشياطين. والمعنى أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم للآلهة.

وكان الرجل فى الجاهلية يحلف: لإن وُلِد له كذا غلاما لينحرنّ أحدهم، كما حلف عبد المطلب".

وكما نرى فالطبرى لم يذكر من تزيين شركاء المشركين لهم سوى إغرائهم بوأد البنات، أما الزمخشرى فذكر هذا وذكر أيضا تزيينهم لهم نحر أولادهم وتقديمهم للآلهة، ضاربا مثال عبد المطلب حين نذر أن يذبح أحد أولاده متى رزقه الله عشرة أولاد. والواقع أننى لم أسمع بأن كاهنا فى الجاهلية زين لأى أب نَحْر ابنه للاصنام أو حتى وَأْد أحد من بناته. والقرآن على كل حال لم يقل إن الكهان هم الذى كانوا يوصون بذلك فضلا عن أن يأمروا به، بل أسند التزيين بقتل الأولاد ودون أن يحدد الغاية من قتلهم إلى الشركاء.

وإذا كان الزمخشرى قد أشار إلى عبد المطلب ونذره أن ينحر أحد أولاده متى اكتملوا عشرة فلسوف أورد هنا ما قالته السيرة النبوية فى هذا الموضوع حتى يتبين وجه الحقيقة فيه. قال ابن إسحاق: "كان عبد المطلب بن هاشم، فيما يذكرون، قد نذر حين لقى من قريش عند حفر زمزم ما لقى: لإن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عز وجل عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرة: الحارث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره الذى نذر، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا له وقالوا له: كيف تصنع؟ فقال: يأخذ كل رجل منكم قِدْحًا فيكتب فيه اسمه، ثم تأتونى. ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على هُبَل فى جوف الكعبة، وكان هبل عظيم أصنام قريش بمكة... وكان عند هبل سبعة أقداح... فقال عبد المطلب (للكاهن): "اضرب على بَنِى هؤلاء بقِدَاحهم هذه"، وأَخْبَرَه بنذره، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه. وكان عبد الله بن عبد المطلب، أبو رسول الله ﷺ، أصغر بنى أبيه... وكان، فيما يزعمون، أحب ولد عبد المطلب إليه، وكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أَشْوَى. فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند هبل يدعو... فخرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة، الوثنين اللذين تنحر عندهما قريش ذبائحها، ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ فقال: أذبحه... فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا ونحن أحياء حتى نُعْذَر فيه. لإن فعلت هذا لا يزال رجل يأتى بابنه حتى يذبحه. فما بقاء الناس على ذلك؟... لا تفعل، وانطلق إلى الحجاز، فإن به عرافة يقال لها: "نجاح" لها تابع، فسَلْها، ثم أنت على رأس أمرك: فإن أمرتْك بذبحه ذبحتَه، وإن أمرتْك بغير ذاك مما لك وله فيه فرج قَبِلْتَه. فقال: نعم.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها فيما يزعمون بخيبر، فركبوا حتى جاؤوها فسألوها، وقص عليها عبد المطلب شأنه وشأن ابنه وما كان نَذَرَ فيه، فقالت لهم: ارجعوا عنى

اليوم حتى يأتينى تابعِى فأسأله. فخرجوا من عندها، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل... ثم غَدَوْا إليها، فقالت: نعم، قد جاءنى الخبر. فكم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل. وكانت كذلك، فقالت: فارجعوا إلى بلادكم، فقدِّموا صاحبكم، وقدِّموا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليها بالقداح: فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم عز وجل، فإذا خرجت القداح على الإبل فقد رضى ربكم، فانحروها عنه، ونجى صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا لذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله عز وجل... فلما قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، وعبد المطلب فى جوف الكعبة يدعو... ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرا، فبلغت الإبل عشرين. وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرا، فبلغت الإبل ثلاثين، وقام عبد المطلب يدعو الله... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرا، فبلغت الإبل أربعين. فقام عبد المطلب يدعو الله... ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرا، فبلغت الإبل خمسين. وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزدادوا عشرا فبلغت الإبل الستين. وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرا، فبلغ الإبل سبعين. وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزدادوا عشرا، فبلغت الإبل ثمانين. وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزدادوا عشرا، فبلغت الإبل تسعين. وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على عبد الله، فزادوا عشرا، فبلغت الإبل مائة. وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد رضى ربك، وخلص لك ابنك... فذكروا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات. فضربوا على الإبل وعلى عبد الله، وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا، فخرج السهم على الإبل، ثم أعادوا الثانية، وعبد المطلب مكانه عند هبل... ثم ضربوا، فخرج السهم على الإبل، ثم أعادوا الثانية، وقام عبد المطلب يدعو... ثم ضربوا بالقداح على الإبل، فنُحِرَتْ ثم تُرِكَتْ لا يُصَدّ عنها أحد".

وكما هو واضح فلم يأمر أى من الكهنة عبد المطلب بنحر أحد أبنائه، بل هو الذى اتخذ القرار من تلقاء نفسه. ولم أقرأ، فيما أذكر، أن العرب كانت تمارس تقديم أولادهم قربانا لأصنامهم. أما قرار عبد المطلب بنحر أحد أولاده فقرار فردى لم يأمره به كاهن ولا كاهنة. ليس هذا فحسب، بل إن كاهنة يثرب قد أشارت إلى الحَلّ، واقترحت على المكيين مخرجا من المأزق الذى هم فيه، وكان حلا جميلا، إذ أزاح الغمة التى كانت راسخة على صدر عبد المطلب وأولاده ورجالات قريش. أى أن الكاهنة لم تأمر بنحر بل أسعفت بالحل الذى منع النحر. فكيف يقول د. البهى إن الكهان كانوا يتدخلون فى الأُسَر ويحددون من يُضَحَّى به من

الأولاد قربانا للأصنام لإذلال للمشركين وحملهم على الطاعة والتردى؟ ومرة أخرى نحن، فى هذا المجال، لم نسمع بغير حادثة عبد المطلب وعبد الله، ولا توجد واقعة أخرى مثلها فى تاريخ العرب الذى نعرفه. وأنا، بطبيعة الحال، لا أدافع عن الكهان. وهم من ناحيتهم لا ينقصهم عارٌ آخرُ يضاف إلى أعيارهم الكثيرة، لكنى أبرئهم فقط من هذه المذمَّة، ثم لهم فى مَذَامِّهم الأخرى الكفاية وما فوق الكفاية. وغرضى من الكتابة فى هذا الموضوع الرغبة فى أن نتحرى الدقة فيما نكتب ولا ننقل شيئا ليس ثم برهان على صحته.

ومما لاحظته أيضا فى تفسير د. البهى لسورة "الأنعام" أنه، حين تناول الكلام عن الأطعمة المحرمة فى الإسلام اكتفى بتفسير الآية رقم ١٤٥: "قل: لا أجد فيما أُوحِىَ إلىَّ محرَّما على طاعمٍ يَطْعَمُه إلا أن يكون مَيْتَةً أو دما مسفوحا أو لحمَ خنزيرٍ، فإنه رِجْسٌ، أو فسقا أهل لغير الله به..."، ولم يدخل فى أية تفاصيل تتعلق بما يقوله الفقهاء فى هذا الموضوع، وهل هذه الأصناف الأربعة هى وحدها المحرمة فى الإسلام؟ أم هل هناك أصناف أخرى تلحق بها فى التحريم رغم أنها ليست مذكورة فى القرآن؟ ذلك أن من الفقهاء من يرى أنه ليس هناك محرمات أخرى غير هذه الأربعة ما دام القرآن قد استعمل أسلوب القصر فيها، وهم يرون أن ما ورد فى الأحاديث مما لم يذكره الآن هو مكروه وليس محرما. وهناك من يوسِّع دائرة المحرمات الطعامية لتشمل ما ذكره القرآن والأحاديث معا... إلى غير ذلك من التفاصيل. أما الشيخ الغزالى ففى غمرة انشغاله بالخطوط العامة فى كل سورة يتناولها بالتفسير لم يتوقف البتة إزاء الآيات الخاصة بهذا التشريع لا فى هذه السورة ولا فى السورتين الأخريين اللتين تناولتا هذا الموضوع، وهما "البقرة والمائدة" مع أن له مثلا فتوى مؤداها أنه ينبغى، مع المسلمين الجدد من شرق آسيا ممن تأكل شعوبهم لحوم الكلاب، تَرْكُهم وما تعودوا عليه من أكل ذلك الطعام فلا نضيِّق عليهم فيه ولا نشغلهم به ما دام هناك من يبيحه من فقهاء الإسلام. فكنت أحب لو تريث الشيخ أمام تلك الآيات المشار إليها ويعطينا رأيه فى القضية التى نحن هنا بصددها عامة لا لحم الكلاب فقط. وقد تناولت هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى كتابى: "سورة المائدة– دراسة أسلوبية فقهية مقارنة"، فيرجع إليه من أراد.

هذا عن د. مُحَمَّد البهى وتفسيره لسورة "الأنعام"، أما الشيخ الغزالى فهذا نص مقدمته لتفسير تلك السورة: "سورة "الأنعام" هى السورة المكية الأولى فى السبع الطوال التى بدأ بها المصحف الشريف. والقرآن النازل كان يخاطب أول ما يخاطب الوثنيين الغافلين عن الله الجاحدين لوحدانيته. وهم قوم كانوا يتعصبون لأصنامهم ويجمدون على مواريثهم ويقاومون بعنف كل صيحة للتحرر العقلى. بيد أن القرآن الكريم اعتمد على إطالة الإقناع ومضاعفة الأدلة والحديث عن الله سبحانه حديثا يكشف عن عظمته، وينبه إلى آياته فى الأنفس والآفاق، ويستثير ما يكمن فى النفوس من خشية وإنابة، أى يستثير بقايا الفطرة التى غطت

عليها ظلمات الجاهلية. وتمتاز سورة "الأنعام" بخاصتين شاعتا فيها هما كثرة التقريرات والتلقينات لاستنقاذ العقل العربى مما تردى فيه. والتقرير إرسال حكم واضح محدد فى شأن من شؤون الألوهية. ونلحظ ذلك عند أول آية تقرؤها: "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور....". فالله خالق العالم ومضىء شموسه وأقماره. ومع عظمة ما صنع وانفراده به فإن بعض الجهلة يسوى به من لا يحسن صنع شئ! كيف تتم هذه التسوية؟ وعلى أية حال فالناس على ظهر الأرض لهم آجال محدودة ينتهى كل فرد إليها، ثم يعود كل امرئ إلى بارئه. وللإنسانية جمعاء أجل تنتهى إليه هو الساعة الكبرى. ثم يحكم عالم السر والعلن بين عباده على الطريقة التى عاشوا بها فى الدنيا. وتقرير الحمد لله فى الأولى والآخرة يتبعه تقرير آخر: "وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون".

ويكثر فى هذه السورة التحدث عن الله بضمير الغائب واسم الموصول المفرد مثل "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر"، "وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع". والحق أن ضمير الغيبة هنا يجعل المستمع فى حالة حضور كأن الله يخاطبه، ويضع يده على مظاهر عظمته فلا يملك إلا الإذعان. ولا تحسبن هذا الأسلوب يؤثر فى المشركين وحدهم. كلا. إن أهل الكتاب يرون فيه جديدا من المعرفة الحية لا يرونها فى كتبهم مما يترك فى سرائرهم أعظم الآثار! إنه لم ينزل كتاب من السماء يتحدث عن الله بمثل هذه اللهجة من الصدق، وهذه الدقة من الوعى. فهو يخلع الناس خلعا عن التقاليد التى أَلِفُوها، ويَصْدَع الغفلات التى سادت بينهم. وإلى جانب التقريرات التى ذكرنا نماذج لها نجد التلقينات المتتابعة فى هذه السورة، والتى يقول الله فيها لنبيه وهو يجادل المشركين: قل لهم كذا، قل لهم كذا. ربما تكرر هذا اللفظ مرتين فى آية واحدة: "قل: لمن ما فى السماوات والأرض؟ قل: لله. كتب على نفسه الرحمة. ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه..."، وربما تكرر أربع مرات فى آية واحدة مثل "قل: أى شيء أكبر شهادة؟ قل: الله شهيد بينى وبينكم. وأُوحِى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغ. أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل: لا أشهد. قل: إنما هو إله واحد، وإننى بريء مما تشركون". أرأيت هذا الحوار النابض بالحق واليقين؟ أرأيت كلمة "قل" يسعف الله بها نبيه ليرد على مخالفيه؟ لقد تكررت هذه الكلمة فى سورة "الأنعام" أربعا وأربعين مرة. وظاهر أن السورة الكريمة نزلت فى ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل. والمشهور من أقوال العلماء أنها نزلت، على طولها، جملة واحدة. وقد رُوِيَتْ أقوالٌ بأن آيات منها نزلت فى المدينة المنورة بعضها باطل، وبعضها ضعيف. وعلتها أن بعض القراء يحسب أن كل ما يتصل بأهل الكتاب لا علاقة له بمكة! وهذا خطأ.

كما أن البعض تصور أن فرض الزكاة كان فى المدينة. والحق أنه بدأ فى مكة، وفُصِّلَت الأنصبة فى المدينة. والسورة نزلت فى نفس واحد واحتفَّ لنزولها عشرات الألوف من الملائكة.

ووعاها الرسول كلها ساعة نزلت، فقد كان ذهنه ألمع من البرق، وكانت ذاكرته أدق من الأشرطة التى تتم عليها التسجيلات اليوم. فلما استوعبها استدعى الحفظة والكتبة وأملى عليهم ما جاء من عند الله. ونحب أن نستعرض التقارير والتلقينات التى حوتها السورة وشتى القضايا التى تناولتها". ثم يدخل الشيخ فى تتبع الموضوعات الرئيسية بالسورة، وإن لم يقف لَدُنْ كل موضوع، إذ كان يترك بعضا منها، ولا أدرى هل كان ذلك عن عمد منه أو كان سهوا أو كان يتصور رحمه الله أن تلك الموضوعات المتروكة لا تستحق التوقف لديها بصورة مخصوصة.

وأولا وقبل كل شىء أود أن ألفت الأبصار إلى أسلوب الشيخ، فهو أسلوب مفعم بالحيوية والحرارة، ينتقل من الخبر إلى الإنشاء، ومن الإنشاء إلى الخبر، ويمتلئ بالصور البيانية التى تجسد المعنى المراد، وتكثر فيه الأسئلة البلاغية، ويستشهد الشيخ بالشعر تعضيدا لما يقول، مسميا صاحب الشعر تارة، ومكتفيا بإيراد النص دون ذكر اسم صاحبه تارة، ويشيع فيه الاعتزاز بالإسلام وكتابه الكريم حتى إنك لا تشعر أنك تقرأ كلاما بل تعيش وقائع وأحداثا تستثير منك الانفعالات وتستنفر المشاعر. لكنك لن تجد عنده إعرابا ولا شرحا للألفاظ، ولا إيرادا لأسباب النزول إلا نادرا، بل يهضب بكلامه المساوق للآيات التى يفسرها، خاتما ما يقوله عادة بإيراد النص القرآنى الذى يتمشى مع هذا الذى يقول. كما أنه فى العادة لا يستشهد بكلام أى مفسر غيره أو يرجع إلى أى كتاب سوى القرآن المجيد. وهو فى هذا التفسير يعتمد الأسلوب الانطباعى فى غير قليل من الأحيان، فيعبر عن مشاعره وعواطفه ويهلل للجمال والجلال ويثنى على كل ما يعجبه، ويقدح فى كل شىء قبيح أو سلوك ذميم، ويورد الحكايات الشخصية، ويضرب الأمثال من حياته وحياة الناس من حوله حتى تتضح الصورة للقارئ تماما رغم أن تفسيره أقرب إلى أن يكون تلخيصا لما تحتويه السورة، ولكن بأسلوبه هو. وبالمثل قلما يدخل فى قضايا عقيدية أو فقهية خلافية، بل يركز عادة على ما هو مقتنع به مما يرى أن النص يقوله بوضوح، وقد يشير إلى ما فى القضية من آراء بإيجاز شديد دون أن يرجح فى العادة رأيا على رأى.

وإذا أردنا أن نتناول ما جاء فى هذه المقدمة فإنى أحب الوقوف إزاء قول الشيخ إن السورة يكثر فيها استخدام ضمير الغائب متلوا بالاسم الموصول، وتعقيبه على هذا بأن "ضمير الغيبة هنا يجعل المستمع فى حالة حضور كأن الله يخاطبه، ويضع يده على مظاهر عظمته فلا يملك إلا الإذعان". وأحسب أن هذا سهو من الشيخ، إذ إن حديث الله سبحانه عن نفسه بضمير الغائب لا يجعل المستمع فى حالة حضور وكأن الله يخاطبه، بل الذى يعمل هذا هو ضمير المتكلم له سبحانه، وضمير المخاطب لمن يكلمهم. كذلك فإن قوله إن المستمع فى تلك الحالة لا يملك سوى الإذعان يرد عليه الواقع التاريخى فى تلك الآونة، إذ لم

يحدث هذا إلا فى القليل، وإلا لكان ينبغى أن يتم إسلام أهل مكة على بكرة أبيهم فى الحال أو على الأقل: بوتيرة أسرع كثيرا جدا مما حصل وبأعداد هائلة. وهذا لم يحدث. وهو ما ينطبق أيضا على أهل الكتاب، إذ لم يكن إيمانهم بالقرآن وبالإسلام بتلك البساطة التى تُفْهَم من الكلام. إن الإسلام دين عظيم، لكن التاريخ يقول لنا إن المسارعة بالدخول فيه من قِبَل المشركين وأهل الكتاب لم تكن أمرا ميسورا كما نعلم جميعا. وحكم الشيخ هو حكم المحب المتحمس لا المراقب المحايد. ذلك أن آيات السورة كلها تصف صلابة مخ المشركين وتعنتهم معه ﷺ وغرامهم بمجادلته فيما هو حق ظاهر لكل ذى عقل وضمير.

بل إنه هو نفسه قد قال هذا بنفسه بعد أسطر: "من أول ما ذكرته السورة من مقررات مصير الظلمة مهما طال عليهم الأمد أن تكذيبهم للأنبياء يأخذ مراحل متتابعة تبدأ بالإعراض، ثم بالتكذيب المتجهم، ثم بالاستهزاء المتواصل، ثم بالعدوان الآثم! والقَدَر الحكيم يطاولهم فى هذه الأثناء ابتلاء للمؤمنين والكافرين جميعا. وهذه طبيعة الحياة الدنيا، ولكن عُقْبَى الصراع وخيمةٌ على الكافرين. ومن ثم يقول الله لكفار العرب: "ألم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مكَّنَّاهم فى الأرض ما لم نمكِّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مِدْرَارًا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قَرْنًا آخرين؟". هذه مصاير الحضارات عندما تتفسخ، ومصاير الأمم عندما تستكبر وتطغى: تبقى على ظهر الأرض حينا ثم تختفى تحتها مخليةً المكان لآخرين".

أما كلامه، رحمه الله، عن التلقينات التى فى السورة وأسلوب "قل" فهو كلام صحيح وجميل ومشكور. وقد سبق أن كتبت عن أسلوب "قل" فى القرآن الكريم فى بداية تسعينات القرن المنصرم حين ألفت كتابى عن سورة "الرعد" وأنا فى السعودية أثناء محاضرتى فى مادة "دراسات أدبية من القرآن الكريم" بجامعة أم القرى– فرع الطائف، فرصدت عددا من الملامح الأسلوبية الهامة الخاصة بهذا الاستعمال القرآنى أحب أن أوردها هنا استكمالا للفائدة، فلعل أحدا يفكر فى المضى بها قدما ويجد على ضوئها أسرارا قرآنية أخرى، إذ لاحظت مثلا أن الفعل: "قُلْ" قد ورد فى القرآن ٣٣٢ مرة، وأنه فى أغلبيته الساحقة قد وُجِّه إلى الرسول مُحَّد، ولم يوجَّه إلى أحد من إخوانه الأنبياء سوى موسى، إلى جانب وروده أحيانا موجها إلى الإنسان عموما، وأن معظم وروده كان فى العهد المكى (ربما بنسبة الثلاثة الأرباع إلى الربع)، وغالبه فى المحاجة فى أمور العقيدة وما يتعلق بها، وأن ذلك الفعل قد أتى أكثر الأحيان ابتداء، أى من غير أن يسبقه من الكلام ما يكون هو ردا عليه، ويكون فى هذه الحالة تعقيبا على موقف يراد تبيان رأى القرآن فيه، وقد يأتى جوابا لـ"قالوا" أو "يقولون" أو "يسألونك" أو "يستفتونك" أو "يستنبئونك"، وأول الأربعة هو الأغلب، ويليه الثانى، أما الثالث فقد ورد مرتين، على حين ورد الرابع مرة واحدة لا غير، وأنه فى معظم الأحيان يكون موجَّها إلى النبى دون أن يسبقه

نداء له، وأحيانا ما ينادَى النبى قبله، وهو قليل (ثلاث مرات). والملاحظ أن النداء فى هذه الحالة لا يكون إلا بـ"يا أيها النبى"، ولم يرد بـ"يا أيها الرسول" أو بأى اسم أو صفة أخرى له عليه السلام، وأنه أحيانا ما يحدَّد المقول لهم (وقد يكون هذا التحديد "باللام" فيقال: "قل للقوم الفلانيين كذا وكذا"، وقد يكون بالنداء)، والغالب عدم التحديد، وأن حظ السور من هذا الفعل يختلف: وتأتى على رأس القائمة سورة "الأنعام" و"الإسراء" (٢١ مرة)، و"البقرة" (١٨ مرة)، فكل من "سبأ" و"الزمر" (١٥ مرة)، ثم "التوبة" (١٢ مرة)، فكل من "الأعراف" و"المؤمنون" (١١ مرة)، ثم سورة "الرعد" (١٠ مرات)... وهكذا إلى أن نصل إلى سور لا يأتى فيها هذا الفعل إلا مرة واحدة مثل "يوسف" و"الحجر" و"النحل" و"مريم" و"الروم" و"فاطر" و"يس" و"الصافات" و"الكافرون" و"الإخلاص" و"المعوذتين". على أن هناك سورا لم يرد فيها هذا الفعل بتاتا مثل "الفاتحة" و"الدخان" و"الذاريات" و"الرحمن" و"القلم" و"الحاقة" و"المزمل" و"المدثر" و"المرسلات" و"الكوثر" و"المسد"، وأن جملة القول قد تكون خبرية، وقد تكون إنشائية: ندائيةً أو استفهامية أو أمرا.

وقد خرجت من ملاحظاتى بأن كثرة إتيان الفعل: "قل" فى القرآن على هذا النحو تبين كيف أن الله سبحانه كان يكلأ رسوله بالرعاية دائما ويمده بالجواب السليم على ما كان يواجهه من مشكلات أو يوجه إليه من أسئلة، سواء قُصِد بها الإحراج (وهى أسئلة الكفار واليهود) أو الاستفسار (وهى أسئلة المؤمنين)، وأنه عز وجل كان يحب أن يخاطب نبيه بأسلوب مباشر هو أسلوب الخطاب. ومثله فى ذلك أسلوب النداء، الذى لم ينادَ فيه الرسول باسمه بل بـ"يا أيها النبى" تكريما له. وكنت قد لاحظت أيضا أن بعض المفسرين قد يقول شرحا لذلك الأسلوب: "قل يا مُحَمَّد كذا وكذا" رغم أن القرآن لم يناده ﷺ بـ"يا مُحَمَّد" البتة، فينبغى أن نحذو حذو القرآن فلا نقول إن الآية تخاطبه بـ"قل يا مُحَمَّد".

وقد تساءلت عند تفسيرى للآية السابعة عشرة من سورة "الرعد": لماذا يا ترى أُمِر الرسول عليه السلام بالإجابة على السؤال الذى كان يوجهه إلى قومه، ولم يتركهم يجيبونه هم؟ وهنا نجد المفسرين يجيبون على تساؤلى هذا إجابات شتى: فمثلا يقول الزمخشرى فى تفسير الآية ما مُفَاده أن جواب الرسول هو ما كان سيقوله الكفار أنفسهم، فقد كانوا يعترفون بالله، فهو "حكاية لاعترافهم وتأكيد عليهم". وقد تُرِكوا فى سورة "المؤمنون" يجيبون، فكان جوابهم هو ذلك. كما جوز الزمخشرى أن يكون ذلك تلقينا من الرسول لهم إن عجزوا عن الجواب، وهم فى هذه الحالة لن يستطيعوا الإنكار. ويقول البيضاوى أيضا ما قاله الزمخشرى، ولكن بعبارة مختلفة.

أما الطبرسى فإن له تفسيرا آخر، إذ يقول: "فقال: قل يا مُحَمَّد لهؤلاء الكفار: مَنْ رب السماوات والأرض؟... فإذا استعجم عليهم الجواب ولم يمكنهم أن يقولوا: "الأصنام" قل أنت

لهم: "رب السماوات والأرض وما بينهما... الله. فإذا أقروا بذلك قل لهم على سبيل التبكيت والتوبيخ لفعلهم: أفاتخذتم من دونه أولياء...؟". على أنه بعد قليل يعود فيقول ما معناه أن السائل قد يبادر إلى الجواب عن سؤاله تفاديا للتطويل ما دام المسؤول لا يخالف فى الجواب. ويذكر الآلوسى ما قاله هؤلاء الثلاثة، لكنه يرفض القول بأن جواب الرسول على سؤاله هو حكاية منه لاعترافهم. ولا أدرى لماذا ردّ الألوسى هذا التفسير، وقد كرر القرآن فى عدة مواضع منه أنهم كانوا يؤمنون بالله، وإن كانوا قد أشركوا معه الأصنام وكفروا بالبعث. كما يضيف تفسيرا آخر هو أنهم جهلوا الجواب فطلبوه منه عليه السلام، فذكره لهم. ولكن يُرَدّ على هذا بأن تركيب الكلام فى الآية لا يفيد ذلك المعنى. أما سيد قطب فينحو نحوا آخر، إذ يقول إن الأسئلة فى الآية تهكمية لم يُرَدْ لها أجوبة، فقد أجابت مظاهرُ الطبيعة، وشاهَد الكفار ذلك بأنفسهم، وبقى أن يسمعوا الجواب كما شاهدوه. وقد استغرق كلامى عن هذا الأسلوب القرآنى عشر صفحات تقريبا.

هذا، وقد سبق أن أوردنا قول الشيخ الغزالى إن السورة نزلت دفعة واحدة، وهو ما يحتاج إلى وقفة، إذ إنها تحتوى على موضوعات جد متنوعة وتشير إلى وقائع متناثرة على مسافة تاريخية طويلة يبدو معها من المستبعد أن تنزل بها جميعا دفقة واحدة. ونظرة فى "أسباب النزول" ترينا الظروف المختلفة التى نزلت فيها نصوصها مستقلا بعضها عن بعض. صحيح أن ثمة آثارا وردت بنزولها كتلة واحدة، ولكن هناك أيضا الأحاديث التالية التى تساند روايات أسباب النزول، وهى أحاديث صحيحة كذلك: "كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحنُ ستَّةُ نفَرٍ، فقال المُشركونِ: اطرُدْ هؤلاءِ عنكَ فإنَّهم وإنَّهم... وكُنْتُ أنا وابنُ مسعودٍ ورجُلٌ مِن هُذَيلٍ وبلالٌ ورجُلانِ نسيتُ أحَدَهما، قال: فوقَع فى نفسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ذلك ما شاء اللهُ وحدَّث به نفسَه، فأنزَل اللهُ: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ... إلى قوله: الظَّالِمِين (الأنعام/ ٥٢)، "لمَّا نزَلَتْ: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ (الأنعام/ ١٢١) أَرسَلَتْ فارِسُ إلى قُريشٍ أنْ خاصِمُوا محمَّدًا وقولُوا له: فما تَذبَحُ أنتَ بيدِكَ بسِكِّينٍ فهو حَلالٌ، وما ذبَحَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِشِمْشِيرٍ مِن ذَهَبٍ، يعنى المَيْتة، فهو حَرامٌ؟ فنزَلَتْ هذه الآيةُ: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ (الأنعام/ ١٢١). قال: وإنَّ الشَّياطينَ مِن فارِسَ، وأولياءَهم قُريشٌ"، "مرَّ الملأُ مِن قُريشٍ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعنده خَبَّابٌ وصُهَيْبٌ وبِلالٌ وعَمَّارٌ، فقالوا: يا محمَّدُ، أَرَضيتَ بهؤلاءِ؟ فنزَلَ فيهمُ القرآن:وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِم (الأنعام/ ٥١) إلى قوله: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (الأنعام/ ٥٣)". وقد تفرد الشيخ الغزالى عن د. البهى بتناول ما قيل عن موضوع مكية السورة أو مدنيتها، كما تفرد عنه بالحديث عن بعض السمات الأسلوبية التى لفتت انتباهه فيها.

كذلك يربط الشيخ حاضر المسلمين بماضيهم ويقرأ الآيات التى نزلت فى قريش على ضوء ما عليه أحوال الأمة الإسلامية فى الوقت الراهن، وهو ما يجعل لتفسيره مذاقا مختلفا عن كثير من التفاسير الأخرى، ويشير إلى سعة أفقه ومرونة عقله وعمق نظرته، فهو لا يحصر نفسه فيما قاله المفسرون السابقون بل يحرر نفسه وينطلق فيغوص فى أعماق النص ويستخرج عبرة التاريخ ويرينا أن قانون الله واحد فى القديم والحديث، وفى الكافرين والمسلمين، وأنه سبحانه لا يحابى أحدا على أحد، أو أمة على أمة، بل من يعمل ويجدّ يحصد الفلاح والانتصار والمجد، ومن يكسل ويتبلد أو يعص ويتمرد فإنه لا يجد من الثمر سوى ما كان مرا مسموما.
ومن هنا نجده يقول عقيب هذا: "ونسأل: هل هذا شأن الكفر المحض أم القانون عام يشمل مع الكافرين أمما أخرى خلطت الحق بالباطل والهوى بالهدى؟ أو بعبارة أخرى: هل يستوى الذين أعرضوا عن الإيمان كله والذين لم يكسبوا فى إيمانهم خيرا؟ الظاهر من الآيات الواردة فى السورة تشرح هذه القضية أن الكل سواء. وتدبر قوله تعالى يشرح أسلوب أخذه للأمم: "ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا. ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون". إن الله مكر بهؤلاء، وبدا كأنه أهملهم! وهيهات! فما كادوا يستمرئون شرورهم حتى أخذهم بغتة، "فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا. والحمد لله رب العالمين".

وفى استقرائى لأحوال الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها وجدتُ هذه السنة الإلهية تتكرر، وأن ما هُدِّد به المشركون ظهر فى الأبناء المنحرفين: "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسكم شِيَعًا ويُذِيق بعضَكم بأسَ بعض. انظر كيف نصرِّف الآيات لعلهم يفقهون * وكذَّب به قومُك وهو الحق. قل: لستُ عليكم بوكيل * لكل نبإٍ مستقرٌّ، وسوف تعلمون". إن الحليم قد تطول أناته، ولكنه عندما يضرِب يوجِع: "وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة. إن أخذه أليم شديد".

هذا، ومن الممكن الرد على سؤال الشيخ الاستنكارى التالى تعليقا على إلحاح كفار مكة على أن يأيتهم رسول الله بمعجزة: "وأنا أعجب: إذا كان النظام الكونى لايدل على الله فهل خَرْق هذا النظام أحيانا هو الذى يدل على الله؟ إن القمر يدور حول الأرض من دهورٍ خَلَتْ لايتباطأ ولا يَعْوَجّ، فهل هذا الاطراد لا يشهد للخالق القدير، ويشهد له انشقاق القمر بضع دقائق؟ هل السراج الوهاج الذى لا يخبو وهجه على اختلاف الليل والنهار لايدل على الله العظيم، ويدل عليه تأخر الغروب بضع دقائق ليوشع غلام موسى؟" يمكن الرد على هذا ا لسؤال بأن من يطالبون بالمعجزة لا ينكرون وجود الله بل يؤمنون به، ومن ثم لا ينبغى أن تكون نقطة انطلاق الشيخ أن الله هو خالق السماوات والأرض بحيث لا يكون أمام من وجه إليه السؤال إلا أن يقول: فعلا إن اطراد قوانين الله أدل على ألوهيته من توقف قانون منها. نعم

لقد كان كفار مكة يؤمنون بالله وبأنه خالق السماوات والأرض حسبما كرر القرآن فى أكثر من موضع، وبالتالى لم يكن اعتراضهم على وجود الله أو خلقه للكون بل على نبوة مُحَمَّد، فهم يريدون معجزة تشهد على أنه نبى من عند الله وأنه عز وجل يقف معه وينصره على مخالفيه. فإذا كان الأمر كذلك فلربما كان علينا أن نبحث عن تعليل آخر لعدم استجابة السماء لاقتراحهم الإتيان بمعجزة، وهو أن الله يريد من البشر منذ الآن أن يُقْلِعوا عما كان الكفار القدماء يطالبون رسلهم به، وهو الإتيان بآية خارقة، ويعتمدوا بدلا من ذلك على تشغيل عقولهم، وإلا فهل يوفر سبحانه رسولا لكل إنسان معجزة كلما اعتراه شك أو وسوس شيطان من الشياطين فى قلبه تدل على أن مُحَمَّدا نبى صادق وأن الإسلام هو الدين الصحيح؟ لقد كان مجىء الإسلام تدشينا لعصر العقل والمنطق والعلم وانتهاء عصر المعجزات. ولذلك لا تجد دينا آخر يعلى من شأن العلم والعقل والبرهان الفكرى كالإسلام وكتابه الكريم. وقد تقدم البشر بعقولهم وصاروا منذ شرعوا يعتمدون عليها يصنعون ما هو قريب من المعجزات فى كل مناحى الحياة أرضا وبحرا وجوا. وقد قال د. نظمى لوقا هذا فى فصل "النبوة" من كتابه: "مُحَمَّد الرسالة والرسول" مؤكدا أن دعوة الإسلام بعقلانيتها وإهمالها المعجزات الحسية فى إقناع الناس هى الدعوة الوحيدة المناسبة لعصور التقدم العلمى، الذى تعتمد فيه البشرية على عقلها ورشدها مسترشدة بقيم تلك الدعوة ومبادئها دون الحاجة إلى نبوات جديدة.

وأما كلام الشيخ عن الغيب وجهل البشر كلهم به وأن الله هو وحده الذى يعلمه فهو كلام بديع. والفضل فى ذلك يرجع لتلهب أسلوبه وروعة بيانه. قال رحمه الله: "واقرأ بتأملٍ هذه الآية: "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. ويعلم ما فى البر والبحر. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين". إن الغيوب بالنسبة إلينا عماء، وهى عند رب العالمين رؤية شهود. وأغلب الموجودات بالنسبة إلينا غيوب محجوبة! إنك قد ترى إنسانا وتحادثه، ماذا تعلم عنه؟ قد ترى وجهه وملابسه، ولكنك لا ترى أفكاره وأحشاءه. أما رب العالمين فهو يراه ظاهرا وباطنا على سواء، وهو فى الوقت نفسه يرى خمسة مليارات من البشر معه رؤية شمول! بل إن هذه الرؤية الموقوتة جزء ضئيل من رؤيته الإنسان فى أطوار حياته كلها بين المهد واللحد: "إنه بكل شئ بصير". مفاتيح الغيوب كلها عنده، وكما يعلم البشرَ على هذا النحو المحيط يعلم ما فى البر والبحر! كنت أرمق التلفاز فى بيتى فرأيت منظرا فى أحد المحيطات، والموج ثائر يلعب بباخرة جبارة يكاد يوردها الأعماق. قلت: إن الله هنا وهناك يسمع ويرى! يسمع ويرى فقط؟ بل يصنع ويدبر ويحيى ويميت! كل ما فى البر والبحر طوع مشيئته. ومضيت مع الآية الوصافة لأمجاد الله: مَنْ مع الحبة فى ظلمة التراب يخلق منها الزروع والثمار، ويطعمنا الجَنَى الطيب؟ مَنْ مع كل شجرة نابتة فى أقطار الأرض يعلم عدد ما يسقط منها من ورق: "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا

حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين"؟ إنه ليس علما نظريا فقط، إنه مسطور فى كتبه: "وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ". وبعد هذا الإحصاء الكشاف يجىء عرض للحياة الإنسانية على ظهر الأرض، وأعمال الناس كلهم بين شقئ وسعيد: "وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جَرَحْتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمى"...".

وقد انتقل الشيخ بعد هذا إلى الكلام عن المشيئة البشرية والمشيئة الإلهية، فبين أنه لا تعارض بينهما ولا ينبغى أن يفهم من كلام الله ﷻ أحيانا فى القرآن الكريم مِنْ أن مَنْ يهده الله فهو المهتدى، ومن يضلَّه فهو من الضالين أن أمر الإنسان قائم على الجبر كما يزعم المشركون: "سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا. قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون"، فهذا لا يصح ما دام هناك حساب، وإلا كان الأمر عبثا وظلما، وحاشا لله أن يعبث أو يظلم. وخلاصة الأمر أن الله سبحانه يساعد من يريد مساعدة نفسه، ويترك من لا يريد لنصيبه الذى اختاره بنفسه لنفسه. وهذا كلام صحيح. وكل منا يشعر شعورا فطريا أنه حر فى كثير من الأحوال، وإن لم تكن حريته حرية مطلقة بل نسبية. فعلى أساس هذا القدر المحدود من الحرية سوف يكون الحساب، ومن ثم الثواب والعقاب. ومن هنا نستطيع أن نفهم قوله عز شأنه: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"، إذ ما دام الإنسان مكرها على فعل شيء ومحكما عليه الخناق بحيث لا يمكنه التفلفص منه فلا عقاب. والله سبحانه يعلم بضعفنا وقدرتنا ذات النطاق المحدود، إذ هو الذى خلقنا ضعفاء، وجعل الذنوب جزءا أصيلا فى طبيعتنا لا يمكننا الفكاك منها تماما، وإلا كنا ملائكة. والعبرة على كل حال بالقصد والنية والاجتهاد الشديد فى الهروب من الذنوب والخطايا بحيث تدركه، إن أدركته، وهو مُوَلٍّ عنها خوفا ورعبا، عاملا بكل ما لديه من طاقة وعزيمة على الفرار منها فراره من الأسد. فمثل تلك الخطيئة إذا ارتكس الإنسان فيها رغم كل ما بذل من جهد وعزم ونية خالصة فإن الله يغفرها له بمشيئته سبحانه كرما منه ورحمة وحنانا. وعلم الله المطلق بكل شيء، بما فى ذلك ما سوف يفعله الإنسان فى المستقبل، لا يعنى أبدا أنه سبحانه يجبر عبده ثم يعذبه على ما أجبره عليه. إن الله لا يخضع للزمن، فلا ماض بالنسبة إليه ولا حاضر ولا آت، بل كل شيء موجود وجودا أزليا أبديا فى علمه وإدراكه، أما البشر وعالمهم ووقائع حياتهم وتصرفاتهم فمستوى آخر ووضع مختلف، ولا تعارض بين هذا وذاك...

وهكذا حتى وصل الشيخ إلى آخر السورة. وهو فى تفسيره لها قد ترك أشياء فلم يعرض لها، أو مر بها مرورا سريعا. وفى كل الأحوال كان أسلوبه الجميل الحار معوانا له على توصيل أفكاره ومشاعره إلى القارئ وإمتاعه بما يقول. فالقارئ لا يطالع تفسيرا عاديا بل

نـصوصا أدبيـة مـصوغة صـياغة جذابـة فاتنـة. وقـد تنـاول د. البهـى أيـضا الحـديث عـن تلـك القضية، ولكن كان لكل من العالمين نكهته وطريقته وأسلوبه، رغم اتفاقهما فى الرأى.

الجن فى تفسيرى البهى والغزالى

ندخل فى موضوعنا مباشرة ونقول: كتب الشيخ الغزالى عن الجن فى تفسيره نصوصا متعددة، وهذا أول نص منها: "فى وسط سورة "فُصِّلَتْ" حديث عن عوالم أخرى تتصل بالإنسان وهو يهمّ بالخير أو بالشر. إنه حديث عن الجن ووساوسها، والملائكة وإلهاماتها. والماديون ينكرون ذلك كله، وليس لديهم دليل إلا وقوفهم عند الحس. ونحن نحترم المادة وما وراءها، ونعترف بعالم الجن والملائكة والبشر جميعا. من الجن مؤمنون أخيار، ومنهم شياطين تلازم المرء وتنتهز غفلاته لتغريه بمعصية الله والتهاون بحقوقه. وقد انتهز إبليسُ كبيرُ الشياطين خَوَرَ آدم وغفلتَه وأَزَّه على الأكل من الشجرة المحرمة، وحلف له كاذبا أنه ناصح أمين! وأكل آدم، وطُرِد من الجنة. والسبب الأول نسيانه وضعف عزيمته. والسبب الثانى تربُّص الشيطان به وانتهازه الفرصة لخديعته. وكذلك فعل الشيطان مع خصوم الإسلام صدرَ الدعوة. قال تعالى: "وقَيَّضْنا لهم قُرَناء، فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحَقَّ عليهم القولُ فى أممٍ قد خَلَتْ من قبلهم من الجن والإنس. إنهم كانوا خاسرين * وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون". إن الكافرين رفضوا القرآن وكرهوا سماعه، وأغراهم الشيطان أن يُحْدِثوا ضجيجا فى مجلسه حتى لا يخلُص إلى القلوب، وهذا منتهى الفشل فى مواجهة الحق والعجز عن مجادلته. وكل صادٍّ عن الحق يغريه الشيطان بمثل هذه الأفعال. ويوم الحساب يندمون على هذا الهوس: "وقال الذين كفروا: ربنا أَرِنا اللَّذَيْنِ أضلَّانا من الجن والإنس نجعلْهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين". أما أُولُو الألباب الذين شرحوا بالحق صدرا واتجهوا إلى نصرته فإن الملائكة تحفُّهم وتؤنس وحشتهم وتعينهم على تخطى العقبات: "إن الذين قالوا: "ربنا الله" ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة: ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشِروا بالجنة التى كنتم تُوعَدون". ويرى أغلب المفسرين أن هذه الآية تتنزل على المحتضَرين، وهم فى آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة لتطمئنهم على ما تركوا من أحبة ولتشرح صدورهم بما سَيَلْقَوْن من رضوان! ولا بأس بهذا القول، وهو لا ينفى ما يدل عليه السياق من أن الملائكة تهبط على المؤمنين فى أثناء جهادهم فتلهمهم الرشد وتعينهم على الحق. وقد صح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لرجل أحسن الثناء على الله: أعانك عليها ملك كريم. وقال لحسان بن ثابت وهو ينافح عن رسول الله: روح القدس يؤيدك. إن الملائكة تعين على الحق كما تعين الشياطين على الباطل، والأساس فى الثواب والعقاب هو اتجاه الإنسان وكسبه واكتسابه. والشيطان ماهر فى جَرّ الإنسان بعيدا عن الله وفى تعمية الصراط المستقيم أمامه، فكانت الدعوة إلى الله عملا يُذَكِّر الناس ويُنَشِّط الكسول. والمفروض أن جهاز الدعوة يحرس الحقائق ويرد الشياطين ويطارد الأوهام والأهواء: "ومَنْ أحسنُ قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا

وقال: إننى من المسلمين". والرسل أئمة الدعاة على امتداد الزمن، ونشاطهم ركن فى دعم الإيمان وانتصار الخير، وأول ما يتجهون إليه تعريف الناس بربهم وتحبيبهم فيه. وقد جاءت آيات فى السورة لتحقيق هذا المعنى".

ثم هذا نص آخر من نصوص الشيخ الغزالى عن الجن فى تفسيره: "ثم ذكرت سورة "الأحقاف" أنه إذا كان بعض الإنس لم يستجب للقرآن الكريم فإن نفرا من الجن استمع إليه واهتدى به. أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل والتروِّى؟ والحديث عن الجن ذو شجون، فإن الخرافيين من الناس يهرعون إلى خيمة الغيبيات ليطلقوا العِنَان لأخيلتهم وينطلقوا مع عِوَجِهم العقلى. إن القرآن يتحدث عن الشيطان فيقول: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا تَرَوْنَهم"، فيجىء هؤلاء ليؤلفوا كتبا عن حياة الجن، وعن التزاوج بينهم وبين البشر، وعن أسلوب تسخيرهم... إلخ. وبقدر ما ينطلقون مع هذا اللغو يقفون خُرْسًا أمام الحق الذى خُلِقَتْ به السموات والأرض، وشمل الذرة والمجرَّة، فلا يكتشفون له قانونا ولا يفيدون منه شيئا. وهل نهض الغرب إلا بدراسة هذا الحق الذى قامت به السموات والأرض؟ لنَدَعْ ذلك إلى أوانه، ولننظر إلى ما حكاه الكتاب الكريم عن الجن ليسمعه المكذبون من أغبياء الشرك: "وإذْ صَرَفْنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآنَ. فلما حضروه قالوا: أنصتوا. فلما قُضِى وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين". غيرهم من أبناء آدم قال: "لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون". أما هؤلاء فقد وَعَوْا ما قيل ثم رجعوا إلى قومهم منذرين. ونلحظ أنهم قالوا: "إنا سمعنا كتابا أُنْزِل من بعد موسى"، وذلك لعلمهم أن الإنجيل ملحق بالتوراة ومؤيد لأحكامها ومخفف لبعض شدتها. أما القرآن فكتاب مستقل طوى التوراة والإنجيل معا فى معانيه، وأنشأ شريعة مهيمنة على ما سبقها من وحى: "يا قومنا أجيبوا داعِى الله وآمِنوا به يغفرْ لكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم"...".

ثم هذا نص ثالث من نصوص الشيخ الغزالى عن الجن: "فى سورة "الجن" إشارات إلى طبيعة العقيدة عند النصارى، وكيف جعلوا المسيح ابنا لله وإلها معه! لقد انتشرت هذه القالة فى أقطار الأرض، ووُلِدَتْ عليها أجيال حتى جاء القرآن فنفاها بشدة مؤكدا أن الله واحد ليس له أولاد. وكانت العقيدة النصرانية قد بلغت الجن فاعتنقوها، ثم عرفوا فى تطوافهم بالأرض ما يناقضها: "قل: أُوحِى إلى أنه استمع نفرٌ من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرُّشْد فآمنَّا به ولن نشرك بربنا أحدا". وشرع الجن يفصّلون ما تابوا عنه وعرفوا خطأه. إنه ما يَسُوغ أن تكون لله صاحبة ولا أن يُنْسِل منها ابنا: "وأنه تعالى جَدُّ ربنا! ما اتخذ صاحبةً ولا ولدا". وذكروا أن الذى بلغهم ذلك موغل فى الوهم: "وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا". ثم اعتذروا عن غفلتهم فى قبول هذه الشائعة بأنهم ما تصوروا أن يكذب أحد على الله: "وأنا ظننَّا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا"! ولكن رجالا من الإنس استمعوا إلى

هذا اللغو ونشروه فى الأرض وضللوا به جماهير غفيرة: "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رَهَقًا". وقد حسب الجميع أن أبواب السماء غلقت، فلن ينزل ملك بوحى، ولن يحمل بشر رسالة أخرى تعود بالإيمان إلى أصله الصحيح، وتؤكد ما بلَّغه المرسَلون الأولون من وحدانية الله وسيطرته المطلقة على الملكوت كله. لكن الله بعث نبيه الخاتم من العرب، فطوفت رسالته بالمشارق والمغارب معلنة أن الله لا ولد له ولا والد. إن هذه الرسالة كانت مفاجأة للمخطئين: "وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا". والواقع أن الخطأ إذا سلَّحته الدولة بعنفوانها، وأقامت له أبراجا تدرسه وتحميه، ترك ظلاله فى النفوس واستقرت أوضاعه قرونا. وقد نشر الاستعمار الرومانى عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرهبة أن يوطِّئ لها الأكناف. ولولا أن محمَّدا دَرَّع الحق الذى بُعِث به وفداه بالنفس والمال لجعله الرومان فى خبر كان.

ومن أين كان يعلم الجن أن الله واحد لا ولد له ولا والد لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك، وقَرَعوا به الآذان؟ لقد شعرت الجن أن تغيرا ما يحدث فى الكون، وأن الوحى النازل يحيط به حرس شديد حتى لا ينقص منه شىء: "وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلِئَتْ حرَسا شديدا وشُهُبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعدَ للسمع. فمن يستمعِ الآن يجدْ له شِهابا رَصَدا". والغريب أن الحراسة التى صاحبت نزول القرآن من السماء لم تتركه وهو يسير فى الأرض، فتحولت حفظا صانه حرفا حرفا، ونغمة نغمة. وقد آمن الجن بالإسلام عن تصديق واقتناع: "وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به. فمن يؤمنْ بربه فلا يخاف بخسا ولا رَهَقا". ويظهر أن أعدادا من الجن رفضت الانقياد للحق وعالنت بتمردها عليه! وليس فى ذلك ما يدهش، أليس ذلك صنيع بنى آدم؟: "وأنا منا المسلمون، ومنا القاسطون: فمَنْ أسلم فأولئك تَحَرَّوْا رَشَدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنمَ حطبا". وقد سألنى أحد الناس: أتعرف أحدا من الجن؟ فعرفت غرضه، وقلت: ما رأيت منهم أحدا. فقال: كيف تصدق بما لم تره؟ فقلت: ليس كل موجود يُرَى. إن الجراثيم لضآلتها لا تُرَى، والكواكب لبعدها لا تُرَى، والقرآن يقرر ذلك عن الجن عندما يقول: "إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا تَرَوْنَهم". ويستحيل أن الكون الذى تقاس أبعاده بالسنين الضوئية لا يكون به إلا البشر. وقد قلت فى كتاب لى: إن الذى يبنى قصرا من ألف طابق لا يسكن الطابق الأرضى وحده ويدع الباقى تَصْفِر فيه الرياح. فلِمَ خلقه؟ إننى أومن بالله، الذى خلق الإنس والجن والملائكة: "وما يعلم جنودَ ربك إلا هو"...".

ومن هذه النصوص نخرج بأن الشيخ الغزالى لا يرى فى الجن شيئا آخر غير ما يعرفه المسلمون: فهم أخيار وأشرار، والأشرار هم الشياطين، وخيارهم وشرارهم لا يمكن رؤيتهم رغم أنهم يروننا طبقا لما جاء فى القرآن الكريم. ويفهم من هذا أن الرسول عليه السلام لم ير الجن بل لم يحس بوجودهم على مقربة منه حين كانوا يستمعون القرآن من فمه الشريف، بل الله

سبحانه هو الذى أنبأه بنبئهم فقال له: "قل: أُوحِىَ إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا...". ولو كان قابلهم ورآهم لذكر القرآن ذلك ولم يأمره بالقول بأنه إنما أُوحِىَ إليه به.

وكنت أحب أن يتطرق الشيخ إلى الأحاديث التى تقول إنه عليه السلام قد قابل الجن وحدثهم وحدثوه واستمعوا منه إلى كتاب الله وآمنوا بدينه، ثم انقلبوا فى نهاية اللقاء عائدين إلى قومهم يبشرونهم بالدين الجديد، لكنه للأسف لم يتطرق إلى هذا الموضوع. كما لم يتناول العنصر الذى خُلِق منه إبليس ولم يقف لدن عصيانه أمر ربه حين أمر الملائكة بالسجود لآدم عند خلقه وطاعتهم له ورفض إبليس ذلك واستثناء القرآن إياه من الملائكة وكأنه واحد منهم وليس من الجن كما ورد فى سورة "الكهف"، وهو ما يؤكده قوله سبحانه فى "الحِجْر" و"ص" و"الرحمن" إنه مخلوق من نار، إذ قد تكرر فى كتاب الله المجيد أن الجن مخلوقة من نار، ومن ثم فإبليس إذن من الجن. وقد أوضحتُ فى موضع آخر من هذا الكتاب أن الشيخ الغزالى كثيرا ما يقفز فوق بعض الموضوعات أثناء جولانه السريع فى السورة التى يقوم بتفسيرها. وأنا أقول هذا كله استباقا لما قاله د. البهى عن العنصر الذى خُلِق منه إبليس، وعلاقة أبى الشياطين بالملائكة، وهى موضوعات تناولها د. البهى، وكان له رأى فيها لا نوافقه عليه، ونرى أنه اشتط فيه اشتطاطا.

لم يتطرق إذن الشيخ الغزالى إلى تلك المواضيع رغم أهميتها ورغم ما تثيره عند المستشرقين والمبشرين وفى أذهان بعض المسلمين أو من ينسبون أنفسهم إلى الإسلام من أفكار لا تتسق مع ما نفهمه من القرآن الكريم. ذلك أن القرآن قد حسم الأمر فيما يخص انتساب إبليس فقال إنه "كان من الجن ففسق عن أمر ربه"، أى لم يسجد لآدم كما طلب منه مولاه. كما قال على لسانه فى أكثر من موضع إنه مخلوق من نار على عكس آدم المخلوق من طين، وبالتالى لا يصح أن يسجد له لأن النار، كما يرى، خير من الطين. ولكن ماذا عن استثنائه من الملائكة فى قوله سبحانه مثلا: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين"؟ ألا يدل هذا على أنه كان ملكا من الملائكة، لكنه عصى أمر الله فخرج منهم؟ الواقع أنْ لا، فالاستثناء كما يكون متصلا يكون منقطعا، أى يمكن أن نستثنى شيئا من غير الجنس الذى ينتمى إليه، فنقول مثلا: "انصرف الحواةُ إلا نسناسا"، مستثنين النسناس من الحواة رغم أنه ليس حاويا مثلهم بل ليس إنسانا أصلا. وهذا ما يسميه النحاة بـ"الاستثناء المنقطع". ومنه قوله عز شأنه فى سورة "آل عمران": "قال (أى الله لزكريا عليه السلام): آيتُك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا"، والرمز شىء يختلف عن الكلام، وقوله سبحانه فى سورة "النساء": "يا أيها الذين آمنوا، لا تأكلوا أموالكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً

عن تراضٍ منكم"، فالتجارة عن تراضٍ لا تدخل أبدا فى أكل أموال الناس بالباطل رغم أنها مستثناة منه.

أما بالنسبة للقاء الرسول مع الجن كما تقوله بعض الأحاديث فهاك، أيها القارئ الكريم، ما لدىَّ بشأنه. وهذه هى الأحاديث أولا. فعن علقمة بن قيس: "سأَلْتُ ابنَ مسعودٍ فقُلْتُ: هل شهِد أحَدٌ منكم مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةَ الجنّ؟ فقال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ ليلةٍ ففقَدْناه، فالتمَسْناه فى الأوديةِ والشِّعابِ، فقُلْنا: استُطِير أو اغْتِيل. قال: فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ. فلمَّا أصبَحْنا إذا هو جاء مِن قِبَلِ حِراءٍ. قال: فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، فقَدْناك فطلَبْناك فلم نجِدْك، فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ. فقال: أتانى داعى الجنّ، فذهَبْتُ معه فقرَأْتُ عليهم القرآنَ. قال: فانطلَق بنا فأرانا نيرانَهم. وسأَلوه الزَّادَ، فقال: لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِر اسمُ اللهِ عليه يقَعُ فى أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحمًا، وكلُّ بَعْرٍ علفًا لدوابِّكم. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فلا تستنجوا بالعَظْمِ ولا بالبَعْرِ فإنَّه زادُ إخوانِكم مِن الجنّ" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: ابن حبان/ المصدر: صحيح ابن حبان/ خلاصة حكم المحدث: أخرجه فى صحيحه).

وعن عمر بن غيلان الثقفى قال: "أتيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ فقلتُ لهُ: حَدَّثْتَ أنك كنتَ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةَ وَفَدَ الجنُّ. قال: أجل. قلتُ: حدِّثنى كيف كان. قال: إنَّ أهلَ الصُّفَّةِ أخذ كل رجلٍ منهم رجلًا يُعَشِّيهِ إلا أنا، فإنَّهُ لم يأخذنى أحدٌ. فمرَّ بى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: من هذا؟ فقلتُ: أنا ابنُ مسعودٍ. فقال: ما أخذك أحدٌ يعشِّيك؟ قلتُ: لا يا رسولَ اللهِ. قال: فانطلِقْ لعلِّى أجدُ لك شيئًا. فانطلق حتى أتى حجرةَ أم سلمةَ فتركنى ودخل إلى أهلِه، ثم خرجتِ الجاريةُ فقالت: يا ابنَ مسعودٍ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يجدْ لك عشاءً، فارجِعْ إلى مضجعكَ. فرجعتُ إلى المسجدِ فجمعتُ حصباءَ المسجدِ فتوسَّدتُه والتففتُ بثوبى.فلم ألبثْ إلا قليلًا حتى جاءتِ الجاريةُ فقالت: أجب رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. فاتبعتها حتى بلغتُ مقامى، فخرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفى يدِه عسيبُ نخلٍ فعَرَضَ بهِ على صدرى.فقال: انطلق أنت معى حيث انطلقتُ. قال: فانطلقنا حتى أتينا بقيعَ الغرقدِ، فخطَّ بعصاهُ خطةً ثم قال: اجلس فيها ولا تبرحْ حتى آتيك. ثم انطلقَ يمشى وأنا أنظرُ إليهِ، حتى إذا كان من حيثُ لا أراهُ ثارت مثل العجاجةِ السوداءِ، ففزعتُ وقلتُ فى نفسى: هذه هوازنُ مكروا برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليقتلوهُ. فهممتُ أن أسعى إلى البيوتِ فأستغيثَ الناسَ، فذكرتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوصانى ألا أبرحَ. وسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُفَزِّعهم بعصاهُ ويقول: اجلسوا. فجلسوا حتى كاد ينشقُّ عمودُ الصبحِ، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: أنمتَ؟ فقلتُ: لا واللهِ. ولقد فزعتُ الفزعةَ الأولى حتى هممتُ أن آتى البيوتَ فأستغيثَ الناسَ حتى

سمعتُكَ تُفَزّعهم بعصاكَ. فقال: لو أنك خرجتَ من هذه الحلقةِ لم آمَنْ أن تُخْطَفَ. فهل رأيتَ شيئًا منهم؟ قلتُ: رأيتُ رجالًا سودًا مستفرّين بثيابٍ بيضٍ. قال: أولئكَ وفدُ جِنّ نصيبين، فسألونى الزادَ والمتاعَ، فمتعتُهم بكل عظمٍ حائلٍ أو روثةٍ أو بعرةٍ. قلتُ: وما يغنى ذلك عنهم؟ قال إنهم لا يجدون عظمًا إلا وجدوا عليهِ لحمَه الذى كان عليهِ يوم أُكِلَ ولا روثةً إلا وجدوا فيها حَبَّها الذى كان فيها يومَ أُكِلَتْ. فلا يستنج أحدٌ منكم بعظمٍ ولا بعرةٍ" (الراوى: عمر بن غيلان الثقفى/ المحدث: الزيلعى/ المصدر: نصب الراية/ خلاصة حكم المحدث: فى إسناده رجل لم يُسَمّ).

وعن ابن مسعود: "اسْتَتْبَعَنى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً فقال: إنَّ نفَرًا مِن الجِنّ خمسةَ عشَرَ، بنو إخوةٍ وبنو عمٍّ، يأتونى اللَّيلةَ، فأقرَأُ عليهم القُرآنَ. فانطلَقْتُ معه إلى المكانِ الَّذى أراد، فجعَل لى خطًّا ثمَّ أجلَسَنى فيه وقال: لا تخرُجَنَّ مِن هذا. فبِتُّ فيه حتَّى أتانى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع السَّحَرِ، وفى يدِه عَظْم حائل ورَوْثَةٌ وحُمَمةٌ، فقال: إذا أتَيْتَ الخَلاءَ فلا تستنجِيَنَّ بشيءٍ مِن هذا. قال: فلمَّا أصبَحْتُ قُلْتُ: لَأَعْلَمَنَّ حيثُ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فذهَبْتُ فرأَيْتُ موضِعَ سبعينَ بعيرًا" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: الطبرانى/ المصدر: المعجم الأوسط/ خلاصة حكم المحدث: لم يرو على بن رباح عن ابن مسعود حديثا غير هذا). وعن ابن مسعود أيضا: "قدم وفد الجن على رسول اللهِ ﷺ فقالوا: يا محمدُ، انْهَ أُمَّتَك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو حممة، فإن الله تعالى جعل لنا فيها رزقا. قال: فنهى رسول اللهِ ﷺ عن ذلك" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: أبو داود/ المصدر: سنن أبى داود/ خلاصة حكم المحدث: سكت عنه. وقد قال فى رسالته لأهل مكة: كل ما سكت عنه فهو صالح).

وعن الزبير بن العوام: "صلى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصبحِ فى مسجدِ المدينةِ. فلما انصرف قال: أيُّكم يتبعُنى إلى وفدِ الجنّ الليلةَ؟ فأسكت القومُ، فلم يتكلمْ منهم أحدٌ. قال ذلك ثلاثًا. فمرَّ بى يمشِى فأخذ بيدِى، فجعلت أمشِى معَه حتى خَنَسَتْ عنا جبالُ المدينةِ كلُّها وأفضينا إلى أرضٍ بِرَازٍ، فإذا رجالٌ طوالٌ كأنهمُ الرماحُ مُسْتَذْفِرِى ثيابهم من بينِ أرجلِهم. فلما رأيتُهم غَشِيَتْنى رِعْدةٌ شديدةٌ حتى ما تُمْسِكُنى رجلاى من الفَرَقِ. فلما دنونا منهم خطَّ لى رسولُ اللهِ بإبهامِ رجْلِه فى الأرضِ خطًّا، فقال لى: اقعُدْ فى وَسَطِه. فلما جلست ذهب عنّى كلُّ شيءٍ كنتُ أجدُه من ريبةٍ، ومضَى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينى وبينَهم، فتلَا قرآنًا رفيعًا حتى طلع الفجرُ، ثم أقبل حتى مرَّ بى فقال لى: الحقْ. فجعلت أمشِى معَه، فمضينا غيرَ بعيدٍ، فقال لى: التفتْ فانظرْ هل ترَى حيثُ كان أولئكَ من أحدٍ؟ قلت: يا رسولَ اللهِ، أرَى سوادًا كثيرًا. فخَفَّض رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأسَه إلى الأرضِ، فنظم عظمًا بروثةٍ ثم رمَى به إليهم ثم قال: رشد أولئك منّى وفدُ قومٍ. هم وفدُ

نَصِيبِينَ. سألونى الزادَ، فجعلت لهم كلّ عظمٍ وروثةٍ. قال الزبيرُ: فلا يحلُّ لأحدٍ أن يستنجِى بعظمٍ ولا روثةٍ أبدًا" (الراوى: الزبير بن العوام/ المحدث: الهيثمي/ المصدر: مجمع الزوائد/خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن).

وعن ابن العباس: "ما قرَأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الجِنّ وما رآهم. انطلَق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطائفةٌ مِن أصحابِه عامِدينَ سوقَ عُكاظٍ، وقد حِيلَ بيْنَ الشَّياطينَ وبيْنَ خبرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُبُ، فرَجَعَتِ الشَّياطينُ إلى قومِهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيل بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرسِلَتْ علينا الشُّهُبُ. قالوا: ما ذاك إلَّا شيءٌ حدَث، فاضرِبوا مَشَارِقَ الأرضِ ومَغَارِبَها، فانظُروا ما هذا الَّذى حال بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ. فانطلَقوا يضرِبون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فمرَّ النَّفرُ الَّذين أخَذوا نحوَ تِهامةَ، وهو بنَخْلةَ، وهم عامِدونَ إلى سوقِ عُكاظٍ، وهو يُصَلِّى بأصحابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الفجرِ. فلمَّا سمِعوا القرآنَ قالوا: هذا الَّذى حال بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ. فرجَعوا إلى قومِهم "فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا". فأوحى اللهُ إلى نبيّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُلْ أُوحِى إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ" (الراوى: عبد الله بن عباس/ المحدث: ابن حبان/ المصدر: صحيح ابن حبان/ خلاصة حكم المحدث: أخرجه فى صحيحه)

والآن هل صاحب ابن مسعود رسول الله ﷺ ليلة الجن فى الذهاب إليهم أو لا؟ هناك روايتان، ولا أحسب أنه يمكن التوفيق بينهما. أم هل كان رفيقه ليلتذاك هو الزبير؟ لكن كيف يكون هذا، وهى ليلة واحدة ذات رفيق واحد؟ وفوق ذلك ففى رواية الزبير تناقض، إذ بينما تقول الرواية إن الرسول انصرف للقاء الجن بعد صلاة الصبح وأخذ وقتا حتى وصل إليهم ثم أخذ وقتا آخر فى قراء القرآن عليهم نراه تقول أيضا إنه عليه السلام ظل معهم حتى طلع الفجر. فهل الفجر يطلع قبل صلاة الصبح؟ كيف يكون هذا يا إلهى؟ كما أن ابن مسعود يقول مرة إنها كانت فى مكة، ومرة إنها كانت فى المدينة، ويشاركه فى القول بمدنيتها أيضا ابن العوام. وهذا أيضا تناقض لا يمكن التخلص منه. أما القرآن فواضح الدلالة على أنها كانت فى مكة ما دامت الإشارة إليها قد وردت فى سورتى "الأحقاف" و"الجن"، وهما سورتان مكيتان بلا أدنى خلاف. وفى رواية ابن عباس أن رسول الله لم ير الجن، وإنما أخبره الوحى بذلك. والواقع أن هذا هو ما يتسق مع القرآن، إذ نقرأ فى سورة "الأحقاف": "وإذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا من الجن يستمعون القرآنَ، فلما حضروه قالوا: أَنْصِتوا. فلما قُضِىَ وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين". فطريقة سياقة الخبر تشير إلى أن الرسول لم يعلم بهم بل القرآن هو الذى أخبره بذلك. ولدينا كذلك سورة "الجن"، وهى ناصعة الدلالة على ما نقول:"قل: أُوحِىَ إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا".

ثم هل طلب الرسول ابن مسعود قصدا ليصحبه فى رحلته تلك؟ أم هل كان مع الرسول جمع من الصحابة افتقدوه وظنوا أنه قد اغتيل؟ هذا أيضا تناقض. كذلك كيف يعرض الرسول على صحابته أن يرافقه أحدهم لمقابلة الجن فيسكتوا ولا يجيبوه بـ"نعم" أو"لا"، وكأنهم طلبتى بقسم اللغة العربية حين أسألهم سؤالا فلا يفتح الله عليهم بكلمة ولا يفكرون هم من جهتهم أن يفتحوا فمهم! لو كنت مكان الصحابة رضوان الله عليهم لرفعت إصبعى مبتهجا حتى أرى الجن بأم عينى وأستمتع بمشاهدة تلك المخلوقات العجيبة. لكن من ناحية أخرى يبرز سؤال سخيف مزعج: ترى لماذا حرص الرسول على اصطحاب أحد معه ما دام سيخط له خطا ينهاه بحسم قاطع عن تجاوزه بما يعنى أنه لن يشاهد فى الحقيقة شيئا؟ ثم لماذا اقتصر عرضه على أن يصحبه واحد فقط، ولم يطلب من الجميع أن يرافقوه؟

كما أن رواية ابن عباس تخلو من الكلام عن طعام الجن، فأراحتنا من مشكلة أخرى نحن فى غنى عنها، إذ كيف يكون العظم والروث طعام أهل الجن، ونحن نراهما فى أمكنتهما لا يتغير شكلهما ولا ينقصان مهما طال الزمن إلا بالجفاف؟ ولو وُضِعا فى مجمِّد (فريزر) مثلا لبقيا كما هما مهما طال الزمن. ثم إننا لا ندرى مَنْ فَتَح موضوع النهى عن استعمال العظم والرَّوْث فى الاستنجاء: أهو الرسول حين سأله الجن الطعام، فحددهما لهم؟ أم هل هم الجن عندما التمسوا منه هم أنفسهم أن ينهى أمته عن استخدامهما فى الاستنجاء لأنهما طعامهم؟ واضح أن هذا تناقض آخر مزعج. كذلك هناك تأفف الجن من ذلك الاستخدام مما لا نفهم له معنى، إذ الروث فضلات نجسة منتنة كالخرء سواء بسواء، وكلاهما يخرج من البطن. وعلى هذا فما دام الجن لا يجدون غضاضة فى أكل الروث أو أكل ما فيه من حب فلِمَ يجدون تلك الغضاضة إذا علق بها بعض الفضلات البشرية التى لا تذكر؟ ألا إن هذا تنطس بل تنطع سخيف. وهذا إن كان الجن هم الذين سيأكلونه كما يُفْهَم من إحدى الروايات، أما إن كانت دوابهم هى التى ستأكله فهو غريب، إذ ما عهدنا دابة تأكل خرء دوابَّ مثلها. لكن هل للجن دوابّ أصلا؟ ودعنا من أنها تأكل أو لا تأكل. ولو افترضنا أن القصة صحيحة فماذا يفعل الجن فى البلاد الأخرى التى لا تتبع دين مُحَمَّد، ومن ثم لم ينههما الرسول عن الاستنجاء بالعظم والروث والبعر؟ ثم هل كان أحد فى الدنيا يستنجى بالعظام والأرواث؟ فمن هو يا ترى؟

كما أن طلب الجن من الرسول تحديد طعام يأكلونه معناه أنهم، مذ خلقهم الله، لم يكونوا يأكلون شيئا. فكيف كانوا يعيشون طوال تلك الأحقاب والدهور؟ الحق أن هذا مما لا يعقله العاقلون ما دام إخواننا من الجن يحتاجون إلى الطعام كى يعيشوا. وهناك أمر آخر، وهو أن الرسول وَعَدَ الجن أنهم متى وجدوا عظما سُمِّىَ الله عليه صار أكثر ما يكون لحما. فلماذا لم

يختص عليه السلام أمته بهذه المزية التى تعفيهم من التفكير فى اللحم إلى الأبد، إذ يكفى أن يأكلوا لحما مرة واحدة ثم يحتفظوا بالعظم ليتحول لحما كلما جاءوا؟

أما أنا فلا أملك إلا أن أضرب صفحا عن كل تلك الروايات وآخذ برواية ابن العباس رضى الله عن الصحابة جميعا مع التنبيه إلى أن فى هذه الرواية كلاما لم يسمعه بَشَرِىٌّ من الجن ما دام الرسول نفسه لم يرهم ولم يسمعهم. وإذن فهو كلام من كلام الحال لا من كلام المقال. وأما الحديث التالى فيقتصر على النهى عن استخدام العظام والأرواث فى الاستنجاء، وهى مسألة صحية وذوقية ولها علاقة بالنجاسة فى الإسلام، إذ لا يعقل أن أزيل النجاسة عن بدنى بنجاسة مثلها. ولا صلة بينها وبين الجن ولا طعام أهل الجن. ومن هنا أرى الاقتصار فى هذا الموضوع على حديثنا ذاك، ونصه: "إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ، فَإذَا ذهب أحدُكُمْ إلى الغائِطِ فَلَا يَسْتَقْبِلِ القبلَةَ، ولا يَسْتَدْبِرْهَا بِغَائِطٍ ولا بَوْلٍ، وَلْيَسْتَنْجِ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ. وَنَهَى عن الروث والرِّمَّة" (الراوى: أبو هريرة/ المحدث: النووى/ المصدر: الخلاصة/ خلاصة حكم المحدث: صحيح).

وعلى عكس الشيخ الغزالى تعرض د. البهى لموضوع الجن فى كل مرة أتى ذكرهم فى السور التى قام بتفسيرها، وفصل القول فى موضوعهم تفصيلا لدن تفسيره لسورة "الجن". وهاك خلاصة ما قاله فى مقدمة تفسيره لتلك السورة: فعنده أن الملائكة مخلوقون من نار، وهم هم الجن أنفسهم، فلا فرق بين جن وملائكة، والكل مخلوق من نار صافية كما يقول، ولهذا كانوا قوى روحية، وإن كنت لا أدرى العلاقة بين خلق الجن من نار صافية أو غير صافية وبين طبيعتهم الروحية، فالنار مادية كما نعرف، إذ نراها ونحس بدفئها وإذا لمسناها احترقنا بها، وهى تنضج الأطعمة وتسخن الماء... إلخ. وإبليس، عنده، هو فى الأصل مَلَكٌ من الملائكة، لكنه عصى ربه واغتر بأنه مخلوق من نار، والنار فى ظنه أفضل من الطين، ومن ثم فهو خير من آدم، ولا يصح بالتالى أن يسجد له، وصار بهذا الاغترار والعصيان شيطانا شريرا. وهو يعتمد فى القول بملائكية إبليس على أن القرآن قد استثناه منهم، والاستثناء عنده دليل على أن الجنس واحد. ولا يكتفى الأستاذ الدكتور بهذا بل يُدْخِل فى الجن من يتخفى من البشر بإيمانه أو كفره، وبخيره أو شره. ذلك أن كلمة "الجن" تعنى التخفى، فيلحق بالجن إذن البشر المتخفون، الذين يُعَدُّون من قبيل إبليس متى كانوا أشرارا، وهم من يشير إليهم القرآن فى قوله عز شأنه عن إبليس: "إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا تَرَوْنَهم".

وعلى هذا فعنده أن النفر من الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله يستمعون القرآن وآمنوا به ثم ارتدوا إلى قومهم يبشرونهم به ويدعونهم إلى اعتناقه، وورد ذكرهم فى سورتى "الأحقاف" و"الجن" هم نفر من البشر سموا:"جنا" لأنهم كانوا متخفين، فلم يعرف بحضورهم أحد لا من مشركى مكة ولا من مسلميها بل ولا من الرسول ذاته عليه السلام. وهو يرجع

أقوى الترجيح أن يكونوا جماعة من مشركى يثرب جاؤوا إلى مكة للحج، وتصادف أن سمعوا الرسول ﷺ يتلو القرآن، ويرفض أن يكونوا يهودا من نصيبين بالعراق. أما معرفتهم برسالة موسى فراجعة إلى أنهم كانوا يساكنون اليهود فى يثرب ويعرفون دينهم. كما ذكر أن القرآن الذى استمعوه كان سورة "العَلَق". أى أنهم آمنوا بالرسول وبالقرآن منذ أول الدعوة. ومعنى هذا أن فريقا من أهل يثرب قد آمن برسول الله ﷺ قبل أن يلتقى به وفدهم قبيل الهجرة فى العقبة بسنوات طويلة. وهو ما لم يتطرق إليه قبل د. البهى، فى حدود معرفتى، أحد من علمائنا القدامى ولا الحاليين لا من المفسرين ولا من كتاب السيرة ولا من المؤرخين ولا من المحدِّثين. ثم لماذا استخدم القرآن كلمة "الجن" فلم يقل مثلا: "وإذ صرفنا إليك نفرا من الغرباء يستمعون القرآن..." بدلا من إشاعة الاضطراب على هذا النحو بعدما تكرر كلامه عن أصل الجن وأنهم من نار مثلما تكرر كلامه عن البشر وأنهم من طين؟ هل القرآن يريد إرباكنا؟ ولكن ما الداعى؟ وما الفائدة التى ستتحقق جراء هذا الإرباك؟ بل إن الجن فى السورة المسماة باسمهم يفرقون بين أنفسهم وبين الإنس: "وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا"، ولا يعقل أن يكون المراد هو الإنس الظاهرين والإنس المستخفين. كما تقول الجن عن نفسها بعد ذلك بآية: "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع. فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا". فهل البشر المتخفون أو الغرباء يمكن أن يلمسوا السماء أيا كان معنى السماء وأيا كان معنى اللمس، أو يقعدوا منها مقاعد للسمع أيا كان معنى القعود وأيا كان معنى السمع؟ ثم متى ترصد الشهب البشر المتخفين أو الغرباء؟ ومن رأى ذلك يا ترى؟ كذلك لو كان هؤلاء النفر من مشركى يثرب فكيف يا ترى تحدثوا عن توراة موسى بكل ذلك الاحترام، وهم مشركون لا يؤمنون بتوراة ولا أى كتاب سماوى آخر، وإلا لقد كان ينبغى أن يعتنقوا دين جيرانهم فى يثرب من اليهود؟ أليس هذا ما يقتضيه المنطق؟ ثم إنهم حين عادوا إلى بلادهم فلا بد أن يعلنوا إيمانهم بالإسلام ما داموا قد ابتعدوا عن موطن الخطر عندما كانوا فى مكة عرضة للأذى من مشركيها، فلِمَ يا ترى لَمْ نسمع بشىء من ذلك ومما يترتب على ذلك من انقسام المجتمع اليثربى حول الدعوة الجديدة التى أتاهم بها نفر منهم من مكة كما هو الحال فى مثل تلك الظروف، وانتفاض اليهود ضدهم مثلما صنعوا مع رسول الله فور هجرته إلى يثرب؟

وإذا كان البشر المتخفُّون يُعَدّون من الجن لقد كان المسلمون فى بداية الدعوة يتخفَّوْن عن أهل مكة بإيمانهم، فهل نعدهم جنا من الجن؟ هذا ما لم يقل به أحد قط. بل إن الرسول عليه السلام ظل يدعو إلى دينه سرا فترة من الوقت فهل نقول إنه كان وقتئذ من الجن؟ أستغفر الله العظيم! وقد قيل إن العباس بن عبد المطلب كان من قبل الهجرة مسلما دون أن

يعرف أهل مكة بإسلامه، أفنقول إنه كان آنذاك من الجن؟ كما أن أخت عمر بن الخطاب وزوجها سعيد بن زيد كانا مسلمين دون علم عمر، فهل كانا من الجن بالنسبة له؟ ولكن ماذا عمن كانوا يعرفون بإسلامهما وذكرت واحدة منهم لعمر نفسه أنهما مسلمان؟ أيكونان جنيين بالنسبة لهؤلاء؟ بالطبع لا. أتراهما إذن جنيين من إحدى الزوايا، وبشريين من إحدى الزوايا الأخرى؟ أى إرباك هذا يا إلهى؟ وقد ذكر القرآن المجيد فى سورة "غافر" رجلا من آل فرعون يكتم إيمانه، فهل نقول إنه كان من الجن؟ وكان فى مدينة رسول الله طائفة غير قليلة من المنافقين، أى يخفون كفرهم ويتآمرون فى الخفاء بالشر على المسلمين ورسولهم، فهل نصفهم بأنهم جن؟ لكن ذلك لم يقله القرآن ولم يقله رسول الله ولم يقله أحد من الصحابة. وكان عبد الله بن سلام اليهودى يكتم اعتناقه الإسلام فى البداية، فهل ندخله فى الجن؟ كيف ذلك؟ إن هذا من شأنه إشاعة الاضطراب فى التسميات والمصطلحات والتعريفات ويلبّس الأمور تلبيسا مزعجا ومضللا ويفسد علينا كل أمورنا، علاوة على أنه يصطدم بالقرآن نفسه وبالأحاديث وبكل ما فهمه وكتبه العلماء المسلمون طوال تلك القرون من لدن نزول القرآن حتى عصرنا.

ترى هل يمكن أن نصدق بأن أهل يثرب المؤمنين بالرسول سرا منذ أول الدعوة قد سكتوا طوال ما يزيد على عشر سنوات فلم يحاولوا مقابلة الرسول ولا إخباره بإيمانهم به؟ يا صبرهم ويا طول بالهم! ولكن هل هذا مما تطيقه طبائع البشر؟ وهل يمكن أن يسكتوا أيضا حين قابلوه فلا يذكروا له أنهم كانوا مؤمنين به طوال تلك الأعوام، على الأقل: حتى يدخلوا السرور على قلبه ويشعروه أنهم مخلصون فى إيمانهم وأن إسلامهم ليس وليد اليوم؟ بل هل من الممكن أن يتواصى كل أهل يثرب فلا يشيروا إلى هؤلاء النفر بوصفهم أصحاب الفضل فى اعتناقهم الإسلام حين عادوا من مكة فى بداية الدعوة وعرضوا عليهم الدين الجديد واجتهدوا فى إقناعهم به؟ بل لماذا صمت القرآن بعد دخول الأوس والخزرج كلهم تقريبا فى الإسلام فلم يبين لنا أن هؤلاء الجن لم يكونوا سوى بعض من أهل يثرب؟ إن هذه مكرمة عظيمة لهم، فكيف أغفلها القرآن ولم يضرب بهم المثل فى المسارعة إلى الإيمان منذ ذلك الوقت المبكر فور سماعهم بعضا من آياته الكريمة وحفاظهم عليه على مر الأعوام دون تردد أو تلجلج أو تبديل أو تغيير؟ وهذا إن كان هؤلاء الجن اليثربيون قد سمعوا الرسول وهو يقرأ القرآن دون أن يراهم. أما إن كان قد رآهم وسمعهم كما رأوه هم وسمعوه فلم يا ترى لم يقل الرسول لوفد يثرب ذلك حين جاءه فى آخر الفترة المكية وعرضوا عليه الهجرة لبلدهم واستعاد معهم ذكريات تلك الليلة العجيبة؟

لقد كان القرآن واضحا فى موضوع الجن، فحددهم تحديدا مختلفا عن تحديده للبشر وللملائكة: فالجن من نار، والبشر من طين، أما الملائكة فلم يقل القرآن قط إنهم مخلوقون من

نار بينما نقرأ فى "صحيح مسلم" و"صحيح ابن حبان" و"صحيح الجامع": "خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارِجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ ممَّا وُصِفَ لَكُمْ". وفى "مجمع الزوائد" عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو: "خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ".

وبالمثل فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون كما نقرأ فى سورة "الأنبياء" فى حين أن إبليس، وهو من الجن كما قال القرآن الكريم، قد عصى ربه عصيانا شنيعا وتحداه وزاد فطلب منه إنظاره إلى يوم البعث. وهذه ليست طبيعة الملائكة. كذلك ذكر د. البهى، مثلما رأينا، أن الملائكة لا تتناسل، أى ليس لها ذرية، وأن إبليس منهم. فكيف يتسق هذا مع قول القرآن إن له ذرية وقبيلا؟ ففى الآية الخمسين من سورة "الكهف" نقرأ: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: "اسْجُدُوا لِآَدَمَ"، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا". وفى الآية السابعة والعشرين من سورة "الأعراف" نقرأ أيضا عن الشيطان: "إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ". ليس هذا فحسب، بل كثيرا ما يذكر القرآن "الشياطين" بصيغة الجمع بما يفيد أنه ليس هناك شيطان واحد فقط بل شياطين وشياطين وشياطين ملء الأرض وبطول التاريخ البشرى!

وفى مواضع متعددة من الكتاب الكريم يذكر الله تعالى الجن والإنس بما يفيد أن كلا منهما جنس مختلف ومستقل عن الآخر كما فى سورة "الرحمن"، التى بدأ فيها الحديث بالتفرقة بين الإنسان المخلوق من صلصال كالفخار، والجان المخلوق من مارج من نار، إلى أن بلغنا قوله تعالى: "يا معشر الجن والإنس"، وهو ما يدل أقوى دلالة على أنهما جنسان متمايزان. وفيها أيضا عن أحد مواقف القيامة: "فيومئذ لا يُسْأَل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ" حيث نجد تفريقا بين الجنسين: الإنس والجانّ. ولا يعقل أن يكون المقصود بـ"الجانّ" هنا البشر الذى كانوا متخفين فى الدنيا، فليس هناك نوع من البشر متخفٍّ يقابل النوع الظاهر بحيث يحرص القرآن على التمييز بين النوعين على هذا النحو فى مثل هذا الموقف الأخروى، بل الجميع بشر فى مقابل الجنّ. وعلى نفس المنوال وبنفس المدلول نجد القرآن ينفى عن الحور العين أن يكنَّ قد طمثهنَّ قبلا إنس ولا جانّ. كما تسمى السورة الجنسين بـ"الثَّقَلَيْن"، ويبكّتهم القرآن بصيغة المثنى عشرات المرات فى قوله: "فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذّبان؟". وليس لهذا كله من دلالة سوى أنهما جنسان مختلفان متمايزان. وفى الآيات ١٢٨– ١٣٠ من سورة "الأنعام" نقرأ أيضا قول الحق تبارك وتعالى: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ، قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ. وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ: رَبَّنَا، اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا. قَالَ: النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ

بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا: "شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا"، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ". فكيف يستكثر الجن من الإنس ويتولى الإنس الجن ويعلنون أنهم قد استمتع بعضهم ببعض؟ إن الاستكثار والاستمتاع معناهما أنهم كانوا يتعاشرون ويتحادثون، وإلا فكيف يتعاشر الظاهرون من البشر مع المتخفين منهم الذين لا يرونهم ولا يسمعونهم ولا يلمسونهم؟ وهل يشكل المتخفون فى كل المجتمعات عالما خاصا بهم متميزا كل هذا التميز عن البشر الظاهرين حتى ليتحدث القرآن عن كل منهم بوصفه شيئا مختلفا عن الآخر؟

سيقول د. البهى: ولكن الله قد استثنى إبليس من الملائكة حين أمرهم بالسجود، فاستجابوا إلا إبليس، والمستثنى جزء من المستثنى منه. والرد على ذلك من أسهل ما يكون. لقد حدد الله إبليس بأنه من نار، وأنه من الجن، وكان هذا التحديد واضحا أتم الوضوح بحيث لا يقبل إنكارا ولا حتى إساءة فهم إلا لمن دخل الموضوع وفى ذهنه فكرة مسبقة، فلَوَى الكلام إلى الجهة التى يريدها. وهذا أمر آخر. كما أن استثناء إبليس من الملائكة لا يعنى بالضرورة أنه منهم ومَلَكٌ مثلهم، إذ العربية تعرف ما يسمى بـ"الاستثناء المنقطع"، وهو استثناء شىء أو شخص من غير طائفته. والأستاذ الدكتور يعرف هذا تمام العرفان، فقد درسه كما درسناه فى النحو أيام كنا فى الأزهر منذ السنة الأولى الابتدائية ونحن آتون بحشفنا وعبلنا من الكتاتيب لا نعرف الألف من كوز الذرة فى مادة "النحو" قبل أن يعودوا فيسموا تلك المرحلة بالمرحلة الإعدادية سنة ٦١– ١٩٦٢ حين كنا فى الفرقة الثالثة.

والأستاذ الدكتور يذكّرنى فى كلامه هذا بالمستشرق السويسرى إدوار مونتيه، الذى ترجم القرآن إلى الفرنسية، فعقب على الآية التاليةِ: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: "اسْجُدُوا لِآدَمَ"، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" (الكهف/ ٥٠) بقوله إن هذه هى المرةُ الوحيدةُ التى يُقَال فيها عن إبليسَ إنه من الجنّ. ثم يَمضِى مؤكدًا ألا مُشَاحَّةَ فى أن هذه غلطةٌ من الناسخِ ترجِع إلى المخطوطةِ الأولى للقرآنِ لأن العبارةَ، مع وصفِ إبليسَ بأنه من الجنّ، تُصبِح فى رأيه غيرَ مفهومةٍ. إن الله، كما يقرّر هذا المستشرقُ، قد أصدر أمرًا للملائكةِ، فعَصَى الأمرَ واحدٌ فقط هو إبليسُ. يُرِيد أن يقول إن الأمرَ كان صادرًا للملائكةِ، فمعنى عصيانِ إبليسَ لما أمر الله الملائكة به هو أنه واحدٌ منهم، إذ كيف يَعصِى أمرًا لم يكن ضمنَ المقصودين منه؟ فهل صحيحٌ أن عقيدةَ القرآنِ فى إبليسَ هى أنه مَلَكٌ من الملائكةِ؟ إن الآيتينِ ١١– ١٢ من سورة "الأعراف" تلقيانِ ضوءًا على هذه المسألةِ، فماذا تقولانِ؟ لنقرأ: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: "اسْجُدُوا لِآدَمَ"، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ. خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ". إن إبليسَ هنا يتبجَّح بأنه مخلوقٌ من نار. وانظر أيضًا سورة "ص"/ ٧١– ٧٦. وفى سورة

"الحجر"/ ٢٦– ٢٧ نقرأ: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ". وانظر كذلك سورة "الرحمن"/ ١٤– ١٥. فإذا كانت سورتا "الأعراف" و"ص" تَقُولانِ إن إبليس مخلوقٌ من نارٍ، وكانت سورتا "الحجر" و"الرحمن" تُقرِّران أن النارَ هى العنصر الذى خُلِق منه الجنُّ، أفليس معنَى ذلك أن إبليسَ يَنتَمِى إلى الجنِّ لا إلى الملائكةِ؟ وهناك سِمَةٌ أخرى فارقةٌ بين الملائكةِ وإبليسَ، فبقيةُ آيةِ سورةِ" الكهف"، التى يدَّعى المترجِم أن فيها غلطة من الناسخِ، تحذِّر البشرَ من إبليسَ وذريتِه. أى إن إبليسَ بنص القرآنِ له ذريةٌ، وهو ما لا يَنْسُبه القرآنُ قط للملائكة. كذلك فالقرآن لم يذكر البتة أن الملائكة مخلوقون من نار كما ذكر ذلك عن إبليس.

وبالمثل لم يضف القرآن كلمة "الجن" إلى البشر فى أية آية منه مثلما فعل مع كلمة "شياطين"، إذ قال: "شياطين الإنس"، ولكنه لم يقل قط: "جن الإنس". وحين عقد سليمان مجلسه عقب تسلمه رسالة من ملكة سبإ وسأل الحاضرين: "أَيُّكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين؟" انبرى "عفريت من الجن" بنص القرآن يعرض أن يأتيه به قبل أن يقوم من مكانه، فرد مَنْ عنده علم من الكتاب بأنه يمكنه أن يحضر العرش قبل أن يرتد إليه طرفه. ومعنى هذا أن الجن المشار إليه ليس بشرا متخفيا، فقد كان الجميع فى مجلس سليمان يرى بعضهم بعضا ويجادل بعضهم بعضا ويستمع بعضهم إلى بعض كما هو واضح من النص القرآنى فى هذا الصدد من سورة "النمل" بما يفيد أن الجميع كانوا ظاهرين بعضهم لبعض. وفى سورة "سبإ" نقرأ أن الجن كانت تعمل بين يدى سليمان بإذن ربه ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان هائلة وما إلى ذلك. ولا يمكن أن يكون المقصودون هم البشر المتخفين، إذ كانوا ظاهرين له، وإلا فكيف كان يباشرهم؟ وكيف كانوا يخشَوْنه وينصاعون لما يريد منهم وهم متخفون عنه لا يمكن أن يراهم أو يعرف عنهم شيئا؟ وحين مات وهو مستند إلى عصاه وظل على هذا الوضع إلى أن أكلتها الأَرَضَةُ من أسفلها فتهاوى قال القرآن إنهم ظلوا يعملون بين يديه كما لو كان لا يزال حيا دون أن يخطر فى بالهم أنه ميت منذ فترة، ثم عقب قائلا: "فلما خَرَّ (أى سقط) تبينت الجنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المُهِين". فمنذ متى ادعى الخدم فى قصور الملوك أو حتى فى قصر سليمان وحده أنهم يعلمون الغيب؟ وما وجه الإعجاز والمنّ الإلهى على سليمان فى أن أخضع له بعض البشر "المتخفين" يصنعون له تلك الأعاجيب المارّ ذكرها قبل قليل؟ ثم ممن كانوا متخفين؟ وأين؟ وكيف؟ ولم؟

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، إذ نقرأ فى الآيتين ٤٠– ٤١ من سورة "سبإ" نفسها الحوار التالى بين الله وملائكته: "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ * قَالُوا: سُبْحَانَكَ! أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ. بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ. أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ

مُؤْمِنُونَ". وفيه أن الملائكة تنفى يوم القيامة أن يكون مشركو مكة قد عبدوهم، ويؤكدون أنهم إنما عبدوا الجن. فما الذى نفهمه من هذا ولا يمكن أن يُفْهَم غيره؟ الذى نفهمه ولا يمكن فهم سواه هو أن الملائكة شىء، والجن شىء آخر. المسألة واضحة أسطع الوضوح، ولا تقبل لجاجة ولا أخذا وردا قولا واحدا. فماذا يريد الأستاذ الدكتور أفضل من هذا؟

أما اتخاذ مونتيه والدكتور البهى من استثناءِ إبليسَ من الملائكةِ فى القرآن عند الحديث عن خلق آدم وأمر الله ملائكته بالسجود له برهانا على أنه يَنْتَمِى إليهم فإنى أسوقُ بعضَ الآياتِ الأخرى التى ورَد فيها مثلُ هذا الاستثناءِ للتدليلِ على أن المسألةَ لم تكن غلطةً من الناسخِ، بل نحن أمام ما يسميه النحويون بـ"الاستثناء المنقطع"، فهو استعمالٌ قرآنِى عادى. فمثلا هل يدخل آل لوطٍ عليه السلام فى "القوم المجرمين" ما عدا امرأتَه حتى تستَثنِيَهم الملائكةُ منهم؟: "قال (أى إبراهيم): فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟ * قَالُوا: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ. إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ" (الحجر/ ٥٧– ٦٠)؟ أم ترى عبارةَ "تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى" داخلةً فى شقاءِ الرسولِ ﷺ كى يَستَثنِيَها الله منه فى قوله تعالى: "طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى"؟ أم ترى الله تعالى داخلا فى الأصنامِ، إذ استثنَاه منها إبراهيم عليه السلام فى قولِه سبحانه: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟ * قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* ... * قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ؟ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ" (الشعراء/ ٦٩– ٧٧)؟ وبطبيعة الحال لا يدخل الله سبحانه وتعالى فى الأصنام لا فى واقع الأمر ولا فى عقيدة الخليل عليه السلام. ومثلُه قولُه تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ" (الزخرف/ ٢٦– ٢٧). ومثله أيضًا قولُه سبحانه عن أهلِ الجنةِ: "لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا" (الواقعة/ ٢٥– ٢٦). أم ترى قِيلَ السلامِ داخلا فى اللغوِ والتأثيمِ، فاحتاج من ثَمَّ إلى استثنائه منهما؟ أم ترى الذين كَفَروا بالله وتولَّوْا عن سماع صوت الحق داخلينَ تحت سيطرةِ الرسول عليه السلام، وبقيةَ الناسِ خارجها فى قوله تبارك وتعالى: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ" (الغاشية/٢١– ٢٣)؟ ولكن إذا جاز أن يقع مونتيه فى هذه الغلطة فأَحْرِ بالدكتور البهى ألا يقع منه ذلك.

ومما لجأ إليه د. البهى فى إنكاره أن يكون النفر الذى استمع إلى الرسول وهو يقرأ القرآن نفرا من الجن أن الله لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه كما جاء فى سورة "إبراهيم". وبالفعل قال الله ذلك فى كتابه الكريم، ولكن هل الجن هم قوم الرسول حتى يبعثه بلسانهم؟ طبعا لا، بل قوم الرسول هم العرب، ومن ثم بعثه الله بقرآن عربى مبين. ثم إنه بناء على ذلك

الفهم للآية الكريمة ينبغى أن ننكر بعث النبى للعالم أجمع، وإلا لقد كان ينبغى أن يخاطب عليه السلام كل قوم من أقوام العالم بلسانهم. أليس كذلك؟ وهذا إن كان للجن لسان خاص بهم تنبغى مراعاته حين نخاطبهم. وأما من جهتهم فهم يوسوسون فى أذن وقلب كل فرد من البشر على اختلاف ألسنتهم وأزمانهم وأمكنتهم دون أن يستخدموا لغة غير لغة الشهوات والنزغات، وهى لغة عالمية يفهمها تمام الفهم كل البشر من لدن آدم حتى نفخ الصور. ويدخل فى هذا ما حكاه القرآن الكريم عن حوار الشيطان مع البشر بعد انقضاء الدنيا ووصولهم إلى موقف الحساب والعذاب. فهل منع اختلاف الشيطان عن البشر تفاهمهم وحوارهم آنذاك؟ وهذا فى يوم القيامة، وهو ما حدث فى الجنة الأولى، إذ ظل الشيطان يوسوس لآدم وزوجته أن الله لم ينههما عن الاقتراب من الشجرة المحرمة إلا لأنه لا يريد لهما أن يكونا ملَكين أو يكونا من الخالدين، وظل وراءهما حتى دلاهما بغرور. فكيف يا ترى تم التفاهم بين الطرفين، وأحد الطرفين بشر، والثانى من الجن، وهو إبليس؟ وإلى جانب ذلك كان الشياطين، وهم من الجن كما نعرف، يتلصصون على الملإ الأعلى ويفهمون ما يقال حسبما تذكر سورتهم دون أن تعوقهم لغة الملإ الأعلى أيا كانت طبيعة تلك اللغة. ويشبه هذا أن الملائكة تسجل أقوالنا بالحرف مع أن الملائكة ليست عربية، مثلما تسجل أقوال الناس جميعا مع أنها ليست هندية ولا صينية ولا فرعونية ولا سومرية ولا تتارية ولا بربرية ولا أمريكية ولا إيطالية ولا إغريقية... إنها تفهم كل اللغات. كذلك يقول د. البهى إن الرسول مُحَمَّدا لم يُبْعَث إلا للبشر وحدهم مع أنه عليه الصلاة والسلام يقول: "كان النبى يُبْعَثُ إلى قومِه، وبُعِثتُ إلى الإنسِ والجنّ".

وبالمثل يورد د. البهى حديث عبد الله بن العباس الذى يقول فيه: "ما قَرَأَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ علَى الجِنّ وما رَآهُمْ" معقِّبا بأن الجن "لم تستمع تلاوة القرآن من الرسول عليه السلام" بنص كلامه. لكن من قال إن كلام ابن العباس يعنى حتما وحسما أنهم لم يستمعوا إلى تلاوته ﷺ؟ إن الرسول لم يرهم فعلا ولا تلا عليهم شيئا فعلا، بل كان يقرأ القرآن لنفسه أو لأصحابه، فسمعه الجن. ترى هل فى ذلك أية مناقضة للمنطق؟ أيا ما يكن الأمر فها هو ذا نص حديث ابن العباس كاملا. قال رضى الله عنه: "ما قَرَأَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ علَى الجِنّ وما رَآهُم. انْطَلَقَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فى طائِفَةٍ مِن أصْحابِهِ عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقدْ حِيلَ بيْنَ الشَّياطِينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّياطِينُ إلى قَوْمِهِمْ فقالوا: ما لَكُمْ؟ قالوا: حِيلَ بيْننا وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ علَيْنا الشُّهُبُ. قالوا: ما ذاكَ إلَّا مِن شيءٍ حَدَثَ. فاضْرِبُوا مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها، فانْظُرُوا ما هذا الذى حالَ بيْنَنا وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ. فانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها، فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أخَذُوا نَحْوَ تِهامَةَ، وهو بنَخْلٍ، عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ وهو يُصَلِّى بأَصْحابِهِ

صَلاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا له، وقالوا: هذا الذى حالَ بيْنَنا وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ. فَرَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، فقالوا: يا قَوْمَنا، إنَّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به، ولَنْ نُشْرِكَ برَبِّنا أحَدًا. فأنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ علَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: قُلْ أُوحِى إلَى أنَّه اسْتَمع نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ". وإذن فاستشهاد د. البهى بحديث ابن عباس ليس بمُغْنٍ عن فكرته شيئا.

ولقد مر بنا أن د. البهى، فى مقدمة تفسيره لسورة "الجن"، يرجح ترجيحا شديدا أن يكون أولئك النفر الذين نحن بصدد الحديث عنهم هنا نفرا من مشركى يثرب، ورغم هذا نراه يعود لدن تفسيره للآية الحادية عشرة من السورة فيقول إنهم من مشركى مكة. كما يقول فى تفسير الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة هى أن هؤلاء النفر قد "أدركوا قرآنا يتلى على الناس، فيدخلون فى دين الله أفواجا". فهل كان الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فى ذلك الوقت المبكر جدا من الدعوة المحمدية، وهو لا يزال يستقبل الوحى الأول أو أحد الأوحاء الأولى منها، وهو سورة "العلق"؟ كيف بالله عليكم؟ لقد كان الإسلام فى ذلك الحين يتقدم ببطء شديد مليمترا بعد مليمتر، وفى عناء مرهق، ولا يعرضه الرسول إلا على من يثق بهم كخديجة وعلى وأبى بكر مثلا. أما دخول الناس فى دين الله أفواجا كما تخبرنا سورة "النصر" فلم يحدث إلا فى أواخر حياة الرسول حين أخذت الوفود من أرجاء بلاد العرب تترى على مدينة الرسول تعلن مبايعتها له وإيمانها به نبيا وزعيما وحاكما. وهذا من الوضوح بمكان، ولكنه التسرع فى التعبير وعدم التنقيح الجيد.

هذا ما قاله د. البهى عن طبيعة النفر الذى استمع إلى القرآن فآمن به، وهو أنهم كانوا من مشركى يثرب، ومن ثم كانوا يعرفون التوراة من مخالطتهم ليهود مدينتهم، أما الشيخ الغزالى فقال فى مفتتح تصديه لتفسير سورة "الجن" ما يلى: "فى سورة "الجن" إشارات إلى طبيعة العقيدة عند النصارى، وكيف جعلوا المسيح ابنا لله وإلها معه! لقد انتشرت هذه القالة فى أقطار الأرض، ووُلِدَتْ عليها أجيال حتى جاء القرآن فنفاها بشدة مؤكدا أن الله واحد ليس له أولاد. وكانت العقيدة النصرانية قد بلغت الجن فاعتنقوها، ثم عرفوا فى تطوافهم بالأرض ما يناقضها: "قل: أُوحِى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا". وشرع الجن يفصِّلون ما تابوا عنه وعرفوا خطأه. إنه ما يَسُوغ أن تكون لله صاحبةٌ ولا أن ينسل منها ابنا: "وأنه، تعالى جَدُّ ربنا، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا". وذكروا أن الذى بلَّغهم ذلك موغل فى الوهم: "وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا". ثم اعتذروا عن غفلتهم فى قبول هذه الشائعة بأنهم ما تصوروا أن يكذب أحد على الله: "وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا". ولكن رجالا من الإنس استمعوا إلى

هذا اللغو ونشروه فى الأرض وضللوا به جماهير غفيرة: "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن، فزادوهم رهقا". وقد حسب الجميع أن أبواب السماء غلقت فلن ينزل ملك بوحى، ولن يحمل بشر رسالة أخرى تعود بالإيمان إلى أصله الصحيح، وتؤكد ما بلَّغه المرسلون الأولون من وحدانية الله وسيطرته المطلقة على الملكوت كله. لكن الله بعث نبيه الخاتم من العرب فطوفت رسالته بالمشارق والمغارب، معلنة أن الله لا ولد له ولا والد. إن هذه الرسالة كانت مفاجأة للمخطئين: "وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا". والواقع أن الخطأ إذا سلحته الدولة بعنفوانها، وأقامت له أبراجا تدرسه وتحميه، ترك ظلاله فى النفوس واستقرت أوضاعه قرونا. وقد نشر الاستعمار الرومانى عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرهبة أن يوطِّئ لها الأكناف. ولولا أن محمَّدا درَّع الحق الذى بُعِث به وفداه بالنفس والمال لجعله الرومان فى خبر كان".

وكما نرى فهم عنده ليسوا مشركين وثنيين أصلا، فضلا عن أن يكونوا من يثرب، بل قوما عرفوا اليهودية والنصرانية، لكنهم ما إن سمعوا القرآن حتى تبين لهم ما هم فيه من ضلال وزيغ عن الحق، فعادوا عن نسبة الولد لربهم إلى توحيده توحيدا نقيا صافيا. وهنا أحب أن أضيف كلمة، فقد رأينا د. البهى يذكر أنهم قالوا ذلك بعدما استمعوا إلى سورة "العلق"، على حين لا تحتوى سورة "العلق" على أى شيء مما قاله الجن فى السورة المسماة على اسمهم من أن الله ليس له ولد أو أن من يُعْرِض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صَعَدا وأن من يطيعه يسقيه ماء غَدَقا. وهو ما يدفعنى إلى رفض استنتاج د. البهى بشأن السورة التى سمعها هؤلاء الجن. كما أن الفرق الزمنى بين نزول سورة "العلق" ونزول سورتى "الجن" و"الأحقاف" فرق كبير، ولا يعقل أن يسكت القرآن عن تلك الحادثة كل هذا الزمن قبل أن يشير إليها ويعرّف الرسول بما وقع ويتخذ منها وسيلة لتعزيته عليه السلام والتخفيف عنه مما يلاقى من عنت قومه وتكذيبهم له.

وهذا الذى قاله الغزالى يشبه ما قاله قبله بعشرات السنين عبد الله يوسف على العالم الهندى المسلم الذى ترجم القرآن إلى الإنجليزية فى أربعينات القرن المنصرم فى مقدمته لترجمة السورة، إذ ذكر أنهم كانوا على معرفة بالأديان السابقة: فأما معرفتهم باليهودية فواضحة من سورة "الأحقاف"، وأما معرفتهم بالنصرانية فتظهر من خلال نفيهم عن الله الولد واشتدادهم فى ذلك النفى. وهذا نص ما قاله فى أصله الإنجليزى عند تعليقه فى الهامش الخاص بالآية الأولى من السورة: " **Cf. xlvi. 29-32, n. 4809. The Jinns had evidently heard of previous revelations, that of Moses (xlvi. 30), and the error of Trinitarian Christianity (lxxii. 3). The community from which they come have all sorts of good and bad persons, but they**

are determined to preach the good Message of Unity which they ."have heard and believed in

والآن أحب أن أورد هنا ما قاله مُحَمَّد أسد فى ترجمته الإنجليزية للقرآن ترجمة وتفسيرا للآية الأولى من السورة التى بين أيدينا لما فيه من أشياء تستحق وقفة عندها لمخالفتها ما انتهيت إليه فى هذا الفصل بخصوص الجن:

"SAY: "It has been revealed to me that some of the unseen beings gave ear [to this divine writ], and thereupon said [unto their fellow-beings]: "'Verily, we have heard a wondrous discourse,

*** v.1: I.e., had heard and accepted it: this being the meaning, in the above context, of the verbal form istama'a. – As regards the various meanings attributable to the plural noun jinn (rendered by me here as "unseen beings"), see Appendix III. As pointed out there, the jinn are referred to in the Qur'ān in many connotations. In a few cases – e.g., in the present instance and in 46:29-32 – this expression may possibly signify "hitherto unseen beings," namely, strangers who had never before been seen by the people among and to whom the Qur'ān was then being revealed. From 46:30 (which evidently relates to the same occurrence as the present one) it transpires that the jinn in question were followers of the Mosaic faith, inasmuch as they refer to the Qur'ān as "a revelation bestowed from on high after [that of] Moses," thus pointedly omitting any mention of the intervening prophet, Jesus, and equally pointedly (in verse 3 of the present sūrah) stressing their rejection of the Christian concept of the Trinity. All this leads one to the assumption that they may have been Jews from distant parts of what is now the Arab world, perhaps from Syria or even Mesopotamia. (Tabarī mentions in several places that the jinn referred to in this sūrah as well as in 46:29 ff. hailed from Nasībīn, a town on the upper reaches of the Euphrates.) I should, however, like to stress that my explanation of this occurrence is purely tentative"**

وبعيدا عن تفسير أسد للجن فى الآية فقد أخطأ فى القول بأنه يُفْتَرَض من خلال النص أنهم يهود من يهود العراق. ووجه الخطإ فى ذلك أن العراق فى ذلك الحين لم يكن يعرف اللغة العربية حتى لو قلنا إنه كان يتكلم لغة سامية قريبة من لغة العرب. فكيف يا ترى فهم أولئك اليهود ما سمعوه من الذكر الحكيم؟ على أنه ينبغى ملاحظة قوله إن أولئك النفر كانوا على علم بالأديان السابقة وإنهم كانوا ينكرون التثليث. وهو كلام لا يخلو من طرافة، إذ ما داموا يهودا فهم بطبيعة الحال يرفضون النصرانية من حيث المبدأ لا بسبب التثليث لأنهم يرونها دينا زائفا، فعيسى، الذى جاء بها، ليس هو المسيح الذى كانوا وما زالوا حتى الآن ينتظرونه.

وأسد، كما نرى، يسير فى نفس اتجاه د. محمد البهى. وقد سبقهما إلى ذلك التفسير جماعة القاديانيين. فقد جاء فى ترجمة مولاى محمد على الإنجليزية للقرآن الكريم تعليقا على الآية من سورة "الأحقاف": "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن. فلما حضروه قالوا: أنصِتوا. فلما قُضِىَ ولَّوْا إلى قومهم منذرين..." أن هؤلاء النفر هم زعماء بعض القبائل اليهودية. أى أنهم عنده بشر. وإلى القارئ ما قاله الكاتب القاديانى فى أصله الإنجليزى:

"The jinn spoken of here seem to be the leaders of certain Jewish tribes, because they are spoken of in the next verse as believers in Moses. In fact, they are of the same class as those spoken of in 72:1; see 72:1a"

ليس ذلك فقط بل هم عنده أيضا نفر غير أولئك الذين تحدثت عنهم سورة "الجن"، إذ هؤلاء نصارى. بل إنه ليذهب إلى القول بأن السورة لا تتحدث عن واقعة مضت بل هى نبوءة على انتشار الإسلام بين الأمم النصرانية فيما بعد. كما أنه يفسر الجن هنا كذلك بأنهم بشر، وإن لم ينكر وجود الجن بالمعنى الذى نعرفه أيضا، وهو ما يختلف فيه عن د. البهى، الذى أنكر وجود جنس الجن من أساسه، ونقل معنى الكلمة إلى الملائكة زاعما أن الملائكة مخلوقون من النار. بيد أنه يرجع تاريخ نزول هذا الوحى إلى الوقت الذى ماتت فيه خديجة وأبو طالب، وذهب رسول الله إلى الطائف ثم عاد دون أن يرى لرحلته إلى هناك أية ثمرة، أى قبل الهجرة بنحو عامين لا إلى بدايات نزول الوحى القرآنى كما قال د. البهى. ومع ذلك فإن محمد على، بتفسيره لمعنى الجن هنا ودعواه بأن السورة محور حديثنا الآن لا تحكى حادثة وقعت بل تشير إلى مستقبل الإسلام حين ينتشر بين الأمم النصرانية، قد أفسد الأمر كله أيما إفساد، إذ السورة، كما هو واضح لكل ذى عينين وعقل فى رأسه، إنما هى حكاية لواقعة مضت وانتهت، وليست تبشيرا بانتصار الإسلام وانتشاره فى المستقبل، وإلا جاز أن يقول من يشاء بما يشاء فيما يشاء دون احترام أو مراعاة لأى اعتبار لغوى أو فكرى. والآن مع ما قاله فى نصه الإنجيزى:

"The words of this verse are a clear indication that the persons spoken of here are Christians. That both Jews and Christians living outside Arabia accepted the message of Truth brought by the Prophet is a fact. But from what is stated further on it appears that the reference here is to future Christian nations, and the words here are prophetical, speaking of some future time when Christian nations forming the bulk of mankind—such being one of the significances of the word jinn (LL) — will accept the truth of the message brought by the Prophet. At any rate the prophetical in these words, whether relating to the near or distant future, is clearly hinted at in the opening words of the chapter — It has been revealed to me that a party of the jinn listened".

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإنى عرفت بما كتبه د. البهى عن الجن وقرأته عقب تخرجى مباشرة من الجامعة فى أول سبعينات القرن الفائت، وكنت أيامذاك أتردد كثيرا على دار الكتب بباب الخلق، حيث قرأت ضمن ما قرأت تفسير الأستاذ الدكتور لسورة "الجن"، وسورة "الأعراف" وربما غير تينك السورتين أيضا. وفى الدار المذكورة تعرفت بشاب سودانى كان يدرس للحصول على الماجستير أو الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وكان شابا مثقفا ولطيف المعشر. وأغلب الظن أنه هو الذى دلنى على تفسير سورة "الجن" للدكتور محمد البهى حينما رآنى مشغولا بهذا الموضوع، إذ كان لى فى ذلك الوقت زميل باكستانى فى السنة التمهيدية بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، وكان شابا أنيقا ودمث الخلق هادئا وحريصا على السمت والسلوك الراقى أشد الحرص، فيشرب كوب الشاى الملتهب مثلا دون أن يصدر عن شفتيه أى صوت على الإطلاق، وأخبرنى صديق ثالث أفغانى كان يعرفه من قبلى أنه قاديانى. وجرى بينى وبينه كلام عن الجن لا أدرى الآن مبعث إثارته، فذكر لى كلاما شبيها بما أوردته آنفا لمولاى محمد على، وهو نفسه بل أشد منه ما قرأته للدكتور محمد البهى، الذى كنا نعرفه أنا وأصدقائى قبل ذلك بمرحلة الليسانس بالجامعة، منذ قرأنا له كتابه الذى أصدرته له دار الهلال بعنوان "الدين والحضارة الإنسانية"، وأعجبنا به. ولا أظن أننى فزعت لتفسير البهى الغريب للجن ولا لما قاله لى زميلى الباكستانى، فقد كنت وما فتئت منفتحا على الأفكار المتنوعة رغم حبى الشديد لدينى فى ذات الوقت.

وبالمثل وجدت، وأنا أقرأ فى لندن عام ١٩٨٢ قبيل عودتى من بريطانيا فى ترجمة القرآن الفرنسية التى قام بها الشيخ بو بكر حمزة شيخ المعهد الإسلامى التابع لمسجد باريس آنذاك يقول، خلال المقدمة التى مهد بها لسورة "الجن"، إننا لن نعرف الإسلام حق معرفته إذا ما جهلنا أن عقلانييه وكبار مفكريه قد أنكروا بعد الدراسة المتعمقة وجود الجن، ذاكرا من هؤلاء المفكرين الكبارِ المعتزلةَ وابنَ سينا وابنَ رشد، وكذلك ابن خلدون، الذى نسب إليه القول بأن ما جاء فى القرآن عن تلك المخلوقات إنما هو قصص رمزى رغم أن اللفظة التى استعملها ابن خلدون هى لفظة "متشابهات"، أى الأمور التى استأثر الله بعلمها. وكان رأيى أنه ما دام الله سبحانه قد أكد وجود الجن بطريقة لا يرتقى إليها الشك فينبغى أن نترك المماحكة ونسلم بوجود الجن ما دمنا قد آمنا بأن القرآن وحى من عنده تعالى، مع تفويضنا العلم بحقيقتهم إليه عز وجل، فإنهم غيب من الغيب.

ولكن قبل أبى نواس كان أبو دلامة. ففى "تفسير الطبرى" نقرأ ما يلى: "اختلف أهل التأويل فيه: هل هو من الملائكة أم هو من غيرهم؟ فقال بعضهم بما حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس، قال: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم: "الجنّ"، خُلِقوا من نار السموم من

بين الملائكة. قال: فكان اسمه الحارث. قال: وكان خازنا من خُزَّان الجنة. قال: وخُلِقت الملائكة من نور غير هذا الحى. قال: وخُلِقت الجنّ الذين ذكروا فى القرآن من مارجٍ من نار، وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت. وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يُسَمَّوْن: جنًّا. وحدثنا به ابن حميد مرة أخرى قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس، أو مجاهد أبى الحجاج عن ابن عباس وغيره بنحوه، إلا أنه قال: كان ملكا من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض وعمّارها، وكان سكان الأرض فيهم يُسَمَّوْن: "الجنّ" من بين الملائكة. وحدثنى موسى بن هارون قال: حدثنا عمرو بن حماد قال: حدثنا أسباط عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك، وعن أبى صالح،عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم: جعل إبليس على ملك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجنّ. وإنما سموا: الجن لأنهم خزّان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازنا.

وحدثنا القاسم بن الحسن، قال: حدثنا حسين، قال: حدثنى حجاج عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض. قال: قال ابن عباس: وقوله: "كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ" (الكهف/ ٥٠) إنما يسمى بـ"الجنَّان" أنه كان خازنا عليها، كما يقال للرجل: مكى، ومدنى، وكوفى، وبصرى. قال ابن جريج: وقال آخرون: هم سبط من الملائكة قبيلة، فكان اسم قبيلته الجن. وحدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين قال: حدثنى حجاج عن ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبى نمر أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. وحدثت عن الحسن بن الفرج قال: سمعت أبا معاذ الفضل بن خالد قال: أخبرنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول فى قوله: "فَسَجَدُوٓاْ إِلآَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ" (الكهف/٥٠) قال: كان ابن عباس يقول: إن إبليس كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، ثم ذكر مثل حديث ابن جريج الأول سواء. وحدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنى شيبان قال: حدثنا سلام بن مسكين عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال: كان إبْلِيس رئيس ملائكة سماء الدنيا. وحدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قوله: "وَإِذ قُلْنا لِلْـمَلائِكَةِ: اسْجُدُوا لِآَدَمَ، فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ. كَانَ مِنَ الجِنّ" (الكهف/ ٥٠): كان من قبيلٍ من الملائكة يقال لهم: الجن. وكان ابن عباس يقول: لو لم

يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود. وكان على خزانة سماء الدنيا. قال: وكان قتادة يقول: جنّ عن طاعة ربه. وحدثنا الحسين بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله: "إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ" (الكهف/ ٥٠) قال: كان من قبيل من الملائكة يقال لهم: الجنّ. وحدثنا ابن حميد،قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق قال: أما العرب فيقولون: ما الجنّ إلا كلّ من اجتنّ فلم ير. وأما قوله: "إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ "(الكهف/ ٥٠)، أى كان من الملائكة، وذلك أن الملائكة اجتنّوا فلم يُرَوْا، وقد قال الله جل ثناؤه: "وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصافات/ ١٥٣)، وذلك لقول قريش: إن الملائكة بنات الله. فيقول الله: إن تكن الملائكة بناتى فإبليس منها، وقد جعلوا بينى وبين إبليس وذرّيته نسبا. قال: وقد قال الأعشى، أعشى بنى قيس بن ثعلبة البكرى، وهو يذكر سليمان بن داود وما أعطاه الله:

بَرَاهُ إلهى واصْطَفَاهُ عبادَهُ ... وَمَلَّكَهُ مَا بَيْنَ ثُرْيَا إلى مِصْرِ

وَسَخَّرَ مِنْ جِنّ المَلائِكِ تِسْعَةً ... قِياما لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلا أجْرِ

قال: فأبت العرب فى لغتها إلا أن "الجنّ" كل ما اجتنّ. يقول: ما سمَّى الله: "الجن" إلا أنهم اجتنُّوا فلم يُرَوْا، وما سمَّى بنى آدم: "الإنس" إلا أنهم ظهروا فلم يجتنُّوا. فما ظهر فهو إنس، وما اجتنّ فلم يُرَ فهو جنّ. وقال آخرون بما حدثنا به محمد بن بشار قال: حدثنا ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. وحدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد بن زريع، قال: حدثنا سعيد عن قتادة، قال: كان الحسن يقول فى قوله: "إِلاَّ إِبْلِيسَ. كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ" (الكهف/ ٥٠): إلجاءٌ إلى نسبه، فقال الله: "أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى؟" (الكهف/ ٥٠). وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا يحيى بن واضح قال: حدثنا أبو سعيد اليحمدى، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا سوار بن الجعد اليحمدى عن شهر بن حوشب قوله: "مِنَ ٱلْجِنِّ" (الكهف/ ٥٠) قال: كان إبليس من الجنّ الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء. وحدثنى على بن الحسين قال: حدثنى أبو نصر أحمد بن محمد الخلال قال: حدثنى سنيد بن داود قال: حدثنا هشيم قال: أخبرنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتل الجنّ، فسُبِى إبليس، وكان صغيرا، فكان مع الملائكة فتعبَّد معها. فلما أُمِروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال الله: "إِلاَّ إِبْلِيسَ. كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ" (الكهف/ ٥٠). وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثنا المبارك بن مجاهد أبو الأزهر عن شريك ابن عبد الله بن أبى نمر عن صالح مولى

التوأمة عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلا يقال لهم: الجنّ، فكان إبليس منهم، وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض فعصى، فمسخه الله شيطانا رجيما. قال: وحدثنا يونس، عن ابن وهب قال: قال ابن زيد: إبليس أبو الجنّ كما آدم أبو الإنس. وعلة من قال هذه المقالة أن الله جل ثناؤه أخبر فى كتابه أنه خلق إبليس من نار السموم ومن مارج من نار، ولم يخبر عن الملائكة أنه خلقها من شيء من ذلك. وأن الله جل ثناؤه أخبر أنه من الجن. فقالوا: فغير جائز أن يُنْسَب إلى غير ما نسبه الله إليه. قالوا: ولإبليس نسل وذرّية، والملائكة لا تتناسل ولا تتوالد.

حدثنا محمد بن سنان القزاز قال: حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقا فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم نارا تحرقهم. ثم خلق خلقا آخر فقال: إنى خالق بشرا من طين. اسجدوا لآدم. فأَبَوْا، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم. قال: ثم خلق هؤلاء فقال: اسجدوا لآدم. فقالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أَبَوْا أن يسجدوا لآدم. قال أبو جعفر: وهذه عللٌ تنبئ عن ضعف معرفة أهلها. وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خلق أصناف ملائكته مِنْ أصناف من خلقه شتى: فخلق بعضا من نور، وبعضا من نار، وبعضا مما شاء من غير ذلك. وليس فيما نزَّل الله جل ثناؤه الخبرُ عما خلق منه ملائكته، وإخباره عما خلق منه إبليس ما يوجب أن يكون إبليس خارجا عن معناهم، إذ كان جائزا أن يكون خلق صنفا من ملائكته من نار كان منهم إبليس، وأن يكون أَفْرَدَ إبليسَ بأنْ خَلَقَه من نار السَّمُوم دون سائر ملائكته، وكذلك غير مخرجه أن يكون كان من الملائكة بأن كان له نسل وذرية لِمَا رُكِّب فيه من الشهوة واللذّة التى نُزِعَتْ من سائر الملائكة لِمَا أراد الله به من المعصية. وأما خبر الله عن أنه من الجن فغير مدفوع أن يسمَّى ما اجتنّ من الأشياء عن الأبصار كلها: "جِنّا" كما قد ذكرنا قبلُ فى شعر الأعشى، فيكون إبليس والملائكة منهم لاجتنانهم عن أبصار بنى آدم".

وهذا كله، كما نرى، تخرُّص ورجم بالغيب. والطريف أن من تناولوا الحديث عن إبليس ونسبه وما كان فى أصل أمره وما قد صار إليه وعن قبائل الجن وأسمائها وصفاتها وما إلى ذلك يتكلمون وكأنهم قد رحلوا إلى ديار الجن وأحاطوا بتضاريسها ومواقعها، وتقصَّوْا قبائلهم قبيلة قبيلة، وعرفوا تاريخ إبليس قبل أمر الله له بالسجود لآدم وبعد عصيانه وتمرده وكفرانه، وهو ما يذكرنا بموظفى التعداد السكانى، الذين يمسكون بدفاتر يقيدون فيها كل شيء عن كل أسرة وعنوانها وكل فرد فيها ودينه وعمره ووظيفته ومرتبه وبيته وأثاثه وأجهزة الحضارة التى يملكها... إلخ، مع الفرق الهام التالى: أن موظفى التعداد إنما يقابلون بشرا مثلهم يعيشون ظاهرين لا يتخفَّوْن عن أحد كما يعيشون هم أنفسهم غير متميزين عنهم بأى شيء، أما كلام رواتنا عن

الجن وعالمهم فهو من وحى الأوهام، إذ الجن لا يظهرون، ومن ثم فأى كلام عنهم لم يرد فى القرآن ولا فى الحديث المقطوع به ليس سوى أساطيرَ يُتَسَلَّى بها ويُضَيَّع الوقت ويحلو بها السهر والسمر ليس إلا. وعلى هذا فليس أمامنا سوى أن نَضْرِب صَفْحًا عن كل ما ورد فى روايات الطبرى عن الجن باعتباره كلاما طائرا فى الهواء لا دليل عليه ولا قيمة له. والصواب هو ما قلناه مدعما بالأدلة التى لا صلة بينها وبين الخيالات والأوهام والهلوسات.

وقد سبق أن أوردت كلام الشيخ الغزالى فى هذا الموضوع حين قال: "وقد سألنى أحد الناس: أتعرف أحدا من الجن؟ فعرفتُ غرضه، وقلت: ما رأيت منهم أحدا. فقال: كيف تصدق بما لم تره؟ فقلت: ليس كل موجود يرى. إن الجراثيم لضآلتها لا تُرَى، والكواكب لبعدها لا ترى، والقرآن يقرر ذلك عن الجن عندما يقول: "إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا تَرَوْنهم". ويستحيل أن الكون الذى تقاس أبعاده بالسنين الضوئية لا يكون به إلا البشر. وقد قلت فى كتاب لى: إن الذى يبنى قصرا من ألف طابق لا يسكن الطابق الأرضى وحده ويدع الباقى تَصْفِر فيه الرياح. فلِمَ خلقه؟ إننى أومن بالله، الذى خلق الإنس والجن والملائكة، "وما يعلم جنود ربك إلا هو". وكلام الشيخ كلام معقول جدا ومنطقى جدا، وهو بطبيعة الحال شىء آخر مختلف عما يؤمن به العوام وأشباههم من خرافات حول الجن وتأثيرها على حياة البشر وانشغالهم بتلك المسألة انشغالا مَرَضِيًّا يدعو إلى الرثاء والانزعاج، ولا علاقة له بالإسلام.

وقد بينت السورة أن الجن لا حَوْل لهم ولا طَوْل، فهم لا يعلمون الغيب ولا يملكون لأنفسهم، فضلا عن غيرهم، ضرا ولا نفعا، ويخافون الله سبحانه خوفا شديدا، وليست لهم أية حظوة عنده تحت أى اعتبار. ومن ثم فالاستعانة بهم لا تعطى ثمارا من أى نوع على عكس ما يعتقد العوام وأشباهم، فلا يد لهم فى الحمل والإنجاب أو الصحة والمرض أو الحياة والموت، بل لا بد من الالتجاء إلى الطبيب والعلاج والدواء واتباع أوامره بشأنهما بكل إخلاص ووفاء والانتهاء عما ينهى عنه من طعام أو شراب أو سلوك معين. أما اللجوء إلى الدجالين والمشعبذين وضاربى الودع وقارئى الفنجان والسحرة الذين يدَّعون الاتصال بعالم الجن والشياطين فهذا مجرَّم ومحرَّم فى دين مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام ويوقع فى الكفر أيا ما يكن معنى الكفر. ذلك أن الإسلام دين العلم والصحو الفكرى، ويبغض أشد البغض كل ما يجور على العقل أو يناطح القوانين الكونية، ويريد من أتباعه أن يكونوا على وعى شديد بمنطق الحياة ونظامها بدلا من العَدْو خلف الأوهام بما يترتب عليه من مخازٍ ومآسٍ وخسائرَ ماديةٍ وعقيدية وأخلاقية كثيرة، وما من متعلم للدرس أبدا على قساوته وما يجلبه من فضائح وأهوال. وهذا كوم، والاعتقاد فى ظهور الجن والعفاريت وما ينشأ عن هذا الاعتقاد الخرافى من رعب هو مما يعرفه كل واحد منا. وللأسف لا يقتصر الأمر على العوام بل يشركهم فى ذلك كثير من خريجى

الجامعات بما فى ذلك المتخصصون فى علوم الطبيعة والرياضيات الصارمة التى لا تعرف الهزل ولا تتعلق بالخرافات والأوهام.

ويأخذ الشيخ الغزالى على جماهير المسلمين هذا الانشغال المرضى بالجن وإعطاءهم أكثر مما يستحقون وتصورهم أنهم يملكون لهم الضر والنفع، فيقول فى التعليق على الآية التاسعة والعشرين وما بعدها من "الأحقاف" إن "الحديث عن الجن ذو شجون، فإن الخرافيين من الناس يُهْرَعون إلى خيمة الغيبيات ليطلقوا العِنَان لأخيلتهم وينطلقوا مع عِوَجهم العقلى. إن القرآن يتحدث عن الشيطان فيقول: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا تَرَوْنَهم"، فيجىء هؤلاء ليؤلفوا كتبا عن حياة الجن، وعن التزاوج بينهم وبين البشر، وعن أسلوب تسخيرهم... إلخ. وبقدر ما ينطلقون مع هذا اللغو يقفون خُرْسًا أمام الحق الذى خُلِقَتْ به السموات والأرض، وشمل الذرة والمجرة، فلا يكتشفون له قانونا ولا يفيدون منه شيئا. وهل نهض الغرب إلا بدراسة هذا الحق الذى قامت به السموات والأرض؟". أما د. البهى فيتهم الكهان بالكذب والزعم بوجود الجن، الذين لا وجود لهم، وانفتاح الطريق بينهم وبين ذلك الجن وتوسلهم بذلك إلى الاستيلاء على أموال الناس وثمار زروعهم والسيطرة على عقولهم وتزيين قتل الآباء لأولادهم... إلى آخر ما قاله فى مقدمة تفسيره للسورة التى فى أيدينا.

أما إنكار وجود الجن، كما يفعل الدكتور مُحَمَّد البهى والشيخ بو بكر حمزة ومُحَمَّد أسد، فقد يوقعنا فى تكذيب القرآن الكريم. والطريف بل الغريب العجيب أن بو بكر حمزة يقول ما قاله عن الجن من أن كبار مفكرى الإسلام وعقلانييه وفلاسفته ينكرون وجوده، وفى ذات الوقت نراه يؤكد أن الإيمان بالجن متجذر تجذرا راسخا فى الطبيعة البشرية على اختلاف الأزمان والأديان والحضارات بما فيها الحضارة الحديثة، وأن العلم لم يستطع أن يخلع هذا الإيمان من النفس البشرية.

وهذا نص ما قاله بالفرنسية عن عدم الاعتقاد فى الجن لدن كبار مفكرى الإسلام:

"Ce serait mal connaître l'Islam que d'ignorer que ses rationalistes et ses grands penseurs ont rejeté après un examen approfondi l'existence des djinns. Les mu'tazilites les tiennent pour de simples symboles n'ayant aucune réalité. Le plus célèbre des philosophes de l'Islâm, Avicenne, nie lui aussi leur existence et donne à leur mention dans le texte sacré la valeur d'une simple abstraction. Un autre penseur et non des moindres, Ibn Khaldûn, en fait lui aussi des allégories (mutashâbihât), dont Dieu connaît ce à quoi elles correspondent: "Les versets dans lesquels il est question de la révélation, des anges, de l'Esprit saint, des djinns rentrent dans la classe des versets obscurs, à cause de l'incertitude dont leur signification est entourée, signification qui n'est pas de celles qui sont généralement connues" (KHAM, t. III, pp. 68-69. Voir aussi, MACR, pp. 130 et suiv.; WESS, I; WEBA,

pp. 3 et suiv.; LAND; SMIR, pp. 9 et suiv.; CAND; DOUM, WILR, etc.). Dieu: n a ni compagne ni enfant. Son mystère, il ne le dévoile à aucun sauf partiellement, selon Sa volonté conforme à Sa sagesse, à quelques-uns de Ses envoyés, anges ou prophètes: 3, 18, 22- 26".

السحر فى تفسيرى البهى والغزالى

السحر (فى "الموسوعة العربية الميسرة") هو "طقوس وتراتيل يراد بها التدخل فى مجرى الحوادث وإخضاع الأمر والطبيعة لإرادة الساحر، الذى يزعم أنه على اتصال بقوى خفية. وهو من المعتقدات الشعبية القديمة. اختلط بالعقائد والديانات البدائية واصطبغ بصبغة خاصة فيها شىء من البحث والتجربة. وكلما اتسع المجال للروح وسلطانها فُتِح للسحر باب فسيح. وفى تقدم العلم والثقافة ما يصرف الناس عنه ويبطل دعاواه. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم غير مرة، وبخاصة فى قصة موسى وفرعون (طه ٦٢– ٧٢)، ويصفه بأنه تخيل يخدع الأعين: "يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى" (طه/ ٦٦). كتب عنه كثيرون فى الإسلام: ابن النديم فى "الفهرست" وابن خلدون فى "مقدمته"، وقالوا بسحرٍ محمودٍ لا يضر وآخرَ مذمومٍ يسىء إلى الناس. ويدعو الفقهاءُ بوجه عام إلى تركه".

وفى "الموسوعة العربية" (السورية) هو "فن الخداع الذى يؤدى إلى ظهور ما يخالف القواعد والقوانين الطبيعية. فالساحر أو المشعوذ يلجأ إلى أساليب وآليات للإثارة والإيحاء والإيهام. ويرتبط نجاحه باستخدام مجموعة من المبادئ النفسية كالإيحاء والتقليد والنفاق فى الوقت الذى يوجه الآخرون أنظارهم نحو ما يبدو لهم من مظاهر أكثر مما يفكرون بآليات السلوك نفسه. وتعد ممارسة السحر من الممارسات القديمة فى تاريخ البشر، فقد ظهر السحر فى مصر منذ خمسة آلاف عام تقريبا (عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد). ويستعين العاملون فى السحر غالبا بجملة من الأدوات التى تساعد على السيطرة على الآخرين تبعا لمستويات ثقافتهم ومعارفهم. ومن تلك الأدوات الرُّقَى والتعاويذ والحُجُب...

وفى الوقت الراهن، وعلى الرغم من التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى يشهدها الإنسان، ومع ما توصل إليه من معارف وعلوم تساعده على الكشف عن خفايا كثيرة كان يشعر بها، يلاحظ أن عددا كبيرا من الأفراد ما يزال يميل إلى الاعتماد على السحر فى معالجة مشكلاته وقضاياه الاجتماعية، وخاصة تلك التى يشعر بعجزه عن مجابهتها. كما أن اللجوء إلى السحر يظهر أيضا انتشار الاعتقاد به فى الوسط الاجتماعى المحيط بالفاعل، وبارتفاع عدد الأفراد الذين يجدون فى السحر ضالتهم المنشودة، فيزداد الاعتقاد به بين مجموعة الأفراد الذين يتصفون بالعوامل الشخصية التى تؤهلهم لذلك من جهة، ومع صعوبة المشكلات التى يعجزون عن معالجتها من جهة ثانية. وبذلك فإن الاعتقاد بالسحر مبنى على ثلاثة اعتبارات أساسية: أولها الصفات التى تميز الأفراد وتؤهلهم للاعتقاد بالسحر، والثانى صعوبة المشكلات والتحديات التى تجابههم، والثالث وجود مجموعة من الأفراد الذين يعتقدون بقوة السحر

وفعاليته فى الحياة الاجتماعية، أى انتشاره فى الوسط الثقافى المَعْنِى بالقَدْر الذى يجعل ممارسة السحر مشروعة ومقبولة اجتماعيا".

لقد كان السحر فى المجتمعات البدائية هو الوسيلة التى يعتمد الناس عليها لتغيير أحوالهم السيئة أو إيذاء أعدائهم أو التأثير على مجريات الطبيعة أو معرفة الغيب أو تحويل جوهر الأشياء من حال إلى حال مثلا. وينتشر السحر حيثما ينتشر الجهل، وينكمش كلما تقدم المجتمع فى مضمار العلوم، إذ يعرف البشر أن الكون قائم على نظام معين لا يحيد عنه، وأن من يريد الحصول على منفعة منه أو اجتناب ضر فيه ليس أمامه سوى معرفة القوانين التى يجرى عليها والاجتهاد فى تطويعها والاستفادة منها. والمشاهَد أن الشعوب التى تؤمن بأن للكون نظاما وقوانين يسير عليها ولا يخرج عنها، وتتخذ العلم سبيلا لبلوغ غاياتها ومطامحها تصل إلى ما تريد، فتكتشف حقائق العالم وتخترع الآلات والأدوات التى تعينها على تيسير أمورها وتحسن أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتضع الأنظمة التى تطبق من خلالها هذا كله وتكون لها سيطرة على الشعوب الأخرى التى لا تتخذ العلم والعمل والإتقان سبيلا لها فى الحياة وإحراز التقدم، بينما الشعوب التى لا تزال تؤمن بالسحر تكون ضعيفة متهافتة، وتنتشر فيها الأمراض وأسباب الفقر، وتضطرب أمور حياتها، وعبثا تحاول الخروج من شرنقة التخلف والضعف والمعاناة، إذ لا يمكن أن ينجد الجهل أصحابه بل المنجد بعد الله سبحانه هو العلم والعمل والتخطيط والنظام وما إلى هذا، وهو ما يدعو الإسلام إلى التمسك به فى الوقت الذى يذم فيه القرآنُ السحرَ والسحرة ويؤكد أنهم لا يمكن أن يفلحوا أبدا، إذ ليس فى السحر سوى الخداع والإيهام دون أن يكون له أثر فعلى ولا يمكن أن يترتب عليه شىء فى الواقع. بل إن الرسول عليه السلام لينهى نهيا شديدا عن إتيان الساحر مجرد إتيان، ويكفّر من يعتقد فيه وفى عمله. فالإسلام هو دين العلم والعمل والحقائق لا دين الأوهام والشعوذات والخزعبلات.

ويوم ترك المسلمون طريق العلم والعمل والتخطيط وتشغيل العقل وانكبوا على الأوهام والأفكار السخيفة المتهافتة والاعتقاد فى أن اللجوء إلى الجن والشياطين هو السبيل إلى قضاء المصالح وإنجاز المطامح والحاجات وتجنب الأذى والمشاكل والتخلص من الأمراض والآفات تدهورت أحوالهم وانحطت أوضاعهم وصاروا هدفا للقوى الكبرى المتوثبة بالعلم والعمل والتخطيط والاكتشافات والاختراعات واحْتُلَّتْ أراضيهم وفقدوا استقلالهم، ومن يومها وهم يحاولون الانعتاق من هذا الوضع المزرى، وكلما ظنوا أنهم بلغوا غايتهم أو قاربوها تبين لهم بعد تجارب واختبارات مريرة قاسية مؤلمة أشد الألم أن الأمر أعقد مما يتصورون وأن خروج جيوش الاحتلال من بلادهم وحصولهم على الاستقلال هو مجرد مظهر لا حقيقة له، وأن الطريق إلى التحرر الحقيقى وتحصيل أسباب القوة ما فتئ طويلا طولا شديدا لأنهم لم يغيروا عقلياتهم

ويعتمدوا العلم والعمل والتخطيط سبيلا لتقدمهم وتخلصهم مما هم فيه بل يزدادون ابتعادا عن هذا الطريق الذى يضمن لهم الخلاص والفلاح.

والآن كيف تناول كل من الدكتور مُحَّد البهى والشيخ مُحَّد الغزالى موضوع السحر، الذى تكرر الحديث عنه فى عدة مواضع من القرآن الكريم؟ فأما د. البهى فقد تعرض لتلك المسألة مثلا عند تفسيره للآيتين ٧٦– ٧٧ من سورة "يونس": "فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هـذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قـال موسـى: أتقولـون للحـق لما جـاءكم؟ أسـحرٌ هـذا، ولا يفلـح الساحرون؟" فقال: "وما عرض موسى على فرعون وملئه من الأمارات الدالة على صدقه فى الرسالة كان الحقَّ من عند الله، ولكن لم يشأ فرعون ورؤساء المجتمع معه أن يعترفوا بأنه حق، وإلا أقاموا الحجة على أنفسهم أمام أمتهم، بل وصفوه بـ"السحر المبين"، وصفوه بأنه صنعة حيل وخداع على نمط ما كانت تفعل السحرة بمصر... وهنا اعترض موسى على وصف ما أتى به من حق من قِبَل الله بأنه سحر، وأكد لهم أن نهاية السحر هى الإخفاق والكشف عن الخداع. والساحرون لا ينجحون أبدا فى حقيقة الأمر لأنهم يعتمدون على خفة حركة اليد، وسرعان ما تظهر حقيقتها. وهو لو كان ساحرا لآمن بأنه سوف لا ينجح فى رسالته إطلاقا كما لا ينجح السحرة الآخرون، ومن ثم كان لا يأتى إلى فرعون، وهو ملك عظيم، ولا إلى قومه، وهم أصحاب حضارة فارعة". وحين انتصرت عصا موسى على ثعابين سحرة فرعون علق د. البهى قائلا: وفعلا أبطل موسى سحرهم، واقتنع الساحرون بباطلهم، ولذا سجدوا لله مؤمنين به وبرسالة موسى".

وهو نفسه ما كرره فى تفسير الآيات التى تتناول نفس الموضوع من سورة "طه"، إذ قال عن سحر سحرة فرعون إن "ما صنعوه لا أثر له فى واقع الأمر، فهو مهارةُ يدٍ قُصِد به التدليس وخداع الناس... والساحر حيث يكون لا ينجح إطلاقا لأن عمله زيف وباطل. ومن هنا يُعْلَم أن الإسلام ينصح المؤمنين به بعدم اتباع السحر والاعتقاد فيه لأنه لا يعبر عن حقيقة كونية إلا إذا اقترن بمشيئة الله وإرادته، أى إلا إذا شاءت الإرادة الإلهية نفس الأمر الذى استهدفه الساحر، وعندئذ تعود حقيقة ما وقع إلى تلك الإرادة، وليس لصنعة الساحر وخداعه".

وهو ما نجده أيضا عند تعرضه لنفس القصة فى سورة "الشعراء": "وعندما اجتمع السحرة الذين حُشِدوا إلى لقاء موسى بهم سألهم عن أن يمارسوا صنعتهم، فأَلْقَوْا ما بأيديهم من حبالٍ وعِصِيّ على الأرض فى مهارة فائقة حتى تبدو حركتها مشابهة لحركات الثعابين والحيات وهى تزحف على الأرض... ولكن ما إن ألقى موسى عصاه التى بيده على الأرض حتى أظهرت خداع هؤلاء السحرة وكذبهم، وتلقفت كل ما طرحوه من حبال وعصى. وعندئذ

اتضح أنه لم تتحول حبالهم وعصيهم إلى ثعابين وحيات بالفعل، وإنما كانت مهارتهم هى التى أودعت فى أوهام المشاهدين أنها كذلك".

هذا موقف د. البهى من السحر، أما الشيخ الغزالى فلم يتطرق إلى البحث فى حقيقة السحر طوال تفسيره كله إلا عند سورة "الفلق"، وهى السورة قبل الأخيرة من سور القرآن، حين وقف إزاء أمره سبحانه لرسوله أن يستعيذ "من شرِّ ما خَلَق، ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقَبَ، ومن شر النفاثات فى العُقَد، ومن شر حاسد إذا حسد"، إذ قال الشيخ فى تفسير "ومن شر النفاثات فى العقد": "والنفّاثات فى العُقَد، قيل: النساء السواحر. وللسحر حقيقة عند بعض العلماء، ولشياطين الإنس والجن شغل به، والاستعاذة تبطله. ويرى ابن حزم وعلماء الظاهر أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو خداع وتخييل. وللعامة أوهام كثيرة فى هذا الميدان ينبغى الحذر منها". وعبثا تبحث فى تفسير الشيخ لسورة "البقرة" لعله وقف عند قوله عز شأنه: "واتَّبَعوا ما تتلو الشياطينُ على مُلْك سليمان، وما كفر سليمانُ، ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر. وما أُنْزِل على الملَكين ببابل: هاروت وماروت..." أو تريَّث أمام قصة موسى والسحرة فى كل من سورة "الأعراف" و"طه" و"الشعراء"، فتفاجأ بأنه قفز فوق ذلك كله... إلى أن وصل إلى السورة قبل الأخيرة وإلى آية لم يُذْكَر فيها السحر بلفظه، وهنا وهنا فقط تنبه الشيخ إلى موضوع السحر، فقال كلمة شديدة الاختصار، ودون أن يبين لنا رأيه فى المسألة مكتفيا بإيراد الرأيين المختلفين حولها ما بين قائل بأن للسحر حقيقة، وقائل بأنه لا حقيقة له، تاركا إيانا نقرر لأنفسنا ما يصح وما لا يصح. أى أنه أمسك العصا من المنتصف كما يقال ولم يشأ أن يصرح بموقفه. ولا ندرى السبب فى هذا، فربما لم يكن مستقرا على رأى فى هذا الموضوع. أم تراه لم يشأ تعريض نفسه للاتهام بإنكار شىء من الدين؟ وإن كنت أستبعد هذه الفرضية لأن الشيخ كان جريئا لا يبالى بالتصريح برأيه حين يكون مقتنعا بشىء، فضلا عن أنه فى هذا الكتاب قد اختار فى بعض القضايا التشريعية آراء تختلف عما هو شائع بين الفقهاء.

ومن ذلك قوله فى أول تفسيره لسورة "البقرة": "وقد رأيت أن أجهزة التبشير ترقب العالم الإسلامى بمكر، وتحاول اختراقه من ثغرات تتوهمها أو تجدها، وقد رأت أن أعدادا من المسلمين تهين النساء، وتستكثر عليهن ما آتاهن الشارع الحكيم، فسعت إلى تنصير المرأة وإشاعة أن المراد إنقاذها من جور الإسلام! وتوجد الآن جمهرة من المثقفات وقعن فى هذا الشرك. والسبب الأول بعض المتحدثين فى الدين من الجاهلين والتافهين. كنت فى أحد المجالس فقلت: إن حق الخلع للمرأة يكافئ حق الطلاق للرجل. وإذا وُجِدَت امرأة لا تطيق زوجها بغضا لأسباب تبديها أو تخفيها، وعرضتْ أن تعطيه ما ساق إليها من مهر، فما المانع أن يجيبها القضاء إلى ما تبغى؟ قال أحد السامعين: للقاضى حق التطليق للضرر! قلت: هذا

شىء آخر. إنها لم تَشْكُ ضررا، وإنما تذكر أنها تكره البقاء مع رجلها لأمر ما، وتريد تعويضه عن كل ما أنفق عليها، فلماذا نبقيها معه؟ قال: هذا لا يجوز ما دام الرجل راغبا عن الطلاق! قلت: بل هو جائز، وللقاضى أن يتصرف بالصلح أو بالخلع. وعلمت بعدُ أن الرجل يتهمنى بما أنا منه براء لأنه غير فقيه فى الكتاب والسنة! وويل للعالم من الجهال".

ولكن من ناحية أخرى لفت انتباهى أن الشيخ، حين أراد أن يبين لنا رأى العلم فى حقيقة السحر، لم يكن فى ذهنه إلا علماء الدين عندنا، وكأن المسألة يحسمها هذا الصنف من العلماء، مع أنها فى رأيى تحتاج إلى علماء الفيزياء والكيمياء والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا قبل علماء الدين أو على الأقل: معهم. ذلك أن العلوم الطبيعية وما يتصل بها من العلوم الإنسانية هى التى تستطيع أن تحسم الأمر عن طريق الملاحظة والتجربة، إذ المسألة مسألة فيزيقية لا ميتافيزيقية على عكس ما يظن كثير من المسلمين ومن علماء المسلمين حتى ليتهم بعضهم من لا يؤمن بالسحر بأنه ينكر معلوما من الدين بالضرورة ظنا منهم أن السحر ما دام قد ورد الحديث عنه فى القرآن فهو حقيقى، ومن ينكره إنما يكذّب بالقرآن، أستغفر الله. والعجيب الغريب أن القرآن كلما ورد ذكر السحر أكد عدم فاعليته وأن الله مبطله دوما وأن الساحر لا يفلح أبدا، وأن سحره ليس سوى تخييلات لا حقيقة لها، ومع هذا ينبرى بعض المسلمين متهمين من ينكر السحر. على أن إنكار السحر ليس معناه أنه غير موجود، وإلا فما معنى حديث القرآن عن سحرة فرعون، وعن حبالهم وعصيهم التى خُيِّل لموسى بسبب سحرهم أنها تتحرك وتمشى؟ إن إنكار السحر معناه إنكار أن يكون له تأثير حقيقى وأنه يغير طبيعة الأشياء، فتتحول الحبال والعصى فعلا لا إيهاما وتخييلا إلى ثعابين.

وإنى لأستغرب أن يظل هناك معتقدون فى حقيقة السحر فى العصر الحديث، عصر التقدم العلمى واللجوء فى كل الأمور إلى التجارب العلمية للتحقق بها من حقيقة الشىء أو بطلانه بدلا من تضييع الوقت فى الجدال النظرى الذى لا يقدم ولا يؤخر فى مسألة كالتى نحن بصددها الآن. والمسألة التى نحن بصددها الآن تذكرنى بمسألة تأبير النخل، تلك التى قال فيها رسول الله عليه السلام رأيه، ولكن اتضح عندما دارت الأيام وحل موسم طرح البلح أن الثمر كان رديئا طبقا للمشورة التى أشار بها رسول الله على أصحابه، فما كان منه إلا أن قال بكل بساطة وتواضع وعظمة نفس: أنتم أعلم بشؤون دنياكم. والآن على المسلمين المتنطسين، عوضا عن توجيه الاتهام لمن ينكر تأثير السحر على البشر والأشياء، أن يفهموا أن الفيصل فى هذا الأمر هو العلم لا الجدال النظرى.

ورأيى أن السحر، بمعنى تغيير حقيقة الأشياء وما أشبه، لا يمكن أن يكون صحيحا. فقد خلق الله كونه على نظام معين وأجراه على قوانين صارمة من يخرجْ عليها يَنَلْ جزاءه أذى وفشلا وتخلفا وضعفا، ومن يحترمها ويجتهد فى الاستفادة منها يسعد فى دنياه ويتقدم ويحرز

الغنى والمجد. والأمم المتقدمة القوية التى تسود العالم الآن هى الأمم التى تأخذ بالعلم طريقا ومنهجا: فبلادها نظيفة، واقتصادها قوى، ومستوى معيشتها مرتفع، ومتوسط أعمار أبنائها طويل، وكل شىء فى حياتها جميل، ولا تعرف أكوام الزبالة ولا الحفر والمطبات ولا الضجيج المصم فى الشوارع ولا تضييع الوقت فى التفاهات والسخافات، وأهلها جادون منصرفون إلى أعمالهم مجتهدين أعظم الاجتهاد فى إتقانها، وكلمة دولهم يخضع لها الآخرون وترتعد منها الفرائص. ولكن انظر إلى الأمم التى يشيع فيها الاعتقاد فى السحر تجدها متخلفة ضعيفة لا قيمة لها فى عالم السياسة والاقتصاد والعلم. بل حتى فى ميدان الكرة، التى يستعين فيها الأفارقة بالسحر، نجد الأوربيين عادة هم الذين يحرزون المراتب الأولى، ولا تنفع الأفارقة تعزيماتهم السحرية فى شىء. وما أكثر ما رشّوا الماء أو تمتموا عند مرمانا حين نلاعبهم، ثم خرجوا مهزومين منا.

ذلك أنه لا يوجد قانون فى كون الله سبحانه يقول إن من يتمتم ببعض الكلمات أو يكتب بعض الأحجبة أو يرش بعض الماء أو يأتى ببعض الحركات الجسدية الغريبة أو يشكشك بإبرةٍ تمثالا من الفاسوخة يصل إلى هدفه من الإضرار بغريمه أو جلب الخير لنفسه أو الإفلات من أذى يتهدده. لا يوجد مثل هذا القانون أبدا لا فى السماء ولا فى الأرض. لا يوجد إلا القانون الذى يقول إن العمل والاجتهاد والإتقان وتشغيل المخ والتخطيط والمثابرة هى كلمة السر العظيمة فى النجاح والفلاح، وهو ما أثبته التاريخ ونشاهده حولنا فى كل أرجاء العالم، ولا يوجد أبدا ما يدل على أنه خطأ وأن عكسه هو الصواب. ولقد كانت أغلبية الأمم الأفريقية مثلا تؤمن بالسحر وتمارسه فى كل أمور حياتها، وكانت أوربا لفترة طويلة من تاريخها موحولة فى مستنقعات هذه الخرافات والاعتقادات، فظلت أفريقيا متخلفة كما كانت إلى ما بعد ذلك بزمن طويل، أما أوربا فحين غيرت وتغيرت وانطلقت فى سبيل العلم انعتقت من مستنقع التخلف الذى كانت غائصة فيه، وبلَّغها العلم والعمل بالعلم السماوات العلا وجعلها سيدة العالم. وقد رجعتُ إلى المادة التى كتبتْها "**Encyclopaedia Britannica**" عن السحر فلم أجد فى المقالة حالة واحدة تحقَّق فيها السحر، بل كل ما قالته المادة المخصصة لذلك (مادة "**Magic**") هو الحديث عن اعتقادات الأمم المتخلفة فى السحر، وشرح أنواعه، ووصف طقوسه وكيفية مزاولته، وذِكْر الشروط التى يشترطها السحرة فى هذا المجال والمواد التى يستعملونها فى أسحارهم والتعازيم والرُّقَى التى يتلونها أثناء ممارسة دجلهم، وكان الله بالسر عليما. وهو نفسه ما نجده فى مادة "**Magie**" من موسوعة اليونيفرساليس (**Universalis**) الفرنسية.

ثم لقد رأينا أن القرآن يدين السحر والسحرة ويؤكد أنهم مبطلون وأن سحرهم لا ينتهى إلى شىء، بالإضافة إلى أن الرسول عليه السلام حذر من إتيان السحرة والاعتقاد فيهم بل

كفّر من يلجأ إليهم ليساعدوه فى بلوغ مآربه. فهل هناك شىء أشد من هذا كى يقتنع المسلمون بسخف السحر وعجزه عن أى إنجاز حقيقى؟ وأنكى من ذلك أن السحرة عادة ناس جهلة أميون منحطون فى ثقافتهم وفكرهم، وإن كانوا فى ذات الوقت شياطين مردة بارعين فى التعامل مع المتخلفين من البشر المعتقدين فى حقيقة السحر، ويعرفون كيف يلعبون بأعصابهم المرهقة وعقولهم السطحية ومخاوفهم وتطلعاتهم البدائية. وفى المقابل فإن للعلم فى الإسلام مكانة عظيمة حتى إنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وحتى ليرفع الله الذين أوتوا العلم درجات، وحتى إنه جل وعلا لم يأمر نبيه بالاستزادة من أى شىء سوى العلم، وحتى إن من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع، وحتى إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وحتى إن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، وحتى إن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وحتى إن المسلم مأمور بطلب العلم من المهد إلى اللحد، أى منذ ولادته حتى مماته، وحتى إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وحتى إن مداد العلماء ليوزَن بدماء الشهداء.

وينبغى التنبه إلى أن معظم الآيات والأحاديث التى تحض على العلم وترفع من شأنه لا تحصره فى ميدان العلم الدينى، بل تطلق القول إطلاقا مما يدل على أن العلم فى الإسلام لا يقتصر على العلم الدينى وحده. وقد قرأت فى لندن عام ١٩٨٢م كتابا بعنوان "Muhammad and Learning" للبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن دور الرسول الكريم فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل أمى مثله يعتزى إلى أمةٍ باديةٍ أُمِّيّةٍ تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذى يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه، وكذلك فى جبين الكنيسة لارتضائها ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس مُحَمَّد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه فى الفضل بالاستشهاد فى سبيل الله، بل فضّل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب. وفى ضوء هذا يمكننا أن نقدر صنيع العقاد حق قدره حين أكد أن "التفكير فريضة إسلامية"، بل جعل هذه العبارة عنوانا لواحد من أهم كتبه فى مجال الدراسات الإسلامية. وإذا كنت نادما الآن على شىء فعلى أنى لم أصور كتاب البروفيسور ستيفن وأترجمه. ومن يومها

وأنا أبحث عن الكتاب هنا وهناك، وأستعين بالأصدقاء والمعارف فى مصر وفى أوربا وفى أفريقيا لعلنا نعثر على نسخة منه، ولكنى فشلت حتى الآن فى العثور على مثل تلك النسخة.

ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام كان حريصا تمام الحرص فى ذات الوقت على القضاء على منابع الخرافة والدجل والأساطير، فقد حرّم السحر تحريما قاطعا ولم يتساهل فيه أى قدر من التساهل، وكان حربا شعواء على الكهانة والعيافة والزجر وما شابه ذلك من ضروب الانحراف الفكرى والعقيدى. وفى القرآن نفىٌ قاطعٌ لما كان المشركون يزعمونه بالكذب والباطل عن الرسول عليه السلام من أنه كاهن. ذلك أن الكهانة خرافة وانحطاط فكرى وحضارى، أما نبوة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام فدعوة إلى اليقظة العقلية والإبداعات العلمية والعمل على إحراز المجد فى الدنيا عن طريق العلم وإكرام العلماء والاستعانة بأفكارهم واجتهاداتهم. وأين الكهانة من هذا؟ إنما هى التخلف ذاته، إذ هى الجهل مجسدا. يقول المولى ﷻ: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ" (الطور/ ٢٩)، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ. قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ. قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الحاقة/ ٤٠- ٤٣).

وها هى ذى بعض الأحاديث النبوية التى تناولت هذا الموضوع. وقد تشددتْ فيه تشددا ربما بدا غريبا عند من لا يتنبه إلى المكانة العالية البارزة التى يحتلها العلم فى دين مُحَمَّد، وأن الإسلام هو دين العقل والعلم ويكره الخرافة والجهل كراهية عنيفة: "العيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت" (والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يُخَطّ فى الأرض. والجبت: الشيطان). "من أتى عرّافا فسأله عن شيء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة". "من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على مُحَمَّد". "أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْى المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم".

على أن الأمر لا يقف عند هذه النقطة، بل إن الإسلام ليربط بين الفتن المُبِيرة وبين الجهل حتى ليقول الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا: "إن بين يَدَى الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْج" (والهرج: القتل). كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن العمل مع الجهل ليس له جدوى مهما كثر، على العكس مما لو كان العمل قليلا، والعلم كثيرا: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: العلم بالله عز وجل. قال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: العلم بالله. قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرنى عن العلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل".

ومن أقواله ﷺ ذلك الحديث العجيب الذى يعكس معرفة تامة بأبعاد العلم والجهل والثمار الخطيرة التى تترتب على كل منهما. قال عليه السلام: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جُهَّالا، فسُئِلوا، فأَفْتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا". ومن المهم جدا أن ننبه إلى أن العلم هنا ليس مقصورا على الفقه والتوحيد وما شابه، بل هو مطلق، فالرسول الكريم لم يحدده بل تركه مفتوح الأبواب. صحيح أن كلمة "أَفْتَوْا" ترتبط فى أذهان كثير من المسلمين بالفتيا فى الدين، إلا أن هذا بدوره تضييق دون أى داع. فالفتيا فى الأصل هى إصدار حكم أو رأى فى مسألة ما. ولعل الحديث التالى يصح أن يكون شاهدا على ما أقول، فالعلم فيه مضاف إلى الدنيا، والجهل منسوب إلى الآخرة، مما يدل على أن العلم والجهل مفتوحان فى الإسلام: فقد يكونان للدنيا، وقد يكونان للآخرة، ولا تخصص لأى منهما بأَيَّةٍ منهما. وهذا هو الحديث: "إن الله يبغض كل جعظرى جواظ سخّاب فى الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بالدنيا، جاهل بالآخرة".

على أَنْ ليس السحر مُدَانًا ومحذَّرًا منه فى الإسلام وحده، بل هو كذلك فى اليهودية والنصرانية. وفى مادة "سِحْر" فى "دائرة المعارف الكتابية" نقرأ ما يلى فى تعريف السحر وتحذير الكتاب المقدس بعهديه منه: "السحر هو محاولة التأثير فى الناس أو الأحداث إما بوسائل الخداع والشعوذة، أو بتسخير قوى شيطانية، وذلك لجلب منفعة أو دفع مضرة، أو إيقاع أذى بالغير، أو استطلاع المستقبل والرجم بالغيب. والسحر ظاهرة عالمية تنتشر فى كل بقاع الأرض وبين كل الشعوب منذ أقدم العصور. وله صور متنوعة، فقد يكون بتوجيه اللعنات أو بترديد التعاويذ أو باستخدام التمائم والأحراز أو بتحطيم نموذج للعدو مصنوع من الشمع أو الخشب أو الطين أو غير ذلك أو بقراءة الطالع بالورق أو الكؤوس أو الرمل أو الحصى أو رمى السهام أو حركات الكواكب والنجوم أو اتجاه الطيور فى طيرانها أو حركات الحيوانات أو فحص أحشائها أو غير ذلك من الأساليب التى لا طائل وراءها ولا جدوى منها...

والعهد القديم واضح كل الوضوح فى النهى عن كل صور السحر. وهناك نهى بالغ القوة فى هذا الصدد: "متى دخلتَ الأرض التى يعطيك الربُّ إلهُك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم. لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرَّافة ولا عائفا ولا متفائلا ولا ساحرا ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانًّا أو تابعةً ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب" (تث ١٨: ٩–١٤، انظر أيضا لا ١٩: ٢٦). وتكاد هذه العبارة تضم كل أنواع السحر. وكان الإسرائيلى يتعلم منذ صباه أن يتجنب الكثير من الممارسات الدينية التى تؤديها الشعوب حوله، واعتبارها خرافات خطيرة لا يمكن أن توجد جنبا إلى جنب مع عبادة "يهْوَه". وكانت عقوبة السحر القتل رجما: "لا تَدَعْ ساحرة تعيش"

(خر٢٢: ١٨)، "وإذا كان فى رجل أو امرأة جانٌّ أو تابعة فإنه يُقْتَل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه" (لا٢٠: ٢٧). ونجد نفس هذا الموقف فى الأنبياء. فمثلا: "وإذا قالوا لكم: اطلبوا إلى أصحاب التوابع والعرافين المشقشقين والهامسين، ألا يسأل شعب إلهه؟ أيسأل الموتى لأجل الأحياء؟" (إش٨: ١٩)، "فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرَّافيكم وحالميكم وعائفيكم الذين يكلمونكم. لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب" (إرميا٢٧: ٩ و١٠)، "وأنت يا ابن آدم، فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن، وتنبأ عليهن وقل: هكذا قال السيد الرب: ويل للواتى يخطن وسائد لكل أوصال الأيدى، ويصنعن مخدات (أو أقنعة) لكل قامة لاصطياد النفوس" (حز١٣: ١٨). وبذلك كن يذهبن إلى أبعد مما جاء فى نبوة ميخا من "الأنبياء الذين يضلون شعبى الذين ينهشون بأسنانهم وينادون: سلام. والذى لا يجعل فى أفواههم شيئا يفتحون عليه حربا" (ميخا٣: ٥). فكانوا يتنبأون بالخير أو بالشر حسب استعداد السائل للدفع. ويبدو أن الوسائد والمخدات كان يلبسها السحرة أنفسهم (العددان ٢٠ و٢١) والعملاء (عدد ١٨). ولعل الساحرة (أو الساحر) كانت تصنع هذه المخدات (أو الأقنعة) لتمثل الخَصْم على شكل دُمًى، ثم تلبسها بعض الوقت وتقرأ عليها بعض التعاويذ. ويظن بعض العلماء أن الساحرة كانت تزعم أنها قد أمسكت بالنفوس وربطتها فى هذه الوسائد والمخدات حتى تقضى عليها. وكان يمكن أن يستعاض عن هذه الدمى والوسائد والمخدات بشئ مما يخص الخصم، مثل دمه أو شعره أو أظافره أو شئ من متاعه.

ويواصل العهد الجديد شَجْب السِّحْر والسَّحَرة وكل ما يمتّ لذلك بِصِلَة، فيضع الرسول بولس "السحر" بين أعمال الجسد البغيضة (غل٥: ١٩). كما يشبِّه الأشرار الذين يقاومون الحق بالسحرة الذين قاوموا موسى قائلا: "كما قاوم ينيس ويمبريس موسى كذلك هؤلاء أيضا يقاومون الحق. أناس فاسدة أذهانهم، ومن جهة الإيمان مرفوضون" (٢تى٣: ١-٩). كما أنه قد يشير بكلمة "الأشرار والمزوِّرين" (فى عدد ١٣) إلى السحرة والعرافين. ولما جاء الرسول بولس إلى أفسس آمن عدد كبير: "وكان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع، وحسبوا أثمانها فوجدوها خمسين ألفا من الفضة. وهكذا كانت كلمة الرب تنمو وتقوى بشدة" (أع١٩: ١٩ و ٢٠)".

ومع هذا فإن كثيرا من البشر يؤمنون بالسحر ولا يُعْمِلون عقولهم فيه. ولو أعملوا عقولهم فيه لبان لهم بطلانه وتهافته. ويوضح كاتب مادة "السحر" فى "الموسوعة العربية العالمية" كيف لا يقتنع مثل هؤلاء بأن السحر خرافة لا جدوى منه رغم اجتماع كل الشواهد على أنه باطل لا حقيقة له، فيقول: "إن أدنى درجات الإيمان والعقل لابد أن تفضى بنا إلى أن كل الظواهر من صنع الله سبحانه وتعالى ولا تحدث عن طريق السحر. فالمحاصيل تنمو من

غير السحر. والمرضى يُشْفَوْن بدونه. ولكن إذا بحث الناس عن مساعدة السحر للحصول على حصاد جيد أو علاج مريض فإنهم سيعتقدون أن السحر يقف وراء ذلك.

يميل الناس أيضًا إلى نسيان إخفاقات السحر مع سرورهم بنجاحاته الظاهرة. وربما يعتبرون السحر موفقًا إذا أدى مفعوله بنسبة ١٠%. وحتى إذا أخفق السحر فإن الناس غالبًا ما يعللون هذا الفشل دون الشك فى قوة السحر وقدرته. وربما يقولون: إن الساحر قد ارتكب خطا فى تلاوة التعويذة، أو إن ساحرًا آخر قد طرح تعويذة أكثر قدرة وقوة ضد هذا الساحر.

ويعتقد العديد من علماء الأنثروبولوجيا أن بعض الناس يصدقون السحر نظرًا لأنهم يشعرون بالحاجة إلى الاعتقاد فيه والإيمان به. وربما يتجه بعض الناس إلى السحر لتقليل الخوف والشك والغموض الذى يكتنفهم إذا شعروا بفُقْدان التحكم والسيطرة على ما ستؤول إليه الأوضاع. على سبيل المثال يستخدم المزارعون معرفتهم ومهاراتهم عند زراعة حقولهم، ولكنهم يدركون أن الأحوال الجوية والحشرات والأمراض ربما تدمر محاصيلهم. لذلك فإن المزارعين فى بعض المجتمعات ربما يقومون أيضًا بعمل التعويذات أو يمارسون طقوس السحر لتأمين حصاد جيد. وفى كل الأحوال يُعَدّ اللجوء للسحر نقصًا فى الثقة بالله والإيمان بالقضاء والقدر".

والآن إلى بعض تجاربى مع السحر، وهى تبين أن السحر لا حقيقة له وأنه إما مجرد خداع وأوهام أو خفة يد ومهارة. لقد كنت وأنا صغير أسمع حلقات "ألف ليلة وليلة"، وبخاصة فى رمضان، وكان مما سمعته أن الساحرة الشريرة العجوز قد سحرت الأمير بدر باسم وصيرته حصانا، فكان كلما ركبه راكب أخذ فى الصهيل يريد (يا حبة عينى عليه!) أن يقول إنه إنسان بل أمير وليس حصانا. ولكن على من تتلو صهيلك يا حصان؟ ذلك أنه من المستحيل أن يفهم أى إنسان من ذلك الصهيل أنه يركب الأمير ذاته. فالأمراء لا يُرْكَبون. وكان عندنا فى البيت نسخة ممزقة من "ألف ليلة"، فكنت أقرأ فيها وأنا طفل بالكتاب لا أزال، فوجدت إنسانا فد انقلب برغوثا، وصار يتنطط ويلدغ النائمين لعله يوقظهم ويفهمهم أنه ليس برغوثا بل إنسانا. ولكن ما من فائدة، فقد ظل برغوثا. وهذا ما أذكره الآن بعد كل تلك الأعوام الكثار.

وحضرت، وأنا ولد صغير ربما فى السابعة، حفلة زار ليلية فى بيتٍ قريبٍ من بيتنا، وكان النساء يلبسن ملابس غريبة ويدرن حول شىء لا أذكر طبيعته الآن وهن يتطوحن غير واعيات، فيما يبدو، بما حولهن. وكانت بينهن امرأة قريبة جدا منا. ولم أكن سعيدا بما شاهدته، إذ لم يقع شيء غريب يثير الانتباه ويخرجنى عن مشاعرى الاعتيادية. وهذه السيدة القريبة جدا منا كانت تعتقد أن هناك من يعمل أعمالا لها وأسحارا، ورأيتها ذات مرة تمسك بورقة وإبرة وتشكشك الورقة باعتبار أنها تمثل صاحبة السحر المعمول لها. وقد انتهى بها الأمر أن ألقت

نفسها من ترسينة البيت الريفى الذى كانت تسكنه مع زوجها وطفليها لتزعج زوجها وتحرجه، وهو ما تسبب لها فى عدة رضوض بجسمها، وبالذات فى قدميها اللتين تلقتا الاصطدام بالأرض. وواضح أن الزار والشبة والفاسوخة والورقة التى كانت تشكشكها بالإبرة لم تأت بأية ثمرة.

وكنا يوم السوق الأسبوعى، وهو يوم الأحد، نتحلق آخر اليوم، بعد انفضاض البائعين، حول الساحر الذى كان يبهرنا ببعض أعمال السحر من مثل إحضار إناء زجاجى يضع فيه ماء ثم يقول لنا إن هذا الماء سوف يتلون أصفر فأحمر فأزرق مثلا: هكذا بالترتيب، ثم يضع شيئا فى الماء خفية فلا نراه وهو يصنع ذلك، فيكون الأمر كما قال. وطبعا تفسير الأمر سهل عند أى شخص عنده إلمام ببعض المواد الكيمائية. لكننا كنا نراها سحرا عظيما فى ذلك الحين.

وأذكر أيضا من أحداث طفولتى أننى شاهدت ساحرا ضحى يوم صيفى عند الجامع الكبير وتحت شجرة ذقن الباشا هناك يمسك بشىء يشبه حصالة معدنية كبيرة ويصب فيها الماء ثم يميلها فلا ينزل الماء: بالضبط كما قال لنا. ثم يعود فيعلن أن الماء سوف ينزل الآن، وبالفعل يميل الحصالة فينزل الماء هذه المرة. ولا أدرى هل كنت أفهم سر اللعبة فى ذلك العمر أم هل خمنته فيما بعد حين فهمت شيئا عن الميكانيكا وأن فى جانب الحصالة من الخارج زرا يضغط عليه فيغلق الطريق على الماء ثم يضغط عليه مرة أخرى فينفتح الطريق وينزل السائل. لكن الناس وقتذاك كانوا يرون هذا سحرا مبينا.

وفى طنطا أيام الاحتفال بمولد السيد البدوى حيث تجرى الموبقات التى تتخيلها والتى لا تتخيلها، ووسط الزحام والقاذورات فى كل مكان، كنت أشاهد قريبا من المَلْقَى، أى المكان الذى يتجمع فيه معظم المحتفلين وتضرب فيه الصواريخ فى الليلة الكبيرة، كنت أشاهد مع المشاهدين الرجل الذى يقف على منصة عالية ويطلب من شخص ما من الواقفين أمامه متزاحمين أن يخرج بطاقته الشخصية وينظر فيها، وبعد قليل يخبره هو باسمه وعنوان بيته وما إلى هذا مما هو مثبت فى البطاقة. وأتصور أننى كنت أخمن أن هناك من يتلصص على البطاقة فى يد صاحبها ويوصل، بطريقة ما لا نعرفها، ما فيها من معلومات إلى رجل المنصة، أو قد يكون صاحب البطاقة من العاملين مع رجل المنصة، ومن ثم فهو يعرف كل شىء مكتوب فى بطاقته. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. ومع هذا فقد كان الناس يعجبون أشد العجب من هذا الساحر المذهل.

ومما ينبغى ذكره هنا أيضا أن بعض زملائى من القرية، وأنا صبى صغير بالأزهر، كانوا يلعبون بعض اللعب السحرية بالكوتشينة. ومنها أن يمسك أحدهم بورق الكوتشينة أمامك بحيث ترى وجه الورقة الأولى، ثم يسألك: هل تريد ورقة ولد أحمر شكله كذا وكذا أو ورقة

آس صفتها كيت وزيت. فتقول له: ماشٍ. فيأخذ الكوتشينة خلف ظهره ثم يخرجها لك دون أن ينظر فيها فترى الورقة التى قال لك إنه سوف يريك إياها. وظللت أتحرق شوقا إلى معرفة السر فى ذلك الأمر حتى كدت أصاب بالهوس فالجنون، وجافانى المنام (منهم لله)، وهم يزدادون قسوة وإصرارا على عدم إطلاعى على الأمر. وأخيرا لان كبيرهم، وهو زميلى الأستاذ الدكتور محمود نحلة أستاذ اللغويات بجامعة الإسكندرية حاليا، وأخبرنى بالسر الخطير والسحر العظيم، وهو أن شَدّة الكوتشينة تقسم قسمين: قسما يواجه الشخص الذى تريد أن تبرجل عقله، وقسما يواجهك أنت. وكلما شهرت فى وجهه الكوتشينة كنت ترى من جهتك الورقة الأولى التى تقترح عليه أن تريه إياها، وهو من خيبته الثقيلة لا يفكر فى أن يطلب ورقة من اختياره هو. وكيف يطلب وقد ضاع عقله وانسحر تماما؟ المهم أنه عندما يوافق على ما تقول تأخذ أنت شدة الكوتشينة إلى خلف ظهرك وتضع الورقة التى كانت تواجهك فى أول النصف المواجه للطرف الثانى. فهذا لون آخر من ألوان السحر.

وثم لون مختلف أخبرنى به أبو أحد أصدقائى فى الحلمية الجديدة سنة ١٩٧١، قال: إن أحد مشايخ الطرق الصوفية كان يبهر مريديه حين يتحلقون حوله بأن ينادى بالقهوة، فتجيئه فى غاية المرارة (كأن الدنيا فى مصر ينقصها المرار. خيبة الله عليه!)، فيمررها على الحاضرين الذين يكادون يعبدونه من دون الله، فيجدها كل منهم مرة زاعقة المرارة، ثم يأخذها هو عندئذ ويضعها على فمه القدسى، ويرشف منها رشفة، ثم يعيد تمريرها على الحاضرين، فإذا بها عسل. يا له من ساحر! لكنهم طبعا لم يكونوا يرون ذلك سحرا بل كرامات. الله أكبر، والعزة للعرب، وتحيا مصر. والحكاية وما فيها أن الثعلب المكار الذى لن يُكَسِّبه ربنا يضع فى فمه بعض قطع السكرين التى يدفعها بلسانه حين يرشف رشفته، فتنزل إلى الفنجان، ومتى ما دارت القهوه على البلهاء المتخلفين من أمثالى وجدوها قد استحالت عسلا. وشىء لله يا بدوى!

وذهبت إلى بريطانيا فكنت أشاهد فى التلفاز هناك بعض الأعمال السحرية التى تمارس على مسرح عال بعيدا عن النظارة بعض الشىء وفى ضوء شاحب. ومن هذه الأعمال نمرة البنت التى يضعونها فى صندوق وقد أخرجت رأسها ويديها من جهة وحركتها وحيتنا، ومن الجهة الأخرى أخرجت قدميها الفاتنتين ورقصتهما لنا وكأن قلوبنا ناقصة ترقيصًا وهَبَلا، ثم يقوم الساحرون بإحضار منشار ينشرون به الصندوق، وطبعا جسم البنت الحلوة الأمورة اللى زى لهطة القشطة قد انقسم نصفين وراحت فى ستين داهية، لكنهم لا يكتفون بهذا، بل يعيدون نصفى الصندوق أحدهما لصق الآخر بدون أن يستخدموا أية مادة للإلصاق. هكذا ينبغى أن يكون السحر، وإلا فلا! ثم يفتحون الصندوق فتقوم بنت الفرطوس تتقافز من قلب الصندوق دون أن يكون قد سال منها نقطة دم واحدة.

بطبيعة الحال كنت أعرف أن ما أشاهده خداع فى خداع، لكن لم أكن أستطيع شرح ما يحدث. ولعلى خمنت بعد ذلك أن تكون هناك فتاتان: فتاة فى كل صندوق. فهذه تبرز رأسها ويديها من صندوقها، وتلك تبرز قدميها المتراقصتين، وقد قرفصت كل منهما فى صندوقها بحيث لا تكون أطول من نصف فتاة. أفهمتم أم لا تزالون تظنون أن السحر، بمعنى تغيير طبيعة الأشياء، أمر حقيقى؟ تريدون الجد أم ابن عمه؟ والله لو ظللت أهاتى من هنا إلى يوم القيامة وأشرح وأكتب لما اقتنعتم، اللهم إلا ربما واحدا أو واحدا ونصفا، ثم ما إن يغلق الكتاب حتى ينتكس على رأسه ويعود إلى اعتقاداته القديمة قائلا: دعوكم من هذا الراجل. إنه رجل عقلانى. يعنى: عقله فسافيسى.

وبالمناسبة حين كنت أقيم آخر عام لى فى بريطانيا بلندن زرت وزوجتى وابنتى وابنى الصغيران محلا مشهورا فى أكسفورد ستريت متخصصا فى بيع الأدوات السحرية، أى الأدوات التى يمكنك أن تخدع بها الآخرين وتوهمهم أنهم يشاهدون سحرا، ومع كل لعبة كتالوج لشرح كيفية استعمال اللعبة لخداع الآخرين. وهذا السحر غايته التسلية وتمضية الوقت فى تشويق وإثارة دهشة وسرور ليس إلا. كما أننى قبل فترة بسيطة نشرت فى صفحتى الفيسبوكية فيديو يشرح كيفية خداع الناس فى هذا المجال وإيهامها أنها تشاهد سحرا مبينا. ومعنى هذا أن ابن الفرطوس صاحب الفيديو ينكر السحر وسوف يذهب إلى النار. لكن خذوا بالكم. هو ليس مسلما، فهو إذن ذاهب إلى النار، ذاهب إلى النار، لكفره بمحمد، ونحن ذاهبون معه لعدم اقتناعنا بما يقوله تنظيفا لأمخاخنا الزنخة ولتفضيلنا الخرافات ودهاليزها المظلمة على نور العلم وهوائه الطلق.

طيب، وماذا عن أعمال الربط؟ والجواب عندى أن الذين يعتقدون فيه ويصدقون ما يحكى عنه من الخرافات متخلفون لا يفقهون الحياة وأسرارها ولا يحبون العلم فينسبون كل شىء إلى غير سببه كما كان الجاهليون العرب وغير العرب يعملون. وبدون تضييع الوقت، وكما أحب دائما أن أحسم الأمور بالتجربة والبرهان، وهى ما تجنن المتخلفين لأنها ستضع حدا للجدل السخيف وتريح الناس، بينما هم لا يريدون راحة بل وجع دماغ وصداعا أبد الدهر، أقول: من حبى للاحتكام للتجربة والبرهان عرضت على طالب كبير منتسب عندى بالجامعة فى ثمانينات القرن الماضى كان يؤمن بالربط ويقول إنه يمارسه، عرضت عليه أن يعمل لى عملا، فإذا ما نجح أخبرته بهذا وطلبت منه أن يفكنى. وبهذا يمكن أن أبدأ فى التفكير فى صحة هذا الاعتقاد. لماذا قلت: "أبدأ"، ولم أقل: "أغير اعتقادى على الفور"؟ والجواب أن التجربة العلمية لا تكتفى بمرة ولا بعشر مرات بل يكررها العالم تكريرا كثيرا حتى تزول من نفسه كل شبهة، ولا تكون التجارب فى اتجاه واحد بل فى الاتجاهين: إيجابا وسلبا. وفى البداية كرر الطالب أنه يحبنى ويجلنى ولا يرضى أن يؤذينى، وأنا أصر على أن يعمل العمل كما قال،

فنحن فى مقام تجربة علمية ولسنا فى مجال هلس وكلام فى الهجايص. وأخيرا لان. أحمدك يا رب! لكنه سألنى عن اسم أمى، فذكرته له. ثم زاد فطلب منديلى، فأخرجت المنديل وسلمته إياه. فأخذه ومضى، وغاب عن المحاضرة التالية، ثم ظهر بعد أسبوعين وأقبل على العبد الله، الذى هو فى نظر الأغبياء ينكر المعلوم من الدين بالضرورة، وكأن الربط من أركان الإسلام مع الصلاة والصوم والزكاة والحج والشهادتين، فوجدنى أبتسم وفى عينىَّ معانى التحدى، فما كان منه إلا أن قال: لم أشأ أن أوذى أستاذى الذى أحبه. فأجبته قائلا: بل قل إنك عجزت عن إيذاء أستاذك الذى لا تحبه. وتفسير الأمر عندى أنه لما رآنى أبتسم وأنتظره فى تلمظ فهم أن شيئا لم يحدث لى فتظاهر بأنه لم يعمل لى عملا أصلا.

وقبل ذلك، وأنا مدرس مساعد ولم أكن ذهبت بعد إلى بريطانيا، كنت فى بيت أختى الكبرى بالقرية، فأتت سيرة الفنجان والمندل بوصفهما الطريقة التى يعرف بها الساحر شخصية السارق. وكنت أسمع كلاما كثيرا فى هذا الموضوع لا أصدقه. وفى هذه المرة جاء ذكر فلان الفلانى بوصفه من الذين يقرأون الفنجان ويفتحون المندل، وكان فلان هذا معنا فى الكتاب، بل كان بيتهم القديم لصق بيت خالى على مبعدة أمتار من بيت أبى. وقال لى زوج أختى إنه الآن يبيع الملح على عربة كارو يشدها حمار. وكانت المصادفة فى ذلك اليوم كريمة، فقد أتت به رجلاه يبيع الملح هناك، إذ كان يتنقل فى شوارع القرية شارعا بعد شارع إلى أن يتمها جميعا. فأحضرناه وأخذت أسأله عن الأمر، وهو يشرح لى، ولكنى حين قلت له إننى قد ضاع منى شىء وأريد أن أعرف مَنْ سرقه أحد يتهرب ولم أستطع قط أن آخذ منه" عُقَادْ نافعْ" كما يقول الريفيون. وعبثا قلت له إننى سوف أعطيه من المال ما يرضيه. لكن على من تريد أن تضحك؟ على بائع ملح سرِّيح؟ أما إنك لرجلٌ "نصف كُمّ" حقا!

ومعروف أن كثيرا من النساء اللاتى لا يلدن يذهبن إلى بعض الدجالين ممن يسمون بـ"المشائخ" حتى يحملن، وكثيرا ما تحدث مآسٍ، إذ تحمل الواحدة منهن فعلا، ولكن لا عن طريق الأحجبة والأعمال السحرية كما يظن الأزواج المغفلون، بل عن طريق معاشرة الذئب الدجال بطريقة أو بأخرى للزوجة حين ينفرد بها فى غرفته الشيطانية المظلمة أو عن طريق قطنة مبلولة بماء الدجال يعطيها إياها لتستعملها فتحبل، وأحيانا ما تسكت الزوجة وتترك الأمر يمر حتى لا يطلقها زوجها إذا لم تنجب له، ويظن الزوج أن بركة الشيخ وأعماله السحرية قد حصلت، وها هو ذا الدليل حاضرا أمامه وأمام الجميع، وأحيانا ما ينكشف الأمر ويعرف الناس به وتتحدث الصحافة عنه وتصير فضيحة، ومع ذلك لا أحد يتعظ ويتعلم الدرس بل يظل المغفلون سادرين فى تخلفهم واعتقاداتهم الغبية الإجرامية وتتكرر المأساة من جديد. أما إذا لم تأت النتيجة المطلوبة فالجواب حاضر، وهو أن المواد التى طلبها السادة الجن على لسان المشعوذ الدجال من عُرْف ديك صفته كذا وكذا أو مرارة غراب وحيد أبويه أو رِجْل بومة بنت

أسبوعين أو ريشة هدهد أمه مترملة منذ أربعة أشهر لا تزيد ولا تنقص لم تتوافر فيها الشروط المطلوبة، أو لم تقدَّم فى الوقت المحدد، أو أن التعزيمة لم تُتْلَ على النحو الصحيح، أو أن المكان المعين لم يتم اختياره اختيارا دقيقا، أو أن الجن لم يكونوا راضين لسبب أو لغيره... إلى آخر الأعذار الكاذبة التى لا ينغلق لها باب. فهذا هو السحر، وهذه ثماره السامة.

أما العلم فهناك ما يسمى بـ"الحقن المجهرى"، وكثيرا ما ينجح، وتحمل الزوجة وتأتى الأطفال على النحو الشرعى الحلال عن طريقها هى وزوجها فعلا دون دجل أو شعوذة أو ارتكاب ما يسخط الله سبحانه. ثم يا ترى من الذين اكتشفوا هذا الطريق العلمى الآمن المؤدى إلى حصول الحمل فى كثير من الحالات؟ إنهم العلماء فى الغرب، واكتشفوه بعد تجارب مضنية واجتهادات طويلة مخلصة، والبركة بعد الله فى العقل والعلم والمعامل والأدوية والاختبارات. وكنا نحن المسلمين أجدر أن نكون مكتشفى هذا الطريق، ولكن كيف نأمل فى ذلك، وقد كرهنا العلم وكل ما يتعلق به سوى ما يسمى بـ"العلم الشرعى" عند ضيقى الأفق، مع أن العلم الشرعى هو كل علم تعرفه البشرية ما دام يؤدى إلى حل المشاكل وراحة الناس وتخليصهم من متاعبهم وأمراضهم وتحقيق مطالبهم وإشباع حاجاتهم، وما دام مراعًى فيه أوامر الدين ونواهيه؟ إلا أن المتخلفين يفضلون طريق الدجل والشعوذة تفضيلا عظيما.

ثم أمامى الآن كتاب صدر فى أمريكا عام ١٩١٠م عن السحر بعنوان **"Magic"** لمؤلفه **Ellis Stanyon**، وفيه يشرح الكاتب كيف يمكن أى إنسان تعلم فنون الخداع السحرى بالكف والمنديل والقبعة والكرة وعلى المسرح وفى الجو المعتم... إلخ. أى أن المسالة تعتمد على التعلم أولا، وعلى الخداع ثانيا، وليس فيها جن ولا عفاريت ولا تعازيم ولا رُقًى ولا تغيير لطبيعة شىء على الإطلاق، بل الأمر كله منحصر فى خفة اليد والقدرة على إيهام مَنْ أمامك بأنك تمارس السحر. ومع أنه من الواضح التام الوضوح أن من يدَّعون عمل السحر ليسوا أكثر من كذابين دجالين بدليل أنهم يمدون أيديهم ويأخذون ما يعطيهم إياه الناس من فلوس، ولو كانوا سحرة حقا لاستطاعوا الحصول على ما يريدون من أموال بما يمارسونه من سحر دون أن يحتاجوا إلى ما عند الآخرين، فإن التخلف غرام شديد عند كثير من البشر بحيث إنهم لو انكشفت عن عيونهم وبصائرهم الغشاوة لماتوا أو حُمُّوا فى الحال ولما أفلح معهم طب ولا علاج ولا دواء. وعبثا تقول لهم: ثور، فيأتيك جوابهم فى الحال: احلبوه!

وفى يدى أيضا الآن كتاب للدكتور بول غليونجى اسمه "طب وسحر" يتناول تطور الفكر البشرى من السحر إلى الطب، أو قل: من السحر إلى العلم، ومنه يتبين لنا أن السحر فى البدايات الأولى كان هو العنصر السائد فى الحياة البشرية بل هو الكل فى الكل، ثم كانت بعض لمعات ضئيلة محدودة جدا من العلم تتسلل إلى الميدان على استحياء وضعف وشحوب شديد، ثم تتالت اللمعات شيئا فشيئا، وكلما زادت اتسعت مساحة العلم قلت رقعة السحر

بنفس النسبة... وهكذا حتى صار الغرب اليوم يتنفس علما، اللهم إلا بعض بقايا من التعلق بالسحر بعيدا عن ميدان الحياة العامة بما لا يؤثر على التفكير العلمى ولا يعوقه ولا يفكر فى الحلول محله. وحتى هذه البقايا القليلة يعمل الغرب دائما على أن يتناولها ويتعامل معها تناولا وتعاملا علميا ولا يسلم نفسه إسلاما أعمى غبيا للجهل والاعتقاد فى السحر والخرافة كما نرى فى الشعوب المتخلفة التى لا تريد أن تخرج من بين أطباق الظلام إلى النور والنظافة والعلم والنظام وممارسة الحياة على أساس من قوانين الطبيعة التى أجرى الله كونها على أساسها لا على أساس الخزعبلات التى لا حقيقة لها.

وديننا هو دين العلم بامتياز حسبما وضحت وشرحت وبينت، بل هو الدين الوحيد الذى يقوم على العلم ويدعو إلى احترام العقل وتشغيله والانتفاع بعمله ويحثه على طلب الدليل وإبدائه فى كل نقاش وجدال. فماذا ينتظر المسلمون بعد هذا كله؟ أما إن أمر كثير من المسلمين لعجيب! أيظنون أنهم سوف ينجون وينجحون بما يعشش فى أذهانهم من خرافات وخزعبلات؟ إن التاريخ يقول بملء فمه وبصوته العالى إن كل من تمسك بالخرافات والشعوذات كان مصيره الهوان والضياع، وربما الفناء. إن الحياة لا تهزل ولا تلعب بل هى جِدٌّ مُرٌّ، والعلم هو الأداة الوحيدة للانعتاق من التخلف والضعف والضياع، مع العمل طبعا والاجتهاد فيه وإتقانه والحرص على النظام والتخطيط، وقبل ذلك كله الإيمان بالله واستمداد العون منه والإيمان بأن العقل الذى وهبه سبحانه وتعالى لنا إنما وهبه لنشغِّله ونستعمله لا لنخلعه ونرمى به فى غرفة الكرار أو فى أكوام الزبالة، وإلا فإن الحساب سيزداد عسرا وعناء لا فى الدنيا فقط كما نرى ونقاسى بل فى الآخرة كذلك. إن المسلمين الذين يتمسكون بالخرافات والخزعبلات إنما يسيرون عكس تيار الحياة، فالتاريخ يخبرنا أن العلم كان ينسخ السحر قليلا قليلا حتى صارت له السيادة الآن، لكن أولئك المسلمين يقلبون الأوضاع رأسا على عقب بعملهم على إحلال السحر محل العلم. إن هذه ردة حضارية وثقافية وقبل ذلك: دينية. إنها ضد الإسلام كما نعرفه من كتاب ربنا جل وعلا وسنة نبينا ﷺ.

وتحت عنوان "نوربوتشن المعالج ذو الأصابع المعجزة!" وبضعة عناوين أخرى تالية له كتب د. عبد المحسن صالح فى الفصل الأول من كتابه: "الإنسان الحائر بين العلم والخرافة" ما نتبين منه أن كل ما يقال عن السحر ونجاعته فى تحقيق المراد منه مجرد كلام فارغ لا حقيقة له، ودجل كاذب لا يعرف الحياء. قال رحمه الله: "ومن المعالجين الروحانيين الذين لهم شهرة طبقت الآفاق يبرز رجل مكسيكى الأصل يدعى: تشارلز ألكسندر، لكنه غير اسمه إلى نوربوتشن ليصبح الاسم ذا جاذبية وغموض. ويقطن تشن فى قصر تحيط به حديقة تبلغ مساحتها ثمانية أفدنة، ويقع القصر فى هيوستون بالولايات التحدة، ويبلغ دخله اليومى أكثر من ألفى دولار. ويعالج، على حد زعمه، أربع حالات فى اليوم الواحد. ويتلخص علاجه فى

قوة غامضة تخرج من يديه لتحل بالمريض وتطرد المرض أيا كان نوعه وشدته. وسنتعرض لطبيعة هذه القوة فيما بعد.

ولقد كان نوربوتشن مغمورا لعدة سنوات، ثم جاءت شهرته وذاع صيته على يدى رجل الفضاء الكابتن إدجار ميتشل الحاصل على درجة دكتور فى العلوم والذى كان سادس إنسان مشى على سطح القمر، لكن ميتشيل هجر العلم وزج بنفسه فى هذا العالم الأسطورى الغامض، فهو يعتقد اعتقادا راسخا فى تلك الأوهام التى يطلقون عليها: العلاج الروحى والجراحة الروحية ونقل الأفكار عن بعد من شخص إلى شخص آخر (التخاطر أو التليباثي) وتحريك الأشياء أو إيقاف الآلات المتحركة بمجرد تركيز النظر عليها. ويؤمن مثلا بقدرة شاب يدعى: يورى جيللر، وسوف نتعرض لقدرات جيللر فيما بعد، على الإتيان بالمعجزات والذى قال عنه إن جيللر يستطيع تجسيد الأشياء من لاشيء وإنه شاب معجزة... إلى آخر هذه الأمور التى حققها العلم وأثبت زيفها! وهو أيضا دكتور إدجار ميتشيل رجل الفضاء السابق الذى نصح دكتور نولين الطبيب والجراح بضرورة الاتصال بنوربوتشن للاطلاع على معجزاته الشافية. صحيح أن هناك معالجين روحانيين كثيرين ينتشرون فى الولايات المتحدة الأمريكية، لكن تشن قد بزهم جميعا. وهو لهذا يستحق التأمل والدراسة!وذهب نولين إلى تشن فى بيته المنعزل، فوجده رجلا فى العقد الخامس من عمره. ومن طريقة كلامه وحواره أحس نولين بأنه شخص بذيء ومتعجرف وشديد الغرور وسريع الغضب عندما يوجَّه إليه سؤال لا يعجبه. فكأنما هو يعرف كل شيء، وغيره من العلماء والأطباء والمثقفين لا يعرفون شيئا رغم أنه يتكلم اللغة الدارجة أو لغة السوقة. ولهذا بدأ نولين يعامله بمنتهى الحرص والحذر حتى يأمن عدم طرده من البيت.

ولقد وجد دكتور نولين فى بيت تشن أحد علماء البيولوجيا، وهو دكتور هويل كوب من جامعة تكساس مع إحدى مساعداته. ولقد جاءا ليدرسا قدرة تشن على العلاج الروحى مستخدمين فى ذلك عددا من الفئران التى كانت تحقن بخلايا سرطانية ثم تتعرض لقدرات تشن الغامضة علها توقف نشوب السرطان فى الفئران. هذا، وتقوم "المؤسسة العلمية لدراسات العقل" بتمويل هذا البحث والإشراف عليه. ولقد أصدرت هذه المؤسسة تقريرا فى ٢٦أبريل عام ١٩٧٤ بأن نتائج التجارب التى أجريت على الفئران ليست مقنعة تماما لإظهار قدرات تشن العلاجية. ومن المناقشات الحذرة التى دارت بين نولين وتشن يتبين أن هذا المعالج الروحى قد اكتسب هذه القدرات الخارقة من التبت، التى سافر إليها من عدة سنوات حتى أصبح مهيأ للعلاج من خلال القوى الكامنة فى الطريقة، وهى طريقة معلمه وشيخه اللاما. وابن الطريقة عندنا تلميذ لأحد أقطاب الصوفية.

ولقد قضى تشن ثلاث سنوات فى التبت حتى أصبح مهيأ لهذه الرسالة وليكون من أهل الطريقة. ولكى يتهيأ فلا بد من أن يقضى حوالى سنة فى كهف معزول عن العالم ودون أن يلبس شيئا إلا ما يستر عورته فقط. هذا بالرغم من أن درجة الحرارة فى مرتفعات التبت قد تنخفض شتاء إلى ما يقرب من عشرين درجة مئوية تحت الصفر. طبيعى أن الإنسان العريان لا يمكن أن يعيش عند هذه الدرجة. كما أنه لم يكلم أحدا ولم ير أحدا طوال هذه المدة. وكان يمتنع عن الطعام لمدة ثلاثة أيام. فإذا جاءه جاء على هيئة وجبة خفيفة. أما الماء فقد تكفل به ينبوع صغير فى الجهة المقابلة من الكهف. وبعد مروره بهذا الاختبار القاسى يخرج من كهفه ويكون مهيأ لتلقى أصول الطريقة. ومن الاختبارات القاسية والمفزعة التى يجب أن يمر بها تلميذ اللاما اختبار "الرولانج"، وفيه يأتون بجسد إنسان مضى على موته سبعة أيام (ولا ندرى إن كان الجسد قد تحلل وتعفن بعد هذه الأيام السبعة أم لا يزال على حاله!)، وعلى ابن الطريقة أن يرقد على هذه الجثة العارية ويحتضنها ثم يضع شفتيه على شفتيها. وعندئذ تعود الجثة إلى الحياة وتُبْعث بعد موتها (هكذا!)، وتقوم منتصبة لترقص وتقفز وتدور. وعلى تلميذ اللاما ألا يدعها تفلت من بين ذراعيه. وعليه أيضا أن يحتفظ دواما بشفتيه على شفتيها. وبعد فترة قد تقصر أو تطول تدفع الجثة الحية لسانها داخل فم من يراقصها. وعندئذ لابد أن يقضم لسانها. وبعد برهة تسقط الجثة جثة هامدة على الأرض ويحتفظ ابن الطريقة بلسانها، فهو صك مروره إلى عالم المعجزات وشفاء الأمراض. ولكن عليه أن يتعلم المزيد من معلمه ليصبح مهيأ لذلك!

هذا ملخص القصة التى سمعها دكتور نولين من نوربوتشن أو دكتور تشن كما يحلو لبعض من حوله أن ينادوه بهذا اللقب. ويذهب ذلك الرجل فى خزعبلاته وخيالاته إلى أبعد من ذلك ويشير إلى صورة قميئة مطرزة على قماش الكانافا تشبه مخلوقا بشعا نصفه آدمى ونصفه حيوانى، ويذكر أنه باستطاعته أن يركز بصره على تلك الصورة المعلقة، وعندئذ يبرز منها هذا المخلوق ويتحول من صورته الجامدة إلى كائن حقيقى يتحرك أمامهم فى الحجرة. وعندما رأى تشن الدهشة وعدم التصديق على وجه نولين قال: إننى متأكد من أننى أستطيع أن أفعل ذلك. ولكننى لن أفعل ولن أطلعك كذلك على الألسنة التى قطعتها من الجثث التى كنت أراقصها.

لقد قدمنا مقتطفات مقتضبة من هذا الهراء الذى لا يستقيم مع أبسط مبادئ العقل أو المنطق لتحكم عليه بنفسك. فكأنما هذا الرجل الشاذ يريد أن يوهم الناس أنه يستطيع أن يعطل الشرائع الطبيعية ويتحكم فى القوانين الكونية ويأتى بما لم يأت به الأنبياء والرسل! وهو بهذه الصفات الممقوتة لا يستحق دراسة، ولا يمكن لصاحب عقل رزين أن يستمع إليه أو يأخذ كلامه على محمل الجد. ومع ذلك ترى واحدا مثل رجل فضاء صعد إلى القمر يعتقد فيه

وفى معجزاته ويصبح أعظم الأبواق دعاية له ولمنجزاته. ومع ذلك فقد صبر عليه دكتور نولين على مضض، فهو يريد أن يصل معه حتى النهاية. فكل همه أن يرى بعينيه كيف يمارس مقدرته الخفية فى شفاء الناس من معظم الأمراض. فهو الذى يزعم على سبيل المثال أن نتيجة الشفاء فى مرضاه أعلى بكثير من النتائج التى يحققها أبرع الأطباء. فهو يدعى أن نتائج الشفاء من أمراض الكلى تصل إلى ٩٥% من كل الحالات التى يعالجها، و٩٠ % مع مرضى القلب. وفى تيبس المخ أو تصلبه فإن أكثر من ثلث مرضاه يُشْفَوْن من هذا الداء الذى حار فيه كل الأطباء. وفى حالات السرطان المبكرة فإن نتيجة الشفاء تصل إلى ٨٧%. لكن دكتور نولين كان على ثقة فى أن تشن كان يعطى هذه الأرقام جزافا. ولقد تأكد من ذلك بعد أن اختلس نظرة سريعة إلى المفكرة التى كان تشن يحتفظ فيها بأسماء مرضاه وبعض عناوينهم دون أن يكلف نفسه بتوضيح مرض كل مريض حتى يستطيع أن يقدر نسبة الشفاء من كل مرض.

قدمنا ما قدمناه عن شخصية هذا المعالج الروحى ليكون كل شىء واضحا منذ البداية. لكن طريقته فى العلاج أغرب من ذلك وأكثر سخرية: فالحجرة التى يقوم فيها بعلاج مرضاه تضيئها بعض شموع خافتة بحيث تبدو أقرب إلى الظلام منها إلى النور. وفى الحجرة تنطلق روائح نفاذة من البَخُور. وعلى جدران الحجرة تتعلق ستائر منقوشة بلون أحمر داكن. وفى أحد أركانها قطعة من الأثاث تشبه مذبح الكنيسة، وفوقها تمثال لبوذا. وفى وسطها توجد منضدة ينام عليها واحد من مرضاه. وعندما يبدأ العلاج يتوجه إلى المذبح ويقف أمامه ثم يمد ذراعه ويبدأ فى العواء كالذئب، ويستمر على هذا الحال حوالى دقيقة، وبعدها يلتقط جرسين موضوعين أمامه على المذبح ويلوح بهما فوق رأسه فى حركات تبادلية ثم يبدأ فى عواء أكثر شدة. وبعد حوالى خمس دقائق يعود إلى المريض الممدد ويمد أصبعه أو يده أو كلتا يديه إلى الجزء المريض من جسمه ثم يعود إلى المذبح ويرنو إليه ببصره بضع ثوان ثم يعود إلى المريض ويشير إليه بيديه... وينتهى كل شىء فجأة. ويأمر المريض بأن يغادر المنضدة، فهذا هو علاجه المرتقب.

وينطلق تشن بعد ذلك إلى حجرة مجاورة ليغير رداءه الكهنوتى ذا اللون البنى الغامق ويخلع قلادة معلقة فى رقبته، ثم يعود وقد ارتدى ملابسه التقليدية. ويفسر تشن هذا السلوك الغريب بتفسير أغرب، فهو يزعم أنه يركز كل طاقته الروحية أمام المذبح ثم يعود بها لتنطلق من خلال أصابع يديه لتضرب المرض فى بقعة محددة، وبهذا يحل الشفاء. وعندما استفسر منه دكتور نولين عن طبيعة هذه الطاقة التى تترك جسده فى دفقة قوية واحدة أجاب تشن بلهجة لاذعة بأن ذلك لا يعنيه. إنما تعنيه فقط النتائج. ثم إن هذا الأمر سر من أسرار الطريقة التى تعلم أصولها فى التبت. وأنت تستطيع أن تشتمَّ من هذه الإجابة كيف يراوغ

تشن ويداور. فعندما يوجه إليه سؤال فى الصميم فإنه يتهرب من الإجابة بوسائل شتى. وفى الأيام الأربعة التى قضاها دكتور نولين ضيفا فى منزل تشن ليدرس عن قربٍ وسائله فى العلاج لم يمكِّنه تشن من ذلك واعتذر قائلا: إننى غير مستعد لعلاج أى إنسان هذا الأسبوع. أضف إلى ذلك أننى أبغض كل من جاء ليراقبنى أثناء علاج مرضاى. فهل أنت تحب الناس وقد جاءوا ليراقبوك أثناء إجراء العمليات الجراحية؟

إن المرة الوحيدة التى رأى فيها نولين هذا المشعوذ وهو يقوم بطقوس العلاج الروحى كانت على الفئران والتى سبق أن ألمحنا إليها. وهى لا تختلف عن الطقوس التى يجريها على المرضى. أى أنه يلبس رداء كهنوتيا ويتوجه إلى المذبح ويعوى كالذئب ثم يعود إلى المريض ليفرغ فيه طاقته الروحية الشافية من خلال أصابعه، فتطرد المرض بعد فترة قد تطول أو تقصر. ومع ذلك فقد سمح تشن للدكتور نولين بأن يحمل معه بعض عناوين المرضى الذين تم شفاؤهم على يديه. وهنا يبدأ دور التحريات الطبية". وقد تحرى دكتور نولين حالات ستة مرضى من الذين زعم تشن أنهم قد شفوا على يديه، واتضح له أن كل ما قاله هذا الدجال كذب فى كذب.

والآن لماذا يرانى القارئ مستميتا فى نفى السحر؟ الواقع أن هناك أسبابا متعددة نقتصر منها هنا على الآتى: فأولا لا يشيع الإيمان بالسحر إلا فى البيئات المتخلفة، أما الشعوب المتقدمة فلا تشغل أنفسها ولا تستعين به فى أى أمر من أمورها حسبما قلنا آنفا. وهذا دليل قاطع على سخف هذا الاعتقاد. سيقول معظم المسلمين: لكن السحر موجود فى القرآن. وجوابى هو هو ما قلته قبلا: نعم، السحر موجود فى القرآن، لكن بمعنى غير المعنى الذى يعتقده العوام وأشباههم من المتعلمين الذين لم ينجِّرهم التعليم فظلوا بالجلخ الذى أتوا به من بيئاتهم المتخلفة لم يتصنفروا. وسوف أوضح هذا بعد قليل. الشىء الثانى هو أنه لو كان السحر، على النحو الذى تفهمه العامة وأشباه العامة، صحيحا لعاش الناس جميعا فى بُلَهْنِيَةٍ من العيش ونغنغةٍ لم يحلم بها إنسان قط. كيف؟ كلما أراد الواحد منا شيئا فما عليه إلا إخراج التعزيمة الخاصة بذلك الشىء ويرددها مستعينا بشمهورش وأقاربه وذريته، فيأتونه فى الحال ويحققون له ما يريد أيا كان هذا الذى يريد: طعاما أو لباسا أو مسكنا أو شفاء من مرض أو حصولا على سلطان... إلخ إن كان لذلك من آخر. لكننا ننظر فنجد السحرة لا يعيشون بالتعازيم بل بالضحك على ذقون المتخلفين، وما أكثرهم بحمد الله فى بلاد العالم الثالث، ومنها بلاد العرب والمسلمين! وبطبيعة الحال سوف يتقدم لى فلحاس من الفلاحيس قائلا فى تحدٍّ: طيب، وماذا يفعل المعزِّم، حين تصير الحياة سهلة إلى هذا الحد، مع من يريد إيذاءه بالسحر؟ والرد من أيسر ما يمكن، إذ ما عليه إلا أن يستخرج من عُبِّه تعزيمة إيقاف السحر وإبطال أذاه ويستخدمها فلا يقع به شىء من الضرر. وهذا مثل القبة الحديدية التى تتصدى للصواريخ

المصوبة على بلد ما فتعترضها فى الجو وتسقطها قبل وصولها إلى هدفها. وكما أن هناك ردعا نوويا فبحمد لله سيكون عندنا ردع سحرى، وتتعادل الكفتان: كفة الآذِى وكفة المأذىّ، فلا معتدٍ ولا معتدًى عليه، ويعيش الطرفان فى وئام وسلام لا عن حب بل عن ردع.

وثالثا إذا فتشنا القرآن الكريم من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله فلن نجد دعوة إلى الاستعانة بالسحر بتاتا بل بالعلم. وفوق هذا فالقرآن، على العكس، إنما يحقر من شأن السحر ويؤكد أنه باطل وأنه لا قيمة له وأنه لا يضر بشىء، وأن القيمة كلها للعلم والعلماء. لكن كثيرا من المسلمين قلبوا الآية وصاروا يكرهون العلم ويتمسكون بالسحر، وحجتهم أن السحر قد ورد فى القرآن، ولا يريدون أن يفهموا أن القرآن لا يمكن أن ينزل إلى مستواهم المتخلف، ومن ثم لا يمكن أن يكون معنى السحر فى القرآن هو معناه فى أذهانهم الخربة. أى أنهم فى الوقت الذى يتوهمون أنهم متمسكون بدينهم يكونون فى الواقع مهملين له واقفين منه موقفا عدائيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهيهات ثم هيهات! والعجيب المريب فى الأمر أن من يرددون دائما أن السحر مذكور فى القرآن لا يخطئون قط فيقولوا إن العلم مذكور فى القرآن مرارا وتكرارا وإن الله قد رفع أهله فوق غيرهم درجات.

ورابعا فإن الأمم التى تقدمت وصارت تعيش فى رفاهية ونظافة وملابس لائقة جميلة ونظام حياتى مريح وتعليم متقدم الشَّأْو ومصانع وشركات تنتج حاجات البلاد والعباد ومستوًى من المعيشة راقٍ وحرية وشورية وعدل وتعاون وتفاهم واحترام للقانون وتأمين صحى شامل وارتفاع فى متوسط العمر وشوارع ممهدة وأرصفة سليمة واسعة عريضة وغير ذلك مما نراه ونسمع عنه، هذه الأمم إنما صارت إلى ما صارت إليه جراء اعتمادها فى كل أمورها على العلم واتخاذها له منهج حياة لا تعرف غيره من أمور الهلس والتخريف التى تعيش عليها شعوب العالم المتخلف فتشقى فى كل أحوالها وتعانى الأمرين على نحو لا يبشر بأى أمل وتقاسى عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

وخامسا فإن الله قد أقام كونه على نظام وقوانين مطردة، ولا يستطيع اكتشافَ هذه القوانين ومعرفةَ طرق استغلالها لخدمة البشرية إلا العلماء، وهو ما تفعله الدول المتقدمة كما أشرنا ووضحنا من قبل. أما الساحر فيزعم أنه يصل إلى مبتغاه بالقفز فوق القوانين الكونية، وهذا أمر مستحيل، وإلا لكانت البشرية تعيش فى نغنغة لا يمكن تخيلها، وبدون أدنى تعب أو جهد. نعم ليس من المعقول أن يُجْرِىَ الله سبحانه كَوْنَه على قوانين منضبطة، ثم يأتى الساحر فيفسد كل هذا وينجح فى نيل مبتغاه على عكس ما يريد الله منا، إذ يأمرنا ربنا تبارك وتعالى دائما بالعمل ثم العمل ثم العمل مع مراعاة الميزان، أى القانون، ونبذ السحر، وإلا كفرنا به وبأوامره وقوانينه وموازينه. فلنغلق إذن المدارس والجامعات والمعامل ونسرح العلماء ونستبدل

بهم السحرة ونجعلهم مرشدينا وهداتنا فى جميع أمور حياتنا حتى نوغل أكثر مما قد أوغلنا حتى الآن فى التخلف والجهل الغليظ والفقر الأكيد والغضب الإلهى المبير.

إن العوام يظنون بجهلٍ أن السحر قادر على تحقيق العجائب مع أننا لم نر ولا رأى غيرنا ساحرا يصنع أية عجيبة. نعم هناك كلام فى "ألف ليلة وليلة" وما يشبهها من القصص عن "البلورة المسحورة" وعن "بساط الريح" وما إلى ذلك، لكن هذه مجرد أوهام وتطلعات ليست لها حقيقة فى الواقع، أما الآن فقد اخترع العلمُ المرناءَ، الذى نرى فيه كل ما يقع فى العالم فى التو واللحظة على تنائى المسافات والأبعاد حتى لو كان الحدث يقع فوق سطح القمر، واخترع المُنْطَاد ثم الطائرة ثم سفينة الفضاء، واخترع الغواصات والمشباك والكاتوب وجعل الأصم يسمع، وسوف يجعل الأعمى يبصر، وكله بفضل الله سبحانه خالق العقل، الذى يستطيع ذلك كله وأكثر من ذلك كله. أما السحرة فناس جهلة أغبياء متخلفون كذابون لا يخدعون إلا الأغرار الساذجين الذين يستحقون الخداع والتضليل لأنهم لا يريدون أن يخرجوا من الظلام والجو العفن إلى النور والهواء الطلق النقىّ.

وأعجب من هذا كله أن المؤمنين بالسحر بمعناه عند العامة يؤكدون أن الإيمان به جزء من العقيدة وأن إنكاره إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة. ترى أَوَلَوْ أنكرتُ أن يكون الناس يسكنون فى بيوت أأكون قد أنكرت معلوما من الدين بالضرورة ما دام القرآن قد ذكر أن الناس تسكن فى بيوت؟ إن مثل تلك الأمور إنما تدخل فى باب الصواب والخطإ المعرفى ليس إلا، ولا صلة بينها وبين الإيمان. ذلك أن الإيمان هو أن نؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، ولا يدخل فى ذلك السحر حتى لو كان السحر يغير طبيعة الأشياء كما يتوهم العامة وأشباه العامة.

ومع ذلك كله فلا يزال هناك حتى الآن من يؤمن بأن السحر يغير طبيعة الأشياء ويحول الرجل إلى امرأة! وقد قرأت لتوى الخبر التالى فى جريدة "إِرَم" الضوئية بتاريخ وتحت عنوان "خليجى بالإمارات يحاول حرق جدته لمنعها من تحويله إلى أنثى": "خفضت محكمة استئناف أبو ظبى مدة حكم قضائى كان قد صدر بحق خليجى تسبب عمدا بإشعال النار فى جدته بقصد قتلها، من السجن ٥ سنوات إلى ٣ سنوات وإلزامه بدفع ٥٠ ألف درهم (١٣٦٠٠ دولار) للمجنى عليها، فضلا عن دفع رسوم القضية. وبحسب تفاصيل المحاكمة فقد اعترف المتهم بأنه كان يحاول الانتقام من جدته بسبب كثرة مشاكلها معه، وتهديدها الدائم له بمعاقبته بالسحر لتحويله من رجل إلى امرأة، وهو ما دفعه للقيام بوضع عدد من أسطوانات الغاز مختلفة الأحجام داخل سيارته، وأقنع جدته بالذهاب معه لشراء هدية لها.

وبحسب ما جاء فى التحقيقات توجه الجانى بجدته إلى منزله القديم فى الوثبة، ووضع فى المركبة ولاعة بخور، وغادر المركبة قبل اشتعالها بدقائق، لكنه عاد سريعا بعد الاشتعال نتيجة

ارتفاع صوت جهاز إنذار السيارة، إذ خاف من حضور الجيران، فقام بإخراج جدته من السيارة. وقال تقرير الطب الشرعى: إن الجدة عانت من حروق من الدرجة الثانية والثالثة فى وجهها وأذنيها ورأسها وعنقها وظهرها وأصابعها. وكانت الحروق تغطى **٢٥** فى المائة من جسدها".

وتبقى آيتا سورة "البقرة" اللتان يتخذ منهما كثير من المسلمين متكأ للتدليل على أن للسحر حقيقة ولم يتوقف إزاءهما الشيخ الغزالى للأسف على رغم أهميتهما البالغة، وهما قوله تعالى: "ولما جاءهم (أى اليهود) رسول من عند الله مُصَدِّقٌ لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتابَ كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون * واتَّبَعوا ما تتلو الشياطينُ على مُلْك سليمان. وما كَفَرَ سليمان، ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناسَ السحر. وما أُنْزِل على المَلَكين ببابل: هاروت وماروت. وما يعلِّمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة، فلا تكفرْ. فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه. وما هم بضارِّين به من أحد إلا بإذن الله. ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لَمَنِ اشتراه ما له فى الآخرة من خَلاق. ولَبِئْسَ ما شَرَوْا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون". وها هو ذا تحليلى لهما.

وأول شىء أحب أن أقوله هو أن الواو المشار إليها فى الآية الثانية منهما هى واو استئناف، والكلام بعدها يؤكد أن السحر الذى كانت الشياطين تعلمه الناس ليس مما أنزل على هاروت وماروت، وأن هاروت وماروت لم يكونا ملكين، فليست هذه وظيفة الملائكة، بل كما قال بعض المفسرين إنها كلمة مدح مثلما نقول الآن عن شخص كريم الأخلاق يحب الخير للناس ولا يفكر فى أذاهم ويسارع دائما إلى معونتهم: إنه ملاك. وهما لم يكونا يعلمان الناس السحر الذى كانت تمارسه تلك الشياطين بل كانا يشرحان للناس حقيقة ذلك السحر وما ينطوى عليه من خداع وأوهام ورُقًى وعزائم تُوهِم الأغرارَ أنها لغة الاتصال بالجن والشياطين، ويحذرانهم الافتتان بمعرفة ألاعيب السحرة، وبدلا من اجتنابها يمارسونها. هذا ما أفهمه من الآية فى ضوء حكم القرآن على السحر بأنه باطل ولا حقيقة له وأنه مجرد تخييل وإيهام للعيون. ولا ريب أن اليهود وصحابة النبى كانوا يفهمون هاتين الآيتين على وجههما الدقيق لأنهما تتحدثان عن أمر رأَوْه وعايشوه، وكانوا يعرفون كثيرا جدا مما يتصل باليهود وأنشطتهم وألاعيبهم. وبالمناسبة فلم نسمع أن اليهود فى عصر النبى قد فرقوا بين مسلم وزوجته قط. بل حتى فى رواية سحر النبى لم يفعلوا ذلك.

والمسلمون الذين يعتقدون أن للسحر تأثيرا فى المستهدَف به يعتمدون على قوله تعالى فى هذا النص: "فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه" أى من الملكين اللذين كانا يعلمان الناس ما أُنْزِل عليهما حسب فهمهم. لكن كيف يعلِّم الملكان الناس شيئا شريرا ثم يقولان لهما: نحن فتنة، فلا تكفر؟ ترى لماذا نزل عليهما ما يثير الفتنة أصلا؟ وهذا التفريق بين

المرء وزوجه ما طبيعته؟ هل هو التعازيم والرُّقَى؟ أم هل هو الإيقاع بينهما وإشعال نار الشك فى نفسيهما؟ وهل يمكن أن يكلَّف مَلَكان بمثل ذلك الأمر؟ ولماذا نزل عليهما هذا أصلا ما داما يحذّران الناس ممارسته؟

ليس ذلك فقط، إذ الملائكة لا يَنْزِل عليها شىء بل يكلفها الله سبحانه بالنزول بالشىء على من يشاء من البشر. قال تعالى فى الآية السابعة والتسعين من سورة "البقرة": "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ". وقال سبحانه فى أول سورة "النحل": "يُنَزِّل الملائكةَ بالرُّوح من أمره على من يشاء من عباده". وقال فى الآيتين ١٠١– ١٠٢ من ذات السورة: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ". وقال ﷻ فى أواخر سورة "الشعراء": "نَزَل به الروحُ الأمين * على قلبك لتكونَ من المنذِرين * بلسانٍ عربىٍّ مُبِينٍ". وقال فى الآية الثلاثين من سورة "فُصِّلَتْ": "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ". وقال تعالى جَدُّه فى مفتتح سورة "النجم" دفاعا عن رسوله عليه السلام ونزول جبريل عليه بأوائل الوحى: "وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْى يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى". وقال فى سورة "القدر" عن ليلة القدر: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ".

أى أن الوضع قد انقلب، وعوضا عن تنزيل الله الملائكةَ على البشر بشىء نراهم هنا ينزل عليهم هم أنفسهم شىء. وأى شىء؟ السحر نفسه ولا شىء غير السحر. ليس ذلك فحسب بل إذا أخذنا الكلام فى الآية على ظاهره كما يريدنا معتقدو السحر بالمعنى العامى فمعنى هذا أن الملكين كانا يعيشان فى بابل كما يعيش البشر ويخالطان الناس هناك ويعلمانهم، ولعله كانت لهما مدرسة يقصدهما البابليون فيها ليتعلموا على أيديهما السحر. وهذا من أعجب العجب! وبذلك يتحول الإسلام من دين حضارى عظيم يدعو أتباعه إلى طلب العلم بل يفرض السعى لتحصيله عليهم فرضا ويأمرهم أمرا بنبذ الخرافات وتشغيل العقل واحترام المنطق العلمى والاجتهاد فى اكتشاف قوانين الكون واتباعها من أجل إحراز القوة والتقدم والرخاء والتمتع بنعم الله عز وجل وخيراته ويكفّر من يؤمن بالسحر والساحرين إلى دين يرى كثير من معتنقيه من العوام الجهال وأشباههم من كل الطبقات والبيئات أنه يرسّخ الإيمان بالسحر ويؤكد أن له تأثيرا فى النفوس.

وهناك حديث عن هاروت وماروت فى "صحيح ابن حبان" يجرى على النحو التالى: "إنَّ آدَمَ لَمَّا أُهبِط إلى الأرضِ قالتِ الملائكةُ: أَىْ ربِّ، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ قَالَ: إِنِّ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (البقرة/٣٠). قالوا: ربَّنا، نحنُ أطوعُ لك مِن بنى آدَمَ. قال اللهُ لملائكتِه: هلُمُّوا ملَكَيْنِ مِن الملائكةِ، فننظُرَ كيف يعمَلانِ. قالوا: ربَّنا، هاروتُ وماروتُ. قال: فاهبِطا إلى الأرضِ. قال: فمُثِّلتْ لهم الزُّهَرةُ امرأةً مِن أحسَنِ البشَرِ، فجاءاها فسأَلاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتَّى تَكَلَّما بهذه الكلمةِ مِن الإشراكِ. قالا: واللهِ لا نُشرِكُ باللهِ أبدًا. فذهَبَتْ عنهما ثمَّ رجَعَتْ بصبى تحمِلُه، فسأَلاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتَّى تقتُلا هذا الصبى. فقالا: لا واللهِ لا نقتُلُه أبدًا. فذهَبَتْ ثمَّ رجَعَتْ بقَدَحٍ مِن خمرٍ تحمِلُه، فسأَلاها نفسَها، فقالت: لا واللهِ حتَّى تشرَبا هذا الخمرَ. فشرِبا فسَكِرا فوقَعا عليها وقتَلا الصَّبى. فلمَّا أفاقا قالتِ المرأةُ: واللهِ ما ترَكْتُما مِن شيءٍ أبَيتُما إلَّا فعَلْتُماه حينَ سكِرْتُما. فخُيِّرا عندَ ذلك بيْنَ عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، فاختارا عذابَ الدُّنيا".

وواضح أن حكايتهما فى الحديث تختلف تماما عن حكايتهما فى النص القرآنى المذكور أعلاه، إذ لا علاقة لها بالسحر ولا بالتفريق بين المرء وزوجه أيا كان معنى هذا التفريق وأيا كانت وسائله. بل إنها لتختلف أيضا عما تقوله آيات سورة "البقرة" فى موضوع خلق آدم ليكون خليفة فى الأرض. ذلك أن انتقاد الملائكة فى القرآن لآدم بأنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء بينما هم يسبّحون دائما بحمد ربهم ويقدسون له، هذا الانتقاد قد انتهى بأن بين الله لهم أن آدم مزود بموهبة الاستعداد للتعلم واختراع اللغة، التى يَعْرَوْن هم عنها، ثم أراهم سبحانه وتعالى تلك الموهبة، فرجعوا عن انتقادهم لآدم فى الحال وأقروا بأنهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك الجانب فى شخصيته شيئا، وتغيَّر موقفهم منه تغيرا جذريا حتى إنهم بعد ذلك حين أمرهم ربهم بالسجود له سارعوا إلى السجود دون إبطاء. وانتهت المسألة عند هذا الحد فى السماء فلا نزول إلى الأرض ولا بابل ولا امرأة تدعو إلى المعصية ولا شرك ولا زنا ولا خمر ولا قتل ولا يحزنون، علاوة على أن قصة الملائكة وآدم فى القرآن كانت فى بداية خلق الإنسان يوم لم يكن هناك سوى آدم أو آدم وحواء على أكثر تقدير، أما فى الحديث فهناك بشر على الأرض، وزنا يمارَس، وخمر تُشْرَب، وأطفال يُقْتَلون، وشِرْك يُرْتَكَب. فكيف نقبل حديثا يتناقض مع القرآن المجيد هذا التناقض الذى لا تمكن إزالته؟

ثم أين باب التوبة، الذى لا يغلقه الله أبدا فى وجه عباده، وبخاصة أن هاروت وماروت حاولا مرارا تجنب الوقوع فى الشرك والقتل إلى أن شربا الخمر بعد إلحاح من الزهرة، فاجترحا الفاحشة والقتل وهما غائبان عن الوعى، فلا ذنب لهما فى ذلك، إذ لم تكن الخمر قد حرمت فى ذلك الوقت المبكر فى فجر التاريخ الإنسانى. وحتى لو حرمت فكيف كان بمستطاعهما

معرفة أنها حرام وأنها تسكر وأنهما عند السُّكْر يمكن أن يرتكبا ما تجنبا الوقوع فيه؟ كما يبدو غريبا أشد الغرابة أن يعاقَب المسكينان وتُتْرَك المحرِّضة على الفحش والإجرام فلا تؤدَّب ولو بكلمة تقريع. وقبل ذلك من يا ترى اللذان عوقبا من هاروت وماروت؟ أهما الملاكان؟ لا طبعا لأنهما لم يعودا ملاكين. أم هما الإنسانان؟ فما ذنب الملاكين إذن حتى يختفيا من صفحة الوجود حين ظل هاروت وماروت الإنسانان على الأرض ولم يرجعا إلى السماء مَلَكين مع الملائكة من جديد؟

لا بل كيف يعاقَب هاروت وماروت، ولم ينزلهما الله إلى الأرض لكى يتحملا المسؤولية ويعاقبا إن أخطآ، بل أنزلهما ليقتنعا بأن الإنسان معذور فى ارتكابه الأخطاء؟ وعلى هذا كان المتوقع والمفهوم أنهما، بعدما يقتنعان بذلك نتيجة لمرورهما بالتجربة الإنسانية، سوف يعودان من حيث أتيا وقد تعلما الدرس الذى كانا يجهلانه ويبلغانه لسائر الملائكة. لكن ما حدث فى الواقع أمر غير مفهوم. ويزيد الأمر غرابة أنهما لم يقررا من تلقائهما النزول إلى الأرض بل إن زملاءهما من الملائكة هم الذين اختاروهما للقيام به نيابة عنهم، فانصاعا وأطاعا، فكان ما كان. كذلك فالعقوبة التى نالاها عقوبة غريبة من كل الوجوه: فأولا لم نسمع باستمرار عقوبة أى شخص من لحظة ارتكابه الجريمة حتى يوم القيامة لأنه لا يعقل أن يعيش أى شخص إلى قيام الساعة. بل إن هناك حديثا آخر أورده ابن كثير فى تفسيره مُفَادُه أن هاروت وماروت قد عوقبا بالتعليق من قدميهما وتنكيس رأسيهما فى فوهة بئر من النار حتى يوم البعث، مما كان ينبغى أن يكون حديث الناس جميعا ومثارا للفضول والدهشة ومزارا للفرجة والتسلية وفرصة لأن يكسب إخواننا فى العراق المليارات من ورائه بما فى ذلك الصور التى سوف يحرص السياح على التقاطها "سيلفى" مع ذينك المسكينين فى وضعهما العجيب وحالهما الذى يصعب على الكافر. لكننا لم نسمع شيئا من ذلك. بل إن بقاء الشخص المعاقَب على هذا الوضع لا يمكن أن يستمر أكثر من ساعات بعدها يموت كما هو معروف، بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يعيش طويلا بدون طعام وشراب.

وهذا هو الحديث الذى أورده ابن كثير، وهو من رواية مجاهد بن جبر المكى: "كُنْتُ نازِلًا على عَبْدِ اللهِ بنِ عمرَ فى سفرٍ، فلمَّا كان ذاتَ ليلةٍ قال لِغُلامِهِ: انْظُرْ. طَلَعَت الحَمْرَاءُ؟ لا مرحبًا بِها ولا أَهْلا ولا حَيَّاها اللهُ! هى صاحبَةُ المَلَكَيْنِ. قالتِ الملائكةُ: يا رَبِّ، كَيْفَ تَدَعُ عُصاةَ بَنِى آدمَ وهُمْ يَسْفِكُونَ الدَّمَ الحَرَامَ ويَنْتَهِكُونَ مَحارِمَكَ ويُفْسِدُونَ فى الأرضِ؟ قال: إِنِّى قَدِ ابْتَلَيْتُهُمْ. فَلَعَلِّى إنِ ابْتَلَيْتُكُمْ بِمِثْلِ الذى ابْتَلَيْتُهُمْ بهِ فَعَلْتُمْ كالذى يفعلونَ. قالوا: لا. قال: فَاخْتَارُوا من خِيارِكُمُ اثْنَيْنِ. فَاخْتَارُوا هارُوتَ ومارُوتَ، فقال لهُما: إِنِّى مُهْبِطُكُما إلى الأرضِ وعَاهِدٌ إِلَيْكُما ألا تُشْرِكَا ولا تَزْنِيا ولا تَخُونا. فَأُهْبِطَا إلى الأرضِ، وألقى عليهما الشَّبَقَ، وأُهْبِطَتْ لهُما الزُّهرَةُ فى أَحْسَنِ صُورَةِ امرأةٍ، فَتَعَرَّضَتْ لهُما، فراودَاها عن نفسِها، فقالتْ: إِنِّى

على دِينٍ لا يَصِحُّ لأَحَدٍ أنْ يأتينِى إلَّا مَنْ كان على مِثْلِه. قالا: وما دِينُكِ؟ قالتِ: المجوسِيَّةُ. قالا: الشركُ هذا شيءٌ لا نُقِرُّ بهِ. فَمَكَثْتُ عنهُما ما شاءَ اللهُ ثُمَّ تَعَرَّضَتْ لهُما، فأرادَاها عن نفسِها، فقالتْ: ما شئتُما. غيرَ أنَّ لِى زَوْجًا، وأنا أَكْرَهُ أنْ يَطَّلِعَ على هذا مِنِّى فَأَفْتَضِحَ. فإنْ أَقْرَرْتُمَا لى بِدِينِى وشَرَطْتما لى أنْ تَصْعَدَا بى إلى السَّماءِ فَعَلْتُ. فَأَقَرَّا لها بِدِينِها وأَتَيَاها فيما يَرَيانِ ثُمَّ صَعِدَا بِها إلى السَّماءِ، فلمَّا انْتَهَيا بِها إلى السَّماءِ اخْتُطِفَتْ مِنْهُما وقُطِعَتْ أَجْنِحَتُهما، فَوَقَعَا خَائِفَيْنِ نادِمَيْنِ يَبكيانِ، وفى الأرضِ نَبِيٌّ يَدْعُو بين الجُمُعَتَيْنِ، فإذا كان يومُ الجمعةِ أُجِيبَ، فَقَالا: لَوْ أَتَيْنا فُلانًا فَسَأَلْناهُ يَطْلُبُ لَنا التَّوْبَةَ. فَأَتَياهُ، فقال: رحِمَكُما اللهُ! كَيْفَ يَطْلُبُ أهلُ الأرضِ لأهلِ السَّماءِ؟ قالا: إنَّا قد ابْتُلِينا. قال: ائْتِيانِى فى يومِ الجمعةِ. فَأَتَياهُ، فقال: ما أُجِبْتُ فيكُما بِشيءٍ. ائْتِيانِى فى الجمعةِ الثانيةِ. فَأَتَياهُ، فقال: اخْتَارَا، فقد خُيِّرْتُمَا: إنْ أَحْبَبْتُما فمعافاة الدنيا وعَذَاب الآخرةِ. وإنْ أَحْبَبْتُما فَعَذَاب الدنيا، وأنْتُما يومَ القيامةِ على حُكْمِ الله. فقال أحدُهُما: الدنيا لَمْ يَمْضِ مِنْها إلَّا القَلِيل. وقال الآخَر: ويْحَكَ! إنِّى قد أَطَعْتُكَ فى الأمرِ الأولِ، فَأَطِعْنِى الآنَ. إنَّ عَذَابًا يَفْنَى ليس كَعَذَابٍ يَبْقَى، وإنَّنا يومَ القيامةِ على حُكْمِ اللهِ، فَأَخَافُ أنْ يُعَذِّبَنا. قال: لا. إنِّى لأَرْجو إنْ عَلِمَ اللهُ أنَّا قَدِ اخترْنا عَذَابَ الدنيا مَخَافَةَ عذابِ الآخرةِ ألا يَجْمَعَهُما عَلَيْنا. قال: فَاخْتَارَا عَذَابَ الدنيا، فَجُعِلا فى بَكَرَاتٍ من حَدِيدٍ فى قَلِيبٍ مَمْلوءَةٍ من نارٍ، عَالِيهِما سافِلُهُما".

وحتى لو ضربنا صفحا عن هذا كله، وليس من السهل أبدا ضرب الصفح عنه، أيصح أن يكون الجزاء الذى يتلقيانه على ما يعملان هو العقاب فقط؟ ألم يكن هناك ثواب أيضا كما ينبغى أن يكون الأمر فى موضوع الجزاء؟ ألم يعمل الاثنان أية حسنة قط؟ ألا يستحق تمنعهما مرارا ولوقت طويل عن التلفظ بكلمة الشرك وعن قتل الطفل فى البداية أن يثابا عليه؟ كما نرى فالقصة مملوءة بالثغرات والثقوب ولا تثبت على النقد والتمحيص. من هنا فإنى لا أفهم الآية هذا الفهم، ولعل المراد منها، كما فى تفسير "المنار"، أنه كان هناك فى بابل شخصان يتصور الناس المنقوعون فى الخرافات أنهما ملكان وأن لديهما سحرا يمكن تعلمه، وكانا يتظاهران بالحرص على مصالح قصادهم، فيؤكدان لهم أنهما سوف يعلمانهم السحر ولكن يريدان منهم ألا يستعملوه فى الشر. والنتيجة مفهومة طبعا، وهى أن الناس ستستخدمه وفى نيتها الإيذاء توهما منهم أن هذا السحر يمكن التفريق به بين المرء وزوجه. والملاحظ أن البشر مغرمون بالفضول وعمل ما يحذّرهم الآخرون إياه. وكلما كان التحذير شديدا كان الفضول أشد، والرغبة فى مزاولة المحذور أعنف. أقول هذا لأنه كان هناك فى فارس اعتقاد فى ملكين اسمهما "هارُفَتات وأمِرتَات" على حسب ما نقرأ فى مادة "Hârut and Mârut" بـ"Encyclopaedia Britannica" و"Encyclopaedia Iranica"، وهذان الاسمان

قريبان جدا من اسْمَىْ "هاروت وماروت" ببابل المجاورة لفارس والمتأثرة بها فى الغالب. وهذا نص ما جاء فى الموسوعتين المذكورتين على الترتيب:

"The names Hârut and Mârut appear to be etymologically related to those of Haruvatât and Ameretât, Zoroastrian archangels"," Muslim philologists recognized that Hārut and Mārut were not of Arabic origin (see Jeffery, p. 283 with references), but it was left to Paul Lagarde (pp. 15, 169) to discover that they represented the Avestan Haruvatāt (q.v.)/Ḵordād and Amərətāt/ Amurdād (q.v.), two of the Aməša Spəntas (q.v.) who were the guardians of waters and plants respectively".

ويكون القرآن قد حكى لنا ما كان يعتقده الناس فى بلاد الرافدين الملاصقة لفارس لا ما يقع فعلا.

وهناك حديث صحيح الإسناد عن هاروت وماروت والزهرة يختلف عن الحديث الذى نحن بصدده جذريا بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، وهذا نصه: "عنِ ابنِ عُمرَ، رضى اللَّهُ عنهُما، أنَّهُ كانَ يقولُ: أَطَلَعَتِ الحمراءُ بَعدُ؟ فإذا رَآها قالَ: لا مَرحبًا، ثمَّ قالَ: إنَّ ملَكَينِ منَ الملائِكةِ هاروتَ وماروتَ سألَا اللَّهَ تَعالى أن يَهْبطا إلى الأرضِ، فأُهْبِطا إلى الأرضِ، فَكانا يَقضيانِ بينَ النَّاسِ، فإذا أمسَيا تَكَلَّما بِكَلماتٍ وعرَجا بِها إلى السَّماءِ، فقيّضَ لَهُما بامرأةٍ من أحسَنِ النَّاسِ، وأُلْقيَت عليهِما الشَّهوةُ، فجعلا يؤخِّرانِها وأُلْقيَت فى أنفسِهِما، فلم يزالا يفعلانِ حتَّى وعدَتْهُما ميعادًا فأتَتهُما للميعادِ، فقالَت: علِّمانى الكَلِمةَ الَّتى تَعْرُجانِ بِها. فعلَّماها الكلمةَ، فتَكَلَّمت بِها فعرَجت بِها إلى السَّماءِ فمُسِخَت، فجُعِلَت كما تَرَوْنَ، فلمَّا أمسَيا تَكَلَّما بالكَلِمةِ الَّتى كانا يَعْرُجانِ بِها إلى السَّماءِ، فلَم يعرُجا فبُعِثَ إليهِما: إن شِئتُما فعَذابُ الآخرةِ، وإن شئتُما فعَذابُ الدُّنيا إلى أَن تقومَ السَّاعةُ علَى أن تَلتَقِيا اللَّهَ. فإن شاءَ عذَّبَكُما، وإن شاءَ رحِمَكُما. فنظرَ أحدُهُما إلى صاحبِهِ، فقالَ أحدُهُما لِصاحبِهِ: بل نَختارُ عذابَ الدُّنيا ألفَ ألف ضِعفٍ. فَهُما يعذَّبانِ إلى أن تَقومَ السَّاعةُ".

وواضح كذلك ما فى الموضوع من أساطير، إذ الزهرة هى الكوكب المعروف. ثم إن الكلام فيه عن الزهرة يناقض ما جاء فى حديث ابن حبان تناقضا أبلق، فالزهرة فى ذلك الحديث كانت فى الأصل كوكبا ثم تحولت امرأة، أما هنا فامرأة مُسِخَتْ كوكبا. فالكلامان متعاكسان. كما أن العقوبة التى طالتها، وهى مَسْخُها كوكبا، ليست فى الواقع بعقوبة، إذ الجمادات لا تشعر بأى ألم. أى إنها عوضا عن تلقيها عقابا قد استراحت منه تماما بصيرورتها جمادا. ولدينا كذلك هنا كلمة سر، وكأننا فى عالم المشباك (الإنترنت). وهذا كله عجيب غريب!

على أن من يؤمنون من المسلمين بحقيقة السحر لا يتوقفون عند هذا الحد بل يؤمنون أيضا بأن النبى عليه الصلاة والسلام قد سُحِر. وبادئ ذى بدء أسوق الحديث الذى يتعلق بهذا الأمر، وهو فى "صحيح البخارى": "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُحِرَ حتى كان يَرَى أنه يأتى النساءَ ولا يأتيهنَّ. قال سفيانُ: وهذا أشدُّ ما يكونُ من السِّحْرِ إذا كان كذا. فقال: يا عائشةُ، أعَلِمْتِ أن اللهَ قد أفتانى فيما استفتَيتُه فيه؟ أتانى رجلانِ، فقعَد أحدُهما عند رأسى، والآخَرُ عند رِجْلى، فقال الذى عند رأسى للآخَرِ: ما بالُ الرجلِ؟ قال: مَطْبوبٌ. قال: ومَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بن أعْصَمَ (رجلٌ من بنى زُرَيْقٍ حَلِيفٌ ليَهُودَ كان منافقًا). قال: وفيمَ؟ قال: فى مُشْطٍ ومُشَاقَةٍ. قال: وأينَ؟ قال: فى جُفِّ طلعةٍ ذكَرٍ تحت رَعُوفَةٍ فى بئرِ ذَرْوانَ. قالتْ: فأتى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم البئرَ حتى استخرجه، فقال: هذه البئرُ التى أُرِيتُها، وكأن ماءَها نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وكأن نخلَها رُؤوسُ الشياطين. قال: فاستُخْرِجَ. قالتْ: فقلتُ: أفَلا (تنَشَّرَتْ)؟ فقال: أمَا واللهِ فقد شفانى اللهُ، وأكرَهُ أن أُثِيرَ على أحدٍ من الناسِ شَرًّا".

ومع هذا فمن العلماء من ينكر وقوع السحر للنبى لأنه يناقض رد القرآن على متهميه بأنه رجل مسحور. وأنا معهم فى هذا، وأرى أيضا أنه لا يليق بنبوته أن يكون أعداؤه قد تسلطوا عليه بالسحر حتى وصل إلى تلك الحالة التى تثير الشفقة والرثاء من جانب محبيه، والشماتة والابتهاج من جانب شانئيه، ويظهر فيها عاجزا لا يمكنه هو أو غيره أن يصنع إزاءها شيئا. بل إنه ليبدو وكأنه غير واع بالأمر أصلا. وهذه معضلة أخرى أنكى وأشد. وفوق هذا ففى النص أشياء جديرة بالملاحظة: فمثلا تقول القصة إنه عليه السلام، بعد أن سُحِرَ، كان يرى أنه يأتى نساءه ولا يأتيهن. ولا أدرى كيف يكون ذلك. لو قيل إنه كان يريد إتيانهن لكنه لا يستطيع لكان الكلام مفهوما بغض النظر عن موافقتنا على صحته أو لا. أما القول بأنه كان يرى أنه يأتيهن لكنه لا يأتيهن فأمر لا يقبل التصور أساسا، إذ معنى ذلك أنه أصيب، والعياذ بالله، فى إدراكه ولم تعد أحواله تسير على نظام.

ثم تمضى القصة قائلة إن مَلَكَيْن قد أتياه وهو نائم، فسأل أحدهما الآخر: ما بال الرجل؟ وكأن ملكين قد أرسلهما الله لمعالجة رسوله يمكن أن يجهلاه إلى هذا الحد فلا يعرفا أنه رسول الله بل مجرد رجل من ملايين نكرات الرجال. إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا تخيلنا أن الملكين كانا مُدْلِجَيْن ذات ليلة على غير هدى فصادفا رجلا مجهولا نائما تحت شجرة، فقالا ما قالا. كذلك نفهم من القصة أن أحدهما لم يكن يعرف ماذا أصاب الرسول، إذ يسأل زميله: ما بال الرجل؟ فلماذا إذن كان مجيئهما إليه ﷺ؟

كذلك لم وضع الساحر سحره فى بئر ولم يضعه فى بيته مثلا حتى يطمئن إلى أن أحدا لن يمكنه الوصول إليه، فضلا عن أنه سوف يكون أسهل عليه من تكلف الذهاب إلى البئر المذكورة والنزول فى الماء والطين لإخفاء العمل السحرى الذى جهزه واحتمال رؤية أحد من

الناس له وهو يفعل ذلك؟ ولماذا لم تشف السماء النبى مباشرة بدلا من هذا السبيل المعقد الذى قرأناه؟ وتقول القصة إن النبى، بعد استخراجه السحر، لم يشأ أن يثير على أحد من الناس شرا. وهى عبارة غامضة: فهل المقصود بالناس هنا هم المسلمون؟ لكن أى شر يمكن أن يصيبهم جراء ذلك؟ هل هو الخوف من الفتنة؟ لكن الفتنة وقعت وانتهى الأمر، إذ علم المسلمون أنه ﷺ مسحور وعاجز عن فعل أى شىء ينقذه من الحالة السيئة التى كان عليها. بل إن الروايات الأخرى فى البخارى ومسلم وابن حبان تقول إنه ﷺ، حين قصد البئر ليستخرج منها السحر، قصدها فى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى أنهم لا بد أن يكون قد ثار فى أذهانهم السؤال التالى: كيف ينفى القرآن عن الرسول السحر، وهو ذا أمامنا مسحور بلا أى جدال؟ أم هل المقصود بـ"أحد من الناس" هو الساحر؟ لكن ألم يأت فى الأحاديث أن الساحر يجب أن يُقْتَل؟ فلماذا لم يطبَّق هذا الحكم عليه؟ ثم من استخرج السحر من الماء؟ أهو الرسول؟ فهل يليق به ﷺ، وهو النبى والحاكم والقائد والمشرع والقاضى، أن ينزل بئرا ليبحث فيها عن عمل من أعمال السحر؟ ثم إن نزوله البئر للبحث عن السحر معناه أنه كان يعى ما يفعل وما يترك، أى أنه لم يكن مسحورا. أم إن من استخرج العمل من البئر واحد من الصحابة؟ فمن هو يا ترى؟ وهنا أيضا نجد الرسول واعيا بالأمر بحيث كلف أحد أصحابه أن ينزل البئر ويحضر العمل. ومعنى هذا أنه لم يكن يشكو من شىء. ثم لماذا لم يقدم لنا ذلك الصحابى تقريرا عن التجربة كلها؟ وهل اكتفى الساحر بسحره مرة واحدة فقط؟ وأين تفاصيل معاناة الرسول عليه السلام؟

وفى الرواية الموجودة فى "لباب النقول" للسيوطى يأمر الرسول صحابته بأن يذهبوا إلى البئر المذكورة فينزحوا ماءها حتى تظهر الصخرة التى وُضِع السحر تحتها فيستخرجوه ويحرقوه. وهو عمل مرهق يأخذ وقتا ويلفت الأنظار، ولا يتسق مع قول الرسول إنه لا يريد أن يثير بين الناس فتنة، إذ لا بد أن يعلم به القاصى والدانى من أهل المدينة على الأقل. وهذا نص رواية "لباب النقول": "مَرِض رسول الله ﷺ مرضا شديدا، فأتاه ملَكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: ما ترى؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبَّ؟ قال: سُحِرَ. قال: ومَنْ سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودى. قال: أين هو؟ قال: فى بئر آل فلان تحت صخرة فى كرية. فَأْتُوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية وأحرقوها. فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث عمار بن ياسر فى نفر، فأَتَوُا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الكرية وأحرقوها، فإذا فيها وتر فيه إحدى عشرة عقدة. وأنزلت عليه هاتان السورتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة: قل: أعوذ برب الفلق، قل: أعوذ برب الناس". ولنلاحظ أن أحد الرجلين اللذين أتيا النبى فى الرؤيا، والمفروض أنهما ملكان، لا يعرف معنى "طُبَّ" كما هو واضح. فهل يعقل هذا؟ ثم إن

هذه الرواية تتحدث عن إحراق السحر، بينما فى رواية أخرى للبخارى غير الرواية السابقة لا إحراق للسحر ولا حتى استخراج له، علاوة على أن لبيد بن الأعصم فيها يهودى وليس من الموالسين معهم. وإذا كانت قراءة "المعوذتين" تفك السحر فلِمَ تكلُّف كل هذا التعب فى استخراج السحر وإحراقه؟

وفى رواية أخرى فى "فتح البارى" لابن حجر نقرأ ما يلى: "فقالت أخت لبيدِ بنِ الأعصمِ: إن يكن نبيًّا فسيُخْبَرُ، وإلا فسيُذْهِلُهُ هذا السِّحْرُ حتَّى يُذْهِبَ عقلَه". وها هو ذا قد أخبر الله نبيه بالسحر وشفاه منه وأبطل كيد ابن الأعصم، فماذا فعلت أخته؟ ولماذا لم يحاجّها المسلمون بشفاء رسول الله ويطالبوها هى وأخاها باعتناق الإسلام؟ لكننا ننظر فنجد أن الأمر قد أُكْفِئَ عليه ماجور وأُهْمِل تماما بعد ذلك، وكأنه لم يكن. بل إن لبيد بن الأعصم، فيما لاحظتُ، لا يأتى له ذكر فى غير هذا الحديث. أفلم يكن للرجل أى دور فى الحياة غير سحر النبى عليه السلام؟ لكأنه ممثل من ممثلى المنظر الواحد ممن يظهرون فى المسرحية أو الفلم فى لقطة خاطفة يقولون فيها جملة سريعة ثم يختفون تماما حتى نهاية القصة، وهم مع ذلك سعداء أن قُدِّر لهم الظهور فى عمل فنى جماهيرى مع الممثلين الكبار. كذلك من الصعب جدا أن نتصور نازحى البئر من الصحابة الكرام وقد سكتوا تماما بعد الحادثة فلم يتعرضوا هم ولا غيرهم من المسلمين للبيد بن الأعصم هذا ولو بتقريع.

إن أمرا كهذا لا يمكن أن يكون قد مر مرور الكرام على النحو الذى رأينا وكأننا أمام موضوع نظرى بارد لا موضوع حياة يومية فيها معاناة وحيرة وألم ومؤامرات وصراعات؟ ألم يكن للصحابة رد فعل على ما يَرَوْنَه فى رسولهم الكريم؟ أين عمر مثلا فلم يهتم بتمحيص المسألة حتى يضع يده على الفاعل الشرير ويعاقبه العقاب اللازم؟ لقد رأينا فى حادثة الإفك وغيرها عالما موارا من الوقائع والمشاعر والاتهامات والردود والتقصى والتمحيص، أما هنا فكلمتان سريعتان أقرب إلى عالم التنظير والتجريد البارد لا تشفيان غليل الباحث. هل يعقل أن يحدث هذا لزعيم دولة وحاكمها وقائدها العسكرى وقاضيها وموجهها، وقبل ذلك كله رسولها، ثم لا نسمع شيئا عن موقف أهل المدينة تجاه هذا الأمر سواء من المسلمين المؤمنين أو خصومه من اليهود والمنافقين والكافرين؟ وقبل ذلك كله كيف يعرّض الله سبحانه وتعالى نبيه لهذا الاضطراب القبيح المُذْهِب للوعى فى مثل هذا الأمر الحساس على يد واحد من أعدائه؟ ثم إن الرواية تتحدث عن نسائه جميعا رضوان الله عليهن، فلماذا لم نر فى الصورة ونسمع غير عائشة؟ أين رد فعل حفصة؟ أين رد فعل زينب؟ أين رد فعل أم سلمة؟ أين رد فعل ميمونة؟ وأين رد فعل بقية أمهات المؤمنين؟ بل أين رد فعل صفية بالذات رضى الله عنها، وهى يهودية الأصل، وكان ينبغى أن يكون لها تعليق على ما صنعه الساحر الموالِس مع قومها أو الذى هو منهم؟

وفى تفسيره لقوله تعالى: "ومن شر النفاثات فى العقد" فى سورة "الفلق" كتب الشيخ محمد عبده، رحمه الله: "وقد رَوَوْا ها هنا أحاديث فى أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيَّل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه، وأن الله أنبأه بذلك، وأُخْرِجَت موادّ السحر من بئر، وعُوفِىَ ﷺ مما كان نزل به من ذلك، ونزلت هذه السورة. ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض فى البدن ولا من قبيل عُرُوض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية بل هو ماسٌّ بالعقل، آخذٌ بالروح. وهو مما يصدّق قول المشركين فيه: "إنْ تتَّبعون إلا رجلا مسحورا". وليس المسحور عندهم إلا من خُولِطَ فى عقله وخُيِّل له أن شيئا يقع وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحَى إليه وهو لا يوحَى إليه.

وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ولا ما يجب لها: إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح، فيلزم الاعتقاد به، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من إنكار السحر، وقد جاء القرآن بتأثير السحر. فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة! نعوذ بالله! يحتج بالقرآن على ثبوت السحر، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه وعدّه من افتراء المشركين عليه، ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك مع أن الذى قصده المشركون ظاهر لأنهم كانوا يقولون: إن الشيطان يلابسه عليه السلام، وملابسة الشيطان تُعْرَف بالسحر عندهم، وضربٌ من ضروبه. وهو بعينه أثر السحر الذى نُسِب إلى وليد، فإنه قد خالط عقله وإدراكه فى زعمهم.

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه. وقد جاء ينفى السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم هذا. فإذن هو ليس بمسحور قطعا. وأما الحديث، على فرض صحته، فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد لا يؤخَذ فى نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون. على أن الحديث الذى يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصّل الظن عند من صح عنده. أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة. وعلى أى حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكّمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل، فإنه إذا خولط النبى فى عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلَّغ شيئا وهو لم يبلِّغه أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه. والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان. ثم إن نفى السحر عنه لا يستلزم نفى السحر مطلقا، فربما جاز أن يصيب السحرُ غيرَه بالجنون نفسه، ولكن من المحال أن يصيبه لأن الله عصمه منه.

ما أضرّ المحب الجاهل! وما أشدّ خطره على من يظن أنه يحبه! نعوذ بالله من الخذلان. على أن نافى السحر بالمرة لا يجوز أن يعد مبتدعا لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون فى قوله: "آمن الرسول..." وفى غيرها من الآيات، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما، ولم يأت فى شيء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الإيمان بثبوته أو وقوعه على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة. بل الذى ورد فى "الصحيح" هو أنّ تعلُّم السحر كفر، فقد طلب منا ألا ننظر بالمرة فيما يُعْرَف عند الناس بالسحر ويُسَمَّى باسمه. وجاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع مختلفة، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان، فإن السحر فى اللغة معناه صرف الشيء عن حقيقته. قال الفراء فى قوله تعالى: "فأَنَّى تُسْحَرون؟"، أى أنى تُؤْفَكون وتُصْرَفون؟ "سَحَرَه وأَفَكَه" بمعنى واحد.

وماذا علينا لو فهمنا من السحر الذى يفرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التى تصرف الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها؟ وهل يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يُتَعَلَّم وتطبّ له الأساتذة، ونحن نرى أن كتبا أُلِّفَتْ، ودروسا تُلْقَى لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة فى بعض الحكومات؟ وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل وإظهار الأمر فى أقبح صورة. أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الإفساد أن يتمكنوا به من التفرق بين المرء وزوجه. وسياقُ الآية لا يأباه، وذِكْرُ الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الإنس المنافقين بـ"الشياطين". قال: "وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم"، وقال: "شياطين الإنس والجن يُوحِى بعضهم إلى بعض". وسِحْرُ فرعون كان ضربا من الحيلة، ولذلك قال: "يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى"، وما قال: إنها تسعى بسحرهم. قال يونس: تقول العرب: ما سحرك عن وجه كذا؟ أى ما صرفك عنه؟

ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره، ويعرفون من اللغة ما يكفى لعاقل أن يتكلم ما هَذَروا هذا الهَذْر ولا وصموا الإسلام بهذه الوصمة. وكيف يصح أن تكون هذه السورة (سورة "الفلق") نزلت فى سحر النبى ﷺ مع أنها مكية فى قول عطاء والحسن وجابر وفى رواية ابن كريب عن ابن عباس، وما يزعمونه من السحر إنما وقع فى المدينة؟ لكن من تعوَّد القول بالمحال لا يمكن الكلام معه بحال. نعوذ بالله من الخبال!".

ولقد شعرت ببرد الراحة حين طالعت ما كتبه أستاذى د. شوقى ضيف فى هذه المسألة لدن تفسيره لسورة "الفلق" من كتابه: "سورة الرحمن وسور قصار"، إذ ينحو نفس النحو الذى انتحيته، وكان قد كتبه منذ عدة عقود. قال رحمه الله: "أخذ بعض المفسرين بظاهر هذه الآية الكريمة، فقال: "النَّفَّاثَات فى العُقَدِ" هن الساحرات اللائى ينفثن أو ينفخن فى عُقَد خَيْطٍ حين يَرْقِين عليها من يُرِدْن إيذاءه. ومعروف أن السحر تمويه بالتخاييل كمن يرى السراب من بعيد

فيظنه ماء أو كراكب القطار السائر إذا نظر من إحدى نوافذه وهو جالس فيه خُيِّلَ إليه أن الأشجار تسير فى اتجاه مخالف لسيره.

واختلف الأسلاف: أله حقيقة أم لا؟ وذهب المعتزلة وأبو إسحق الإسترابادى من أصحاب الإمام الشافعى إلى أنه لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام وضرب من الخفة والسرعة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: "سحروا أَعين النَّاسِ واستَرهبوهم وجاءوا بِسِحرٍ عظِيمٍ". أى أنهم خدعوا الناس بتخييلات لا حقيقة لها على نحو ما يصنع المشعوذون بخفة أيديهم. واستدلوا أيضا بقول الله فى سورة طه: "يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِم أَنَّهَا تَسْعَى"، ولم يقل جلَّ شأنه: "تَسعى على الحقيقة"، ولكن قال: يخيل إليه. وذهب الشافعى إلى أن السحر تمريض لا تخييل، كما يؤثِّر المتثائب فى مقابله أو من يجلس معه ويتحدث إليه. وكأنه فى رأى الإمام الكبير وسوسة وأمراض، أو بلغة علم النفس الحديث: تأثيرات نفسية. وكأنه يرى ألا حقيقة له. أما أهل السنة فذهبوا إلى أنه حقيقة لذكر الله إياه فى القرآن، ولقوله فى آية سورة "البقرة": "ولَكِنّ الشَّياطِينَ كَفَروا يعلِّمون النَّاسَ السِّحْر"، وقالوا لو لم تكن له حقيقة لما أمكن تعليمه ولا قال الله إن الشياطين يعلمونه الناس.

وقد رد الشيخ مُحَّد عبده على هذه الحجة بأن الله تعالى إنما يحكى اعتقادات المخاطبين، وإن لم تكن صحيحة فى نفسها. وذكر القرطبى فى الآية أنه قيل إن المراد بالشياطين فيها شياطين الإنس المتمادون فى الضلال. وذكر بعض المحتجين للسحر بأن السبب فى نزول الآية ما قيل من أن يهود المدينة طلبوا إلى رجل منهم هو وبناته أن يسحروا الرسول عند رجوعه من غزوة الحديبية، فأخذوا بعض أثره ودفنوه فى بئر ذروان وأثَّر فيه السحر كما زعم بعض الرواة، فظهر له جبريل وأخبره بحقيقة الأمر، فأرسل إلى البئر من أتاه بالأثر، وزعموا أنه كان به إحدى عشرة عقدة بعدد آيات "المعوّذَتَيْن". وكأن "النَّفَّاثاتِ فِى ٱلعُقَدِ" هن بنات هذا اليهودى الساحرات. وقد أنكر المعتزلة هذه القصة أشد الإنكار محتجين بأنه لو صح ذلك لأفضى إلى القدح فى نبوة الرسول بتصديق الكفار فيما رواه القرآن عنهم إذ كانوا يقولون عن الرسول كما جاء فى سورتى "الإسراءُ والفرقان": "إنْ تَتَّبِعون إلا رجلا مسحورا"، يريدون بذلك أنه مجنون زايله عقله بسبب السحر فترك دين آبائه. وقال المعتزلة أيضا: كيف يمكن تأثير السحر فيه عليه السلام، والله يقول فى سورة "طه": "ولا يفلح الساحِر حيثُ أَتَى"، ويقول للرسول فى سورة المائدة قولا لا يمكن نقضه: "واللّه يعصِمك مِن الّناسِ"؟ ومن الخطإ البيّن أن نعارض ما يقوله القرآن فى عصمته بقصة مروية غير وثيقة، بل إنها واضحة الزيف والبطلان.

وحاول الزمخشرى أن يُبْقِى على ظاهر الآية، وأَوَّلَ "النفث" بالاستعاذة من النساء النفاثات فى العُقَد بأحد وجوه ثلاثة: إما أنه يستعاذ من عملهن وإثمهن فيه، وإما أنه يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وخداعهن، وإما أنه يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند

نفثهن. ويجد الزمخشرى على ضوء آراء أصحابه من المعتزلة تأويلين للآية ينفيان عنها فكرة السحر والسحرة والساحرات، فقال: يجوز أن يكون المراد بـ"النفاثات فى العُقَد" النساء الكيَّادات أَخْذًا مما جاء عنهن فى سورة "يوسف" من أن كيدهن عظيم، تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد. ويجوز أن يكون المراد بهن النساء اللائى يفتنَّ الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن عليهم، كأنهن يسحرنهم بذلك. وكأنما يستلهم الزمخشرى فى هذا الرأى ما يتردد على ألسنة الناس قديما وحديثًا من وصف جمال المرأة المغرى بأنه ساحر، وكأن القرآن الكريم استعار صورة الساحرات التى كانت لاصقة بنفوس العرب للتعبير بها عن الفاتنات اللائى ينفثن فتنتهن فى الرجال. وقد سمى الرسول عليه السلام الجمال والبلاغة فى الكلام: سحرا، فقال: "إن من البيان لسحرا".

أما الشيخ الجليل محمد عبده فذهب فى الآية إلى أن "النفَّاثات" جمع "نفَّاثة" كـ"علَّامة وفهَّامة"، والمراد النمامون المقطِّعون لروابط الألفة المحرِّفون لها بما يلقون عليها من ضِرام نمائمهم. يقول: "وإنما جاءت العبارة كما فى الآية لأن الله جلَّ شأنه أراد أن يشبههن بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العامة عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلّوها ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين، والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر لأنها تحوِّل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة، والنميمة تضلِّل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب. وقد ظن قوم أن للسحر أصلا حتى قالوا إن منه ما يبنى على تأثير الكواكب وخصائصها أو على تأثير الاتصال بالشياطين ووسوستها أو على استحضار الجنّ بالعزائم والرُّقَى. وفى الحديث النبوى نهى شديد عن السحر حتى ليجعل الساحر آبقًا من الدين، إذ يقول عليه السلام: "من عقَد عقدة ثم نفَث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك". وما كان الإسلام ليبقى على خرافة السحر، وقد أعلن حربا لا هوادة فيها على كل خرافة، وارتقى بالعرب إلى المستوى العقلى اللائق بكمال النوع الإنسانى بحيث أصبحوا لا يخضعون لسوى العقل والمنطق فى شؤونهم الدينية والدنيوية، وبحيث أصبحوا أمة مشغوفة بالعلم قد اجتُثَّ من نفوسها كلُّ ما كان متأصلا فيها من خرافة وإيمان بالخرافة"...".

ورغم كل ما قلت مما أنا مقتنع به، وأرجو أن يكون اقتناعى به صحيحا، أسوق رأى سيد قطب فى هذه المسألة، وهو يخالف هذا الذى كتبته هنا، وذلك إبراء للذمة. فأنا أضع الرأيين أمام القراء ليوازنوا ويفاضلوا. ونرجو ألا يحرمنا الله من الأجر فى الحالتين. قال رحمه الله: وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر وعما يفرق بين المرء وزوجه مما كان أولئك اليهود يجرون خلفه ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله. إنه ما يزال مشاهدا فى كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد. لقد سمى بعضها بأسماء، ولكنه لم

يحدد كنهها ولا طرائقها. هذا "التيليبياثى" (التخاطر عن بعد) ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنسانا على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان فى العادة ولا بصره، فيتلقى عنه دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟ وهذا التنويم المغنطيسى ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يوحى إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم فى هذه القوى التى اعترف بها هو أنه أعطاها أسماء، ولكنه لم يقل قط: ما هي؟ ولم يقل قط: كيف تتم؟ وثمة أمور كثيرة أخرى يمارى فيها العلم إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها فى نطاق تجاربه. هذه الأحلام التنبئية، وفرويد الذى يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها. كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق فى الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التى ليس لها اسم بعد: كيف أحس أن أمرا ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصا ما قادم بعد قليل، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء؟ إنه من المكابرة فى الواقع أن يقف إنسان لينفى ببساطة مثل هذه القوى المجهولة فى الكائن البشرى لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى.

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة والجرى وراء كل أسطورة. إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنسانى أمام هذه المجاهيل موقفا مرنا: لا ينفى على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه أو يسلم بأن فى الأمر شيئا فوق طاقته ويعرف حدوده ويحسب للمجهول فى هذا الكون حسابه. السحر من قبيل هذه الأمور، وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور، وقد تكون صورة من صوره القدرة على الإيحاء والتأثير: إما فى الحواس والأفكار وإما فى الأشياء والأجسام، وإن كان السحر الذى ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له: "يخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى". ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثرات، وإن كانت الوسائل والآثار والأسباب والمسببات لا تقع كلها إلا بإذن الله على النحو الذى أسلفنا. أما من هما الملكان: هاروت وماروت، ومتى كانا ببابل، فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود بدليل أنهم لم يكذبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها. وقد وردت فى القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التى كانت معروفة عند المخاطبين بها، وكان فى ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى تفصيل أكثر لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود.

ولا أحب أن نجرى نحن فى "ظلال القرآن" خلف الأساطير الكثيرة التى وردت حول قصة الملكين، فليست هنالك رواية واحدة محققة يوثق بها. ولقد مضى فى تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتها وإدراكها فى كل طور من أطوارها، فإذا جاء الاختيار فى صورة ملكين أو فى صورة رجلين طيبين كالملائكة فليس هذا غريبا ولا شاذا بالقياس إلى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة التى مرت بها البشرية وهى تحبو، وهى تخطو، وهى تقفو".

الحسد فى تفسيرى البهى والغزالى

الحسد شعور بشرى لا تخلو منه نفس إنسانية. إذ من الطبيعى تماما أن يكون لكل منا رد فعل حين يرى غيره وقد أنجز إنجازا متميزا تَشْرَئِبّ إليه الأعناق أو بلغ مرتبة عالية فى هذا المجال أو ذاك من مجالات الحياة. ورد الفعل قد يكون رغبة عند الحاسد فى بلوغ مثل تلك المرتبة، وهذا هو الحسد الحَسَن، وقد يسمَّى: "الغِبْطة". وقد أشار إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: "لا حَسَد إلا فى اثنتين: رجل آتاه اللهُ مالًا فَسَلَّطَهُ علَى هَلَكَتِهِ فى الحَقّ، وآخَرُ آتاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهو يَقْضِى بها ويُعَلِّمُها". وقد يكون رد الفعل حقدا ضاريا ورغبة شريرة فى أن تزول عن المحسود النعمة التى أنعم الله بها عليه، وهو الحسد الذى يدور عليه هذا الفصل. بل كثيرا ما يصل هذا الشعور الشرير إلى الدرجة التى يعمل الحاسد جاهدا على إزالة النعمة عن صاحبها وإنزال الأذى به كما وقع بين ابنى آدم حين قرَّبا قربانا، فتقبل الله قربان أحدهما ولم يتقبل قربان أخيه، فما كان من الأخ الذى رُفِض قربانه إلا أن قتل أخاه حسدا وحقدا. وهناك الاعتقاد فى العين المنتشر فى بلادنا انتشارا رهيبا حتى ليفسر كثير جدا منا ما يصيبهم من ضرر أو خسارة أو مرض أو فشل أو جنون أو عجز بالعين. وإن حاولتَ أن ترجعهم عن ذلك الاعتقاد أتاك جوابهم فى الحال: لكن الحسد مذكور فى القرآن. ولا مشاحة فى أن الحسد مذكور فى القرآن فى عدة مواضع، لكن هل الحسد المذكور فى القرآن هو العين؟ صحيح أن هناك أحاديث منسوبة للنبى عليه الصلاة والسلام تتحدث عن العين وأنها حق وأنها تفعل بالشخص المَعْيُون كذا وكذا، وأنها وأنها. لكن ما مدى حَقِّيَّة تلك الأحاديث؟

على أن الاعتقاد فى "العين" ليس مقصورا على المسلمين. فمثلا فى النسخة الفرنسية من موسوعة "ويكيبيديا" نجد أن هذا الاعتقاد اعتقاد قديم، إذ كان معروفا مثلا لدى السومريين والبابليين، وبين الأوربيين فى العصور الوسطى، وعند كثير من الشعوب الأخرى. وفى موسوعة "كولومبيا" الإنجليزية أن منبع هذه الخرافة صقلية وبلاد أمريكا الوسطى. وفى "الموسوعة البريطانية" أن هذا الاعتقاد كان منتشرا بين الإغريق والرومان وفى عدد كبير من الثقافات الشعبية حول العالم، وأن الأطفال والحيوانات هم، فى نظر المؤمنين بالعين الحسّادة، أكثر من غيرهم تعرضا لذلك الأذى، وأنه لهذا السبب لو أن أحدهم أثنى على جمال الأطفال فى أسرة ما فإن أهل الأطفال الممدوحين يتوقعون حدوث شر لهم.

وهذا يذكرنى بما حدث معى حين كنت أزور دكتورا فى مقام تلامذتى بالدوحة، إذ كعادتى فى مثل تلك الأحوال أثنيت على جمال أبنائه لإدخال السرور على قلبه باعتبار أن الكلمة الطيبة صدقة، ففوجئت فى الحال بيده تنطلق مبسوطة الراحة نحو وجهى وفمى، يتقى بها الأذى الذى يعتقد أنه سيقع بأبنائه جراء هذا الثناء الضار، وهو يقول: ما هذا يا دكتور؟

باسم الله! ما شاء الله! فشعرتُ كأنْ قد دُلِق برميل ماء بارد علىَّ، وصرت فى ربع هدومى. ولا أدرى ماذا كان ينبغى أن أفعل. أترانى كان ينبغى أن أقول له: "إن أولادك قباح المنظر تشمئز الكلاب منهم" مثلا حتى يفرح ويرحب بما أقول؟

سيقول المتسرعون إن الرجل الصالح فى قصة مالك الجنتين فى سورة "الكهف" قد قرَّعه قائلا: "ولولا إذ دخلتَ جنتَك قلتَ: ما شاء الله! لا قوة إلا بالله"، ويتخذون ذلك دليلا على أنه يجب فى مثل تلك الظروف أن يقول الشخص هذه العبارة حتى لا تحدث مصيبة بسبب الثناء على الأولاد. ولكن فات هؤلاء المتعجلين ضيقى العَطَن أن الأمر فى سورة "الكهف" لا صلة بينه وبين العين مطلقا، بل المقصود أن مالك البستانين، بدلا من غروره بماله وكبره وغطرسته وكفره بالنعمة، كان ينبغى أن يذكر الله سبحانه بوصفه المنعم المكرم ويشكره على ما أفاء عليه من أموال وممتلكات. ولكن ماذا نقول لمن تلبستهم عقيدة العين الحسادة حتى اضطربت عقليتهم وفسدت فسادا لا يرجى بُرْؤُه؟

وقد جاء ذكر العين الحسادة فى الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد، وخصصتْ لها "دائرة المعارف الكتابية" مادتين: "العين الشريرة" و"حسد". وفى المادة الأولى نقرأ أنها "هى العين الحسودة التى تشتهى ما عند الغير أو تتمنى زواله، أو التى تريد إيقاع الأذى بالغير، أو التى تبخل بما عندها (انظر تث ١٥: ٩، ٢٨: ٥٤ و٥٦، أم ٢٣: ٦، ٢٨: ٢٢؛ مت ٦: ٢٣، ٢٠: ١٥، مرقس ٧: ٢٢، لو ١١: ٣٤). وكان يشيع فى بعض الأوساط فى العصور القديمة، ولا يزال هذا الاعتقاد سائدا فى بعض بلاد الشرق، أن للعين الشريرة قدرة على إيقاع الأذى بل والموت بالغير، فكانوا يتخذون من التمائم والعُوَذ ما يظنونه يدفع عنهم أذى العين الشريرة. والعين الشريرة، فى الكتاب المقدس، ترادف الحسد والطمع. فبمقارنة ما جاء بإنجيل مرقس (٧: ٢٢) مع ما جاء بالرسالة إلى رومية (١: ٢٩) نجد أن "العين الشريرة" ترادف الحسد (فالرجاء الرجوع إلى مادة "حسد" فى موضعها من المجلد الثالث من "دائرة المعارف الكتابية").

وفى مادة "حسد" من نفس دائرة المعارف نقرأ أن "الحسد هو النظرة الحقودة إلى ما لدى الآخرين، هو نظرة عدم الرضى، والشعور الخبيث من الشخص نحو الآخرين لأنهم يمتلكون ما لا يمتلكه، ويتمنى أن يتحول إليه ما لديهم من نعمة أو أن يُسْلَبوها. وتستخدم فى العهد القديم الكلمة العبرية: "كناه" للدلالة على الحسد بمعناه السيئ، أو للدلالة على الغيرة بمعناها الحسن. فتستخدم الكلمة بمعناها الحسن مرارا عن الله أو عن الأفاضل من الناس، وتستخدم أيضا بمعناها السيئ مرارا أقل نسبيا عن الناس، ولكنها لا تستخدم بهذا المعنى السيئ مطلقا عن الله... فنراها بمعناها السيئ مثلا فى "فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من

البقـر وعبيـد كثـيرون، فحـسده الفلـسطينيون" (تـك ٢٦: ١٤)، "فحـسده إخوتـه" (تـك ٣٧: ١١)، "وحسدوا موسى فى المحلة وهرون قدوس الرب" (مز ١٠٦: ١٦)، "ويزول حسد أفرايم، وينقرض المضايقون من يهوذا" (إش ١١: ١٣... إلخ). كما أن الكلمة نفسها بمعناها الحسن تعنى الغيرة المحمودة، وتُنْسَب كثيرا للرب، فهو "إله غيور" (خر ٢٠: ٥، ٣٤: ١٤، تـث ٤: ٢٤، ٥: ٩، ٦: ١٥، ٢٥: ١١ و١٣، يـش ٢٤: ١٩، ١مـل ١٩: ١٠ و١٤، حـز ٢٩: ٢٥، يوئيل ٢: ١٨، زك ١: ١٤، ٨: ٢... إلخ).

وهنـاك الكثير مـن التحـذيرات مـن حـسد الأشـرار أو الغيرة مـنهم مهمـا بلـغ نجاحهم الظـاهر (مـز ٣٧: ١، ٧٣: ٢ و٣، أمثـال ٣: ٣١، ٢٣: ١٧، ٢٤: ١ و٣٩). ويـذكر سـفر الجامعة أن الإنـسان ينـدفع للانهماك فى العمل وتنمية مهاراته نتيجة حسده لنجاح الآخرين، فيقول: "رأيت كل التعب وكل فلاح عمل أنه حسد الإنسان من قريبه" (جا ٤: ٤). ويروى العهد القديم الكثير من المآسى التى حدثت نتيجة الحسد، كما فى قصة عيسو ويعقوب (تك ٢٧: ٤١)، وقصة راحيل وليئة (تك ٣٠: ١)، وقصة يوسف وإخوته (تك ٣٧: ١١)، وقصة هامان ومردخاى (أس ٣: ٥ و٦، ٥: ١٣ و١٤). ويصور سفر "الأمثال" قوة الحسد بالقول: "مـن يقـف قـدام الحسد؟" (أم ٢٧: ٤). أى أن الحـسد قـوة جبـارة تـدفع إلى ارتكـاب أفظـع الـشرور كما فى الأمثلة المذكورة آنفا. ويقـول أليفاز التيمـانى لأيـوب "لأن الغيظ يقتل الغبى، والغيرة (الحسد) تميت الأحمق" (أيوب ٥: ٢). فمـا أشـد مـا يفعـل الحـسد فى قلـب الحاسـد، لذلك يقول الحكيم: "نخر العظام الحسد" (أم ١٤: ٣٠).

وتستخدم فى العهد الجديد كلمتان يونانيتان للتعبير عن الحسد والغيرة هما "فثونوس" (phthonos)، ولهـا علـى الـدوام المـدلول الـسيئ (انظـر مـت ٢٧: ١٨، مـرقس ١٥: ١٠، روميـة ١: ٩، غـل ٥: ٢١ و٢٦، فى ١: ١٥، ١تـى ٦: ٤، تـى ٣: ٣... إلخ)، ثم "زيلـوس" (zelos)، التى تقابـل كلمـة "كنـاه" العبرية بمـدلوليها الحـسن والـسيئ، فهـى تـستخدم أحيـانا للدلالة على الغيرة المحمودة كما فى "غيرة بيتك أكلتنى" (يو ٢: ١٧)، أو "حسنة هى الغيرة فى الحـسنى" (غـل ٤: ١٨- انظـر أع ٢١: ٢٠، ٢٢: ٣، روميـة ١٠: ٢، ٢كـو ٧: ١١، ٩: ٢، ١١: ٢، غل ١: ١٤، فى ٣: ٦، كو ٤: ١٣، تى ٢: ١٤، رؤ ٣: ١٩).

كما تستخدم أيضا بالمدلول السيئ للحسد (انظر أع ٧: ٩، رو ١٣: ٣، ١كو ٣: ٣، ١٣: ٤، ٢كو ١٢: ٢٠). وقد كان "الحسد" هو الذى دفع الكهنة ورؤساء الشعب لتسليم يـسوع للـصَّلْب (مـت ٢٧: ١٨)، كمـا أنـه يُـدْرَج بـين أشـنع الخطـايا (مـرقس ٧: ٢٢، روميـة ١: ٢٩)، ويحـذر الـروح القـدس المؤمنين مـن الحـسد (غـل ٥: ٢١، ١بـط ٢: ١). ومـن أهـم صفات المحبة هى أنها "لا تحسد" (١كو ١٣: ٤). ويقول الرسول يعقوب: "الروح الذى حل

فينا يشتاق إلى الحسد" (يع ٤:٥)، والمقصود بالحسد هنا هو الغيرة كما جاءت فى الترجمة الكاثوليكية (بيروت). وقد جاءت فى ترجمة "كتاب الحياة" بصيغة الاستفهام: "هل الروح الذى حل فى داخلنا يغار عن حسد؟"، وهو نفس ما جاء فى بعض الترجمات الإنجليزية. وجاءت فى ترجمة "كتاب الأخبار الطيبة" (GNB) "أن الله يغار بشدة على الروح الذى وضعه فينا"، وفى الترجمة الإنجليزية المنقحة (RSV): "الروح الذى وضعه فينا يغار علينا إلى درجة الحسد" (انظر هوشع ٢:١٩ – ٢٣)".

وهناك موضعان فى القرآن يفسر كثير من المفسرين الأمر فيهما على أن المقصود به العين الشريرة: وأولهما الآية السابعة والستون من سورة "يوسف": "وَقَالَ: يَٰبَنِى، لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ. وَمَا أُغْنِى عَنكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ. إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للَّهِ. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ"، التى تتبعت ما يقوله عدد من كبار المفسرين ومشاهيرهم بشأنها على اختلاف مذاهبهم وفرقهم، فإذا بهم يفسرون الأمر بأن يعقوب كان يخاف العين على أولاده. يقول الطبرى، وهو من أهل التفسير بالمأثور: "قال يعقوب لبنيه لما أرادوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام: يا بَنِى، لا تدخلوا مصر من طريق واحد، وادخلوا من أبواب متفرّقة. وذُكِر أنه قال ذلك لهم لأنهم كانوا رجالا لهم جمال وهيبة، فخاف عليهم العين إذا دخلوا جماعة من طريق واحد وهم ولد رجل واحد، فأمرهم أن يفترقوا فى الدخول إليها".

ويقول الزمخشرى المعتزلى: "وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد لأنهم كانوا ذوى بهاء وشارة حسنة، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التى لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع ويقال: هؤلاء أضياف الملك. انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان! وما أحقهم بالإكرام! لأمر مّا أكرمهم الملك وقرّبهم وفضلهم على الوافدين عليه! فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيُعَانوا لجمالهم وجلالة أمرهم فى الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم. ولذلك لم يوصهم بالتفرق فى الكرّة الأولى لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس. فإن قلتَ: هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه؟ قلت يجوز أن يُحْدِث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصانا فيه وخللا من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحانا لعباده ليتميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: "هذا فعل الله"، ويقول الحشوى: "هو أثر العين"...".

ويشرح القرطبى، وهو من المفسرين الفقهاء، الآية على النحو التالى: "فيه سبع مسائل. الأولى: لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب. وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرَجُلٍ واحد.

وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة. قاله ابن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم. الثانية: إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العين، والعين حق. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العين لتُدْخِل الرجلَ القبرَ، والجملَ القِدْرَ". وفى تعوّذه عليه السلام: "أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامَّة" ما يدلّ على ذلك. وروى مالك عن مُحَّد بن أبى أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبى سهلُ بن حُنَيْف بالخرّار فنزع جُبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد. قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيتُ كاليوم ولا جلدَ عَذْراء! فوُعِك سهل مكانه، واشتدّ وَعْكه، فأُتى رسول الله ﷺ فأُخْبِر أن سهلا وُعِك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله. فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر، فقال رسول الله ﷺ: "عَلاَمَ يقتل أحدكم أخاه؟ أَلاَ بَرَّكْتَ؟ إنّ العين حق. تَوضأْ له". فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس. فى رواية "اغْتَسِلْ". فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صبّ عليه، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس. وركب سعد بن أبى وَقّاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين. فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له. ففى هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبى ﷺ. وهذا قول علماء الأمّة، ومذهب أهل السنة. وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة، وبما يشاهَد من ذلك فى الوجود. فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القِدْر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: "وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ" (البقرة/ ١٠٢). قال الأصمعى: رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تُحْلَب، فأعجبه شَخْبها فقال: أيتهنّ هذه؟ فقالوا: "الفلانية" لبقرة أخرى، يُوَرُّون عنها، فهلكتا جميعا، المورَّى بها والمورَّى عنها. قال الأصمعى، وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يعجبنى وجدتُ حرارة تخرج من عينى.

الثالثة: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك، فإنه إذا دعا بالبركة صُرِف المحذور لا محالة. ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: "ألا بَرَّكْتَ؟"؟ فدلّ على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه. الرابعة: العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يُؤْمَر بالاغتسال، ويُجْبَر على ذلك إنْ أباه لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا، فإنه قد يُخَاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجانى عليه. الخامسة: من عُرِف بالإصابة بالعين مُنِع من مداخلة الناس دفعا لضرره. وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته. وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ويكفّ أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه يُنْفَى. وحديث مالك الذى ذكرناه يردّ هذه الأقوال، فإنه عليه السلام لم يأمر فى

عامر بحبس ولا بنفى، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسَّق به. ومن قال: "يحبس ويؤمر بلزوم بيته" فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم. السادسة: روى مالك عن حميد بن قيس المكّى أنه قال: "دُخِل على رسول الله ﷺ بابنى جعفر بن أبى طالب، فقال لحاضنتهما: ما لى أراهما ضَارِعَين؟ فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٱسْتَرْقُوا لهما، فإنه لو سبق شيءٌ القَدَرَ سبقتْه العين". وهذا الحديث منقطع، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الخَثْعمية عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صِحَاح. وفيه أن الرُّقَى مما يُسْتَدْفَع به البلاء، وأن العين تؤثر فى الإنسان وتُضْرِعه، أى تضعفه وتنحله، وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار. والله أعلم. السابعة: أَمَر ﷺ فى حديث أبى أُمامة العائنَ بالاغتسال للمَعِين، وأمر هنا بالاسترقاء. قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن. وأما إذا عرف الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبى أمامة. والله أعلم...".

وفى تفسير الطبرسى الشيعى الاثنا عشرى: "لما تجهَّزوا للمسير قال يعقوب: يا بَنِى، لا تدخلوا مصر من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة. خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيئة وكمال، وهم إخوة أولاد رجل واحد. عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك والسدى وأبى مسلم. وقيل: خاف عليهم حسدَ الناس إياهم وأن يبلغ الملكَ قوتُهم وبطشهم فيحبسهم أو يقتلهم خوفا على ملكه. عن الجبائى. وأنكر العين وذكر أنه لم يثبت بحجة، وجوَّزه كثير من المحققين ورووا فيه الخبر عن النبى ﷺ: "أن العين حق، والعين تستنزل الحالق"، والحالق المكان المرتفع من الجبل وغيره، فجعل العين كأنها تحط ذروة الجبل من قوة أخذها وشدة بطشها. وورد فى الخبر أنه عليه وآله السلام كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بأن يقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة". وروى أن إبراهيم ع عوَّذ ابنيه وأن موسى عوَّذ ابنى هارون بهذه العُوذة. وروى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله، إن العين إليهم سريعة. أفأسترقى لهم من العين؟ فقال ﷺ: نعم. وروى أن جبرائيل ع رقى رسول الله وعلَّمه الرقية، وهى "بسم الله أرقيك، من كل عينٍ حاسدٍ الله يَشْفِيك". وروى عن النبى ﷺ أنه قال: "لو كان شيءٌ يسبق القَدَر لسبقته العين". ثم اختلفوا فى وجه الإصابة بالعين: فرُوِى عن عمرو بن بحر الجاحظ أنه قال: لا يُنْكَر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة فتتصل به وتؤثر فيه، فيكون هذا المعنى خاصية فى بعض الأعين كالخواص فى الأشياء. وقد اعترض على ذلك بأنه لو كان كذلك لما اختص ذلك ببعض الأشياء دون بعض، ولأن الأجزاء تكون جواهر، والجواهر متماثلة، ولا يؤثر بعضها فى بعض. وقال أبو هاشم: إنه فعل الله

بالعادة لضرب من المصلحة. وهو قول القاضى. ورأيت فى شرح هذا للشريف الأجل الرضى الموسوى قدس الله روحه كلاما أحببت إيراده فى هذا الموضع. قال: إن الله تعالى يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم فى تلك الأفعال التى يفعلها. فغير ممتنع أن يكون تغييرُه نعمة زيد مصلحةً لعمرو. وإذا كان يعلم من حال عمرو أنه لو لم يسلب زيدا نعمته أقبل على الدنيا بوجهه ونأى عن الآخرة بعِطْفه، وإذا سلب نعمة زيد للعلة التى ذكرناها عوضه فيها وأعطاه بدلا منها عاجلا أو آجلا. فيمكن أن يتأول قوله ع: "العين حق" على هذا الوجه. على أنه قد روى عنه ع ما يدل على أن الشيء إذا عظم فى صدور العباد وضع الله قدره وصغَّر أمره. وإذا كان الأمر على هذا فلا ينكَر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه واستحسانه له وعِظَمه فى صدره وفخامته فى عينه. كما روى أنه لما سُبِقَتْ ناقته العضباء، وكانت إذا سُوبِق بها لم تُسْبَق، قال: ما رفع العبادُ من شيء إلا وضع الله منه. ويجوز أن يكون ما أُمِر به المستحسِن للشيء عند رؤيته من تعويذه بالله والصلاة على رسول الله ﷺ قائما فى المصلحة مقام تغيير حالة الشيء المستحسَن فلا يغير عند ذلك لأن الرائى لذلك قد أظهر الرجوع إلى الله تعالى والإعاذة به، فكأنه غير راكن إلى الدنيا ولا مغتر بها. انتهى كلامه رضى الله عنه".

وفى تفسير الهوارى الخوارجى، وهو من أهل القرن الثالث الهجرى: "قال بعضهم: خشى على بنيه العين، وكانو ذوى صورة وجمال. ذكروا عن أسماء بنت عميس أنها قالت: يا رسول الله، إن بنى جعفر أسرع شيء إليهم العين، أفأسترقى لهم؟ فقال: "استرقى لهم. لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين". ذكروا عن داود بن حصين عن على بن عبد الله بن عباس أن يتيمة كانت عند ميمونة، فافتقدها النبى ﷺ، فسأل عنها. فقالوا: اشتكت عينيها. فقال: استرقوا لها، فإنه أعجبتنى عيناها". ذكروا عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه أنه عان سهلَ بنَ حنيف فقال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أعجب أحدَكم أخوه فليبرِّك".

ويكتب ابن عجيبة فى تفسيره: "البحر المديد"، وهو من أهل التصوف (ت ١٢٢٤هـ)، ما يلى: "وصاهم وقال لهم: يا بَنِى، لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ، وادخلوا من أبواب متفرقةٍ. وكانت فى ذلك العهد خمسا: باب الشام، وباب المغرب، وباب اليمن، وباب الروم، وباب طَيْلون. فقال لهم: ليدخل كل أخوين من باب. خاف عليهم العين لأنهم أهل جمال وأُبَّهة مشتهرين فى مصر بالقربة والكرامة. فإذا دخلوا كبكبة واحدة أصابتهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك فى المرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذٍ. وللنفس آثار من العين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "العَينُ حَقٌّ تُدخِل الرَّجُلَ القَبرَ، والجَمَلَ القِدْرَ". وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ

منها بقوله: "اللهم إِنّي أَعُوذ بك مِن كَلّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وعَينٍ لامَّةٍ". يؤخذ من الآية والحديث التحصن منها قياما برسم الحكمة. والأمر كله بيد الله".

ومن مفسرى العصر الحاضر يقول د. محمد سيد طنطاوى فى تفسير "الوسيط": "وقال يعقوب الأب العطوف لأبنائه وهو يودعهم: يا بَنِيَّ، إذا وصلتم إلى مصر فلا تدخلوا كلكم من باب واحد، وأنتم أحد عشر رجلا، بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب. قالوا: وكانت أبواب مصر فى ذلك الوقت أربعة أبواب. وقد ذكر المفسرون أسبابا متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه، وأحسن هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى فى قوله: نهاهم عن الدخول من باب واحد حذرا من إصابة العين، أى من الحسد، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة. فكانوا مظنةً لأن يُعَانوا، أى لأن يُحْسَدوا، إذا ما دخلوا كوكبة واحدة. ثم قال: والعين حق كما صح عن رسول الله ﷺ. وصح أيضا بزيادة "ولو كان شئ يسبق القدر سبقته العين". وقد ورد أيضا "إن العين لتُدْخِل الرجل القبر، والجمل القدر". وقيل إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ما دخلوا من باب واحد، فيترامى فى أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك، فربما سجنوهم أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف عليه السلام".

وقد عدت إلى رواية العهد القديم لهذه القصة فلم أجد فيها أدنى إشارة إلى أمر يعقوب لبنيه بالتفرق على أبواب المدينة بحيث يدخل كل منهم من باب مخالف، ومن ثم ليس فيها أى كلام عن العين. ولكن يوجد كلام عن الحكاية فى "التلمود" لا وشيجة بينه وبين الإيمان بالعين. ففى كتاب أحمد آيبش: "التلمود كتاب اليهود المقدس" (فَصْل "مجد يوسيف ودخول يعقوب إلى مصر" المتفرع من قسم "سِيَر الأولين فى سِفْر التوراة") نطالع الفقرات التالية التى تتحدث عن هذا الموضوع وتورد السبب فى اقتراح دخول العاصمة المصرية فى ذلك الوقت من أبواب مختلفة:

"وراحت المجاعة تتفاقم وتزداد فى أرض مصر، وانتشرت فى كنعان وأرض الفلسطينيين وفى الجانب الآخر من نهر الأردن. فلما سمع أهالى هذه البلاد بأن القمح متوفر فى مصر أَتَوْا بأجمعهم إليها ليمتاروه، مما ألجأ يوسيف إلى تعيين العديد من المقدَّمين لبيع القمح للحشد الهائل من الناس. وراح تفكير يوسيف يتجه إلى موطن أبيه، وأدرك أن إخوته سيضطرون للمجىء إلى مصر لشراء الغذاء حيث إن المجاعة كانت شديدة فى ديرتهم. ولذا قام بتوجيه الأوامر أنه لا يجوز لأحد ممن يرغب بشراء القمح أن يرسل خادمه بهذا الغرض، بل على رب

الأسرة الحضور شخصيا أو إرسال أبنائه. وأعلن أيضا بأنَّ أمر الملك ونائبه ينص على أنه لا يجوز لأى شارٍ ابتياع أكثر من حمل دابة واحدة فقط من القمح.

وقام بتعيين حراس على مداخل مصر كلها، وكل من يمر عبر هذه المداخل كان ينبغى له تقييد اسمه واسم أبيه فى سجل مخصص، ويتعين على الحراس جلب هذا السجل فى كل لية ليوسف كى يراجعه. وخطط يوسف لذلك كله بغية أن يتثبت من مجىء إخوته لشراء الغذاء، وتم تنفيذ هذه التعليمات بأسرها تماما بحذافيرها. فلما علم الأب يعقوب أن القوت متوفر للبيع فى مصر طلب إلى أبنائه السفر إليها والتزود بمؤن غذائية حيث كانت المجاعة تتفاقم بشكل ينذر بالخطر، وخشى أن تعانى أسرته من عقابيلها. وأوصى يعقوب بنيه أن يدخلوا المدينة من مداخل عدة حتى لا يقابَلوا بالرفض بكمية الشراء التى يرومونها، ففعلوا ما أمرهم به".

وهذا هو النص الإنجليزى حسبما ورد فى كتاب "**The Talmud Selections**":

"And the famine grew sore in the land of Egypt and spread through Canaan and the land of the Philistines, and to the other side of the Jordan. And when the inhabitants of these countries heard that corn could be obtained in Egypt, they came all of them into that country to buy, so that Joseph was obliged to appoint many officers to sell corn to the large multitude of people. And Joseph's thoughts reverted to his father's home, and he knew that his brothers would be obliged to come to Egypt to purchase food, for the famine was very grievous in their neighbourhood. Therefore he gave orders that no man desiring corn should send his servant to purchase it, but the head of each family should personally appear as a purchaser; either the father of a family or his sons. He proclaimed also as the order of the king and his viceroy, that no man should be allowed to purchase corn in Egypt to sell it again in other countries, but only such as he required for the support of his immediate family; neither should any purchaser be allowed to buy more corn than one animal could carry.

And he put guards at all the gates of Egypt, and every man who passed through the gates was obliged to record his name and the name of his father in a book, which was brought by the guards every night for Joseph's inspection. Thus did Joseph design to ascertain when his brothers came to buy food; and all the commands which he had given were faithfully executed. Now, when the patriarch Jacob learned that food could be purchased in Egypt, he bade his sons proceed thither and obtain a stock of provisions, for the famine was growing very severe, and he feared that his family would suffer from its pangs. Jacob instructed his

sons to enter the city by different gates, so that no objection should be made to the amount of their purchases, and as he commanded so they did".

فهذا عن أول الموضعين القرآنيين اللذين يفسر كثير من المفسرين الأمر فيهما على أن المقصود به العين الشريرة. وأما الموضع الآخر فهو الآية قبل الأخيرة من سورة "القلم": "وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقونك بأبصارهم لما سمعوا الذِّكْر، ويقولون إنه لَمجنون"، وهى الآية التى كنت قرأت، وأنا طالب بالفرقة الأولى بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة عام ٦٦– ١٩٦٧م أدرس مع زملائى مقرر التفسير على يد د. شكرى عياد، فى بعض كتب التفسير القديمة أن المقصود بها العين، فكان رد فعلى هو الإنكار والاستنكار، إذ ليس فى الآية ما يدل على أن المراد هو العين الشريرة، بل مجرد مجاز يصور الكراهية ليس إلا مثلما نقول عن الغاضب مثلا إن عينه تصدر شررا، أو عن المحب الولهان إنه يكاد يأكل حبيبته بعينيه، مع أنه لا أكل ولا شرر،فلا العين تأكل ولا هى تصدر شررا. يقول الطبرى: "يقول جلّ ثناؤه: وإن يكاد الذين كفروا يا محمد يَنْفُذونك بأبصارهم من شدة عداوتهم لك ويزيلونك فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظا عليك. وقد قيل إنه عُنِى بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مما عانُوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد ويصرعونك، كما تقول العرب: كاد فلان يصرعنى بشدّة نظره إلى".

وفى "كشاف" الزمخشرى: "يعنى أنهم، من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شَزْرًا بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يُزِلّون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلَيَّ نظرا يكاد يصرعنى، ويكاد يأكلنى. أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال:

يتقارضون إذا التقوا فى مَوْطِنٍ   نظرًا يُزِلُّ مواطىءَ الأقدامِ

وقيل: كانت العين فى بنى أسد، فكان الرجل منهم يتجوّع ثلاثة أيام، فلا يمر به شيء فيقول فيه: "لم أر كاليوم مثله" إلا عانه. فأُرِيدَ بعضُ العيانين على أن يقول فى رسول الله ﷺ مثل ذلك، فقال: "لم أر كاليوم رجلا"، فعصمه الله. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية".

وفى "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبى: "أخبر بشدّة عداوتهم النبى ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين، فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حُجَجِه. وقيل: كانت العين فى بنى أسد حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثم يقول: "يا جارية، خذى المِكْتَل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة"، فما تبرح حتى تقع للموت فتُنْحَر. وقال الكلبى: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخِباء فتمرّ به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلا

حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفارُ هذا الرجلَ أن يصيب لهم النبى ﷺ بالعين، فأجابهم، فلما مرّ النبى ﷺ أنشد:

قــد كـــان قومــك يحــسبونك ســيّدا   وإخـــال أنـــك ســـيّدٌ مَعْيُـــونُ

فعَصَم الله نبيّه ﷺ ونزلت: "وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ". وذكر نحوه الماوردى وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدا، يعنى فى نفسه وماله، تجوّع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول: "تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن"، فيصيبه بعينه، فيهلك هو وماله، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال القُشَيْرِى: وفى هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض. ولهذا قال: "وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ"، أى ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن. قلت: أقوال المفسرين واللُّغَوِيّين تدلّ على ما ذكرنا وأن مرادهم بالنظر إليه قَتْلُه. ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك. وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد "ليُزْهِقونك" أى ليهلكونك. وهذه قراءة على التفسير من "زهقت نفسه وأزهقها". وقرأ أهل المدينة "لَيَزْلِقُونَكَ" بفتح الياء. وضمها الباقون. وهما لغتان بمعنًى. يقال: "زَلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقا إذا نَحّاه وأبعده. وزَلَق رأسَه يَزْلِقه زلقا إذا حلقه. وكذلك أزْلَقَه وزَلَّقه تزليقا. ورجل زَلِق وزُمَلِق، مثال هُدَبِد، وزَمَالق وزُمّلِق بتشديد الميم، وهو الذى يُنزِل قبل أن يجامع. حكاه الجوهرى وغيره. فمعنى الكلمة إذا التنحية والإزالة. وذلك لا يكون فى حقّ النبى صلى الله عليه وسلم إلا بهلاكه وموته. قال الهَرَوِى: أراد "لَيَعْتَانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه، عداوةً لك". وقال ٱبن عباس: ينفذونك بأبصارهم. يقال: "زَلَق السهمُ وزَهَق" إذا نفذ. وهو قول مجاهد. أى يَنْفُذونك من شدّة نظرهم. وقال الكلبى: يَصْرَعونك".

وهو نفسه ما يقوله د. محمّد سيد طنطاوى فى تفسيره: "الوسيط" كما يتبين من النص التالى الذى يشرح فيه الآية المذكورة: "ومنهم من فسر قوله تعالى: "لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ"، أى ليحسدونك عن طريق النظر الشديد بعيونهم. قال الإمام ابن كثير: "وقوله: "وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ": قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: "لَيُزْلِقُونَكَ: لَيَنْفُذونك بأبصارهم، أى لَيَعِينونك بأبصارهم، بمعنى لَيحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايتك منهم. وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة". ثم ساق رحمه الله جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه أبو داود فى سننه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "لا رقية إلا من عين أو حُمَة، أى سم، أو دم لا يرقأ". وروى الإمام مسلم فى "صحيحه" عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "العين حق، ولو كان شئ سابِقَ القدر سَبَقَت العين". وعن ابن عباس أيضا قال: "كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامّة،

من كل شيطان وهامّة، والهامّة: كل ذات سم يقتل، ومن كل عينٍ لامَّة". وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: العين حق حتى لتورد الرجل القبر، والجمل القِدْر، وإنّ أكثر هلاك أمتى فى العين".

والأن مع د. البهى. فماذا قال رحمه الله فى تلك المسألة؟ جاء فى تفسيره لآية سورة "يوسف": "نصحهم حرصا على سلامتهم... وتضمنت نصيحته إياهم أن يدخلوا على الحاكم بمصر فى مكان حكمه من أبواب متفرقة حتى لا يكون جمعهم ملفتا للنظر ومثيرا للشبهة ضدهم". وواضح أن الأمر عند الأستاذ الدكتور لا علاقة به بالعين على الإطلاق. أما الشيخ الغزالى ففسر الأمر على النحو التالى، وساق الكلام بحيث يفهم منه أن ذلك مجرد اجتهاد منه لا دليل عليه، ولهذا قال: "ويظهر أن...". قال رحمه الله: "ويظهر أن يعقوب خاف عليهم أن يُتَّهَموا بأنهم جواسيس دولة أجنبية لأن منظرهم، وكانوا فوق العشرة، وامتداد قاماتهم، وفراهة هيئتهم، يجعلهم نهب الظنون". ولكن كيف عرف الشيخ أنهم كانوا ذوى قامة طويلة، وهيئة فارهة، ومنظر أخاذ؟ لا دليل على ذلك. وهى ولا شك مجازفة فى الاستنتاج. ثم هل يمكن أن يحمق الجواسيس فيدخلوا بلاد الأعداء بهذه الطريقة التى تفضحهم حتى يكون هذا هو أول احتمال يخطر ببال المصريين؟ المهم أن الشيخ أيضا لم يَعْزُ الأمرَ إلى خشية الأب على أولاده من العين. كما أنه فى تفسيره لسورة "القلم" لم يتطرق من بعيد أو قريب لموضوع العين بل عَبَرَ فوق الآية المذكورة دون أن يلمسها وكأنها غير موجودة، تركيزا منه على الخطوط العامة فى السورة كما أشرنا من قبل فى هذا الكتاب. بل إنه كثيرا ما يهمل الإشارة إلى بعض هذه الخطوط العامة ويقفز قفزات واسعة فوق موضوعات بعض السور كما صنع مثلا فى تناوله لسورة "النور"، إذ لم يتعرض لحد الزنا ولا اللعان ولا صناعة البغاء التى كان يديرها فى المدينة عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ولا خَلْق الدواب جميعها من ماء ولا استخلاف الله للمؤمنين فى الأرض. بل إنه لدن المواضع القرآنية الأخرى التى ورد فيها ذكر الحسد والحاسدين لم يشر ولو مجرد إشارة إلى العين على أى نحو، ولكنه فى السورة قبل الاخيرة من سور القرآن، وهى سورة "الفلق"، قال كلمة مهمة على وجازتها هذا نصها: "ومما يستعاذ بالله منه الحسد، وهو رذيلة تقوم على تمنى زوال النعم وكُرْه أصحابها والكَيْد لهم. والحسد من أشيع الجرائم بين الناس:

حسدوا الفَتَى إذْ لم ينالوا سَعْيَهُ   فالكُلُّ أعداءٌ له وخصومُ

وقد يطلق الحسد على العين. وهى نظرة مسمومة نحو ما يكون من خير ينسج الناس حولها حقائق وأباطيل. والاستعاذة على كل حال تعصم من الواقع والمتوقع، وتقى المؤمن شرور الآخرين".

ويبدو من هذا الكلام أن الشيخ يؤمن بالعين، وإن لم يقبل كل ما يقوله الناس فيها. وهو ما يذكّرنا باللافتة القرآنية التى تحتوى على سورة "الفلق" بما فيها من الاستعاذة بالله من

شر الحاسد إذا حسد ويعلقها كثير من الناس فى مدخل البيت أو الشقة بحيث تكون أول شيء يراها الداخلون، مما يشى بالاتهام المبطَّن لهم بأن عيونهم مؤذية يستعاذ بالله منها. وسمعت مرة من ابن أحد المشائخ الكبار المشهورين على مستوى العالم الإسلامى بتفتح أفقه وفتاواه التى تراعى أوضاع العصر ومصالح الإسلام والمسلمين فى ذات الوقت، وكان طالبا بكلية الهندسة، كيف أنه كان يشترى لأمه فى اليوم السابق عصير المانجو، وتصادف أن كانت واقفة بباب العَصَّارة امرأة فقيرة تنظر إلى الزجاجة التى اشترى فيها العصير، فظهرت ثمرة النظرة فى اليوم التالى، إذ اشتكت أخته الصغرى آلاما فى أسنانها، فأخذوها إلى الطبيب ليكتشف أن أحد أضراسها مسوَّس. ولله فى عقول بعض خلقه شؤون. وكان ذلك الشاب يستطيع، على الأقل: تجنبا لتلك النظرة السامة حسب فهمه واعتقاده، أن يشترى للمرأة الفقيرة كوبا من العصير ليشعرها بآدميتها وأن الدنيا لم تخل بعد من الخير، لكن العقلية المهووسة بالعين الحسادة لا تفكر بهذه الطريقة الإيجابية بل تنظر إلى الجانب السلبى الموهوم الذى ليس له وجود، وتشغل نفسها به طول عمرها وتعيش فى قلق من لاشيء.

كما تذكرنى عبارة "النظرة المسمومة" بما كان أحدنا يقوله للِدَاته فى طفولتنا بالقرية إذا كان معهم طعام دونه ولا يَدْعُونه ليأكل معهم، إذ كان يقول: عِينِى فيها. السَّمّ هَارِيها! كما كان الأطفال والصبيان فى جمعية المحافظة على القرآن الكريم إذا اجتمع بعضهم على طعام مشترك، ووقف طفل أو صبى آخر ينظر إليهم وليس معه أكل، يضيقون بوقوفه ذاك ويتصورون أن نظراته لهم وهم يأكلون ستسمم الطعام.

وهذا يأخذنا إلى ما قاله الجاحظ فى "حيوانه"، إذ ذكر أن بعض الكبراء كان يأكل أكلا فخما شهيا وعلى نحوٍ شَرِهٍ، وكان الخادم يقف على رأسه ليقضى له ما يريد وهو جائع يتلمظ، فركز أبو عثمان للأسف على حكاية العين والنظرة المؤذية، ولم يهتم بالجانب الإنسانى الإسلامى الحقيقى، وهو إطعام الخادم من نفس الطعام كما أمرنا رسول الله ﷺ وعدم تركه يقاسى قرص الجوع لبطنه. وفى كلام أبى عثمان أشياء خرافية تدابر المنطق وتتحدى العقل والحكمة رغم عقلانيته الكبيرة، ولكن يبدو أن لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة. قال أبو عثمان: "فأمَّا علماءُ الفرسِ والهِند وأطبَّاء اليونانيّينَ ودُهاةُ العرب وأهلُ التَّجربة من نازِلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيْدِى السّباع، يخافون نفوسَها وأعينها، لِلَّذى فيها من الشَّرَه والحِرص والطَّلَب والكَلَب، ولِمَا يتحلَّلُ عند ذلك من أجوافها من البخار الردِيء، وينفصل مِن عيونها من الأُمور المفسِدة التى إذا خالطتْ طباعَ الإنسان نقضَتْه. وقد رُوى مثلُ ذلك عن الثَّورى عن سِماك بن حَرْب عن ابن عبّاس أنّه قال على مِنبر البَصرة: إنّ الكلاب من الجِنّ، وإنّ الجِنَّ من ضَعَفَةِ الجِنّ. فإذا غَشِيَكم منها شيءٌ فألقوا إليه شيئا واطردوها، فإنّ لها أنفسَ سوء. ولذلك كانوا يكرَهون قِيَامَ الخدمِ بالمذَابِّ والأشربةِ على

رُؤُوسهمْ وهم يأكلون مخافة النفس والعَين، وكانوا يأمرون بإشباعهم قبلَ أنْ يأكُلوا، وكانوا يقولون فى السِّنَّور والكلب: إمَّا أنْ تطردَه قبل أن تأكلَ وإمَّا أن تشغَلَهُ بشيء يأكله ولو بعظم. ورأيتُ بعضَ الحكماء وقد سقطت من يده لقمةٌ فَرَفَعَ رأسه، فإذا عينُ غلامٍ له تحدّق نحو لقمته، وإذا الغلامُ يزدَرِدُ ريقه لتحلُّب فمِه من الشَّهوة، وكان ذلك الحكيمُ جيِّدَ اللَّقْم، طيِّب الطعام، ويضيِّق على غلمانه، فيزعمون أنّ نُفوسَ السِّباع وأعينَها فى هذا الباب أردأ وأخبَث".

وما دام الشيخ الغزالى، فيما يبدو من كلامه، يؤمن بتأثير العين المؤذى، أو "النظرة المسمومة" حسب تعبيره، أجد من المفيد مناقشة أحاديث العين المنسوبة للنبى عليه الصلاة والسلام، ومنها: "أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالأَنْفُسِ"، أى بالعين. ووجه الغرابة فى هذا الكلام هو أنه يشترط قضاء الله وقدره فى الإصابة بالعين، وكأن الإصابات الأخرى لا تستلزم ذلك. أما إذا كان المقصود هو وضع الموت بالعين فى فئة أخرى من الوَفَيَات خارج قضاء الله وقدره فمعنى ذلك أن هناك من ألوان الموت ما يمكن ألا يخضع للقضاء والقدر. وفوق ذلك فالحديث يقرر أن أكثر الموت فى أمة المسلمين راجع إلى العين مع أن وقائع التاريخ لا تساعد على هذا الاقتناع أبدا، ودعك من أنه يجعل منا أمة من الحسادين الذين يقتل بعضهم بعضا بنظرات العيون.

لا أجهل أن هناك حديثا منسوبا للنبى عليه الصلاة والسلام يقول: "العين حق. ولو كان شيء سابق القَدَر سبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغتسلوا". ولو ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك وحيا من السماء، وبالمعنى الذى يقصده من يؤمنون بالعين، لما كان لى إلا أن أصدق ما قاله سيدنا رسول الله. لكن لى عدة ملاحظات: هل قال النبى ذلك فعلا؟ الجواب هو أن كتب الحديث تقول إن هذا حديث صحيح. إذن فمن حيث الرواية: الحديث صحيح. لكن هل إذا كان الحديث صحيحا فى نظر أهل الحديث من ناحية الإسناد أفلا بد أن يكون صحيحا بالضرورة؟ هل الأحاديث مجرد رواية لا دخل لها بالتفكير المنطقى فى مضمونها ومعناها؟ ثم هل قاله ﷺ على سبيل الوحى؟ أم هل كان ذلك مجرد اجتهاد منه كاجتهاده فى مسألة تأبير النخل، الذى اتضح أن ما أشار به فى هذا الخصوص كان فى غير موضعه ولم يكن هو الأسلوب السليم فى عملية التلقيح؟ لكن هل يترك الله الأمر فى هذه الحالة دون أن يتم تصحيح الخطإ على نحو أو على آخر كما حدث فى تأبير النخل؟ معنى هذا أن يكون النبى قد قال ذلك أولا حتى يمكن أن يصحَّح ما يكون قد وقع منه من سهو أو نسيان أو خطإ، فهل قاله فعلا؟

كذلك هل يمكن أن يسبق شيءٌ القَدَر؟ إن القدر هو مشيئة الله عز شأنه، فهل يمكن أن يخطر هذا المعنى على بال رسول الله ﷺ وينطق به فى حديث يظل يردده المسلمون طوال

الحياة؟ ترى هل هناك شيء يقع على الأرض أو فى السماء يمكن أن يكون بمشيئة غير مشيئته سبحانه، بله أن تسبق تلك المشيئة مشيئته تعالى، بله أن يكون هذا الشيء هو العين، التى يرى ابن القيم أنها قد تصيب، وقد تخيب، فضلا عن أنها ليست بالقضية الهامة على الإطلاق، بل هى لا فى العير ولا فى النفير، وبخاصة أن معظمنا لا يرى أثرا لها فى الواقع؟ أقول: "معظمنا" لمجاراة الطرف الآخر سَدًّا لباب اللجاج ليس إلا. فكيف يمكن أن نصدق أن الرسول عليه السلام يلجأ، فى الكلام عنها، إلى هذا التعبير المتجاوز؟ الواقع أننى فى أشد الحيرة.

ومن الأحاديث التى قررت ذلك الموضوع أيضا الأحاديث التالية: "انطلق عامرُ بنُ ربيعةَ وسهلُ بنُ حُنَيفٍ يريدان الغُسْلَ. قال: فانطلَقا يلتمِسانِ الخَمَرَ. قال: فوضع سهل جُبَّةً كانت عليه من صوفٍ، فنظرتُ إليه فأصبتُه بعينى، فنزل الماءَ يغتسلُ. قال: فسمعتُ له فى الماءِ قرقعةً، فأتيتُه فناديتُه ثلاثًا، فلم يُجِبْنى. فأتيتُ النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخبرتُه فجاء يمشى فخاض الماءَ كأنى أنظرُ إلى بياضِ ساقَيْه. قال: فضرب صدَره بيدِه، ثم قال: اللهمَّ أذهِبْ عنه حرَّها وبردَها ووَصَبَها. قال: فقام. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: إذا رأى أحدُكم من أخيه ومن نفسِه ومن مالِه ما يُعْجِبُه فلْيُبرِّكْهُ، فإنَّ العينَ حقٌّ".

"اغتسلَ سهلُ بنُ حُنَيْفٍ بالخَرَّارِ، فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامرُ بنُ ربيعةَ ينظرُ، وكان سهلٌ رجلا أبيضَ حسنَ الجلدِ، قال: فقال له عامرُ بنُ ربيعةَ: ما رأيتُ كاليومِ ولا جلدَ عذراءَ. قال: فوُعِكَ سهلٌ مكانَه، واشتدَّ وَعْكُه، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبره أنَّ سهلا وُعِكَ، وأنه غيرُ رائح معك يا رسولَ اللهِ. فأتاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخبر سهلٌ بالذى كان من أمرِ عامرٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: علامَ يقتلُ أحدُكم أخاهُ؟ ألا بَرَّكْتَ؟ إن العين حقٌّ. تَوَضَّأ له. فتوضَّأ له عامرٌ، فراح سهلٌ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليس به بأسٌ".

"خرج (سهل بن حنيف) مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالخرار دخل ماءً يغتسل، وكان رجلا وضاء، فمر به عامر بن ربيعة فقال: لم أر كاليوم حُسْنَ شيءٍ ولا جِلْد مخبَّأة. فما لبث سهل أن لُبِطَ به، فدُعِيَ له نبى الله ﷺ، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ من تتهمونه به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرا ودعا بإناء فيه ماء فأمر عامرا، فغسل وجهه فى الماء وأطراف يديه وركبتيه وأطراف قدميه، ثم أخذ النبى ﷺ ضَبْعَى إزار عامر وداخِلَته فغمرها فى الماء ثم أفرغ الإناء على رأس سهل وأكفأ الإناء من دبره، فأُطْلِقَ سهل لا بأس به".

والآن أى هذه الأحاديث هو الصحيح؟ هل ذهب الحاسد إلى الرسول فأخبره بما وقع منه من حسد كاد أن يقتل صاحبه؟ أم هل سأل رسول الله مَنْ حوله فوجهوا الاتهام إلى عامر بن ربيعة؟ ثم هل كان المحسود، أيا كان، يحتاج إلى أن يخلع ملابسه حتى يرى الحاسد لون

بشرته؟ أليست بشرة الواحد منا تظهر حتى وهو مرتدٍ ملابسه من خلال صدره ووجهه وذراعيه مثلا؟ أم كان الرجال فى ذلك الوقت يغطون كل بقعة من أجسادهم؟ كذلك متى كان رجال العرب، فضلا عن المسلمين، يتفاخرون بأن جلودهم تشبه جلود العذارى، كى يحسد بعضهم بعضا على هذا؟ إننى لا أنفى وجود الحسد فى الناس، فالحسد شعور بشرى يكاد لا يفلت منه أحد. وعلى هذا فليس لمن يحاول إثبات أثر العين دليل على وجود ذلك الأثر بالقول بأن الحسد مذكور فى القرآن، إذ الحسد موجود كما قلنا، ونحن نؤمن به سواء ورد ذكره القرآن أو لا.

لكن السؤال هو: هل يؤثر هذا الحسد فى المحسودين عن طريق نظرات عين الحسود؟ أما أنا فلا أعتقد ذلك، بل أرى أن الحسد إنما يؤثر فى عن طريق ما يمكن أن يحبكه الحاسد من مؤامرات على من يتفوق عليه ويثير الغيظ والحقد فى نفسه، أو من خلال ما يضعه فى طريقه من عقبات أو يثيره فى وجهه من مشاكل أو يشنه ضده من شائعات مثلا، إن لم يفكر فى ضربه أو قتله. أما العين فقصة أخرى. بيد أن بعض المفسرين يقرأون قوله تعالى مخاطبا الرسول عليه السلام فى سورة "القلم": "وإنْ يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونكَ بأبصارهم لما سمعوا الذِّكر ويقولون: إنه لمجنون" على أنه إشارة إلى عيون الكفار وقدرتها على أن تصيب الرسول بالضر فتسقطه على الأرض بقوة الشعاع الصادر منها نحوه. وهو تفسير غريب. فالكفار لم يكونوا يحسدون الرسول على النبوة بل كان ضيقهم به وبدعوته لأنها كانت تهديدا عنيفا لتقاليدهم وعاداتهم وعقائدهم التى درجوا هم وأسلافهم عليها منذ أزمان. ثم على أى شىء كان يمكن أن يحسدوا الرسول؟ لقد كان ضعيفا مضطهدا آنذاك لا يملك حولا ولا طَوْلا ولا مالا ولا رئاسة ولا زعامة مما يمكن أن يثير الأحقاد فى النفوس. أما الحسد على النبوة فقد ظهر فى المدينة، وكان اليهود أصحابه. ولم يذكر القرآن أنهم عانُوا الرسول عليه السلام، بل ذكر أنهم كانوا يؤلبون المشركين ضده ويزعمون لهم أن وثنيتهم خير من توحيده. وكان مبعث حسدهم له أن النبوة قد فارقت بنى إسرائيل وانتقلت إلى العرب واختير لها محمد ﷺ، بينما هم لا يطيقون أن تكون النبوة فى أى قوم غيرهم.

ونجد ذلك الموضوع فى الآيات ٥١– ٥٥ من سورة "النساء". قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ. وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ. وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا". وفى سورة "الفتح" نجد الحسد مستعملا فى نفس المعنى، وذلك حين قال الأعراب الذين كانوا يتخلفون عن الغزو مع رسول الله، وكانوا مع هذا

يريدون أن ينالوا من الغنائم والمغانم رأسهم برأس الذين غَزَوْا سواء بسواء، فنزل قوله تعالى فى الآية الخامسة عشرة من سورتنا: "سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا: ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ. يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ. قُلْ: لَنْ تَتَّبِعُونَا. كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ. فَسَيَقُولُونَ: بَلْ تَحْسُدُونَنَا. بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا". وواضح أن الحسد فى فهمهم هو الغيرة التى تدفع الحاسدين إلى حرمانهم من المغانم. ولو كان الأمر أمر عين شريرة لقالوا هذا، لكنهم لم يقولوه بل قصدوا المعنى الذى أقوله دائما، وهو أن العين لا تضر، بل الذى يضر هو المؤامرات التى يدبرها الحاسد للمحسود كالعمل على رفته من وظيفته أو الوشاية به عند السلطات أو ضربه أو شتمه أو التشنيع عليه أو الوقيعة بينه وبين من حوله... إلى آخر ما يمكن أن يؤدى إليه الحسد.

وقد ورد ذكر "القرقعة" فى الحديث الأول، وهى صوت الحديد عند اصطدامه بالحديد وما أشبه من الأصوات على ما جاء فى "معجم اللغة العربية المعاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر. وإنى لأتساءل: ما دخل القرقعة هنا بالعين والإصابة بها؟ ثم كيف يترك الرجل زميله فى هذا الوضع المفزع ويذهب لرسول الله كى يخبره بما حصل دون أن يحاول مساعدته مع أن كل الشواهد تدل على أنه فى خطر عظيم إذ لم يستطع الرد عليه حين ناداه ثلاث مرات لا مرة واحدة، وسمع بدلا من ذلك صوت قرقعة، وكأن هناك حديدا يصدم حديدا، وبخاصة أن الذهاب إلى رسول الله والعودة معه لا بد أن يستغرق وقتا طويلا يكون المعيون فيه قد صار فى خبر كان؟ ثم ماذا كان يمكن أن يقع لو لم يكن هناك رسول الله؟ لقد كان الرجل فى كرب عظيم، وكانت حياته فى حرج كما يفهم من سياق الرواية. أإلى هذا الحد يكون خطر العيون، وتكون حياة الشخص المَعِين رهنا بالمصادفات التى لا تجرى على قانون؟

أنا لا أكذِّب كلاما ثبت أن رسول الله قاله فعلا، بل كل ما أبغيه هو محاولة إقامة مثل هذا الأمر على أسس علمية صلبة بدلا من الاعتقاد فى شىء لا ندرى مدى مبلغه من الصحة. ولا أظن الرسول عليه السلام يضيره أو يغضبه أن نحاول التحقق من أمر يُنْسَب إليه قوله. إننا نحبه ﷺ حبا جما، ونحب أن نتأكد مما يُرْوَى عنه ومن صحته كى نصدق أنه قاله حقا. ذلك أن حبنا الحقيقى له ﷺ يقتضينا أن نلجأ إلى العلم للتحقق من صحة أى شىء. أليس هو الذى نادى بفضل العلم والعلماء؟ أليس القرآن هو الذى يدعو الكفار إلى الإتيان بأثارة من علم إن كانوا صادقين؟ ومن السهل التحقق من هذه المسألة، فهى ليست مسألة غيبية لا تخضع للتجربة كما يهرف بعض الناس، بل من المسائل المادية. أليست العين شيئا ماديا؟ أليس الجسد المصاب بها شيئا ماديا؟ أليست الأشعة التى يقال إنها تصدر عنها وتضر من تقع عليه مما يمكن قياسه بالآلات المادية مثلها مثل الأشعة الضوئية والتيارات الكهربية مثلا؟ فهذا أفضل مليون مرة من بقائنا أسرى لاعتقاد عجيب يفسد العلاقات بين الناس

ويترتب عليه تشاؤم بعضهم من بعض ونفور بعضهم من بعض وتجنب بعضهم لبعض دون أن يكون لهذا الاعتقاد أساس سليم.

ويرى الجاحظ، فى كتاب "الحيوان"، أن أمر العين صحيح لتواتر الأخبار به ولمعاينة الناس إياه وتعضيد التجربة له، وأن هناك شيئا ينفصل من عين العائن ويصل إلى جسم المعيون فيضره. هذا كلام الجاحظ، ونحن لا نريد شيئا سوى هذا: فهو يؤكد أن الأذى مادى ويمكن التحقق منه. أى أننا، طبقا لكلامه هذا، ندرك الأمر بحواسنا، ونستطيع أن نخضعه للتجربة لنتحقق من صحته. ومن ثم أرى أننا لا بد لنا من اللجوء للتجربة ولا نقبل هذه الدعوى لمجرد كلام يقال. فالعلم لا يعرف الكلام يقال بل يعرف التجربة والتحقق. وبالنسبة لى لا أذكر أنى شاهدت أحدا يؤذى أحدا بعينه أو بكلامه. وأنا طول عمرى من المتفوقين فى الامتحانات الدراسية، ولا أستطيع أن أتذكر أن أذًى قد أصابنى جَرَّاءَ هذا قَطّ. كما أننى كنت من الصبيان والشبان البارعين فى كرة القدم فى قريتى وقرى المركز الذى تتبعه قريتنا، وكان المشجعون من أهل القرية يهتفون لى كما يهتفون لأمثالى، ولم أنكسر بحمد الله فى الملاعب إلى أن كبرت وتركت الكرة من تلقاء نفسى. أقول هذا لا على سبيل التفاخر بل لتوضيح الأمر ليس غير، وإلا فهناك من هو أحسن منى فى الدراسة والذكاء والكرة كثيرا جدا، ولم يحدث لهم شىء قط. والواقع أنه لو كانت العين صحيحة لما كان هناك تفوق فى الدنيا ولا متفوقون، إذ إن أصحاب العيون الشريرة لن يتركوا متفوقا فى حاله بل سيصوبون له صواريخ نظراتهم فتشلهم أو تطير عقولهم وتجننهم، وهذا إن لم تقتلهم قتلًا وَحِيًّا. وبهذا تخلو الدنيا للأغبياء والحمقى وذوى القدرات المتدنية، فتضمحل الحضارة وتبقى عند حدها الأدنى الذى لا يثير حسدا ولا يشعل حقدا ولا يغرى بإرسال العين عليه. ومن ناحية أخرى سوف يحرص المتفوقون أن يخفوا تفوقهم بألا يعملوا شيئا يدل على هذا التفوق خشية على أنفسهم من النظرات الحاسدة وما تستتبعه من أذًى هُمْ فى غنى عنه، ويعيشوا فى كسل وبلادة ولا يعملوا عقولهم فى شىء ما دام إعمال العقل يجلب الضرر. وبتلك الطريقة نضمن بكل يقين أن نظل متخلفين إلى الأبد. ولو كان الغربيون يضعون مثل تلك الاعتبارات فى الذهن ما أفلحوا.

ترى هل يغضب الرسول أو يجد فى الأمر مِسَاسًا برسالته إذا ما أراد أحد الصحابة التحقق مثلا من أن عدم تأبير النخل لا يمنعه من الإثمار؟ بل لقد حدث هذا فعلا، وقام الصحابة بتجربة ما قاله الرسول فى هذا الشأن، فترتب عليه أن النخيل لم يثمر ذلك العام إلا الشِّيص، فراجعوه عليه السلام، فما كان منه سوى أن قال بكل بساطة وتواضع ونزول على مقتضى الحق والواقع: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، ولم يقل لهم فى غضب: كيف تراجعوننى فى أمر أخبرتكم فيه برأيى؟ ففى الحديث "أنَّ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مرَّ بقومٍ يُلَقِّحون، فقال:

لو لم تفعلوا لَصَلَح. قال: فخرج شِيصًا. فمرَّ بهم فقال: ما لِنَخْلِكم؟ قالوا: قلتَ كذا وكذا. قال: أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم".

والغريب أن ثَمَّ حديثا فى شرح "موطإ" الإمام مالك المسمى بـ"المنتقى" يقول: "رَوَى ابْنُ السُّنِّيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: "كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَافَ أَنْ يُصِيبَ شَيْئًا بِعَيْنِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَلا تَضُرَّهُ"، وهو ما يعنى أن عينه عليه الصلاة والسلام كانت هى أيضا مؤذية لولا أنه كان يستعين على أذاها بتبريك الشىء أو الشخص الذى ينظر إليه. الله أكبر! لم يبق إلا أن يقال هذا عن النبى ﷺ. ألا إن هذا لهو الهوس بعينه! بل إن الجاحظ المعتزلى المكبر للعقل ينسب إلى الوحوش الحسد والعين كما مر بنا. وهأنذا أعيده كرة أخرى. قال فى "الحيوان": "فأمَّا علماءُ الفرسِ والهند، وأطبَّاء اليونانيّينَ ودُهاةُ العرب، وأهلُ التَّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين، فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيْدِى السِّباع، يخافون نفوسَها وأعينها، لِلَّذى فيها من الشَّرَه والحِرص، والطَّلَب والكَلَب، ولِمَا يتحلَّلُ عند ذلك من أجوافها من البخار الردِيء، وينفصل مِن عيونها من الأُمور المفسِدة، التى إذا خالطتْ طباعَ الإنسان نقضَتْه". وهذا هوس قد تجاوز كل حد. ومن يدرى؟ فربما أتانا فى المستقبل من يزعم أن الجمادات هى أيضا تحسد كما تحسد الحيوانات. حقا لم يبق إلا هذا.

أما كيف نحصل على ماء اغتسال العائن لصبه على المعيون فقد قرأت فى آخر إحدى روايات الحديث الذى نحن بصدده ما يلى: "الغُسْلُ أنْ يُؤْتَى بالقَدَحِ، فيُدخِلَ الغاسلُ كفَّيْهِ جميعًا فيه ثمَّ يغسِلَ وجهَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه اليُمنى فيغسِلَ صدرَه فى القَدَحِ ثمَّ يُدخِلَ يدَه فيغسِلَ ظهرَه ثمَّ يأخُذَ بيدِه اليُسرى يفعَلُ مِثلَ ذلك، ثمَّ يغسِلَ رُكبتَيْهِ وأطرافَ أصابعِه مِن ظَهرِ القدَمِ ويفعَلَ ذلك بالرِّجْلِ اليُسرى ثمَّ يُعْطِى ذلك الإناءَ، قبْلَ أنْ يضَعَه بالأرضِ، الَّذى أصابه العينُ ثمَّ يمُجَّ فيه ويتمضمضَ ويُهْرِيقَ على وجهِه ويصُبَّ على رأسِه ويُكْفِئَ القَدَحَ مِن وراءِ ظَهرِه". وهذا، كما نرى، أشبه بأعمال السحر. ثم من ذا يا تُرَى يرضى بأن يقال عنه إنه حسّاد حقود يؤذى الناس بعينه، ويقتلهم بها قتلا، ويوافق على الاغتسال ويعرض نفسه لذلك الأمر الفاضح المهين؟ إن هذه دعوة إلى إفساد العلاقات بين الناس أكثر مما هى فاسدة أصلا.

ليس ذلك فقط، بل يمضى الهوس بذلك الموضوع حتى لنقرأ، فى ذات الكتاب المذكور آنفا، كلاما عجيبا منسوبا للقرطبى مُفاده أنه "لَوْ أَتْلَفَ الْعَائِنُ شَيْئًا ضَمِنَهُ، وَلَوْ قَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقِصَاصُ أَوِ الدِّيَةُ إِذَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ عَادَةً. وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالسَّاحِرِ الْقَاتِلِ بِسِحْرِهِ عِنْدَ مَنْ لا يَقْتُلُهُ كُفْرًا، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَيُقْتَلُ، قَتَلَ بِسِحْرِهِ أَمْ لا لِأَنَّهُ كَالزِّنْدِيقِ". ومعنى هذا أن القرطبى لا مانع عنده أن يقتل العائنُ كم قتيلا للتجربة، ولكن حين نتأكد من خلال التجارب أنه يَعِين فعلا فعندئذ لا بد من قتله إذا مات الـمَعِين (الـمَعْيُون). والواقع أننا لو أخذنا بهذا الحكم العجيب الذى سوف يجعلنا مهزلة الأمم لسوف يقوم الجهلة، وما أكثرهم وأشد

حماقتهم واختلال عقولهم، باتهام بعضهم بعضا بالقتل عن طريق العين، وسوف ينتهى الأمر بتفانى المسلمين. وشكرا للإمام القرطبى على غيرته "القاتلة" على الدين، فهكذا ينبغى أن تكون الغيرة، وإلا فلا.

وعلى خلافه ابن عبد البر والإمام النووى، إذ يقول الأول نقلا عن صاحب "المنتقَى": "إنَّ مِنَ الطَّبْعِ الْبَشَرِى الإِعْجَابَ بِالشَّيْءِ الْحَسَنِ وَالْحَسَدَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ. فَلِذَا لَمْ يُعَاتَبْ عَامِرٌ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى تَرْكِ التَّبْرِيكِ الَّذِى فِى وُسْعِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَقْتُلُ، وَتَوْبِيخُ مَنْ كَانَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ سُوءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْقَدَرِ السَّابِقِ بِذَلِكَ كَالْقَاتِلِ يَقْتُلُ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ إِنَّمَا تَعْدُو إِذَا لَمْ يُبَرِّكْ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ أَنْ يُبَارِكَ". وهذا كلام معقول رغم أنى لا أطمئن إلى أن العين تؤذى.

وفى "المنتقَى" كذلك نقرأ للنووى أنّه "لا يُقْتَلُ الْعَائِنُ، وَلا دِيَةَ وَلا كَفَّارَةَ، وأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى منضبطٍ عَامٍّ دُونَ مَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الأَحْوَالِ مِمَّا لا انْضِبَاطَ لَهُ. كَيْفَ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ فِعْلٌ أَصْلا، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ حَسَدٌ وَتَمَنٍّ لِزَوَالِ النِّعْمَةِ؟ وَأَيْضًا فَالَّذِى يَنْشَأُ عَنِ الإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ حُصُولُ مَكْرُوهٍ لِذَلِكَ الشَّخْصِ، وَلا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الْمَكْرُوهُ فِى إِزَالَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَكْرُوهٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَثَرِ الْعَيْنِ. قَالَ الْحَافِظُ: وَلا يُعَكِّرُ عَلَيْهِ إلا الْحُكْمُ بِقَتْلِ السَّاحِرِ، فَإِنَّهُ فِى مَعْنَاهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَسِرٌ". وفى "المنتقى" أيضا أنه قد "نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِى لِلإِمَامِ مَنْعُ الْعَائِنِ إِذَا عُرِفَ بِذَلِكَ مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَكُفُّ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ آكِلِ الثومِ وَالْبَصَلِ الَّذِى مَنَعَهُ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لِئَلا يُؤْذِى الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمَجْذُومِ الَّذِى مَنَعَهُ عُمَرُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الاخْتِلاطَ بِالنَّاسِ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمَوَاشِى التى يُؤْمَرُ بِإِبْعَادِهَا إِلَى حَيْثُ لا يَتَأَذَّى بِهَا أَحَدٌ". ورغم أنى لست من أنصار تحديد إقامة العائن، أو بالأحرى: من يظن الناس أنه عائن، فلا شك أن هذا أخف كثيرا جدا من قتله!

وقد فسر الشيخ مُحَمَّد عبده، رحمه الله، شر الحاسد بأنه ما يلجأ إليه الحاسد بسعيه فى إيقاع الإضرار بالمحسود لا بعينه بل بمؤامراته وكيده، فقال: "الحاسد: الذى يتمنى زوال نعمة محسوده، ولا يرضى أن تتجدد له نعمة. وهو، إذا حسد، أى أنفذ حسده وحققه بالسعى والجد فى إزالة نعمة من يحسده، من أشد خلق الله أذى، ومن أخفاهم حيلة، وأدقهم وسيلة. وليس فى طاقة محسوده إرضاؤه بوجه ولا فى استطاعته الوقوف على ما يدبره من المكايد، فلا ملجأ منه إلا إلى الله وحده، فهو القادر على كف أذاه وإحباط سعيه. وقانا الله شر الحاسدين، وكف عنا كيد الكائدين. والله أعلم".

وفى نهاية المطاف أوجه الأبصار إلى موضوع شديد الأهمية فى موضوع العين الحسادة يجعلنى أزداد اعتراضا عليها، وهو أن هذه العين لا تعرف التخصص: فهى تحرق محرك السيارة، وتفجر نجفة الردهة، وتقتل الجمل، وتسقط البيوت الشاهقة، وتخرج القطارات عن قضبانها فتنقلب على جنوبها، وتصيب المهاجم الكروى فى رجله وتبرجل عقله فلا يستطيع أن يحرز أهدافا، وتفشل الطالب المتفوق فيرسب رسوبا مهينا، وتشعل الخلافات بين الزوجين السعيدين فيصيران عدوين متباغضين، وتصيب البشر فى عيونهم وفى بطونهم وفى أكبادهم وفى قلوبهم وفى أسنانهم وفى آذانهم وفى شعورهم... وهو ما يذكِّرنى باللبان الذكر الذى كان يبيعه الباعة السريحة فى الحافلات أيام زمان زاعمين أنه يعالج كل شىء دون تخصص، إذ كانوا يقفزون إلى الحافلة حين تتوقف ثم يصيحون وهم يقفون خلف السائق قائلين إن ذلك اللبان يبرم الكعوب ويحمّر الخدود ويجلو الصدور ويطرد البلغم ويطهر البطن من الديدان... فانظر كيف وصلت أحوال المسلمين الاعتقادية.

ومع كل ما قلت سوف أورد هنا تفسير سيد قطب للآية الأخيرة من سورة "الفَلَق": "ومن شر حاسد إذا حسد"، فهو يخالف ما كتبتُ، إذ يقول: "والحسد انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها. وسواء أَتْبَعَ الحاسدُ هذا الانفعال بسعى منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ أو وقف عند حد الانفعال النفسى فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال. ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفى لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود، وأسرار النفس البشرية، وأسرار هذا الجهاز الإنسانى. فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلا. هنالك مثلا ذلك التخاطر على البعد، وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين، اتصالات لا سبيل إلى الشك فى وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها، ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات. وكذلك التنويم المغناطيسى، وقد أصبح الآن موضعا للتجربة المتكررة المثبتة، وهو مجهول السر والكيفية. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنسانى. فإذا حسد الحاسد ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفى أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته. فنحن لا ندرى إلا القليل فى هذا الميدان، وهذا القليل يُكْشَف لنا عنه مصادفةً فى الغالب، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك. فهنا شر يستعاذ منه بالله، ويستجار منه بحماه. والله برحمته وفضله هو الذى يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور. ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به وفق توجيهه أعاذهم وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا. وقد روى البخارى بإسناده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما "قل: هو الله أحد" و"قل: أعوذ برب الفلق" و"قل: أعوذ برب

الناس" ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده: يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. وهكذا رواه أصحاب السنن". وقد وضعت كلام سيد قطب هنا ليكون تحت عين القارئ الرأيان كلاهما، فقد أكون أنا رغم كل شيء المخطئ، ويكون الرأى الآخر هو الرأى الصحيح، وإن كنت أستبعد هذا. والله أعلى وأعلم.

ولعل من المناسب هنا أن أورد ما دار حول موضوع العين بينى وبين أستاذة جامعية فى الطب منذ عدة أعوام، وهى أستاذة مخلصة فى عملها وتأخذه مأخذ الجد وتسجل كل ما يقوله المريض جوابا على أسئلتها له، فقد كان رأيها أن الإصابة بالعين صحيحة لا جدال فيها، فسألتها عن أدلتها على ذلك بوصفها متخصصة فى أحد العلوم الطبيعية، وهى علوم تقوم على التجربة والبرهان المعملى، فكان ردها أننا كثيرا ما نكون جالسين وحدنا مستغرقين فى العمل بمكتبنا، وفجأة نلتفت خلفنا ناحية الباب فنجد من ينظر إلينا. وكان تعليقى أن هذا شيء مختلف تماما عن الإصابة بالعين حسدا، ومن ثم لا يعد دليلا على صحتها. ثم مررت فقلت إنه، على العكس من ذلك، كثيرا ما يقف أحدنا لدى الباب دون أن يلحظ الجالسُ بالداخل وقوفَه. وكثيرا ما وقفت طويلا على باب الغرفة التى تكون فيها زوجتى أو أحد من أبنائى دون أن يلتفت أحدهم ناحيتى، اللهم إلا إذا تنحنحت أو أصدر شبشبى صوتا أو أتيت حركة لفتت نظره مثلا. كما أننى كثيرا ما أكون فى غرفة مكتبى ثم فجأة أشعر بالصمت يسود المكان، فألتفت ناحية الباب متصورا أن أحدهم واقف هناك فلا أجد شيئا. ويتكرر بطريقة شبه منتظمة أن أنظر ناحية الباب متصورا أن ابنتى الصغيرة قد أتت من الخارج وتهم بالدخول علىَّ فلا أجد شيئا بالمرة. وهو ما يفنِّد الموضوع برمته من الناحية العلمية، إذ التجربة المعملية تقتضى أن يتم ذلك دائما لا مرة ولا مرتين وأن يُتَأَكَّد من الأمر سلبا وإيجابا بطرق شتى. وهذا لو كان لذلك التلفت الفجائى صلة بموضوع الحسد بالعين. أما وليست له تلك الصلة فالأمر إذن عِرَاكٌ فى غير مُعْتَرَك.

وفى نهاية الفصل أود أن أشير إلى أنه فى جيرتنا بالقرية بيت كان يُتَّهَم كبيرُه بأن عيونه حسادة ولا تطيش سهامها أبدا وأن نظرة منه إلى البقرة أو الجاموسة التى تمر أمامه معناها موتها المحتوم على الفور. ويا ما أكثر مَنْ فى الحبس مِنْ مظاليم والله العظيم، فلا أذكر أنى رأيت ماشية تقع جراء نظرته أبدا. إنما هو كلام وشائعات ليس إلا. هذه واحدة، أما الثانية فأمر مضحك ومفارقة عجيبة، إذ دارت الأيام، وتركتُ القرية وصرت من أهل القاهرة بحكم عملى، فكلما زرت القرية وطلبت من أقربائى أن يشتروا لى جبنا قريشا من بيت ذلك الرجل جاءنى الجواب بأنهم لا يبيعون جبنا، فأستغرب لمعرفتى أن عندهم بقرا وجاموسا وأنهم كانوا يرسلون إلينا فى طفولتى وصباى الجبن القريش، بل إلى وقت قريب كان أقاربى يشترون لى منهم ذلك الجبن، فيوضح أقاربى أنهم لم يعودوا يبيعون الجبن للناس من حولهم بل يبيعون اللبن مبكرا لتاجر

من خارج القرية خوفا على ماشيتهم من العين والحسد... الله أكبر! حتى هؤلاء المتهمون بأن عيونهم التى تندبّ فيها رصاصة يخافون من عيون الآخرين؟ نعم والله العظيم. فالعقول مضطربة، والأفكار متخلفة، والأذهان مطلسمة، والبصائر مطموسة. ولا أملك إلا أن أُقول: شعوب بزرميط!

المرأة فى تفسيرى البهى والغزالى

لم يترك د. البهى من تفسير السور المدنية إلا تفسير سورة "النساء"، وهى السورة التى سأجعل تناولها لبعض قضايا النساء محل مقارنة بينه وبين الشيخ الغزالى رحمهما الله رحمة واسعة. ونبدأ بأول قضية، وهى موجودة فى أول آية من السورة بل فى أول جملة من تلك الآية، وهى قوله تعالى موجها الكلام للبشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأشكالهم وبلدانهم وحضاراتهم: "يا أيها الناس، اتقوا ربكم، الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء...". فما معنى أن الله خلقنا نحن البشر من نفس واحدة وخلق من هذه النفس زوجها؟

يشرح د. البهى ذلك قائلا: "فمن الطبيعة البشرية الواحدة التى لها خصائص الإنسان خلق الله زوجين: الذكر والأنثى، ثم خلق من هذين الزوجين الكثرة اللانهائية للرجال والنساء. فالأنثى مساوية فى الاعتبار البشرى للذكر، والتفرقة بينهما بالذكورة والأنوثة لا توجب التفرقة فى الاعتبار لكل منهما. وتعبّر آيةٌ أخرى فى سورة "فاطر" عن هذه المساواة بعبارة واضحة بقول الله تعالى: "والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا..."، فالآية تذكر أن الأصل الأول فى خلق الإنسان، ذكرا وأنثى، هو التراب ثم النطفة بعده، ومن هذه النطفة كانت الذكورة والأنوثة معا. وبذلك كان الأصل أو الطبيعة الأولى للذكر والأنثى من الإنسان واحدة. والنطفة ليست نطفة الرجل وحده، وإنما هى نطفة مختلطة ساهم فيها الذكر والأنثى على السواء...

وأكثر المفسرين المسلمين لقوله تعالى: "من نفس واحدة" يحكون قصة التوراة فى خلق الإنسان، فيروون أن شخص آدم خُلِق أولا ثم خُلِقَت من ضلعه حواء. وبذلك يكون آدم متميزا عن حواء، وتكون حواء غير مساوية فى الاعتبار لآدم. ولكن الأخذ بهذا التفسير ربما يخل بهدف السورة كله، فالسورة جاءت فى المقام الأول لتوضح أن المرأة ينبغى ألا تُسْتَضْعَف، وبالتالى ينبغى ألا يُعْتَدَى عليها بسلب حقوقها، إذ إنها مساوية للذكر، وهو الذى يعتدى عليها ويستضعفها فى الاعتبار البشرى. فالقاعدة الأساسية التى تقيم عليها السورة ما يُطْلَب فيها من أمر ونهى، وبالأخص فيما يتعلق بوضع المرأة فى الأسرة والحياة الاجتماعية، هى قاعدة المساواة. وهذه القاعدة تستبعد رواية التوراة فى خلق الأنثى من ضلع آدم كما تحكى التوراة".

وأول ما أعلق به على هذا النص هو أنى لا أحب أن نسمى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بـ"التوراة" لأن التوراة هى الكتاب الذى نزل على موسى عليه السلام، ولا يمكن أن تكون تلك الأسفار الخمسة هى ذلك الكتاب المذكور لما فيها من عقائد وقصص منسوبة

لله ولبعض الرسل لا تصح بتاتا كالقول بأن الله كان يتمشى فى الجنة عندما هبت ريح النهار، وأنه نادى آدم حينئذ يسأله: أين أنت؟ إذ كان آدم قد اختبأ هو وحواء عندما سمع صوت الرب آتيا، وكالقول بأن الله قد ندم على خلقه البشر، وكالقول بأن نوحا قد سكر وانطرح فى خيمته عريانا تماما ودخل عليه ابنه الأكبر فرآه على هذه الحالة المزرية، وحين أفاق نوح وعرف أن ابنه قد رآه عريانا قام بلعنه ولعن ذريته دون أن يكون الابن قد ارتكب فى حق أبيه شيئا، بل الخطأ خطأ الأب نفسه، ودون أن يكون لذرية الابن أى دخل فيما حدث لأنها لم تكن قد أتت إلى الوجود بعد، وكالقول بأن ابنتى لوط عليه السلام قد سقتاه خمرا ثم نامتا معه وهو سكران لا يعى شيئا وحبلتا وأنجبتا منه، وكالقول بأن موسى قد قتل المصرى عن عمد وسبق إصرار لا على سبيل الخطإ ثم استغفر ربه فى الحال ندما فغفر الله له كما جاء فى القرآن، وأن هارون هو الذى صنع العجل للإسرائيليين كى يعبدوه أثناء غياب موسى فى لقاء ربه فوق الجبل... إلخ. ومن هنا أفضّل أن نقول هنا: "كما جاء فى سفر "التكوين" من العهد القديم (الإصحاح الثانى)" لا "كما جاء فى التوراة".

وهذا هو النص الذى أشار إليه د. البهى كما جاء فى سفر "التكوين": "١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. ١٦وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلا، ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ». ١٨وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ». ١٩وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. ٢٠فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. ٢١فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. ٢٢وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». ٢٤لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٢٥وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ".

على أن تنقُّص العهد القديم للمرأة لا يقف عند هذا الحد بل يمضى فيتهمها وحدها بأنها سبب الخروج من الجنة، إذ استجابت لغواية الحية وأكلت من ثمر الشجرة المحرمة ثم أغوت زوجها حتى أكل منها هو أيضا، فطُرِدا من النعيم الذى كانا فيه. أما القرآن فيسند الخطأ للاثنين كليهما، وإن كان قد نسب العصيان والنسيان لآدم وحده نصًّا كما جاء فى سورة "طه" فى قوله جل شأنه: "فنَسِيَ ولم نجد له عزما"، "وعَصَى آدمُ ربَّه فغوَى". جاء فى الإصحاح الثالث من "سفر التكوين" عن هذا الموضوع: "١وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي

عَمِلَهَا الرَّبُّ الإلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» ²فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الجَنَّةِ نَأْكُلُ، ³وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». ⁴فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! ⁵بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». ⁶فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. ⁷فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ.

⁸وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ⁹فَنَادَى الرَّبُّ الإلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». ¹⁰فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ¹¹فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» ¹²فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». ¹³فَقَالَ الرَّبُّ الإلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». ¹⁴فَقَالَ الرَّبُّ الإلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. ¹⁵وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». ¹⁶وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». ¹⁷وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ¹⁸وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ¹⁹بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ»".

وقد رجعتُ إلى عدد من أشهر كتب التفسير كتفسير الطبرى وتفسير الزمخشرى وتفسير القرطبى وتفسير الطبرسى وتفسير البيضاوى وتفسير الجلالين وتفسير الشوكانى وتفسير الألوسى وتفسير ابن عاشور وتفسير د. محمد سيد طنطاوى، فألفيتُهم يقولون إن حواء خلقت من ضلع آدم حسبما أشار إلى ذلك د. البهى. ولم أكتف بهذا بل تعديت إلى كتب التاريخ والأدب، فكانت الحصيلة هى هى. ففى خبر من "أخبار القضاة" لوكيع أن لبطلة الخبر فى أحد جنبيها أحد عشر ضلعا، وفى الآخر اثنى عشر ضلعا، مثلما أن الرجل له فى أحد جنبيه أحد عشر ضلعا، وفى الآخر اثنا عشر، إذ أُخِذ من أحد جنبى آدم ضلع خُلِقَت منه المرأة. والغريب ما تقوله الحكاية من أن أضلاع بطلة الخبر قد عُدَّتْ، فكانت فعلا كذلك، ومن ثم فرّق الخليفة بينها وبين زوجها لأنه لا يصح أن يتزوج الرجل رجلا مثله، وبخاصة أن تلك المرأة

كان لها عضوا ذكورة وأنوثة معا وعاشرت إحدى النساء فحملت منها. ومعروف فى الطب أنه لا يوجد أى فرق بين عدد أضلاع الرجال وعدد نظيرتها عند النساء. وواضح أن الكلام عن عدد أضلاع المرأة وأنها تزيد عن مثيلتها فى أجساد الرجال هو كلام عميانى لم يُتَحَقَّق من صحته على عكس ما تقول الحكاية.

وفى "الأمالى الشجرية" عن ابن عباس رضى الله عنه "أن يهوديا أتاه فقال: يا ابن عباس، إنى أريد أن أسألك عن أشياء إن أنت أخبرتنى بتأويلها فأنت ابن عباس. قال: وما هى؟ قال: أخبرنى عن آدم عليه السلام ولم سمى: آدم؟ وعن حواء لم سميت: حواء؟... فقال ابن عباس: يا يهودى، أما آدم فإنه سمى: آدم لأنه خُلِق من أديم الأرض، وأما حواء فإنها سميت: حواء لأنها خلقت من حيوان من ضلع آدم الصغرى، ويقال له: القصير... وأما المرأة فإنما سميت: امرأة لأنها خلقت من المرء...".

وفى "البداية والنهاية" لابن كثير عن ناس من الصحابة "أنهم قالوا: أُخْرِج إبليس من الجنة، وأُسْكِن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحشيا ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنتِ؟ قالت: امرأة. قال: ولم خُلِقْتِ؟ قالت: لتسكن إلى... وذكر مُحَمَّد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خُلِقَت من ضلعه الأقصر الأيسر، وهو نائم، ولأَمَ مكانه لحما. ومصداق هذا فى قوله تعالى: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرا وَنِسَاءً" وفى قوله تعالى: "هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفا فَمَرَّتْ بِهِ"... وفى الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: "استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه، فإن ذَهَبْتَ تقيمه كسرتَه، وإن تركتَه لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا"...".

وهو نفس ما نجده فى "مختصر تاريخ البشر" لأبى الفداء، وفى "الفتوحات المكية" لابن عربى، وأورد ابن سيده فى "المخصص" حديثا منسوبا للنبى عليه السلام يقول: "خُلِقَت المرأة من ضلع عوجاء نُزِعَتْ من جنب آدم عليه السلام". وفى كل من "تاريخ الطبرى" و"المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك" لابن الجوزى عن قتادة أن الله خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم. وفى "ربيع الأبرار ونصوص الأخبار" للزمخشرى عن ابن إسحق: "يقال: خلق الله آدم، ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاما قبل أن ينفخ فيه الروح، حتى عاد صلصالا كالفخار ولم تمسه نار. وعن ابن عباس وغيره: ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر، وآدم نائم لم يهبّ من نومته حتى خلق منه حواء، فلما هبَّ رآها إلى جانبه فقال: "لحمى ودمى وزوجى"، فسكن إليها". وفى "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء" للراغب الأصفهانى: "قيل: خلق الله آدم من تراب،

فهِمَّتُه فى حفر التراب، وخُلِقَت المرأة من ضلع الرجل، فهِمَّتُها فى الرجل". وفى "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى: "ولما نام آدم خلق الله تعالى حواء من جنبه الأيسر من ضلعه مما يلى الشرسوف، وهو ضلع أعوج، قال الله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها"، فكانت على طول آدم وحسنه وجماله، إلا أنها أرق جلدا منه، وأحسن صوتا، ولها ضفائر مرصعة محشوة بالمسك تسمع لذوائبها خشخشة، فجلست عند رأسه، فانتبه فرآها، فتمكن حبها من قلبه، فقال: يا رب، من هذه؟ قال: أَمَتى حواء. فقال: يا رب لمن خلقتَها؟ قال: لمن أخذها بالأمانة، وأصدقَها الشكر".

أما كيف فسر المفسرون الآية على هذا المعنى فعن مجاهد: "خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ واحِدَةٍ. قال: آدم. ونظير قوله: "مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ"، والمعنى به رجل، قول الشاعر:

أبـــوكَ خليفَـــةٌ وَلَدتْـــهُ أُخْـــرَى   وأنـــتَ خليفـــةٌ. ذاكَ الكَمـــالُ

فقال: "ولدتْه أخرى"، وهو يريد الرجل، فأنَّث للفظ "الخليفة". وقال تعالى ذِكْرُه: "مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ" لتأنيث "النفس"، والمعنى "من رجل واحد". ولو قيل: "من نَفْسٍ واحدٍ"، وأخرج اللفظ على التذكير للمعنى كان صوابا. القول فى تأويل قوله تعالى: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرا وَنِسَاء". يعنى بقوله جلّ ثناؤه: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا": وخلق من النفس الواحدة زوجها، يعنى بـ"الزوج" الثانى لها، وهو فيما قال أهل التأويل: امرأتها حوّاء. ذكر من قال ذلك: حدثنى محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" قال: حوّاء من قُصَيْرَى آدم وهو نائم، فاستيقظ فقال: "أثا" بالنبطية "امرأة" .حدثنا المثنى قال: ثنا أبو حذيفة قال: ثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مثله. حدثنا بشر بن معاذ قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: "وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" يعنى حوّاء خلقت من آدم من ضلع من أضلاعه".

وهذا التفسير ليس مما يتبادر إلى الأذهان لو خلت الأذهان من قصة العهد القديم التى تقول إن حواء خلقت من ضلع آدم. ثم كيف عرف الرواة أن حواء كانت تتكلم النبطية، وأن آدم سألها كذا، فردت عليه بكذا؟ هل كانوا حاضرين معهما آنذاك وسجلوا لهما ما قالاه؟ وهل كانت هناك لغات أصلا بله أن تكون هناك لغة نبطية؟ بل هل يمكن أن تكون هناك نبطية دون أنباط؟ ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك أنباط قبل وجودهم الفعلى بآلاف السنين إن لم يكن بملايينها، وإلا فقل على أوضاع العالم وتاريخه وجغرافيته وتطوراته ونظامه وقوانينه السلام ما دامت حوادث التاريخ وأممه تسبق زمنها المقدور لها فى قضاء الله وقدره وتقع قبل وقوعها الفعلى بتلك الآماد التاريخية الهائلة. إننى دائما ما أتصور أن الإنسان الأول كان يتفاهم بالإشارة والأصوات الجرداء التى لا تعنى شيئا مفصلا واضحا دقيقا كما هو الحال فى لغاتنا التى نستخدمها الآن. ثم هل هذا هو كل ما قاله ذانك الزوجان فقط لا غير؟ ألم يشعر

آدم مثلا بالجوع يقرص بطنه فطلب من حواء أن تجهز له طعاما، فردت عليه بغلظة وخشونة جراء ما كانت تشعر به من تعب وإرهاق شديد إذ كانت قائمة لتوها من العملية الجراحية الخطيرة التى خرجت بها من ضلعه، فعز عليها ألا يقدّر ظروفها ويكون همه كله على بطنه، فزعقت فيه: "المطبخ أمامك، فقم وابحث عن أى شيء تأكله، فأنا مرهقة. حرام عليك! راع حالتى يا أخى"؟ ألا إن الأمر كله على تلك الطريقة التى يتخيلها بعض مفسرى القرآن لأمر مضحك!

وكانت بين طلبتى فى مرحلة الدراسات التمهيدية لطلاب الماجستير منذ عدة أعوام طالبةٌ متفوقة أمها أستاذة فى كلية الطب، وكانت تعتقد، بالعكس من هذا، أن أضلاع المرأة تنقص عن أضلاع الرجل. فطلبت منها أثناء المحاضرة أن تسأل والدتها عن هذا الأمر بوصفها طبيبة، فطلبتها فى الهاتف الجوال لوقتها وذكرت لها رأيها، فأسمعتها أمها كلاما قارصا على سبيل الدعابة، وضحكنا. والغريب أن الطالبة كانت قبل ذلك تؤكد ما تقول ولا تنصت لاقتراحى أن تعود لصور الهيكل العظمى لكل من الرجل والمرأة فى أى مرجع طبى وتعد أضلاع كل منهما لتتحقق هل فعلا أضلاع المرأة أقل عددا من أضلاع الرجل أو لا. وأعجب منه أنها لم يخطر لها بتاتا أن تسأل أمها الأستاذة الجامعية المتخصصة فى الطب. وأغلب الظن أنها كانت تحسب أن الأمر فى هذه المسألة إنما يرجع إلى المشائخ لا الأطباء. وهذا ديدن كثير من المتدينين فى عصرنا للأسف.

هذا على تفسير المفسرين الذين رجعت إليهم على الأقل، أما على تفسير د. البهى فالنفس الواحدة، حسبما فهمت من كلامه وحسبما كنت أفهم الأمر بنفسى أيضا قبل قراءة كلامه، هى النفس الإنسانية قبل تقسيمها إلى ذكر وأنثى، والزوج الذى خلقه الله منها هو آدم وحواء، لأن كلمة "زوج" كما تطلق على الواحد من أى اثنين مرتبطين بشكل تكاملى فكذلك تطلق على الاثنين معا كما فى قولنا مثلا: "زوجُ حمامٍ"، أى ذكر حمام وأنثاه. ومثلها "زوج أرانب". وفى "مختار الصحاح": "الزَّوْجُ ضد الفرد. وكل واحد منهما يسمى: زوجا أيضا. يقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج، كما يقال: هما سِيَّان، وهما سواء. وتقول: عندى زوجا حمام، يعنى ذكرا وأنثى، وعندى زوجا نعل". وفى الإنجليزية يقولون عن الزوج والزوجة معا: "**a couple**"، أى زوج (فى مقابل "الفرد"). وكنت فى طفولتى أسمع الكبار من أهل قريتى يقولون: "جُوز جزمة"، أما نحن الجيل الجديد فكنا نقول: "جزمة" ليس إلا. و"جوز الجزمة" هى نفسها "الجزمة". وعلى نفس الشاكلة يقول الإنجليز: "**a pair of trousers, a pair of shoes, a pair of scissors, a pair of socks, a pair of gloves, a pair of tongs, a pair of bellows…**".

هذا ما قاله د. البهى هنا، وهو ما كان قد قاله قبلا فى تفسيره لسورة "الأعراف" عند الآية رقم ١٨٨: "هو الذى خلقكم من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها ليسكن إليها"، وهذا ما قلته أنا، أما الشيخ محمد الغزالى فلم يوضح رأيه بل اكتفى بالكلام العام الذى لا تستطيع أن تستخلص منه أهو يفسر "النفس الواحدة" بـ"آدم" أم بـ"النفس الإنسانية" المطلقة التى لا هى ذكر ولا أنثى، ولكنها انقسمت إلى ذكر وأنثى. فالرجل والمرأة هما زوج هذه النفس الإنسانية، أى هما الزوجان اللذان انقسمت إليهما هذه النفس الإنسانية. وهذا نص ما كتبه الشيخ: "محور السورة كلها العلاقات الاجتماعية وضرورة إحكامها وتسديدها. وبدأ التنبيه إلى ذلك من مطلع السورة: "يا أيها الناس، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء". إن الناس، وإن بدا بعضهم غريبا عن بعض، هم أقارب فى الحقيقة. إن أبًا واحدًا ينميهم، ورحمًا مشتركةً تحملهم. وعلى كل إنسان أن يذكر هذه القرابة فيصل الرحم الماسَّة، ويصل الرحم البعيدة. وصلة الأرحام من شعائر الإسلام، وإن كان المألوس بين الناس أن الرحم لا تعنى إلا الأقربين من دين وأخوّة. ويجب أن تكون دائرة الإنسانية أوسع، وأن يتم التعاون بين أجناسها وألوانها".

هذا فى كتابه الذى بين أيدينا: "نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم"، لكنه فى كتابه: "حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة" قال ما نصه: "إن حواء خُلِقَت من آدم كما نبأنا القرآن الكريم: "يا أيها الناس، اتقوا ربكم، الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها" (النساء/ ١). والأولاد بعد ذلك ذكورا وإناثا جاؤوا ثمرة واحدة لتواصل الأبوين الأولين: "وبث منهما رجالا كثيرا ونساء" (النساء/ ١). فمن الجنون تصور أحد الجنسين غريبا عن الآخر أو دونه مكانة: "بعضكم من بعض" (آل عمران/ ١٩٥)". فالمرأة عنده مخلوقة من ضلع آدم، لكنها تساويه مكانةً وإنسانيةً.

وعلى كل حال فسواء صح هذا الرأى أو ذاك فالرجل والمرأة متساويان فى أصل الخلقة لأن كليهما إنسان يتمتع بنفس القدرات والمواهب مع اختلاف فى الدرجة هنا وهناك، فضلا عن أن الله سبحانه جعل الرجال قوامين على النساء، وإن كان هذا لا يعنى أن كل رجل أقوى شخصية من كل امرأة. فهذا شىء، وذاك شىء آخر. والواقع يقول بأعلى صوت إن هناك نساء أقوى شخصية وأقدر على تصريف الأمور من أزواجهن أو إخوتهن، وجميعنا يرى هذا كثيرا فى الحياة. وفى هذه الحالة تفرض قوة شخصية المرأة نفسها، ويتراجع الرجل بحكم الأمر الواقع إلى المركز الثانى. إلا أن هذا يجرى على خلاف القاعدة العامة. ومعروف أنه ما من قاعدة إلا ولها شواذّ.

فهذه واحدة، والقضية الثانية هى قضية تعدد الزوجات. وفيها يقول د. البهى عند تناوله الآية الثالثة من السورة: "وإن خفتم ألا تُقْسِطوا فى اليتامى فانكِحوا ما طاب لكم من

النساء: مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع" إن "تعدد الزوجات إلى أربع ليس إذن قاعدة ولا مبدأ عاما ولا فريضة ملزمة الأداء، وإنما هو حل فقط لمن لا يستطيع الاكتفاء بواحدة ويخشى على نفسه الوقوع فى الزنا. والمسلم الذى يمارس هذه الرخصة يمكن أن يوضع أمام غير المسلم الذى يقف بزواجه عند واحدة ويتخذ بعدها عددا من الخدينات والصديقات ويعاشرهن سرا معاشرة جنسية دون أن يلتزم نحوهن بأى التزام يحفظ حقوقهن ويساعدهن على حياة كريمة واضحة".

وهذا كلام منطقى جدا، ولا يحتاج الأمر إلى أن نذهب بعيدا لفهم قوة المنطق فى هذا الكلام، إذ لا يوجد مجتمع فى العادة يبلغ فيه عدد النساء أربعة أضعاف عدد الرجال أو حتى ضعفين. وإنما يزيد عددهن عن عددهم بنسبة جد محدودة. وعلى هذا فنسبة تعدد الزوجات إلى التوحيد فى أى مجتمع إسلامى هى بحكم الواقع والطبيعة نسبة ضئيلة تماما. ولهذا كنت أسخر من بعض الخليجيين الذين كانوا يؤكدون أن الأصل فى الزواج التعدد، وبخاصة أنهم كانوا ينظرون إلى تعدد الزوجات وكأنه مفخرة العرب والمسلمين، والسبيل إلى استعادة أمجادنا وقوتنا وعزتنا. الواقع أنه لو كان التعدد هو الأصل ما اشترط القرآن الكريم على من يرغب فى مزاولته من المسلمين أن يكون عادلا مع زوجاته، وإلا فالأفضل له أن يكتفى بواحدة. إن هذا الاشتراط معناه أن الأفضل لكل من لا يعدل أن يكتفى بواحدة، فكيف يصل الأمر بالأصل إلى هذه الحال؟ كما أن الله سبحانه لو كان قد جعل التعدد هو الأصل لكان خلق لآدم أكثر من زوجة، لكننا ننظر فلا نجد له إلا أمنا حواء.

أما المقارنة بين تعدد الزوجات وبين تعدد الخليلات فى المجتمعات الغربية فهى مقارنة بين السماء العطرة وبلاعات تصريف الفضلات المنتنة. والعجيب أن هؤلاء الغربيين الذين يعيشون فى هذا الدنس المقزز الباعث على القىء يظنون أن ما يصنعونه أفضل مما نفعله نحن المسلمين حين نعدد. إنهم يفعلون مثلنا فى الظاهر، مع تفوقنا عليهم فى الحقيقة تفوقا عظيما هائلا، ومع هذا فإنهم يستديرون من الناحية الأخرى ويهاجمون نظامنا الأسرى بكل بجاحة وبجاسة. وأذكر فى هذا السياق أن ذلك الموضوع قد فُتِح بينى وبين السيدة الأمريكية مسز أَدَامِك، التى كانت تعطينى دروسا خاصة فى اللغة الإنجليزية أول وصولى لأكسفورد، إذ كانت لغتى الأجنبية فى مصر هى الفرنسية، ففُوجِئَتْ حين قلت لها: أليس تعدد الزوجات أفضل من تعدد الخلائل عندكم؟ فقالت بسرعة وذكاء: كأنك تريد أن تقول إنكم واضحون فيما تفعلون بينما نحن منافقون؟ فقلت لها: شىء كهذا. فوافقتنى أو على الأقل: لم تستطع مواصلة الاختلاف معى والانتقاد لنظام تعدد الزوجات لدينا. على أن الأمر فى "وانكحوا ما طاب لكم من النساء..." ليس للوجوب بل هو كما تقول لضيفك مثلا وأنت تقدم له طبق فواكه: "تفضل كُلْ". إنك لا تفرض عليه الأكل بل تعرض عرضا على سبيل التكرمة له والتعبير عن مودتك إياه وسرورك

به. أى أن تعدد الزوجات حل من الحلول، وإن شئتم أخذتم به ما دمتم ترون أنه يسهِّل عليكم أمور حياتكم. وهذا كل ما هنالك.

والآن إلى ما قاله الشيخ مُحَمَّد الغزالى: "وفى أثناء الكلام عن اليتامى عرض حديث الزواج، فأبيح مفردا ومتعددا. والإسلام فى هذا لا يشذ عن سَنَن الأديان التى سبقت، فلا يوجد دين حرَّم التعدد بأمر من الله. وعندما أنظر إلى واقع الناس فى عصرنا أرى الأوروبيين والأمريكيين أسوأ الناس صلة بالنساء، فالتعدد الحرام شائع بينهم، ويستطيع أى وغد أن يتصل بعشرات النساء. والمباح عندنا له دائرته المرسومة، فإن الإسلام أمر الأعزب بالصيام إذا كان لا يقدر على تكاليف الزواج، فكيف يبيح لمتزوج بواحدة أن يطلب أخرى لا يستطيع إعاشتها، وإن استطاع لم يستطع العدل معها؟ على أن الزواج عندنا لا يتم بالإكراه، وتستطيع أى كارهة للتعدد أن ترفضه. ذلك، ومَنْ خَشِيَتْ من زوجها التعدد تستطيع فى صلب العقد أن تشترط ألا تكون لها ضَرَّة، وعلى الزوج كما قال أحمد أن يلتزم ويوفى بالشرط وإلا طُلِّقَتْ!".

وأول ما نلاحظه فى كلام الشيخ ذلك الانفعال الأسلوبى إن صح القول، فبينما يتحدث البهى بهدوء نرى الغزالى يستخدم مثلا صفة "الوغد" للغربى الذى لا يعدد فى الحلال، ولكنه يزنى كما يحلو له، فيعدد ولكن فى الحرام والدنس، ثم يجد فى وجهه الجامد الغليظ الجراءة على انتقاد شريعة الإسلام. كما أرجو التنبه إلى عبارة "يتصل بعشرات النساء" وما فيها من مبالغةٍ وحِدَّةٍ بلاغية غايتها التنفير من نفاق الغربيين وطول لسانهم وسفاهة عقولهم وتهافت موقفهم. كما أن الشيخ قد انتهز السانحة فاهتبلها فى تبيين حكم الإسلام فى بعض القضايا كقضية موافقة الزوجة الأولى على زواج رجلها عليها. ورَأَى الشيخ أن من حقها تضمين عقد زواجها هذا الشرط. ورأيه أيضا أن من حقها الخلع إذا رفضت تزوج رجلها عليها وأرادت الخلع. ورأيه أيضا أن من لا يستطيع العدل يكتفى بواحدة. وهو لا يرى فى هذا أى تضييق عليه بل يقيسه على العازب الذى لا يجد الباءة، أى لا يستطيع تحمل تكاليف الزواج، فيأمره الرسول بالصبر والصوم. فإذا كان الرسول يأمر العازب الذى يحتاج إلى مجرد الزواج بالصيام وعدم الإقدام على زواج لا يمكنه النهوض بمسؤوليته فكيف يوافق على من يريد الزواج بثانية أو ثالثة ثم هو لا يمكنه القيام بتبعات هذا الزواج الإضافى؟ ثم إن الشيخ يؤكد أنه لا يوجد دين يحرم التعدد حقا، بل متى وجدنا التعدد محرما فى دين من الأديان فلنعرف أنه ليس كلام الله بل كلاما زُعِم أنه كلام الله. فانظر الآن الفرق بين طريقة معالجة الغزالى وبين طريقة معالجة البهى لنفس المسألة.

وفى الكتاب المقدس نقرأ مثلا أن لامك، وهو من نسل قايين بن آدم، قد تزوج باثنتين، كما عدَّد إبراهيم ويعقوب وجدعون وداود وسليمان. وتذكر "دائرة المعارف الكتابية" أنه

"كان لسليمان سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السرارى، فأمالت نساؤه قلبه (١مل ١١: ٣). لقد كان تعدد الزوجات شائعا فى ذلك العصر، والكثير من هذه الزيجات كان يتم لأغراض سياسية... وقد سمح سليمان للكثيرات من أولئك النسوة أن يعبدن آلهتهن بل بالحَرَى بنى لهن معابدهن، فلم يعد سليمان يبالى بالشهادة لإلهه، بينما كانت نساؤه أكثر منه اهتماما، كل واحدة بآلهتها، فغضب الرب عليه حتى إنه ظهر له مرة ثالثة ووبخه وأنذره بأنه فى زمن ابنه سيمزق المملكة (١مل ١١: ٩-١٣). وظلت هذه المعابد الوثنية التى بناها سليمان لنسائه الغريبات فخًّا لإسرائيل إلى أن هدمها يوشيا الملك (٢مل ٢٣: ١٣و١٤). وظلت خطية سليمان مثالا للشر فى أيام الإصلاح الذى قام به عزرا (نح ١٣: ٢٦). وسُمى المكان الذى أقيمت فيه تلك المعابد: جبل الهلاك (٢مل ٢٣: ١٣)".

وتقول مادة "المرأة فى الإسلام" بـ"الموسوعة العربية العالمية": "جاء الإسلام، وكان التعدّد أمرًا قائمًا بين العرب وفى المجتمعات والأديان السابقة، فقد عدّد إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام وغيرهم من أنبياء الله الكرام، وأباحت الديانتان: اليهودية والنصرانية التعدد، وبقى التعدد مباحًا فى العالم النصرانى حتى القرن السادس عشر الميلادى كما جاء فى كتب التاريخ الأوروبية. جاء الإسلام والتعدد موجود، وليس له حدود، فأقرّه ومنع الزيادة على الأربع، واشترط له العدل بين الزوجات. فإن علم الرجل أنه لن يعدل يحرم عليه التعدد، وإن خاف ألا يعدل فعليه الاقتصار على واحدة. وقد روى عن رسول الله أنه قال: من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل (رواه الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح). قال تعالى: وإن خفتم ألا تُقْسِطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة (النساء: ٣)، وقال تعالى: ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كُلَّ المَيْل فتذَروها كالمعلَّقة (النساء: ١٢٩). والميل القلبى لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه. فالرسول يقول: اللهم إن هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك (رواه ابن كثير فى التفسير عن أحمد وأصحاب السُّنَن وقال: هذا إسناد صحيح). وقد أباح الإسلام التعدد، واشترط له العدل، علاجًا لتفاوت الناس فى قدراتهم وحاجاتهم النفسية والجسمية، وسبيلا للإحصان والعفاف بفتح باب الحلال، وإغلاق باب السِّفاح والمخادنة. وقد عدَّد رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم والتابعون وعامة المسلمين من بعدهم. ولم نسمع هجومًا على التعدد إلا منذ عهد قريب بعد الغزو الفكرى لبلاد المسلمين. ونظام التعدد، كما مضى، لم يُحْدِثه الإسلام، فقد كان موجودًا حتى فى البيئات التى ترفض التعدد نفسه". ليس هذا فحسب، بل وجدت مجتمعات يتعدد فيها الأزواج للمرأة الواحدة، ويسمى هذا اللون من الزواج فى الفرنسية: "**polyandrie**" فى مقابل الـ"**polygamie**". أما الإسلام فتجنَّبَ هذا النَّجَس. بل لقد عرفت بعض المجتمعات جمع

الزوج بين الأختين، وهو ما يطلق عليه بالفرنسية: "sororale"، وقد حرمه الإسلام تحريما باتا، وكان بعض العرب فى الجاهلية يزاولونه دون أى تحرج.

وفى تفسير الآيتين ١٥– ١٦ من السورة: "واللاتى يأتين الفاحشةَ من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم. فإن شهدوا فأمسكوهنّ فى البيوت حتى يتوفاهن الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلا * واللذان يأتيانها منكم فآذُوهما. فإن تابا وأصلحا فأعرِضوا عنهما. إن الله كان توابا رحيما" يقول د. البهى إن أولاهما تشير إلى ما يقع بين بعض السيدات من شذوذ جنسى، وهو السحاق، بينما تشير الثانية إلى ما يقع بين أى رجلين شاذين من لواط. قال فى الآية الأولى إنها "تشير إلى عادة السحاق بين النساء، وهى عادة تتفشى عندما يسود الترف أو تمعن المرأة فى البحث عن المتعة الجنسية ولا تجدها عند الرجل"، وفى الثانية: "إنها تتحدث عن الفاحشة بين الذكرين وحدهما، وليست بين ذكر وأنثى حتى تكون الفاحشة هى الزنا. والفاحشة التى تقع بين الذكرين هى اللواط على نحو ما يقع بين النساء خاصة مما يسمى بالسحاق. والآيتان تتحدثان عن علاقة جنسية شاذة، ولكنها تقع بين أفراد النوع الواحد من الذكور أو الإناث".

وهو نفسه التفسير الذى قال به الشيخ الغزالى: "ونلحظ أنه، قبل الحديث عن حسن العشرة، ذُكِرَتْ جريمتان من الجرائم الاجتماعية السيئة: الأولى السحاق، والأخرى اللواط. ومحاربة الجريمتين حماية حقيقية للأسرة، وحراسة لجوها الطاهر. فمن الخطإ حسبان الكلام مقحما على السياق. فى الأولى يقول الله سبحانه: "واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم. فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموتُ أو يجعلَ الله لهن سبيلا". وفى اللواطيين يقول تعالى: "واللذان يأتيانها منكم فآذوهما...". ومن نسيان الغرب لله ولقائه، وللدين ووصاياه، أنه استهان بهذه الجرائم كما استهان بأشدَّ منها، فكان ما نسمع به من فُشُوّ "الإيدز" والأمراض التناسلية الأخرى. والواقع أن حضارة الغرب منخورة الكيان، وما تَبْقَى إلا لغياب الوارث الذى يحل محلها. أعنى غياب المسلمين، الذين نسوا دينهم".

وقد ذكر تفسير "المنار" أن هذا الرأى ليس بجديد بل من القدماء من كانوا يفسرون الآيتين به. قال فى تفسير الآية الأولى: "ويأتين الفاحشة: معناها يفعلن الفعلة الشديدة القبح، وهى الزنا على رأى الجمهور، والسحاق على ما اختاره أبو مسلم، ونقله عن مجاهد". وقال فى تفسير الثانية: "وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ: أى يأتيان الفاحشة، وهى هنا الزنا فى قول الجمهور، واللواط فى قول بعضهم، وعليه أبو مسلم، والأمران معا فى قول الجلالين".

وما زال من المفسرين المحدثين من يقولون بأن المراد فى الآيتين هو الزنا كالآلوسى فى "روح المعانى" وابن عاشور فى "تفسير التحرير والتنوير". بل إن تفسير د. مُحَّد سيد طنطاوى،

وهو من التفاسير القريبة عهد بالصدور نسبيا، يقول بهذا الراى ولا يتطرق لغيره. فعنده أن "الله تعالى يبين لعباده بعض الأحكام المتعلقة بالنساء فيقول: أُخْبِرِكم أيها المؤمنون بأن اللاتى يأتين فاحشة الزنا من نسائكم، بأن فعلن هذه الفاحشة المنكرة وهن متزوجات أو سبق لهن الزواج... فاطلبوا أن يشهد عليهن بأنهن أتين هذه الفاحشة المنكرة أربعةٌ منكم، أى من الرجال المسلمين الأحرار". وأما الشيخ الشعراوى فى "خواطره، فرأيه يتفق ورأى د. البهى والشيخ الغزالى، إذ يقول عن الآية الأولى: "وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة"، أما فى الآية الثانية فقد أفاض القول فى اللواط وتبشيعه مؤكدا أن هذا الشذوذ لا يعرفه الحيوان. ومع هذا فأذكر أنى قرأت، فى المادة الخاصة بالشذوذ الجنسى عند الحيوانات بالنسخة الإنجليزية من موسوعة "ويكيبيديا" منذ فترة، أن العلماء لاحظوا أن هذه الفاحشة معروفة فى عالم الحيوان، ومنه طيور البطريق مثلا. ولست أدرى أهم صادقون فيما يقولون أم إنهم من دعاة تحليل الشذوذ، فهم يريدون أن يثبتوا أنه أمر طبيعى حتى خارج عالم الإنسان كيلا يشعر شواذ البشر بالحرج أو يستنكر غير الشواذ ذلك الانحراف ويعترضوا عليه.

واللواط والسحاق مجرَّمان ومؤثَّمان فى الإسلام، ويعاقب مرتكبوهما من الرجال والنساء. وكان الغرب يقف ذات الموقف من هذين الشذوذين. ومعروفة قصة أوسكار وايلد، وكان شاذا سلبيا، وقد سُجِن وشُهِّر به وأهين أفظع إهانة على شذوذه هذا. وقد ألف كتابا حول تلك المحنة الصاعقة عنوانه "**Du Profondis**: من الأعماق". وقرأت رسائله إلى أصدقائه ومعارفه، وألفيته يصف من ينكرون عليه سلوكه الشاذ بأنهم عوامّ الذوق (**philistine**). كما قرأت الكتاب الذى ألفه ابنه عن هذه الفضيحة المخزية ووصف فيه آثارها المدمرة على الأسرة، وتألمتُ لأولاده تألما شديدا، ثم جرت مياه كثيرة فى النهر وانتهى الأمر إلى أن أباحت كثير من دول الغرب بل قننت اللواط، ولم تعد تسميه: "**homosexuality**" أو "**sodomy**" بل تسميه: "المثلية"، وهى كلمة مخففة لا تحمل الإيحاءات القديمة التى تثير الاشمئزاز. بل لقد صار ممكنا وقانونيا أن تتكون الأسرة من أى اثنين: رجل وامرأة أو رجلين أو امرأتين. بل لقد سمعنا أن فتاة قد تزوجت من شجرة، وأخرى من نهر... وهكذا. ومن يتعرض لأحد الشواذ ولو بكلمة يمكن أن يمثل أمام القانون ويعاقب. وقرأت منذ مدة غير بعيدة أن بعض الأصوات فى ألمانيا تدعو إلى إباحة ممارسة الجنس مع الحيوانات. وكثير من الغربيين يمارس هذا الضرب من الشذوذ، لكنهم لا يكتفون بممارسته فيما بينهم وبين أنفسهم بل يريدون تقنينه بحيث يمارسونه بعلم الدولة والمجتمع وعلانية. وأتوقع أن تسمح قريبا أوربا بهذا ويعلنوا أن الأسرة يمكن أن تتكون أيضا من رجل وكلبة مثلا أو امرأة ونسناس.

وإذا كان كثير من الغربيين يبيحون أن تتكون الأسرة من رجلين أو امرأتين فقد قرأت فى موسوعة كولمبيا الإنجليزية فى مادة "**Marriage**" أنه فى داهومى بغرب أفريقيا يمكن أن تتزوج

المرأة امرأة مثلها، وتصبح الأولى هى الزوج، وينسب إليها الأطفال، الذين تنجبهم الأخرى (الزوجة) من علاقتها بأحد الرجال من خارج تلك الأسرة العجيبة. وهذا هو النص: "Among the Dahomey of West Africa, one woman could marry another; the first woman would be the legal "father" of the children (by other men) of the second". فالغرب إذن حين يقنن قيام أسرة من امرأتين فإنه لا يأتى بجديد بل سبقه إلى ذلك بعض المجتمعات البدائية المتخلفة. بل لقد شاهدت فى التلفاز البريطانى فى أواخر سبعينات القرن المنصرم امرأتين "تعيشان" معا على هذا النحو ومعهما ابنة إحداهما، وأجمعت الثلاث على أنهن سعيدات بحياتهن تلك. ولم أسمع أن الرأى العام قد هاج أو استنكر هذا الوضع.

لقد كفرت أوربا بالدين، وما دامت كفرت بالدين فليس هناك ما يمنعها من ذلك، إذ فى هذه الحالة يكون الناس هم مقياس أنفسهم. وبما أنهم يستلذون ذلك الشذوذ المقيئ فمن الذى يستطيع أن يمنعهم منه؟ وعلى أى أساس؟ لقد كان الناس يزدجرون عن المعاصى بسبب الدين، لكن لم يعد ثم دين، فما الذى يمكن أن يزجرهم؟ وفى رواية الكاتب الروسى الأشهر فيودور ديستويفسكى: "الإخوة كارامازوف" عبارة قالها إيفان الملحد تلخص الموقف كله، ألا وهى"إذا لم يكن الله موجودا فكل شيءٍ إذن مباح". وحتى الذين سوف يعارضون هذا الانحراف الجنسى لن يستطيعوا منعه لأن هناك شيئا اسمه الانتخابات ورغبة كل مرشح فى كسب الأصوات. وهؤلاء الشاذون حريصون على تنظيم أنفسهم فى كتلة واحدة تستطيع أن تنجِّح هذا المرشح وتُسْقِط ذاك حتى يفرضوا رأيهم وموقفهم ونجاستهم، والمرشحون على الناحية الأخرى يريدون أن ينجحوا بكل الوسائل، ولكى ينجحوا لا بد لهم من كسب أصوات تلك الكتلة المتماسكة الصلبة التى تغير المعادلة، ومن ثم يدعون إلى إباحة الشذوذ كى يُرْضُوها ويكسِبوا أصواتها. وفى الأنظمة الديمقراطية كثيرا ما تتحكم الأقلية فى الأكثرية من هذا السبيل.

وثم قضية نسائية أخرى هامة أود التعرض لها هنا، وهى حد الزنا. فالرأى الشائع هو أن الزانى المحصن، أى المتزوج أو الذى كان متزوجا، حكمه الرجم بخلاف الأعزب والعزباء فحكمهما الجلد مائة جلدة. لكن القرآن الكريم فى سورتنا هذه يقول عن الأَمَة إن حدها فى الزنا نصف حد المحصنة. وبطبيعة الحال فالموت لا ينصَّف. وبالتالى فهناك من يقول إن حد الزنا هو الجَلْد بإطلاق سواء كان الزانى محصنا أو لا. ويستشهد أصحاب هذا الرأى بأن القرآن لم يذكر الرجم قط، وأن حكم الزنا فى سورة "النور" هو الجلد قولا واحدا دون تمييز بين محصن ولا محصن. ويعزى هذا الرأى إلى الخوارج. جاء فى "تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة عما قاله الخوارج فى هذه القضية، وإن لم يحدد أسماء معينة: "قالوا: حُكْمٌ فى الرجم يدفعه

الكتاب. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ رجم، ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول فى الإماء: "فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب" (النساء/ ٢٥)، والرجم إتلاف للنفس لا يتبعّض، فكيف يكون على الإماء نصفه؟ وذهبوا إلى أن المحصنات: ذوات الأزواج. قالوا: وفى هذا دليل على أن المحصنة حدها الجَلْد". وهذان هما النصان الكريمان: قال جل شأنه عن الإماء فى سورة "النساء": "فإذا أُحْصِنَّ (أى تزوجن) فعليهن نصف ما على المحصنات (أى الحرائر) من العذاب (أى من العقوبة)"، وقال عن حد الزنا فى سورة "النور": "الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدة". ولم يقل عز شأنه: "الزانية والزانى إذا كانا غير محصنين فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، وإذا كانا محصنين فارجموهما" أو "فإذا أُحْصِنَّ فعليهن نصف ما على العزباوات من العذاب".

واللافت للنظر أن الدكتور البهى عند آية سورة "النساء" لم يفتح هذه القضية للنقاش بل اكتفى بالقول عن تزوج الإماء بالرجال الأحرار: "فإذا لم يكفل زواج الأحرار بهن أن يوفر لهن العفة فى واقع حياتهن معهم فيجب إنزال عقوبة الزنا بهن، وهى على النصف من عقوبة الحرة المتزوجة إذا باشرت الزنا"، ثم مضى ولم يتلبث، وكأن ليس فى القضية إلا هذا الرأى. ومن الواضح الجَلِىّ أنه فسر قوله تعالى: "نصف ما على المحصنات من العذاب" بأن المحصنة هى الحرة المتزوجة، وهو ما يعنى أن عقوبة المرأة الحرة المتزوجة هو الجلد، وإلا فلا يمكن أن ننصّف الرجم. وهو ما يفهم منه بكل وضوح أنه لا يقول برجم الزانى أو الزانية المتزوجين. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد كان الشيخ محمد أبو زهرة ممن يردون الرجم. كما قرأت أن د. القرضاوى هو أيضا ممن يتبنَّوْن هذا الرأى على نحو من الأنحاء.

وبالمناسبة فالهوارى الخارجى الإباضى، وهو من أهل القرن الثالث الهجرى، يقول برجم المحصنة، والمحصن أيضا بطبيعة الحال، كما جاء فى تفسيره للآية الثانية من سورة "النور"، التى تتناول حكم الزانية والزانى: "قوله: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلُدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ": وهذا فى الأحرار إذا لم يكونوا محصنين، فإن كانا محصنين رُجِما. وأما المملوكان فيجلدان خمسين خمسين إذا أحصنا، وليس عليهما رجم". وهو نفسه ما يقول به إطفيّش، وهو مفسر إباضى آخر من أهل القرن الرابع عشر الهجرى، إذ علق على الجلد فى الآية المذكورة قائلا: "وذلك فى غير المحصن، وأما المحصن فحكمه الرجم كما عُلِم من السنة وغيرها كما تراه فى سورة "النساء" وسورة "المائدة". وعن أُبى بن كعب أنه قال: كم تقرأون سورة "الاحزاب"؟ قيل: اثنتين وسبعين آية. قال: والله لقد كانت تقارب سورة "البقرة"، وكانت فيها آية الرجم. نُسِخ لفظها، وبقى حكمها: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة"...". وهذا أمر غريب، إذ يسير كلامه هنا عكس ما هو شائع عن رأى الخوارج فى الرجم كما وضحنا، اللهم إلا إذا كان الأزارقة وحدهم من الخوارج هم من يقولون بهذا حسبما قرأنا. أما الشيخ الغزالى فلم يفتح

الموضوع أصلا لا فى تفسيره لسورة "النساء" ولا فى تفسيره لسورة "النور"، وكأنها لاتستحق وقفة أو كأنها لا تثير جدلا وخلافا طويلا بين العلماء.

وقد قرأت الفقرات التالية فى كتاب "وجوب تطبيق الحدود الشرعية" لعبد الرحمن بين عبد الخالق اليوسف، الصادر فى طبعته الثانية عام ١٩٨٤م، وجاءت فيه تحت عنوان "الرجم عقوبة شرعية ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع": "زعم الدكتور سعاد جلال أن حكم الرجم ليس ثابتا فى القرآن، وليس موجودا فى السنة إلا فى أحاديث أحادية لا تثبت بها حجة، ولم يحصل إجماع عليها فى سلف الأمة. ومسألة الرجم فى نظره مسألة خلافية يجوز فى زعمه استحداث رأى جديد بشأنها أو أخذ بعض الآراء القديمة الشاذة التى لا ترى الرجم، وإنما ترى الجلد فقط حكما للزانى محصنا كان أو بِكْرا. وهذا هو الرأى الذى رآه الدكتور سعاد جلال ورجَّحه. ومستنده فى هذا شيء عجيب جدا، وهو على حد تعبيره "ارتقاء المشاعر الإنسانية فى هذا العصر وشفافيتها وعمق فكرة التسامح والرحمة الحاصل بتقدم المدنية والفهم العلمى لقهر الدوافع الطبيعية وما قد يخالطها من الأمراض النفسية، كل ذلك يصنع مجتمعا لا يسمح بتطبيق هذه العقوبة القاسية فى هذا العصر". هذا هو مستند سعاد جلال فى خروجه على الناس بالقول إن حكم الجَلْد أولى من حكم الرجم. وحتى يلبس رأيه الشاذ لباسا إسلاميا فإنه عَمَد، كما أسلفنا، إلى نفى أن يكون حكم الرجم ثابتا بالقرآن أو بسنة متواترة قطعية، وأن وروده فى سنة مشهورة أو أحادية لا يفيد ذلك القطع والعلم، وأنه لا إجماع على ذلك فى الأمة بل زعم أن الأمة مختلفة حول هذا الحكم. وقد بنى على ذلك زعمه أنه ما دام قد وقع خلاف وليس هناك نص قطعى فإنه يجوز الاجتهاد، وزعم لنفسه هذه المنزلة! ورجح أن كل مجتهد مصيب وأن الحق فى المسألة الواحدة يتعدد، وليس الحق محصورا كما زعم فى رأى واحد، وبالتالى فرأيه الذى رآه صوابا لا يجوز لأحد أن يخطِّئه. ونحن نرد على كل ذلك بحول الله فقرة فقرة، ومسألة مسألة، مبينين زيف ما ذهب إليه".

ثم يمضى عبد الرحمن اليوسف قائلا إن رجم الزانى المحصن ثابت فى القرآن فى عدة آيات. ودليله على هذا هو الحديث الذى يقول: "خذوا عنى. خذوا عنى. قد جعل الله لهن سبيلا: البِكْر بالبِكْر جَلْدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ، والثيب بالثيب جلد مائةٍ والرجم". فهل هذا الحديث قرآن؟ طبعا لا وألف لا، وإلا لم يعد للكلام فى حياة البشر أى معنى ولا ضابط ولا رابط. كما أن الحديث قد أغفل زنا البِكْر بالثيب وزنا المحصن بالبكر، فلم يتحدث عن حكمه. ليس هذا فحسب، بل إن الحديث لا يكتفى بالرجم فى حالة المحصن، وإنما يضيف إليه الجلد أيضا. وهذا عجيب. ثم إن الكاتب لا يكتفى بذلك بل يقول: "وأصرح من هذا الحديثِ فى الدلالة على أن القرآن قد نزل بالرجم الحديثُ الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى. قالا: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: أَنْشُدُك

اللهَ إِلَّا قضيتَ بيننا بكتاب الله. فقام خصمه، وكان أفقه منه، فقال: صدق. اقض بيننا بكتاب الله وأْذَنْ لى يا رسول الله، أى أن ابدأ بعرض القضية. فقال النبى ﷺ: قل. فقال: إن ابنى كان عسيفا (أى أجيرا أو خادما) فى أهل هذا فزنى بامرأتهK ففتديت منه بمائة شاة وخادم (أى عبد أو جارية). وإنى سألت رجالا من أهل العلم، فأخبرونى أن على ابنى مائةً وتغريبَ عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال ﷺ: والذى نفسى بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله: المائة والخادم ردّ عليك. وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام. ويا أُنَيْس، اغْدُ على امرأة هذا فسَلْها، فإن اعترفت فارجمها. فاعترفت فرجمها (اللؤلؤ والمرجان/ ص٤٢٣، ٤٢٤)" ثم يعقب قائلا: "وهذا نص صريح قطعى الدلالة أن الرسول ﷺ حكم بالقرآن فى زانيين: أحدهما بكر، وهو الأجير، والثانى ثيب، وهى المرأة المتزوجة، فحكم على الأول بالجلد مائة وتغريب عام، وعلى المرأة الثيب بالرجم، وقال النبى فى هذا الحكم:والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله. وكتاب الله هنا القرآن ولا شك المنزل على عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ. وكذلك فالذين تخاصموا إلى الرسول ﷺ فى هذه القضية ناشدوه الله أن يقضى بينهم بكتاب الله! فهل بعد ذلك يقول الدكتور سعاد جلال ردا على من ذكره بأن رأيه الشاذ هذا مخالف للقرآن: "تقول لهم إذا قالوا إنه مخالف للقرآن: هذا هو الكذب الصراح، فإن نصوص القرآن المتعلقة بحكم الزنا ليس فيها ذكر للرجم أصلا بل القرآن هو حجتنا الكبرى عليكم" نص كلامه. ونحن نقول له: يا من تتهم الصادقين بالكذب، أكان رسول الله ﷺ لا يفهم عندما حكم بذلك وحلف أن هذا حكم الله فى القرآن؟ أم أنك تكذِّب رسول الله أيضا الذى يقسم بأن هذا حكم الله فى القرآن؟ أم أن هذا من عمى البصيرة علاوة على عمى البصر؟".

والحق أن الحق مع د. جلال فى هذه النقطة، فليس فى القرآن أبدا شىء عن الرجم، فضلا عن أن آية سورة "النور" التى تتحدث عن الجلد لا تفتح سيرة التغريب بتاتا على عكس ما جاء فى الحديث. والشيخ مُحَمَّد سعاد جلال لا يتهم الرسول بأنه لم يفهم القرآن ولا يكذبه. حاشا لله. فأولا ليس فى القرآن كلام عن الرجم حتى يتهمه ﷺ بمخالفة النص القرآنى، علاوة على أن كلامه معناه أن الحديث عنده لا يصح أن يخالف القرآن هذه المخالفة البلقاء، ومن ثم لا يرى صحة الحديث. وهذا كل ما هنالك.

ثم يستمر الكاتب قائلا: "وأصرح من هذه الأحاديث فى الدلالة على أن القرآن قد أثبت الرجم ما رواه البخارى ومسلم أيضا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: جلس على المنبر فقال فى خطبة طويلة: "إن الله بعث مُحَمَّدا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها. رجم رسول الله ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل منهم: "والله لا نجد آية الرجم فى كتاب الله" فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أُحْصِنَ من الرجال والنساء إذا قامت

البينة أو كان الحبَل أو الاعتراف". ثم يعقب بقوله: "وفى هذا الأثر دليل أيضا على أن آية الرجم كانت فى القرآن نصًّا فنُسِخت تلاوتها، وبقى حكمها". والواقع أن هذا اتهام للقرآن بأنه يعمل على إثارة البلبلة فى نفوس المسلمين، فيمحو الآية التى كانت تقول بالرجم، لكنه يبقى على حكمها. فهل هذا معقول؟ ترى لم كان النسخ ما دام الحكم باقيا؟ ثم أين نص هذه الآية يا ربى؟

وللشيخ مُحَّد متولى الشعراوى رأى فى هذه الآية يشبه رأى كاتبنا، إذ يقول: "إذا تزوجت الإماء وجاءت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب. أما إن لم تُحْصَن فليس عليها حكم، ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها لأن الأَمَةَ عادةً مبتذَلةٌ. لكن عندما تتزوج تصير محصنة، فإن أتت بفاحشة نقول لها: أنت لك عقابك الخصوصى. لن نعاقبك عقاب الحرّة لأن الحرة يصعب عليها الزنا، لكن الأَمَة قد لا يصعب عليها أن يحدث منها ذلك، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة، فقال: "فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ"، أى نصف ما على الحرائر من العذاب.

لكن الخوارج أخذوا الكلمة فى معنًى من معانيها ليخدم قضيةً عندهم وقالوا: إن "الْمُحْصَنَاتِ" هن المتزوجات. هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كى يقولوا: ما دامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم لأن الرجم لا يُنَصَّف. والخوارج أخذوا هذه وقالوا: إن القرآن لا يوجد فيه رجم، واكتفَوْا بجَلْد الزانية مائة جلدة. ونقول لهم: أنتم أخذتم "المُحْصَنَة" على معنى أنها المتزوجة، ونَسِيتم "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ". فالمحصنات هن الحرائر، فلماذا أخذتم "المحصنات" هناك بمعنى الحرائر، و"المحصنات" هنا بمعنى المتزوجات؟ إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر، ولا حجة لكم فى مثل هذا الباطل. وبذلك تسقط الحجة. فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

ثم نبحث بحثًا آخر نقول: يقول الحق: "فَعَلَيهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ". لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق: "مِنَ الْعَذَابِ"، فكأن الذى عليها فيه النصف هو العذاب، وما هو العذاب؟ العذاب هو إيلام من يتألم، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذابًا، أما ما لا يكون عذابًا فهو لا ينصَّف، والحكم غير متعلق به. فالعذاب إنما يأتى لمن يتألم، والألم فرع الحياة. والرجم مُزِيلٌ للحياة، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب. والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقده الطير قال: "مَالِىَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ" (النمل/ ٢٠– ٢١). فالذبح وإزهاق الحياة

مقابل للعذاب. فقوله: "نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ" فالمتكلَّم فيه الآنَ العذابُ، وليس الرجم، وليس إزهاق الحياة. وبهذا يسقط الاستدلال.

والذين يقولون إن آيات القرآن لا تدل على رجم نقول لهم: ومن الذى قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله فى الإسلام وإنه فَصَّل كل شيء؟ القرآن لم يجئ كتاب منهج فقط، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول، ثم ترك للرسول ﷺ أن يبين للناس ما نزل إليهم، فضلا على أن الرسول ﷺ بنص القرآن عنده تفويض من الله أن يشرّع. وتلك ميزة تميز بها ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. فالله قد أعطاه الحق فى أن يشرع بدليل أنه سبحانه قال فى صلب القرآن الذى يشتمل على أصول منهج الإسلام: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" (الحشر/ ٧). إذن فللرسول عمل مع القرآن، وإلا فليقل لى من يدّعى أنّ فى القرآن كل حكم من أحكام دين الله: من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس؟ ومن أى آية أخذ أن الصبح ركعتان، وأخذ الظهر أربعًا وأخذ العصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا، والعشاء أربعًا؟ من أين أخذها؟ إذن لا يوجد شيء من ذلك، فما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة، وفيه منهج يتعلق بالأصول. وما دام المنهج الذى يتعلق بأصول الأشياء قد أَعْطَى لرسول الله ﷺ أن يشرّع إذن فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صلب القرآن. ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت: "هات لى هذا الحكم من القرآن"، ونظرتَ فى كتاب الله فلم تجد، فقل له: دليل الحكم فى القرآن هو قول الله: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا". وأى حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سندًا من كتاب الله، ويقال لك: ما سنده؟ قل: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"...

وإذا كان لله أمر إجمالى، وللرسول أمر تفصيلى كالصلاة والزكاة والحج إذن فتطيع الله وتطيع الرسول. وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه: "وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا" فهذا الأمر أطيع فيه الرسول لأنه جاء فى آية أخرى قوله: "مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ". لماذا؟ لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا"... أرجم رسول الله أم لم يرجم؟ قد فعل رسول الله ذلك، وفِعْلُه هو نصٌّ عملى. إنّ الفعل ليس نَصًّا قوليًّا يُتَأَوَّل فيه. لقد رجم الرسول ماعزًا والغامدية ورجم اليهودى واليهودية، وكانا قد أُحْصِنا بالزواج والحرية. وفِعْل الرسول هو الأصل فى الحكم. فدليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال، وبقى ما فعله المشرع، وهو الرسول المفوض من الله فى أن يشرع قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، أى يرى أحدًا يفعل فعلًا فيقرّه عليه. ثم نبحثها بالعقل: إذا كنت تريد ألا يوجد فى الزنا حد إلا الجلد أتسوى بين من لم يتزوج ومن تزوج؟ إن المتزوجة لها عِرْض ولها زوج ولها

نسب ونسل. هل هذه مثل تلك التى لم تتزوج؟ إن هذا لا يتأتى أبدا بالعقل، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول، والدليل الذى استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال. والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال".

هذا ما قاله الشيخ الشعراوى، ويبدو أنه قد أخذ كلامه فى معنى "المحصنات" من كتاب ابن قتيبة: "تأويل مختلف الحديث". ولكن إذا كانت المحصنات اللاتى تعاقَب الأَمَة بنصف عقابهن هنّ الحرائر لا المتزوجات فالسؤال هو: وكيف جعل القرآن عقاب الحرائر شيئا واحدا، وهو الجلد؟ لقد أراد الشيخ أن يخرج من مأزق فوقع فى آخر. وفى نساء النبى عليه السلام يقول تعالى: "ياَ نِسَاءَ النّبِى، مَن يأْتِ مِنكُنّ بِفَاحِشَةٍ مّبَينَةٍ يضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَينِ"، أى مائتا جلدة. أما القائلون بأن عقوبة المتزوجة هى الرجم فنسألهم: كيف نضاعف الرجم هنا؟ ترى هل يُقْتَل الشخص مرتين؟ ثم إن تشريعات القرآن تعامل الرجل والمرأة الزانيين على أنهما يظلان حيين بعد معاقبتهما، إذ القرآن الكريم يحرّم تزويج الزانى أو تزويج الزانية من الشرفاء، فلا يصح لمؤمن طاهر أن يتزوج زانية، ولا يصح لمؤمنة طاهرة أن تتزوج زانيا حسب الآية الثالثة من سورة "النور": "الزّانِى لاَ ينكِحُ إِلاّ زَانِيةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزّانِيةُ لاَ ينكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ. وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ". فهل يمكن أن يحدث هذا لو كانت عقوبة الزنا هى الرجم؟ ولقد فسر فضيلته قوله عز شأنه عن الإماء: "فإذا أُحْصِنَّ" بمعنى "فإذا تزوجن" فلماذا لا يفسر "المحصنات" فى قوله ﷻ فى جواب شرط تلك العبارة نفسها: "فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب" بأنهن المتزوجات؟ أيفسر الكلمة الواحدة فى نفس الجملة تفسيرين مختلفين؟ فلماذا؟ وما الحجة التى استند إليها؟

ثم إنه يقول بأن الرجم لا عذاب فيه. سبحان الله! أويظن الشيخ أن الرعب الذى يعيش فيه الزانى فى فترة انتظار الرجم أمر هين لا عذاب فيه؟ هل العذاب عنده هو العذاب المادى فقط من ضرب وجلد؟ بسيطة! تاهت والتقيناها! فهل تساقُط الأحجار كالرصاص على رأس المرجوم ووجهه أمر هين لا عذاب فيه، وهو عذاب مادى تمام المادية؟ أَوَلَمْ يأته نبأ الصحابى الذى كان يُرْجَم واستطاع أن يخرج من الحفرة التى وضعوه فيها كى يرجموه وفر هاربا من شدة آلام الرجم؟ أكان بالله يفر من العذاب أم من التدليل والعتاب؟ أما رجم ماعز والغامدية فمن الممكن توجيه الأمر بأن الحكم أولا كان الرجم، ثم تغير وصار الجَلْد، والجلد هو ما نص عليه القرآن، بينما يخلو تماما من الرجم. وبهذا نوفق بين المتناقضات فى هذه القضية. ولعل الأحاديث التالية أن يكون موضعها هنا، وأن تكون ذات مغزى: فـ"عَنِ ابنِ عباسٍ فى قولِه: "وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ" قالَ: كانتِ الْمرأةُ إذَا فَجَرَتْ حُبِسَتْ فى البيوتِ: فإِنْ ماتتْ ماتتْ، وإنْ عاشتْ عاشتْ حتَّى نزلتْ الآيةُ فى سورةِ النور: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا"، فجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلًا. فمَن عملَ شيئًا جُلِدَ وأُرْسِلَ". و"عَنِ الشَّيْبَانِى: سَأَلْتُ عَبْدَ

اللَّهِ بنَ أَبِي أَوْفَى: هلْ رَجَمَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قالَ: نَعَمْ، قُلتُ: قَبْلَ سُورَةِ النُّورِ أمْ بَعْدُ؟ قالَ: لا أدْرِى". وفى "مصدر الأحكام" لابن حزم "قيل لبعضِ الصحابةِ رضوان الله عليهم فى رجمِ رسولِ اللهِ صلى اللهِ عليه وسلم المحصنَ والمحصنةَ: أكان ذلك قبل نزولِ سورةِ النورِ أم بعد نزولِها؟ فقال: لا أدرى".

أما إن قال الشيخ بأن السنة مثل القرآن فيمكن الرد بأن هذا يصح إذا لم يكن هناك تعارض بينها وبينه، أى حين تكون شرحا أو تفصيلا لما جاء فى القرآن أو نصا فى موضوع لم يتناوله القرآن أصلا. أما إذا قال القرآن شيئا فهل يصح أن نهمل ما قاله استنادا إلى أن هناك حديثا يقول بعكسه؟ كيف ذلك؟ أنخضع القرآن للسنة، ونستنكف أن نخضع السنة للقرآن؟ ما لكم؟ كيف تحكمون؟ ثم ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام: "ادرأوا الحدود بالشبهات"؟ فأى شبهة أشد من الشبهة التى نحن فيها الآن ما بين القائلين بالرجم والقائلين بالجلد؟ كذلك فالخوارج ليسوا وحدهم القائلين بالجلد، بل يشْرَكُهم فقهاء غير خوارجيين منهم فى القديم بعض المعتزلة كما قرأنا، ومنهم فى العصر الحديث مثلا الشيخ مُحَمَّد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ شلتوت والشيخ عبد المتعال الصعيدى والشيخ مُحَمَّد سعاد جلال والشيخ مُحَمَّد أبو زهرة والدكتور مُحَمَّد البهى...

وهناك من يستندون فى الرجم على الرواية التالية المنسوبة إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "لقد نزلت آيةُ الرَّجْمِ ورضاعةُ الكبيرِ عَشْرًا، ولقد كان فى صحيفةٍ تحتَ سريرى. فلمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ وتشاغلنا بموتِهِ دخلَ داجنٌ فأَكَلَها". ولن أدخل فى مسألة الإسناد والجرح والتعديل بل سوف أتناولها بالمنطق المجرد وبالنظر إلى الأوضاع التاريخية والاجتماعية التى أحاطت بتلك الحادثة إن كانت قد وقعت فعلا ولم تكن من صنع خيال بعض الناس.

وأول شيء أن الرواية تقول إن الداجن قد أكلت الورقة بعد وفاة رسول الله ﷺ. ومعنى ذلك أن القرآن لم يحفظ كما ينبغى على النقيض مما تعهد به الله سبحانه كما رأينا آنفا. فكيف لم يَهِجِ المسلمون للواقعة وتركوها تمر وكأن أمرا جللا لم يقع ينسف هذا التعهد من الأساس؟ لقد كان الأحرى بهم أن تتزلزل الأرض تحت أقدامهم. لكننا ننظر فلا نرى انفعالا ولا ضجة ولا غضبا وكأن نصا قرآنيا لم يضع فى بطن الداجن إلى الأبد. وأين عمر مثلا من تلك المصيبة وقت حدوثها أو وقت علمه بها؟ أتراه كان سيلوذ بالصمت، وهو الغيور العنيف الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يبالى بأحد متى كان هناك خطأ أو تقصير؟ فهل هذا مما يعقله العاقلون؟

الغريب أن يسكت عمر حتى يموت أبو بكر ويتولى هو الخلافة بعده ثم يوشك أن يموت، وهنا وهنا فقط يتذكر عمر قصة اختفاء نص الرجم حسبما تقول الحكاية التالية: "لما

صدر عمر بن الخطاب من مِنًى أناخ بالأبطح، ثم كوَّم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرتْ سنى، وضعفتْ قوتى، وانتشرتْ رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيّع ولا مفرِّط. ثم قَدِم المدينةَ فخطب الناس فقال: أيها الناس، قد سُنَّتْ لكم السنن، وفُرِضَت الفرائض، وتُرِكْتُمْ على الواضحة إلا أن تضلّوا بالناس يمينا وشمالا. وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل: لا نجد حَدَّين فى كتاب الله. فقد رجم رسول الله ﷺ، وقد رجمنا. والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس: "زاد عمر بن الخطاب فى كتاب الله" لكتبتُها: "الشيخ والشيخة فارجموهما البتة"، فإنا قد قرأناها. قال مالك: قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتِل عمر رحمه الله".

فهل نصدق أن عمر كان يعلم أن هذه آية من القرآن ثم يخشى أن يعيدها إلى كتاب الله؟ ترى ما الذى منعه من ذلك؟ تقول الحكاية: لقد خاف أن يقول المسلمون عنه: زاد فى القرآن. فهل صحيح أنه لو كتبها فى المصحف سيكون قد زاد شيئا على القرآن؟ بطبيعة الحال لا لأنها فعلا من القرآن حسب الرواية التى بأيدينا. ثم لقد صرح أمام المسلمين بأنها من القرآن، فهل أنكر عليه أحد ذلك؟ لا. فلم الخوف إذن من الانتقال إلى الخطوة التالية وكتابتها، ونحن نعرف أن الكتابة ليست شيئا آخر غير القول مُثْبَتًا فى ورق؟ فهل هناك فرق بين هذا وذاك؟ وهل كان عمر وحده هو الذى يعرف أن هناك نصا قرآنيا برجم الشيخ والشيخة الزانيين؟ طبعا لا. فلماذا لم يستشهد بمن يشاطرونه هذه المعرفة ليحسم الأمر ويعيد كتابة الآية فى موضعها؟

ترى هل يمكن أن يهمل عمر اختفاء نص قرآنى طوال هاتيك السنين دون أن يَحْرَج ضميرُه فيعيش خالى البال وكأن شيئا لم يكن؟ فما الذى جد يا ترى فجعله يتذكر الأمر بغتة ويخشى توابعه؟ إن معنى هذا أن عمر قد مات وهو يعرف أن هناك نصا قرآنيا ضاع، ولا سبيل لإعادته إلى مقره، ولم ير فى هذا ما ينبغى تصحيحه. فهل هذا مما يتقبله عقل عاقل؟ لقد كان عمر أشجع من هذا وأحزم وأعزم، ولم يكن ممن يعملون للمعترضين حسابا متى اقتنع بشيء. لقد أوقف مثلا سهم المؤلفة قلوبهم بعد قوة الإسلام دون أن يتردد لحظة. ومن قبلُ حين أراد الهجرة من مكة رأيناه يذهب إلى الكعبة حيث كانت قريش تعقد مجالسها فيصارحهم بنيته متحديا إياهم بقوله: من أراد أن تثكله أمه أو تترمل زوجته أو ييتم ولده فليلقنى وراء هذا الوادى. كما اعترض فى البداية على نصوص معاهدة الحديبية رغم موافقة الرسول عليها.

ترى هل يمكن عمر، الذى يثور لمثل ما ثار له فى الرواية التالية على قلة شأن المسألة بالقياس إلى موضوعنا الحالى، أن يكون موقفه من هذا الموضوع الخطير بهذا الهدوء بل بهذا

البرود؟ تقول الرواية على لسانه: "سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ "الفرقانِ" فى حياة رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئْنيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كذلك، فكدتُ أساوِرُه فى الصلاة، فانتظرتُه حتى سلَّم، ثم لَبَّبْتُه بردائِه أو بردائى، فقلتُ: من أقرأك هذه السورةَ؟ قال: أقرأنيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. قلتُ له: كذبتَ. فواللهِ إن رسول الله ﷺ أقرأنى هذه السورةَ التى سمعتُك تقرؤها. فانطلقتُ أقوده إلى رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنى سمعتُ هذا يقرأ بسورة "الفرقانِ" على حروفٍ لم تُقْرِئْنيها، وأنت أقرأتنى سورةَ "الفرقانِ". فقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلَّمَ: أرسِلْه يا عمرُ. اقرأْ يا هشامُ. فقرأ عليه القراءةَ التى سمعتُه يقرؤها، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: اقرأْ يا عمرُ. فقرأتُ، فقال: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال: إنَّ هذا القرآنَ أُنْزِل على سبعةِ أحرفٍ، فاقرأوا ما تيسَّر منه".

ثم لماذا لم يفصح عمر عما فى نفسه بخصوص رجم الشيخين حين تجرد زيد بن ثابت لجمع القرآن فى عهد الصِّدِّيق بناء على اقتراحه هو نفسه خوفا من ضياع شيء من الكتاب المجيد بسبب استحرار القتل فى صفوف قُرّاء القرآن فى حروب الردة؟ لماذا لم يقل، بعدما انتهى زيد من مهمته، إن هناك نصا فات زيدا أن يضعه فى المصحف؟ لقد كان عمر، كما قلت آنفا، رجل حزم وعزم، فلم يكن ليضيع تلك الفرصة ويضيع معها تلك الآية. أَوَبعدما انتهى زيد واللجنة التى كانت معه من عملها، ومرت على ذلك أعوام وأعوام، يأتى عمر فى الوقت الضائع ويتذكر أن هناك آية قرآنية سقطت من كتاب الله، ثم لا يكتفى بهذا بل يعلن عن خشيته من إعادتها إلى موضعها؟ لقد كان إيمانه وحصافته جديرين بأن يجعلاه يسلك سبيلا أقوم من هذا رشدا، أو ما دام يخشى العوامَّ إلى هذا الحد لقد كان ينبغى أن يتكتم الأمر حتى لا يثير فتنة بين المسلمين بتذكيرهم أن الله لم يحفظ قرآنه خلافا لما وعد به. الواقع أن تصرف عمر معناه أنه أراد تجنب الفتنة بإشعالها. فهل يمكن أن تكون هذه هى شخصية عمر؟

وهذه هى رواية جمع زيد للقرآن فى عهد أبى بكر، وموقف عمر من ذلك الجمع، وهو موقف يتناقض مع موقفه الذى نحن بصدده تمام التناقض، إذ كيف يكون حريصا على ألا يضيع شيء من النص القرآنى هناك، ولا يبالى بذلك هنا؟ لقد أقر زيد ولجنته آخر سورة "التوبة" رغم أنهم لم يجدوه إلا عند أبى خُزَيمَة. فلماذا يا ترى لم ينبر عمر ويقول: وأنا أيضا عندى آية ينبغى ضمها إلى كتاب الله؟ ولا أظن شهادة عمر أقل من شهادة أبى خزيمة. وهذا لو لم تكن هذه الآية لدى أحد سواه، وهو أمر مستبعد. يقول زيد بن ثابت فى الرواية المذكورة: "أرسَل إلى أبو بكرٍ مَقْتَلَ أهلِ اليمامةِ، فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عِندَه. قال أبو بكرٍ

رضى اللهُ عنه: إنَّ عُمَرَ أتانى فقال: إنَّ القتلَ قدِ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقُرَّاءِ القرآنِ، وإنى أخشى أن يستَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاءِ بالمواطنِ، فيذهَب كثيرٌ منَ القرآنِ. وإنى أرى أن تَأمُرَ بجمعِ القرآنِ. قلتُ لعُمَرَ: كيف تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال عُمَرُ: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ عُمَرُ يراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى لذلك، ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عُمَرُ. قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهِمُك، وقد كنتَ تَكتُبُ الوحى لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتتبَّعِ القرآنَ فاجمَعْه. فواللهِ لو كلَّفونى نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كان أثقلَ علىَّ مما أمَرنى به من جمعِ القرآنِ. قلتُ: كيف تفعلونَ شيئًا لم يفعَلْه رسولُ اللهِ؟ قال: هو واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ أبو بكرٍ يراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى للذى شرَح له صدرَ أبى بكرٍ وعُمَرَ رضى اللهُ عنهما، فتتبَّعتُ القرآنَ أَجْمَعُه منَ العُسُبِ واللِّخافِ وصدورِ الرجالِ حتى وجَدتُ آخِرَ سورةِ "التوبةِ" معَ أبى خُزَيمَةَ الأنصارى، لم أجِدْها معَ أحدٍ غيرِه: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ"... حتى خاتِمَةِ بَراءَة. فكانَتِ الصُّحُف عِندَ أبى بكر حتى توفَّاه اللهُ، ثم عندَ عُمَرَ حياتَه، ثم عِندَ حفصةَ بنتِ عُمَرَ رضى اللهُ عنه".

لقد كان المسلمون يهيجون لما هو أقل من هذا بمراحل كاختلافهم حول طريقة نطق بعض الألفاظ طبقا لاختلاف القراءات وخوف عمر من افتتان المسلمين بذلك وتفكيره فى جمعهم على مصحف واحد. كما ثار المسلمون على عثمان لجمعه القرآن مرة أخرى فى عدد من المصاحف والتخلص مما عداها رغبة منه فى ألا يختلف المسلمون اختلافا يهدد وحدتهم. فكيف تَلَقَّوْا تلك الواقعة بأعصاب باردة إلى هذا الحد؟ ثم كيف عرفت عائشة أن الداجن قد أكل الورقة؟ إذا كانت قد رأت ما حدث فكيف لم تتدخل وتمنع الداجن من العيث فى القرآن فسادا؟ وإذا لم تكن قد شاهدت شيئا فكيف عرفت بما حدث؟ ثم إن النبى قد غُسِّل وكُفِّن فى حجرة عائشة، التى كانت الورقة المذكورة مدسوسة تحت الفراش فيها. فكيف دخلت الداجن تلك الغرفة الصغيرة وأكلت الورقة المقدسة، وزوجات النبى وبنته وقريباته على الأقل هناك، والنبى ممدد على الفراش، دون أن تنهر إحداهن الداجن عن فراش النبى والعَيْث تحته؟ يستحيل أن يحدث هذا، فهن أكبر من أن تصيبهن هذه البلادة.

ونحن نعرف أن النبى لم يكن له سريرٌ كسُرُرِنا الآن مرتفعٌ عن الأرض بل مجرّد حشيَّة أو حصير، فكيف يمد الداجن فمه تحت الحصير؟ بل كيف يمكن أن يضع النبى أو عائشة الورقة القرآنية فى ذلك الموضع الغريب؟ وهل كان من عادة العرب أن يضعوا أوراقهم، إن كان عند أحدهم شيء منها، على الأرض تحت الفراش؟ الحق أنى لم أسمع بمثل تلك الواقعة فى تلك العصور. لقد كان الورق فى عصر الجاهلية والنبوة من الندرة بحيث أتصور أنه كان يعامل معاملة الذهب والجواهر النفيسة. فكيف تُعَامَل ورقةٌ فيها نص قرآنى بهذه اللامبالاة؟

ثم من أدرى عائشة بأن ما ضاع من القرآن هو هذان النصان فقط؟ سيقال إن المسلمين كانوا يحفظون القرآن، وإنهم قد تنبهوا إلى ضياع هذين النصين. فكيف لم يعيدوا النصين الضائعين إلى القرآن إذن ما داموا يحفظونهما؟ هل غَلَّ أحدٌ يدَهم عن ذلك؟ وهذا إن كانت هناك نسخة واحدة فقط من ذينك النصين.

ثم هل تظنون أن اليهود والنصارى كانوا ليسكتوا على ما حدث فلا يقيموا الدنيا ويقعدوها شماتة فى الدين الجديد الذى يهدد دينيهم ويزيد فيتهمهم بالعبث فى نصوصهما؟ وهناك أيضا المنافقون الكارهون فى أعماقهم للإسلام، فكيف سكتوا فلم يهتبلوا تلك الفرصة التى جاءتهم على الطبطابة ويشنعوا كعادتهم فى خبث ومخافتة على القرآن؟ ولدينا كذلك المرتدون، الذين انتهزوا وفاة النبى ونكصوا على أعقابهم وخرجوا من دينه خروجا كاملا أو جزئيا، واتبع بعضهم أنبياء من قبائلهم. أتراهم كانوا يهملون تلك الواقعة فلا يستغلوها فى محاربة الدين الجديد وتسويغ خروجهم منه باعتبار أن الله لم يحفظ قرآنه كما وعد، ومن ثم فإن الأمر يبعث على الريبة والتشكك؟

كذلك فالروايات الأخرى تقول إن الرجم فى النص المفقود خاص بالشيخ والشيخة، إذ يقول: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". ومعنى ذلك أن الرجم لا يسرى على الشبان والرجال والكهول بل على الشيوخ فقط. لكن هل الشيوخ مِمَّنْ عنف الشهوة بما يجعل القرآن يخصهم دون سائر الزناة بهذا الحكم الشديد كى يردعهم؟ ثم كيف نحدد العمر الذى تبدأ به الشيخوخة؟ وهل كل الشيوخ سواء؟ إن منهم القوى الذى لم تخمد فيه الشهوة، ومنهم المتداعى الأركان المحتاج إلى من يحمله. فماذا نفعل؟ وقبل ذلك ما الذى منع المسلمين يا ترى من رد ذلك النص إلى المصحف ما داموا يحفظونه على هذا النحو؟ وفوق هذا فتلك أول رواية وآخرها تتحدث عن حفظ رسول الله قرآنا مكتوبا تحت فراشه. ألا إن هذا كله لغريب!

ثم لماذا يقضى الله بضياع نص من كتابه رغم تعهده بحفظه مع الإبقاء مع هذا على الحكم الذى يتضمنه ذلك النص؟ يا له من أمر مربك! يبدو أن من اخترع هذا الحديث ونسبه للرسول إنما أراد أن يسوِّغ حكم رجم الزانى، الذى لم يرد رغم خطورته فى القرآن. لكن اختراعه لم يكن محبوكا البتة. وعلى ذكر "البتة" ليس فى القرآن كلمة "البتة" أبدا، تلك الكلمة التى انفرد النص المذكور بورودها فيه. بل ليس فى القرآن أية كلمة مشتقة من الجذر: "ب ت ت". وهو ما يعضد إنكارى أن يكون ذلك النص آية محذوفة من كتاب الله. وبالمثل ليس فى القرآن كلمة "الشيخة" أبدا. وهذا مُعَضِّدٌ آخر. كذلك ليس فى القرآن فى الآيتين اللتين تشبهان هذه فى التركيب أداة شرط مثل "إذا زنيا". وهاتان هما الآيتان المرادتان: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما"، "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة".

ثم إن فى القرآن نصا خاصا بالزناة يقول: "الزانيةُ والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". فكيف يكون هناك نص آخر فى القرآن بحكم آخر؟ إن هذا إما أن يربك المسلمين فيتساءلوا: أى الحكمين هو الحكم الصحيح؟ وإما أن يقولوا: إن حكم الرجم خاص بالشيوخ والشيخات، وحكم الجلد لمن دونهما. فكما يرى القارئ فإن هذه الروايات تربك كل شيء أيما إرباك.

والآن، وبعدما انتهينا من مناقشة الشيخ الشعراوى، نعود إلى ما قاله عبد الرحمن اليوسف. قال: "ومما يدل أيضا على أن حكم الرجم ثابت بالقرآن قوله تعالى: "وكيف يحكِّمونك، وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك؟ وما أولئك بالمؤمنين" (المائدة/ ٤٣)، وقد نزلت هذه الآية فى سبب معروف، وهو ما رواه الشيخان أيضا: البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم. فيها الرجم. فأَتَوْا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمَّد. فيها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرُجِما. قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة. وهذا دليل واضح صريح أن الرجم فى القرآن وأن الله قال لرسوله فى شأن هؤلاء أنفسهم: "فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أَعْرِضْ عنهم. وإن تُعْرِضْ عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط. إن الله يحب المقسطين" (المائدة/ ٤٢). وها قد حكم الرسول بينهم بالقسط، وهو حكم الله المنزل فى التوراة والقرآن". وواضح أن الكاتب يقول أى كلام، فليس فى القرآن بتاتا كلام عن الرجم، وإنما حكم الرسول عليه السلام برجم الزانيين اليهوديين بناء على ما فى كتابهما. والرواية واضحة تمام الوضوح فى هذا، لكن الكاتب يقوّلها ما ليس فيها.

وبعد أن يورد عدة أحاديث فى الرجم يقول: "وبتضافر هذه الأدلة: ورود هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة فى دواوين السنة، وخاصة فى أصح الكتب بعد كتاب الله، وهى البخارى ومسلم، ونقل الكافة من المسلمين لها عن الكافة، واشتهار ذلك فى كل آفاق الدنيا، هذه أدلة على أن الرجم حكم الله فى القرآن والتوراة وشريعته إلى يوم القيامة التى نفذها رسول الله ﷺ ونفذها الخلفاء من بعده، وأجمعت الأمة عليها جيلا بعد جيل لم يخالف فى ذلك إلا أفراد من المنافقين ممن لا يُؤْبَه بقولهم ولا يُلْتَفَت إلى خلافهم. ومن هؤلاء المخالفين الخوارجُ المارقون، وهذه ليست بأول بِدَعهم، فقد نَفَوْا سورة "يوسف" جميعها من القرآن زعما منهم أنها تتكلم عن الحب والعشق وأن هذا لا يليق بكلام الله! وأما النظَّام المعتزلى فلم يترك أصلا من أصول الإسلام إلا حاول النيل منه، ثم جاء من ينسج على منوال النظَّام المعتزلى والخوارج

المارقين، ويريد أن يعارض بذلك كتاب الله سبحانه وتعالى المبين، وسنة رسوله ﷺ الأمين، وإجماع الأمة المهتدية من الخلفاء الراشدين المهديين، والأئمة الأربعة، ويسمى فعله هذا: "اجتهادا" ويقول: "لا يزعجنا مخالفة ما يسمى عندكم بـ"السنة الصحيحة" لأن هذه السنة الصحيحة دليل ظنى يحتمل الكذب مرجوحا، وكذلك سائر السنن الصحيحة". انتهى بلفظه من المنشور فى "الوطن" ٢٧-٨-١٩٨٢. وهذا الذى لا يزعجه أن يخالف السنة الصحيحة الموافقة للقرآن التى أجمعت عليها أمة مُحَمَّد ﷺ، وتلقتها الأمة بالقبول جيلا بعد جيل، وعمل بها خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم الراشدون الصادقون، وأفتى بها أئمة الدين المؤتمنون كيف يكون من جملة المجتهدين؟

والدكتور سعاد جلال نفسه قد نشر مؤخرا مقالا فى "المصور" (عدد ٣٠٢١) بتاريخ ٣/ ٩/ ١٩٨٢م يقول فيه بالنص: "القولُ برفض أخبار الآحاد جملةً خطأٌ بعيد عن التحقيق لأن هذا يقتضى إلغاء جميع أحاديث الكتب الصحيحة الستة، وفى مقدمتها البخارى ومسلم، وقد تلقت الأمة هذين الكتابين بالقبول. قال ابن خلدون: "وانعقد الإجماع على صحتهما". فرَفْضُ هذا التراث الضخم الذى تلقته الأمة بالقبول جيلا بعد جيل لا يتفق مع حكم العقل، لكن يمكن القول بأنه يجوز النظر فى حديثٍ بعينه تقوم ضد صحته قرائن وأدلة فنرفض هذا الحديث بخصوصه. وإذن فالخبر المتواتر لا يجوز رفضه أصلا. وقد انعقد الإجماع على ذلك، إجماع السلف والخلف. أما رفض حديث بعينه أو جملة أحاديث بعينها لقيام الدليل القرين ضد صحتها فهذا أمر يمكن القول به". ونحن هنا نتفق مع الشيخ الدكتور فيما قاله ونقول إن أحاديث الرجم قد قامت كل الأدلة والقرائن على ثبوتها، وذلك لتعدد مواردها، وكثرة رواتها، ونقل الكافة لها جيلا بعد جيل، وعدم وجود مخالف قط فى الصحابة أو التابعين وأتباعهم المشهود لهم بالخير، وشهادة القرآن للرجم فى آيات كثيرة كما بينا ذلك فى المقال السابق، وعمل المسلمين بذلك وجميع الأئمة. ويستحيل أن يجتمع كل أولئك على خطإ، ولا يمكن أن نقول بعد ذلك إن أحاديث الرجم أحاديث آحاد بل هى أحاديث متواترة لا شك فى إفادتها العلم اليقينى، ولا مجال للتشكيك فى ثبوتها وصحتها. والحمد لله رب العالمين".

كلمة واحدة قبل مغادرة هذه القضية، فقد قال الكاتب إن الخوارج ينكرون أن تكون سورة "يوسف" من القرآن. وهذا تعميم خاطئ، والصواب هو أن فرقة منهم فقط، هى فرقة العجاردة أو على وجه التحديد: شعبة الميمونية منها، هى التى ينسب إليها ذلك، لا كلهم. ومن يرجع من تفاسير الخوارج إلى تفسير المفسرَيْن الإباضيَّيْن: الهوارى، وهو من أهل القرن الثالث الهجرى، أو إطفيَّش صاحب "هميان الزاد"، وهو من مفسرى العصر الحديث، وقد وصلَنا عنهما وحدهما تفسير للقرآن دون الخوارج جميعا كما يؤكد د. مُحَمَّد حسين الذهبى عند الكلام عن تفاسير الخوارج فى كتابه: "التفسير والمفسرون"، فلسوف يجدهما يفسران سورة

"يوسف" دون أى إنكار لشىء منها بما فى ذلك الآيات التى تتحدث عن مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام بكل تفصيلاتها، إذ يفسرانها دون أى تحرجٍ أو نَبْسٍ بأية كلمة تدل على شىء مما قاله الكاتب عن الخوارج بإطلاق فى هذا الصدد. وعلى أية حال فإن إنكار قرآنية "يوسف" لهو أمر غريب، إذ لا تشكل قصة امرأة العزيز مع فتاها سوى جزء ضئيل من السورة، علاوة على أنه لا يوجد ما يثير الشهوة بتاتا فى هذا الجزء. ثم ماذا يقول هؤلاء المنكرون فى الأحاديث التى تتحدث عن الزنا وتصف الطريقة التى يتم إثباته بها مثلا وتورد قصص الزناة والزانيات وكيف وقعوا فى الفاحشة وما إلى ذلك؟

وبعد هذه الرحلة الطويلة نوعا نعود إلى موضوعنا الأصلى، وهو قضايا المرأة فى تفسيرى البهى والغزالى، فنقول: ومن قضايا النساء أيضا فى السورة المسماة باسمهن الطريقة التى وضعها القرآن الكريم لعلاج نشوز بعض الزوجات: "واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا. إن الله كان عليا كبيرا". وقال د. البهى فى تفسيره عن هذا الموضوع: "إذا لم يتم الانسجام بين الزوجين، وكان ذلك بسبب نشوز الزوجة بحيث إذا دعاها زوجها لا تجيبه، وإذا خاطبها لا تخضع له، وترفع صوتها عليه، فللزوج عندئذ أن يذكِّرها بحقوق كل من الطرفين مع استعداده أن يوفر لها ما يجب عليه من حقوقٍ نحوها. فإذا استمرت فى نشوزها دل ذلك منها على أنها لم تتأثر بما ذكَّرها به. وعندئذ يتجنبها فى الفراش كزوجة... دون أن يسىء إليها بقول أو فعل. حتى إذا استمرت فيما هى فيه من عدم طاعة له ونفرة منه جاز له أن يضربها تعبيرا عن غضبه منها، وليس وسيلة لإيذائها. والشافعى يقول إن ضربها مباح، ولكن تركه أفضل. وكثير من الفقهاء يجعل الضرب غير مبرِّح، وبعبارة أخرى: يجعله رمزا فقط كالضرب بالسواك أو المنديل دون السوط أو العصا. فرَفْعُ اليد عليها فى حد ذاته دون وقوع ضرب بالفعل يشير إلى إهانتها وعدم وضعها فى مستوى الإنسان الكريم على نفسه...".

وأرجو أن أوضح ما أفهمه من نشوز الزوجة، فبعض الزوجات يكنَّ نكديات: فإذا قال الزوج: "شرق" قالت هى: "غرب". وإذا قال: "يمين" قالت: "شمال"، ولا تريحه ولا تستريح هى، بل تفضل الشقاق المستمر. وأتصور أن هذا الصنف من النساء هو المقصود هنا. وبعض بنات حواء لا ينزجرن باللين والحسنى، ولا يصلح معهن إلا التأديب بالضرب. وهذا مُشَاهَدٌ ومُجَرَّبٌ. ولكن ليس معنى هذا أن يبادر الزوج لأول وهلة بالضرب، بَلْهَ الضربَ العنيفَ والمهينَ، اعتمادا على هذا الواقع. ومع هذا فمن حق الزوجة رفض الضرب، ولكنْ من واجبها فى نفس الوقت أن تكف عن التنكيد على زوجها وبيتها، أو فلتطلب الخُلْع ما دامت لا تريد أن تريح وتستريح، وليذهب كل من الطرفين لحال سبيله، فلعل الله سبحانه يهيئ له الأسباب إلى حياة أفضل فى حضن طرف آخر. وقد كان الرسول ﷺ يبغض ضرب النساء بوجه عام

ويحذر من المسارعة إليه والعمل على إهانة المرأة كلما ارتكبت خطأ. وعلى كل حال فقد قدم القرآن حلين قبل حل الضرب، وهما الوعظ والهجر فى المضجع.

أما ما تقوله لالا باختيار الإيرانية الأمريكية المنتمية إلى أصل نصرانى وآخر شيعى، ومترجمة القرآن إلى الإنجليزية على غير إتقان للعربية ولا فهم للإسلام، وبتشجيع من بعض الجهات الأمريكية للكيد لديننا الكريم فإنها تستبله وتقول إن الضرب هنا ليس هو الضرب كما نفهمه بل الذهاب بعيدا فى الأرض بحيث كلما نكدتْ عليك زوجتك فلا تضربها بل المقصود أن تترك البيت وتنطلق هائما على وجهك فى البلاد. وهو تفسير حلمنتيشى كما نرى. وحجتها أن هذا أحد معانى الضرب، وأنه المعنى الذى وجدته مناسبا للسياق. لقد فتحتْ معجم لين العربى الإنجليزى: "مدّ القاموس"، وأخذت تستعرض معانى الفعل: "ضرب" فوجدت من بين معانيه المتعددة هذا المعنى الذى وافق هواها ونزواتها فقالت فى عقل بالها: فلنترجم الآية على هذا الأساس.

وهذا فى الواقع غشم سخيف من لالا باختيار. لقد طُلِبَ إليها أن تتصدى لترجمة القرآن الكريم رغم أن من يعرفون قدراتها ها قد اعترضوا عليها بأنها لا تحسن اللغة العربية، فكان جوابها أنها تتقن العربية القديمة، وأنها من ثم تستطيع أن تفسر القرآن، وذكرت أن منهجها فى ترجمة كتاب الله يتلخص فى الاستعانة بمعجم "مَدّ القاموس" للمستشرق البريطانى إدوارد وليم لين (E. W. Lane) بحثا عن معانى الآيات فى ذلك المعجم كلمة بعد كلمة بغية تقريب النص القرآنى إلى القارئ الإنجليزى المعاصر. لكنْ فاتها أن الترجمة ليست نقل ألفاظ سائبة من لغة إلى لغة، بل هى نقل النص كله متماسكا. فالنص ليس كلمات مفردة، بل عبارات وتراكيب وصورا وظلالا وشِيَات وإيقاعات وتناغمات. إنه كلٌّ متكامل شديد التعقيد. فكيف بالله يكفى أن تضع أمامها معجم لين، مهما كانت عبقرية مؤلفه، وتنظر فيه معانى الكلمات القرآنية كلمة كلمة على انفراد، ثم تقول إنها قد قامت بترجمة النص القرآنى؟

ثم إن لِين ذو أسلوب قديم، ولا يمثل ما يكتبه إغراء للقارئ المعاصر لكى يمضى فى القراءة. وفوق هذا فما من معجم إلا وهو يَعِجّ بالعيوب ونواحى النقص التى لا بد من الاستعانة عليها بأكبر قدر من المعاجم الأخرى. كما يجب أيضا الرجوع إلى كتب اللغة من نحو وصرف، وإلى الأشعار الجاهلية والإسلامية، وإلى كتب الحديث والتفسير والبلاغة، وإلى كتب أسباب النزول، وإلى كتب السيرة والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات... ولا ينبغى أن ننسى الاستعانة بالتراجم القرآنية السابقة حتى نعرف ماذا قال الآخرون فى هذه الآية أو تلك فلا نبدأ من نقطة الصفر.

وفى تعليقها على قوله سبحانه: "وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ" تقول إنها لا تتصور أن الله، الذى تحبه، يمكن أن يوافق على ضرب

الزوجات، وإنما لهذا أخذت تبحث وتتقصى معانى تلك الكلمة حتى استطاعت، من خلال معجم لين، أن تضع يدها أخيرا على المعنى الصحيح الذى فات جميع المفسرين واللغويين على مدار الأربعة عشر قرنا الماضية، وهو "الذهاب بعيدا"، بمعنى أنه إذا لم يفلح الوعظ ولا الهجر فى المضجع مع الزوجة الناشز فليذهب الزوج بعيدا عنها، وإن لم تحدد بختيار للأسف مدى ذلك البعد.

إننا نقول: ضرب فلان فلانا، ونقصد أنه قرعه بالكف أو بالعصا مثلا. ونقول: ضربت مصلحة العملة النقود، أى سَكَّتْها. ونقول: ضرب أخماسا لأسداس، والمعنى: تحير واضطرب. ونقول: ضرب فلان لفلان موعدا، يعنى: حدد وقتا للقائه. ونقول: ضرب الله على أذنيه، فيكون المقصود أنه أنامه نوما عميقا فلم يحس بشىء. ونقول: ضرب له طريقا، بمعنى شَقَّه له. ونقول: ضُرِب فلانٌ على الكَرَم، ومعناه أن الكرم طبيعة فيه وليس شيئا مكتسبا. وضُرِبَتْ على فلانٍ الذلة، والمعنى: أحاطت الذلة به من كل جانب فلا يقدر على التخلص منها. ونقول: ضُرِبَتْ عليه الجزية، أى فُرِضَتْ. ونقول: ضرب الفحل الناقة: لقّحها. ونقول: ضرب فلان الخيمة، بمعنى: نصبها. ونقول: ضرب فلان عن فلان صَفْحًا، والمعنى: انصرف عنه أو أهمله. ونقول: ضرب فلان لفلان سهما فى ثروته، أى خصص له نصيبا منها. ونقول: ضرب فلان فى سبيل الله: جاهد. ونقول: ضرب الدهر بين فلان وفلان: فرَّقهما. وكذلك نقول: ضَرَب فلان فى الأرض، والمقصود ارتحل وذهب بعيدا... إلخ. وهذا هو المعنى الذى أخذت به بختيار من بين كل تلك المعانى وغيرها لترجمة قوله تعالى: "واضربوهن". فهل هذه ترجمة صحيحة؟ هل قولنا: "اضرب فلانا يا فلان" معناه: اتركه واذهب بعيدا عنه؟ الحق أن ذلك المعنى لا يأتى من كلمة "ضرب" وحدها، بل من عبارة "ضرب فى الأرض" كلها. أما "ضرب فلان فلانا" فلا يمكن أن يكون له معنى غير أنه قرعه بيده أو بعصا مثلا. وقد ترجم لين فى معجمه المذكور هذا الفعل مجردا بـ"strike, beat, smite, hit"، وهو نفس ما قلناه. ثم كيف يدل قوله: "اضربوهن" على الذهاب بعيدا؟ إن لدينا فى الآية الكريمة فعلا متعديا ومفعولا هو الضمير "هُنَّ" العائد على الزوجات. ومعنى هذا أن الضرب يقع على الزوجات.

كذلك فسبب نزول الآية يدل على أن المعنى الذى رفضته لالة بختيار هو المعنى الصحيح. جاء فى "أسباب النزول" للواحدى: "وَقَدْ رُوِى عَنْ مُقَاتِلٍ فِى سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ فِى سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرٍو، وَكَانَ مِنَ النُّقَبَاءِ، وَفِى امْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ أَبِى زُهَيْرٍ. وَذَلِكَ أَنَّهَا نَشَزَتْ عَلَيْهِ، فَلَطَمَهَا، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا مَعَهَا إِلَى النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ: أَفْرَشْتُهُ كَرِيمَتِى، فَلَطَمَهَا. فَقَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِتَقْتَصَّ مِنْ زَوْجِهَا. فَانْصَرَفَتْ مَعَ أَبِيهَا لِتَقْتَصَّ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْجِعُوا. هَذَا جِبْرَائِيلُ أَتَانِى، وَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ. فَتَلاهَا النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: أَرَدْنَا أَمْرًا، وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا. وَالَّذِى أَرَادَهُ اللهُ

تَعَالَى خَيْرٌ". وفى "أسباب النزول" للسيوطى: "أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: جاءت المرأة إلى النبى ﷺ تستعدى على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: القِصَاص. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". وأخرج ابن جرير مِنْ طُرُقٍ عن الحسن، وفى بعضها أن رجلا من الأنصار لطم امرأته، فجاءت تلتمس القِصَاص، فجعل النبى ﷺ بينهما القصاص، فنزلت "ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وَحْيُه"، ونزلت "الرجال قوّامون على النساء". وأخرج نحوه عن ابن جريج والسُّدِّى. وأخرج ابن مردويه عن على قال: أتى النبى ﷺ رجلٌ من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله، إنه ضربنى فأثر فى وجهى. فقال رسول الله: ليس له ذلك. فأنزل الله "الرجال قوامون على النساء... الآية". فهذه شواهد يقوّى بعضها بعضا".

وأيضا من الأدلة على أن هذا المعنى هو وحده التفسير الصحيح ما ورد عن النبى فى هذا الموضوع، إذ نصح المسلمين بقوله: "ألا عسى أحدكم أن يضرب امرأته ضرب الأَمَة؟ ألا خَيْرُكم خَيْرُكم لأهله"، "أَمَا يَسْتَحِى أَحَدُكُمْ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ كَمَا يَضْرِبُ الْعَبْدَ: يَضْرِبُهَا أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ يُجَامِعُهَا آخِرَه؟". وليس هناك تناقض بين القرآن والحديث: فالقرآن إنما جوّز الضرب ولم يوجبه. وفرقٌ بين تجويز الشىء وبين جعله واجبا مفروضا: هذا أولا. وثانيا إن القرآن حين شرع الضرب إنما شرعه بعد استنفاد كل الأساليب الأخرى من وعظ ومخاصمة وما إلى ذلك. فماذا يفعل الرجل بعد هذا كله؟ أما إذا كانت المرأة لا تريد أن تعامَل بهذه الطريقة فهذا حقها، ولكن عليها ألا تنشز على زوجها أو أن تخلع نفسها منه. ومن ناحيته هو فإما أن يقبل التعايش معها على نشوزها وعدم رجوعها عن العصيان الذى لا مسوغ له، وإما أن يطلقها. وإذا آثرت هى الخلع أو الطلاق على أن يؤدبها زوجها فى حالة نشوزها فهى وما اختارت. أما الحديث فيوضح للمسلمين أن تجويز الضرب ليس معناه أنه هو الحل الأمثل، بل عليهم أن يعرفوا أنه لا يُلْجَأ إليه إلا عند الضرورة القصوى وأنه كالطلاق: بغيض رغم مشروعيته. لقد كان بمكنة لالا باختيار أن تقول إنها غير مقتنعة بضرب الزوجة حتى لو كانت من النوع النكد الذى لا يهدأ له بال إلا إذا حول حياة عشيرها جحيما، أما أن تعيث فى النص القرآنى فسادا على هذا النحو فكلا وألف كلا.

وفى تعليقه على الآية التى معنا يقول الشيخ الغزالى: "اتصلت بى إحدى الزوجات تشكو رجلها، وشعرتُ من لهجتها أنها موجَعة حقا وأنها تُـؤْثِر فراقه لولا ظروف قاهرة، فأوصيتها بالصبر كما صبرت امرأة فرعون على عُتُوِّه، وقَبِلَتْ على مضض. قلت: عندما تكون لهذا الرجل أخت متزوجة من رجل عادى فعاملته على أنها "قيصرة"، أو "فرعونة" إن صح التعبير، فما العمل؟ الداهية الأكبر أن تكون ذات برود جنسى. إن جو الأسرة سيكون نكدا. أباح الإسلام العقوبة فى هذه الحال، وتتدرج من الوعظ إلى المقاطعة إلى الضرب،

واشترط ألا يكون الضرب مبرحا وأن يتجنب الوجه. ولم أر فى السنة سببا للعقوبة الأخيرة إلا أن تنشز المرأة وتأبى الإجابة إلى الفراش أو تأذن فى البيت لغريب مريب. وكلا الأمرين خطير كما ترى".

لكن هل يصلح أو يصح أن تُجَرّ المرأة الباردة جنسيا إلى الفراش جرا على هذا النحو؟ ترى هل يمكن أن تغير العقوبة طبيعتها؟ لعل الحل الناجع أن يتزوج الرجل عليها، والراجح ألا تعترض على هذا الحل ما دامت لا تجد فى نفسها رغبة فى معاشرته. أما إن اعترضت وأرادت الانفصال فلينفصلا بدلا من مقاساة تلك العشرة التى تقصِّر العمر، أو فليتحمل الزوج الوضع إذا كان لا يريد فراقها لسبب أو لآخر كأن يكون عنده أطفال لا يريد أن ينشأوا بعيدا عن حضن أمهم. ثم أليس غريبا أن يعاقب الزوج زوجته الباردة جنسيا بإهمالها فى الفراش؟ ألن يكون لسان حالها حينئذ: هذا ما نَبْغِى؟ وبالمناسبة ففى الغرب ضرب للزوجات. لكن أحدا لا يكايدهم بهذا لأن الأقوياء لا يكايَدون.

كذلك ليس الرجال وحدهم هم الذين يضربون زوجاتهم بل هناك زوجات يضربن أزواجهم أو يسيطرن على أمور البيت ويلغين شخصيات أزواجهن. وكثيرا ما يكون الرجل أسدا غضنفرا بين الرجال خارج البيت، ولكنه ما إن يتخطى عتبة البيت إلى الداخل حتى يصير الأسد الغضنفر فأرا مذعورا. وكثيرا ما يستنيم هذا الصنف من الرجال إلى قضائه وقدره داخل البيت، بل وقد يتقبل ما تفعله به زوجته أمام الآخرين. لكن هذا كله لا يغير شيئا من الحكم الإلهى العام القاضى بأن الرجال قوامون على النساء، فالمعروف أن لكل قاعدة شواذ، والشذوذ لا يلغى القاعدة بل يُثَبِّتها.

وثم قضية أخرى تتعلق بالنساء عالجها المفسران الجليلان. ألا هى قضية العدل فى المعاملة من قِبَل الزوج مع زوجاته. يقول د. البهى: "وهذا شأن نفسى مضاف لما تقدم من شؤون النساء، وهو أن يتزوج الرجل أكثر من واحدة ويرغب نفسيا عن بعضهن ويهمل فى العلاقة بينه وبين من يرغب عنهن بحيث تتحول هذه العلاقة إلى مصدر للتعب النفسى للزوجة: فلا هى تحس بأنها بين ذراعيه ولا بأنها مطرودة من محيطه. والله سبحانه يعلم تمام العلم أن الرجل لا يستطيع أن يعدل فى ميوله وعواطفه تمام العدل بين اثنتين فأكثر مهما حرص على ذلك. ولذا هو ينهى الزوج فقط عن أن يكون فى ميله عن واحدة خارجا عن المألوف بحيث هى ترى نفسها معلقة: لا هى زوجة ولا هى غير زوجة، وينصح بالإصلاح بين الاثنين وبالمراجعة للعلاقة بينهما لعل ما يصد الرجل نفسيا عن زوجته يزول بهذه المراجعة. وعند المراجعة يجب أن يبتعد الزوج عما يسيء إلى إحساس زوجته ويتجنب كل ما يثير عندها صور الكراهية لها. فالله نفسه غفور رحيم، والزوج يجب أن يتأسى بصفات المولى ﷻ فى الغفران والرحمة. والإصلاح أو المراجعة التى تنصح بها هذه الآية من العوامل المهمة التى تجدد

علاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، وتزيل أسباب الكراهية التى تكون عند الزوج بالنسبة لزوجته أو العكس. فقد تكون هذه الأسباب هينة وتافهة، وقد تكون عادات يمكن تغييرها فى يسر، وقد تكون اختلافا فى التوجيه من السهل التغلب عليه فى فترة قصيرة".

ولعل أول ما يلفت النظر فى كلام الأستاذ الدكتور هو قوله إنه لا ينبغى أن يكون الزوج فى ميله عن إحدى زوجاته خارجا عن المألوف بحيث ترى نفسها معلقة: لا هى زوجة ولا هى غير زوجة. فالدكتور البهى إذن لا يرى أن استحالة العدل المطلق بين الزوجتين أو الزوجات تمنع من التعدد، بل يرى أنه قد يكون هناك ميل ناحية زوجة معينة على حساب غيرها، وأن هذا لا يعنى أن التعدد ممنوع، بل المهم ألا يكون الميل حادا وظالما ويؤدى إلى إهمال الزوجة أو الزوجات الأخريات وكأنهن مطلقات رغم أنهن لا يزلن على ذمته. أما الشيخ الغزالى فقد قفز فوق هذه القضية ولم يلمسها مجرد لمس ككثير من القضايا الأخرى. وأذكر أن هناك من المنتسبين إلى الإسلام من يتخذ من قوله تعالى: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانُكم" وقوله سبحانه فى نفس السورة: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم" دليلا على أن التعدد مرفوض فى الإسلام ما دام العدل غير ممكن التحقق، وهو شرط فى الآية الأولى.

وقد تناول تفسير "المنار" هذا الموضوع لدن تفسيره للآية الأخيرة وبَيَّن أن هذا فهم خاطئ، فقال: "يظن بعض الميالين إلى منع تعدد الزوجات أنه يمكن أن يستنبط من هذه الآية وآية "فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً (النساء/ ٣) أن التعدد غير جائز لأن من خاف عدم العدل لا يجوز له أن يزيد على الواحدة، وقد أخبر الله تعالى أن العدل غير مستطاع، وخبره حق لا يمكن لأحد بعده أن يعتقد أنه يمكنه العدل بين النساء. فعدم العدل صار أمرا يقينيا، ويكفى فى تحريم التعدد أن يخاف عدم العدل بأن يظنه ظنا، فكيف إذا اعتقده يقينا؟

كان يكون هذا الدليل صحيحا لو قال تعالى: "وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ" ولم يزد على ذلك، ولكنه لما قال: "فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ"... إلخ عُلِم أن المراد بغير المستطاع من العدل هو العدل الكامل الذى يحرص عليه أهل الدين والورع كما بَيَّنَّاه فى تفسير الآية، وهو ظاهر من قوله: "وَلَوْ حَرَصْتُمْ". فإن العدل من المعانى الدقيقة التى يشتبه الحد الأوسط منها بما يقاربه من طرفى الإفراط والتفريط ولا يسهل الوقوف على حده والإحاطة بجزئياته، ولا سيما الجزئيات المتعلقة بوجدانات النفس كالحب والكره وما يترتب عليهما من الأعمال. فلما أطلق فى اشتراط العدل اقتضى ذلك الإطلاق أن يفكر أهل الدين والورع والحرص على إقامة حدود الله وأحكامه فى ماهية هذا العدل وجزئياته ويتبينوها كما تقدم آنفا، فبيَّن لهم سبحانه فى هذه الآية ما هو المراد من العدل وأنه ليس هو العدل الكامل الذى يعمّ أعمال القلوب والجوارح لأن هذا غير مستطاع ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

نعم إن فى الآية موعظة وعبرة لمن يتأملها من غير أولئك الورعين الحريصين على إقامة حدود الله وأحكامه بقدر الطاقة، لمن يتأملها ويعتبر بها من عُبَّاد الشهوات والأهواء الذين لا يقصدون من الزوجية إلا تمتيع النفس باللذة الحيوانية المؤقتة من غير مراعاة أركان الحياة الزوجية التى بينها الله تعالى فى قوله: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً" (الروم/ ٢١) ولا مراعاة أمر النسل وصلاح الذرية، أولئك السفهاء الذين يُكْثِرون من الزواج ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. يتزوجون الثانية لمحض الملل من الأولى وحب التنقل، ثم الثالثة والرابعة لأجل ذلك، لا يخطر فى بال الواحد منهم أمر العدل ولا أنه يجب لإحداهن عليه شيء. وقد ينوى من أول الأمر أن يظلم الأولى ويهضم حقها، ولا يشعر بأنه ارتكب فى ذلك إثما ولا أغضب الله واستهان بأحكامه. وبين هؤلاء وأولئك قوم يزعمون أنهم على شيء من الدين ومراعاة أحكامه يظنون أن العدل بين المرأتين أمر سهل، فيُقْدِمون على التزوج بالثانية والثالثة والرابعة قبل أن يتفكروا فى حقيقة العدل الواجب وماهيّته.

ألا فليتق الله الذوّاقون! ألا فليتق الله المترفون! ألا فليتفكروا فى ميثاق الزوجية الغليظ وفى حقوقها المؤكدة! ألا فليتفكروا فى عاقبة نسلهم ومستقبل ذريتهم! ألا فليتفكروا فى حال أمتهم التى تتألف من هذه البيوت المبنية على دعائم الشهوات والأهواء وفساد الأخلاق والذرية التى تنشأ بين أمهات متعاديات وزوج شهوانى ظالم! ألا فليتفكروا فى قوله تعالى: "وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورا رحِيما"! وليحاسبوا أنفسهم ليعلموا: هل هم من المصلحين لأمر نسائهم ونظام بيوتهم أم من المفسدين؟ وهل هم من المتقين الله فى هذا الأمر أم من المتساهلين أو الفاسقين؟".

ويمكن أن نضيف إلى ما قاله الشيخ رشيد رضا أن الرسول والصحابة قد عدَّدوا. فهل من الممكن الزعم بأنهم قد خالفوا أمر القرآن أو أنهم قد أخطأوا فهم مرامى آياته؟ ألا إن هذا لأمر مضحك لا يقول به مسلم ولا عاقل. كذلك من المعروف أنه فى عالم البشر لا توجد مُطْلَقَاتٌ بل أمورٌ تقريبية. وقد قال الرسول عليه السلام فى ذلك: "إن الدّينَ يُسْرٌ، ولن يُشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقارِبوا". وما لا يُدْرَك كله لا يُتْرَك كله. وكما قال الشاعر: "وعليَّ أن أسعى، وليس عليَّ إدراك النجاح". ولو اعتمدنا مقياس المُطْلَقات مقياسا لقبول أى عمل بشرى أو رفضه لتم رفض كل منجزات البشر، إذ عالم البشر هو عالم النقصان، ولا يحصل أحد فيه على الدرجة النهائية بحذافيرها، وبالذات فى عالم المعنويات من أفكار وعواطف وما أشبه. وعلى كل حال فقد حسم الرسول ﷺ أمر العدل بين الزوجات فى الحديث التالى. فعن عائشة رضى الله عنها "أنَّ النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقْسِمُ بين نسائِه فيَعْدِل ويقول: اللَّهمَّ هذا قَسْمى فيما أملِكُ، فلا تلمْنى فيما تملِكُ ولا أَمْلِكُ". فإذا كان هذا هو

جهد رسول الله ﷺ فهل يظن ظان أن غيره يمكن أن يحقق بين زوجتيه أو زوجاته العدل المطلق؟ كذلك لا يعقل أن يبيح الله سبحانه الزواج بأكثر من واحدة إلى أربع فى آية ثم يعود فيحرّمه فى آية أخرى من ذات السورة دون أن يكون قد حدث شيء استدعى هذا التطور، وبخاصة أن الأمر متعلق بالطبيعة البشرية، والطبيعة البشرية لا تتطور. إن هذا أشبه بمن يعطيك شيئا باليمين ثم يستدير فيسترده منك بالشِّمال دون أن يكون قد وقع منك ما يستدعى هذا الانقلاب، إنما هى نزوة، والسلام. وعلى هذا فالعدل المطلوب فى الآية الأولى هو العدل المادى: فى النفقة والمبيت والمعاملة وما إلى ذلك، وهو عدل ممكن التحقق، أما العدل المقصود فى الآية الثانية، العدل الصعب التحقق، فهو العدل فى العواطف المستكنّة فى أطواء القلوب. وهذا أمر مَعْفُوٌّ عنه. فقلب المؤمن، وكذلك قلب غير المؤمن، بين إصبعين من أصابع الرحمن. قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "ما مِن قلبٍ إلا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ: إنْ شاء أقامه، وإنْ شاء أزاغه".

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة – غربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

عنترة بن شداد– قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى– مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه – دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين– دراسة نقدية لرواية "العار"

القرآن والحديث– مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
مُحَمَّد لطفى جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع – قراءة نقدية
لكن مُحَمَّدا لا بواكى له– الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون
مناهج النقد العربى الحديث
دفاع عن النحو والفصحى– الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
الفرقان الحق– فضيحة العصر
لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
التذوق الأدبى
الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"
المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية
سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب– فصول مترجمة ومؤلفة
"تاريخ الأدب العربى" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)
الأسلوب هو الرجل– شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه
فنون الأدب فى لغة العرب
الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)
فى الأدب المقارن– مباحث واجتهادات
مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)
فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام
بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)
دراسات فى النثر العربى الحديث
"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب– قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)
مسير التفسير– الضوابط والمناهج والاتجاهات

"الأدب العربى– نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد– الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية– نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف والأدب الصوفى

النساء فى الإسلام– نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطى المدنى– الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)

محاضرات فى الأدب المقارن

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى

أفكار مارقة– قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين– مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود– النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

عبد الحليم محمود– صوفى من زماننا

د. ثروت عكاشة– إطلالة على عالمه الفكرى

ثروت عكاشة بين العلم والفن

إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات– قراءة فى كتابه: "النضال من أجل الاستسلام"

دراسات فى اللغة والأدب والدين

"مدخل إلى الأدب العربى" لروجر ألن– عرض وتقويم

على هامش كتاب جوزيف هل: "الحضارة العربية"

ابن رشد– نظرة مغايرة

تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى

الفهرست

رقم الإيداع
٥١٧٩/ ٢٠٢٠